فضاءات
للنشر والتوزيع

رواية

حياة.. حينانا

حسين السكاف

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
2021/5/2676

813.03
السكاف، حسين
حياة حينانا – حسين عزيز السكاف – عمان: دار فضاءات، 2021
الواصفات: /الراوايات العربية//الادب العربي//العصر الحديث/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9923-36-159-7

فضاءات
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: 2021
جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق
حياة حينانا – حسين عزيز السكاف – العراق
دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website:http://www.fadaat4publishing.net/

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: فضاءات للنشر والتوزيع
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

حسين السكّاف

حياة.. حينانا

رواية

مكتبة
د. محمود عبد العزيز العاني

إلى كل مَنْ

اكتشفتْ سحر عالمها النديّ،

أمام مرآة،

وهي تستنشق رائحة الحرب...

وقفَ أمامي بوجهٍ شاحبٍ، أفزعني...

وقفَ محدقاً بي مُسبلاً ذراعيه دون حركة، حتى الحدقتان كانتا جامدتين، وكأنه جثة معدة للدفن بوضع الوقوف.

تمسكتُ بدرفة الباب خشيةَ السقوط، بعد أن فتحته بفرح، وابتسامتي ترتسم على وجهي مبتهجةً بعودته، كما كنتُ أظن. لكن، ما أن وقع نظري عليه حتى غاب فرحي مهزوماً أمام فزعي، ارتعد جسدي وتلبستني حيرة وذهول، وحين طال انتظار التحديق، تحركت شفتاي طالبةً منه الدخول.

ظلَّ على وقفتهِ ساهماً، محدقاً دون أن يتحرك به شيءٌ، وحين كررتُ عليه دعوتي بالدخول إلى بيتي، أنشد بصوتٍ مكسورٍ لا تنقصه ارتعاشة البطل المهزوم:

"ما أنتِ إلا مَوقد سرعان ما تخمد ناره في البرد

أنتِ باب لا ينفع في صدِّ ريح عاصفة

أنتِ قصرٌ يتحطم في داخله الأبطال

أنتِ بئر تبتلع غطاءها

أنت حفنةُ قيرٍ تلوِّث حاملَها

أنت قربةُ ماء تبلِّل صاحبها...

أنت حذاء تقرص قدم منتعلها...

____

____

فأيّ من عشّاقك أحببتِ إلى الأبد؟
وأي من رعاتك مَن طاب لك على الدوام؟
تعالي أسمِّ لك عشّاقك..."[1]

―――――――――――――――――

―――――――――――――――――

"هل تريدين حقاً أن أُسمي لكِ عشّاقكِ؟
هل تريدين حقاً أن أُسمي لكِ ضحاياكِ؟
اُنظري إليَّ... أنا كلّهم...
كلُّ جراحاتهم... دموعهم
أنا ... أنّاتهم..."

"وداعاً"...

ثم استدار وغادر. كنتُ أحسبه يمزح، كنتُ أحسبه سيعود ضاحكاً بعد بضع خطوات، لكنه غاب، وبقيتُ ألوك ذهولي بابتسامة رطبة تذوقتْ ملح مَطرها الدامع.

---

[1] ملحمة گلگامش، وقصص أخرى عن گلگامش والطوفان – طه باقر – دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد – الطبعة الرابعة، 1980، ص112–113 .

غالبًا ما تُشكل الدهشة،

نغمة مبهجة، داخل إيقاع الروح...

سِفر الدهشة

(1)

كنتُ في الخامسة من عمري، حين دخلتُ عالم الذهول للمرة الأولى، أنا الابنة البكر، الهادئة جداً كما كانت أمي تردّد على مسامع الأقرباء، وكنتُ كلما سمعتُها تردّد ذلك، ازددتُ هدوءاً، لأنني تصورت أن الهدوء ميزة الأطفال المنعّمين بالحب والرعاية من قِبل الكبار، "سيحبني الجميع". كنتُ أردّد بداخلي.

استيقظتُ من نومي ليلاً، وبهدوء أدرتُ وجهي صوب سرير والديّ لأطلب شربة ماء، لكنني ذُهلت حين شاهدتُ أمي تجلس على جسد أبي وهي ترتفع وتنخفض بهستيريا... أصابني الرعب وتحكمتْ فكرة موت أبي على عقلي للحظات. تصورتُ أن أمي تحاول عامدةً قتل أبي، لكن الفكرة تبددت، حين سمعتُ أبي يطلب منها المزيد من الحركة، وتنبهتُ، أن رائحة الغرفة قد تغيرت، فقد غزتها رائحة تقترب من رائحة جسد أبي ولكن بكثافة أكبر أو لعلها اختلطت برائحة أخرى.

كانت أمي عارية تماماً وثدياها يلاحقان اهتزاز جسدها بكل إخلاص... امتدّت يد أبي على أحد النهدين، فطلبتْ منه أمي أن يعتصره أكثر... إنهم يلعبون حتماً، هكذا فكرتُ، وشعرتُ بجسدي المنكمش خوفاً قد بدأ نوبة استرخاء، لكنَّ ألماً غريباً، ونبضاً متسارعاً شعرتُ به بين فخذي، حتى سبحتُ ببولي وأغمضتُ عينيّ، وأنا أسمع لهاث وكلمات والديَّ حتى انتهت "اللعبة" وصارا بعد لحظة صمت، يتكلمان بهدوء، ولهاث حميم...

تلك الرائحة، علقتْ في ذهني ومخيلتي. أصبحت ضمن نسيج عقلي وجسدي حتى توحدت روحي معها.

في نهار اليوم التالي، أخذتُ دميتي التي اشتراها لي أبي، ودخلتُ الغرفة. توجهتُ نحو سرير والديَّ. خلعتُ ملابسي، ثم امتطيت الدمية وصرتُ ألعب لعبة والديَّ التي شاهدتها ليلة أمس... صرتُ أردّد بعض كلمات والدتي التي تأوهتْ بها أمس بمصاحبة اللهاث، الحقيقة لم تكن اللعبة ممتعة، لكنني استمريت بها، حتى سمعت صرخة والدتي وهي تدخل الغرفة، صرخة هستيرية لم تنقطع إلا حين صارت ظفائري بين قبضتيها وصارت تهز رأسي بعنف وهي تلعنني وتتهمني بالفجور... كلمات لم أكن أفهم لها معنى، ولكنني فهمتها بعد حين... وشعرتُ بالقرف.

صرتُ أصرخ باكية والفزع يتلبسني، حينها، أيقنتُ أن أمي تريد قتلي. صرتُ أتوسلها: "ماما لا أريد أن أموت..." يبدو أن أمي قد انتبهت لفزعي، فتركت شعري وهبطتْ على جسدي ضرباً بفردة نعالها، ولا أدري كم امتد زمن ذلك، فقد عرفتُ فيما بعد، بأنني دخلت نوبة إغماءة نقلوني على إثرها إلى المستشفى.

منذ ذلك اليوم والليلة التي سبقته، والتي كانت أمي فيها تمتطي والدي، سيطرتْ على ذهني صورة أبي بهيئة القتيل، وصارت والدتي عنوان موت، ذلك ما ترسّخَ في عقلي وآمن به. صرتُ أخاف على أبي، أتلهف عودته إلى البيت سالماً، أحتضنه ولا أفارقه طوال اليوم، أتحسس وجهه، أشمهُ، أداعب كرشه الجميل بأصابعي، وأنا أسأله إن كان بالإمكان أن يبقى في البيت ولا يخرج أبداً. كان يضحك ويحاول إفهامي بأن خروجه ومباشرته لوظيفته، يعني أن نعيش سعداء، والعمل وكسب المال هو أساس السعادة.

صرتُ أطلب منه النوم إلى جانبي حين يسيطر عليَّ النعاس، خصوصاً بعد أن صرت أنام بغرفة خاصة بي، وكان ذلك مقترح والدتي، فقد عرفتُ أن أمي قد طلبتْ من والدي الموافقة على أن تكون الغرفة الثانية "غرفة جدي"، والد أبي، الذي مات منذ ثلاثة أشهر، تماماً بعد يومين من شيوع

خبر وصول الإنسان إلى سطح القمر، والذي عرفتُ برحيله معنى الموت للمرة الأولى في حياتي، غرفة خاصة بي، بعد أن شرحتْ له أمي تفصيل ذلك النهار الذي غبتُ فيه عن وعيي نتيجة الضرب والفزع. وافق والدي على طلبها، بعد أن وافقت أمي على الامتناع نهائياً عن ضربي، مهما كان السبب، وإن فعلت، أقسمَ لها بأنه سيُطلّقها، وأعتقدُ أنها المرة الأولى التي ينطق بها والدي تلك الكلمة "الطلاق" التي هزّت كيان أمي اليتيمة والتي ليس لها من يحنّ عليها سوى أبي كما كانت تردّد في بعض المواقف الخاصة، فوافقتْ على الفور، ولكنها مرضت لأسبوع كامل ولا أحد يعرف سبباً لمرضها، إلاّ والدي.

عرفتُ بعد فترة من شفاء أمي، أنها تحمل في رحمها طفلاً آخر، وأن أبي باشرَ ببناء بيت جديد لنا في المنطقة المجاورة لمنطقتنا. منذ ذلك الحين صار والدي يحدثني عن أهمية الأخوة، وعن ضرورة البيت الجديد الذي سيتسع لعائلة كبيرة، فالمستقبل يعني أن عائلة كبيرة ستتكون، يزداد عدد الأطفال فتزداد الحاجة إلى أماكن مريحة لهم، ولكنه كان يشدد بين جملة وأخرى على أنني البنت الكبرى، وأنا من ستكون كبيرة العائلة والراعية لإخوتي أو أخواتي.

***

صرت أشاكس أمي، وأدعي الصمم حين تكلمني أو تنادي عليَّ، وكنتُ نادراً ما ألبي لها طلباً. وأحياناً أعمد على الاختفاء عن ناظريها، حتى لا تكلمني او تُسدي إليَّ النصائح أو تأمرني لإنجاز عمل ما، وازدادت حالات المشاكسة بعد أن دخلت المدرسة، وصرتُ أتحجج بالقراءة والرسم طيلة غياب والدي عن البيت، وحين يأتي من الجامعة، حيث كان أستاذاً هناك، كنت ألتصق به حتى يحين موعد نومي، فأغفو في حجره ليحملني إلى غرفتي، "غرفة جدي".

كانت مشاكساتي تثير غضب والدتي إلى درجة الهيستيريا، وكلما ازدادتْ غضباً، ازددتُ بهجة وفخراً، كنتُ متمسكة بكلمة والدي لها:

"إن ضربتِها ثانية، سأطلّقكِ"

كانت تلك الجملة التي أدخلتني عالم التحدي مع العديد من البشر، هي نقطة التحول الأولى في حياتي.

حين انتقلنا إلى بيتنا الجديد كانت أمي قد ولدت أخي الصغير الجميل "ليث" منذ ثلاثة شهور، وكنتُ قبل يوم الانتقال قد زرت البيت الجديد بصحبة والدي، كان بيتاً رائعاً بطابقين وحديقة لم تُزرع بعد. حين تجولتُ ووالدي داخل البيت، طلب مني اختيار الغرفة التي أرغب. كانت هناك أربع غرف كبيرة، اثنتان في الطابق الأرضي ومثلهما في الطابق العلوي، حين وصل طلب والدي بخصوص اختيار الغرفة إلى مسامعي، قلتُ مشيرة إلى إحدى غرف الطابق الأرضي: "هنا تكون غرفة جدي..." لم يستوعب والدي ما قلته للوهلة الأولى، ولكنه سرعان ما أطلق ضحكة مسموعة ملؤها الفرح، وأشار موافقاً وطبع قبلتين على وجنتيّ. فتشجعتُ وأشرتُ له إلى الغرفة المقابلة طالبة منه أن تكون غرفتهُ وأمي كي أكون قريبة منه، ازداد فرحاً وأخبرني بأنها بالفعل ستكون غرفتهما.

***

انتقلنا لبيتنا الجديد لأعيش أجمل احتفال عائلي ذي نكهة خاصة لا تنقصه الحميمية... توافد علينا العديد من الأقارب والأصدقاء والجيران وهم يحملون الهدايا ويباركون لنا بيتنا... كانت والدتي دون أن تمل أو تكل تتجول بمعية الضيوف في أروقة البيت لتريهم تفصيلاته وزواياه ومرفقاته.

تكدست في إحدى غرف الطابق العلوي العديد من الهدايا، إلا أن هدية واحدة صار لها الأثر الكبير في حياتي، حيث أهدتنا عمتي "غنوة" الأرملة منذ سنوات، مرآة رائعة بطول مترين وبعرض يقارب النصف متر، قالت

إنها مرآة "أنتيكة" عمرها أكثر من خمسين عاماً، كان قد أهداها صائغ صابئي شهير إلى زوجها بمناسبة زواجهما. كانت المرآة باطار معدني رمادي مائل إلى السواد، ومنقوش عليه زخارف نباتية توحي وبشكل مدهش إلى حرفة ومهارة صانعها... اقترح والدي الذي كان يعرف المرآة جيداً، ويعرف قصتها وأهميتها، كونه كثير الزيارة إلى بيت أخته، خصوصاً بعد وفاة زوجها الذي ترك لها طفلهما الوحيد يتيماً، اقترح أن تكون في غرفتي كونه يمتلك مرآة مشابهة لها بالحجم فقط في غرفة نومه، وأخرى أصغر بقليل على أحد أبواب خزانة الملابس ذات الخمسة أبواب، لكن والدتي اعترضت، مما زاد في تمسكي باقتراح وفكرة والدي، وكان لي ما أردت.

***

عمتي "غنوة" الجميلة السمراء واسعة العينين، كحيلتهما، كانت قد تزوجت من زميل لها في الدراسة الجامعية. عاشت معه قصة حب "أنيقة" -على حد تعبيرها – طيلة الأعوام الجامعية الأربعة، كانت قد توظفت وزوجها بعد حصولهما على شهادة البكالوريوس في الهندسة الزراعية، بوزارة الزراعة، وكان مكان عملهما يقع في الضواحي الريفية التابعة للعاصمة، وفي أحد الصباحات، عندما كان زوجها في طريقه إلى عمله، ولم تكن عمتي معه، حيث كانت تجالس ابنها "ظافر" المريض ذا الخمس سنوات، صدمت شاحنة حمل كبيرة سيارة أبي ظافر ليفارق الحياة على إثرها. تلك الحادثة كانت الصدمة الكبرى التي حلت على العائلة، فقد ترمّلت عمتي وهي في ريعان شبابها، بعد ثلاثة أشهر ولدتُ أنا، وكان والدي الذي تمنى طيلة حمل والدتي أن يرزق ببنت، قد تمنى بعد موت زوج شقيقته أن يرزق بصبي كي يحمل اسمه لفرط المحبة التي كان يكنها له. لكن الأمنية الأولى كانت هي الغالبة فخرجتُ أنثى، لذا فكَّرَ والدي بلعبة بسيطة على الأحرف فتحوَّلَ اسم "حيّان" زوج عمتي إلى "حياة" بتغيير بسيط في الحرف الأخير من الاسم، وبهذا صارت عمتي "غنوة" تتلمس

روح زوجها بوجودي... حتى اللحظة، لا أعرف من أين أتتها الفكرة، بأن روح زوجها قد تحولت إلى طفلة جميلة اسمها حياة، وأن زوجها يعيش بروحي وجسدي!!

***

أرادت أمي شراء أثاث غرفة جديدة لي، لكنني رفضت، طالبة منها ومن والدي نقل جميع أثاث غرفة جدي إلى غرفتي الجديدة حيث بيتنا الجديد، وحين سألني والدي عن السبب، قلت له بأنني لا أريد فقدان رائحة جدي التي يحتضنها أثاث الغرفة، فهي التي تجلب لي السعادة أثناء نومي، من المؤكد أنني لم أقلها بهذا العمق حينها، ولكنني أتذكر جيداً بأنني قلت: "رائحة الغرفة تساعدني على النوم". دمعتْ عينا والدي، بينما احمرت عينا والدتي غضباً. وما أن نقلنا أثاث غرفة جدي إلى غرفتي الجديدة حتى صرنا نطلق عليها "غرفة جدي" خصوصاً والدي الذي ظل متمسكاً بالتسمية لسنوات طوال، كان يقول "غرفة جدي" هكذا، وبكل عفوية.

بعد سنوات قليلة، ظهرت نقطة التحول الثانية التي اكتشفتُ حلاوتها وسحرها على الآخر فيما بعد. كانت نقطة تحول مصحوبة بألم جميل، حين بدأت حلمتاي تتورمان، وصار صدري يمتلك نتوأين حسبتهما مشروع جناحين سأحلق بهما عالياً، وكان لي ما تمنيت.

إلا أن قطرات الدم القليلة التي اكتشفتها في لباسي الداخلي، أرعبتني، وضاعفت اشمئزازي من أمي، فحين أخبرتها، راحت تضحك، ثم أطلقت زغرودة مجلجلة وقالت لي: "مبروك حبيبتي، لقد كبرتِ وأصبحتِ مثلي، امرأة كاملة..." أفزعتني كلمتها، "مثلها؟... هذا مستحيل!!" ثم راحت تشرح لي كيف أنني صرتُ امرأة ناضجة، وتلك القطرات ما هي إلاّ العلامة الأكيدة، ثم صمتت قليلاً وهي تنظر إليَّ بفرح قلق، حتى قالت

مشيرة إلى ضرورة تقديم الشكر لها كونها ولدتني أنثى مثلها يحبها الرجال ويتذللون لها... ازداد اشمئزازي منها، وحين سمعت كلماتها الأخيرة، صرختُ في وجهها: "لا أريد رجالاً يحبونني ويتذللون لي، أريد بابا فقط... بابا كل الرجال".

"ستجدين مثله، وربما أفضل" قالت أمي كلمتها، فصُعقتُ، ولا أدري كيف رددت عليها:

"أغلقي فمكِ، ولا تقولي هذا مرة أخرى، مئة امرأة مثلك، لا تساوي عندي إصبعًا من قدم بابا".

كانت تلك الجملة، قد أدخلتني أظلم دهليز عشته بمرارة لفترة قاسية، فقد خاصمني أبي بعد أن حكتْ له أمي ما حدث بالتفصيل. صار يبعدني كلما اقتربتُ منه، وامتنع عن تقبيلي وضمي إلى صدره، وكان يردد على مسامعي: "التي لا تحترم أمها، لن تحترم أحداً..." فانزويت بعد أن كلّت كل محاولاتي في الاعتذار من أبي والتقرب إليه، انزويتُ في غرفة جدي، التي صار يشاركني فيها أخي الأصغرُ "ليث" ذو السبع سنوات بقرار من أمي التي قررت معاقبتي بمشاركة ليث غرفتي. الحقيقة لم أشعر بذلك القرار على أنه عقوبة، فأنا أحب "ليث" جداً، ولكن العقوبة الحقيقية كانت في تنفيذ قرار ورغبة أمي... لقد كان ليث يشكل لي زاوية فرح، هو الذي أخرجني منذ ولادته من أرجوحة الطفولة، حيث بتُّ أعتني به حين انشغال أمي في أعمال البيت، ثم إنه هادئ وجميل، وفي فترة العقوبة كان لا يدخل غرفتي إلا وهو نائم محمولاً على ذراعي أحد والديَّ.

في عزلتي تلك، وأنا أدوّن باكيةً في دفتري الصغير "الدفتر الصديق" شكوى لوعتي وحنيني لأبي، وغضبي من أمي، كنتُ أستحضر شخصية جدي المحببة لي، أحادثه، أشكو له جفاء أبي، وصرت أستعيد كلماته

ونصائحه التي كان يسديها لي وأنا طفلة صغيرة... حتى صرت أنام على إيقاع صوته الهامس وهو يغني لي تلك الأغنية ذات الإيقاع الرتيب التي طالما غفوت على طبطبات كفه وهو يساير إيقاع الأغنية، لدرجة أن رائحة التبغ "الزكية" التي كانت تصاحب أنفاسه وهو يغني لي، صارت تصلني خفيفة كالنسمة، حينها، أعرف أنني قد دخلت حالة الوسن، وأن كلمات جدي المنشدة تصير أشد وضوحاً.

نامي يا "حياتي"

النخلُ يعشق الفخاتي...

وإن كنتِ لا تعلمين

فإن الحياة مسرعة

ولا تسير... تاتي... تاتي

نامي يا "حياتي"...

لم يدم زعل والدي عليَّ أكثر من أسبوع، ففي أحد الصباحات، وكنت قبل ذلك قد رأيت جدي في حلم جميل، أعتقد أنه كان السبب في استيقاظي المبكر بعض الشيء. اهتديت إلى فكرة خبيثة من شأنها أن تنهي الخصام بيني وبين والدي.

استعديتُ لتنفيذ الفكرة. حبستُ أنفاسي وأنا أقف خلف الباب الموصد، ثم سمحتُ لدموعي بالإنهار، وما أن تأكدتُ من ذلك، حتى فتحت باب الغرفة وهرعت باكية صوب أبي، الذي اتضح لي بأنه قد استيقظ منذ دقائق، فقد رأيته واقفاً وسط الغرفة، يروم استبدال ملابس النوم بملابس الخروج. ارتميت عليه باكية وأنا أردد: "بابا، حلمت بجدي، رأيته في الحلم وقد أسمعني عدة كلمات..." حاول والدي إدخال الهدوء إلى روحي، وصار يربت على ظهري وهو يحتضنني، استنشقتُ

رائحة جسده بسعادة غامرة: "يا الله ما أسعدني، لقد عدت إلى حنان والدي مرة أخرى" رددتُ تلك الجملة في سرّي، وكلمات والدي المطمئنة تصل مسامعي... ثم حاول إبعاد وجهي عن صدره حتى يتمكن من النظر إلى عينيّ، وحين التقت نظراتنا سألني: "ما الذي قاله لكِ جدك؟".

شعرتُ أن الفرصة أصبحت مواتية، فقلت: "لم يقل الكثير، قال: قولي لأبيكِ كفى... كفى... لم تقترف البنت ذنباً...".

ابتسم والدي بوجهي ثم احتضنني مرة وأخرى، وسألني: "هل هذا كل ما قاله جدكِ لكِ؟" هززت رأسي وأنا متمسكةً بالتصاق وجهي على صدره. أطلق ضحكة مسموعة، ثم أبعد رأسي عنه، وقبلني، ثم قال: "صباح الخير حياتي...".

جملة رفعتني نحو السماء، خصوصاً كلمة "حياتي" التي كان يناديني بها بدلاً من "حياة". فرحي الغامر حينها رسخ في ذهني أهمية الكذب وسحره في حلّ أعقد المشاكل، وبأسط الطرق.

***

منذ تلك اللحظة، صار الكذب، عنواناً لسعادتي.

***

صرتُ أعاقب أمي بأكاذيب عديدة، خصوصاً فترة الليل، حين أتصور أنها ستمتطي والدي... كنت أهرع باكية إلى غرفتهما، أو أصرخ وأنا في غرفتي منادية على أبي كي يحتضنني، وينام إلى جانبي لأن الخوف قد تمكن مني كما كنت أدعي، وأحياناً أخرى أدَّعي بأنني رأيت حلماً كابوسياً... كنتُ أشعر بعدم تصديق أمي لأكاذيبي، وذلك ما جعلني أمارس الكذب بمتعة خاصة...

كنتُ أتعمّد إسماعها أكاذيب مفضوحة... فكانت تستشيط غضباً، لكن، بصمت، وذلك ما كان يمنحني السعادة والشعور بالسلطة.

حين نما كنزي الثمين وصار واضحاً للعيان، دعتني أمي للدخول إلى غرفتها، وحين أغلقتُ الباب ورائي حسب طلبها، طلبتْ مني خلع فستاني وهي تناولني حمالة صدر "سوتيان" جديدة بلون جسمي تقريباً، وطلبتْ مني الانتباه كونها ستعلمني كيف أرتديه، شعرتُ بأنها تقدم لي أغلالاً ستقيدني طيلة حياتي القادمة، فرفضت حين سيطر عليَّ ذلك الشعور، لكنها التزمت الهدوء وطلبتْ مني الجلوس حيث السرير، وصارت تشرح لي أهميته وأثره الصحي على الظهر وعلى قوام الفتاة ومظهرها، فاقتنعت، ولكن رغبة المشاكسة تأججتْ في داخلي فقررتُ عدم القبول بسهولة، فقلت لها بأنني لا أرتدي ملابس داخلية ملونة، يجب أن يكون لونه أبيض، ابتسمتْ واتجهتْ صوب خزانة ملابسها وأخرجت لي توأم السوتيان الأول ولكن بلونٍ أبيض، وقالت بأنها على دراية بمشاكساتي لها لذلك اشترت لي ألوانًا مختلفة كان الأبيض من ضمنها... فيما بعد لبستُ جميع الألوان، ولكن، بغيابها.

حين خلعتُ فستاني، وأنا داخل غرفتي، وقفتُ أمام مرآة عمتي "غنوة"، أنظر إلى جسدي الذي صار أنثوياً مغرياً، بالسوتيان الأبيض الذي ألبستني أمي إياه. بدأتُ أتلوى أمام المرآة ناظرة إلى جسدي متحسسة نهديّ الكاعبين، بالحلمتين الورديتين: "حبتا العنب الشهيتان، لا يراهما إلا زوجكِ في ليلة عرسكِ..." قالت لي أمي مازحة قبل أن تلبسني السوتيان، وقرصتْ الحبة اليمنى، ثم أطلقتْ ضحكة يكتنزها الفرح الغامر وأضافتْ: "أصبح البيت يضم امرأتَيْن جميلتَيْن... ألا ترينني جميلة يا حياة؟" هززتُ رأسي موافقة، وحين لاحظتُ علامة لبداية امتعاض على ملامحها، قلت: "ليس هناك أجمل منكِ، لذلك تزوجكِ أبي...".

أدرت جهاز التسجيل فانطلقت الموسيقى ورحت أرقص رقصة المندهشة بجديدها، تحسستُ أجزاء جسدي بفرحٍ غامرٍ، وكانت بعض اللمسات تداعب مشاعري فأعدتُ اللمسة تلوَ الأخرى إليها، حتى وصلت إلى الكنز، داعبته بحركات متكررة منحتني لذة لم أشعر بها من قبل، فتدفق المكنون للمرة الأولى وارتعد الجسد، "هل الأرض تتمايل؟"... "هل أموت بعد لحظة؟"... "ما الذي يحدث؟"... شهقتُ طالبة المزيد من الهواء، وشعرت بسرب فراشات يرفرفن بفرح داخل قفصي الصدري، تحت القلب تماماً... ارتعد الجسد، ونشفت شفتاي، فسارعت إلى ترطيبهما بلساني لأكثر من مرة... نزت حبيبات العرق على جسدي المرتجف... نظرتُ إلى المرآة فشاهدتُ كتلة من السعادة... ثم رأيتني فتاة أخرى، أكثر جمالاً ونضارة، بعد أن صحوت من سحر اللحظة...

"بلغتْ أنوثتي سن الرشد، وصارت مخيلتي قادرة على انتخاب من يُجلسها على كرسي الدهشة"

منذ تلك اللحظة صارت المرآة صديقتي الحميمة، هي التي تكتشف معي أسرار الجسد وفتنة المرأة التي تعرف كيف تصنع من مفاتنها مرآة في عيون الرجال لتعكس لها لهفة ذكورية تناشد الامتلاك.

صباحاً، توجهتُ إلى مدرستي، شعرتُ أن خطواتي قد اختلفت، وأن انتصاب جسدي صار أكثر ثقة بفعل السوتيان وهو يحتوي النهدين النافرين، وكأنني أقول للمارة "انظروا لقد أينعت الثمار"..

في المدرسة، وقبل أن يحين الدرس الأول، تحسس بعض صديقاتي صدري، وأبدين إعجابهنَّ بتأثير السوتيان على تكويرة النهدين، وقد أصر بعضهن على اصطحابي حيث المرافق الصحية، كي يشاهدن نوعية

السوتيان، ففعلنا ذلك دون أن نوفر الضحكات وبعض التعليقات التي كان أغلبها ينصب حول بياض جسدي ولون الحلمتين وحجمهما المغريين. وحين بزغت رغبتي في الكذب ادعيت أن والدي قد اشترى لي دزينة من السوتيانات مصنوعة في سويسرا، جلبها له أحد أصدقائه من الأساتذة.

هناك، في المرافق الصحية، عرفتُ أن بعض الفتيات، يحشين السوتيان بالقطن والإسفنج، لأنهنَّ لا يمتلكن نهودًا واضحة بعد.

كانت حصة درس الفيزياء، أول الحصص التدريسية في ذلك الصباح المدرسي الخاص، وكان الأستاذ نبيل "مدرس مادة الفيزياء" الرجل الوحيد بين طاقم التدريس، كان شاباً جميلاً يمتاز بطوله وعضلاته المفتوله وشاربه الأشقر. لا أدري لماذا نظر إليَّ نظرة هزّت كياني بعد لحظات من دخوله الفصل، ابتسمتُ له ثم رحتُ أنظر إلى الكتاب المفتوح أمامي، وما أن رفعتُ نظري صوبه حتى وجدتهُ ناظراً صوبي مرة أخرى، عندها فكرتُ بأن ذلك كان بفعل السوتيان وتكويرة النهدين، فعمدتُ في غفلة من الأستاذ إلى فك الزر العلوي من القميص كي يظهر الأخدود المنحوت بين النهدين الفتيين أكثر "لقطة سينمائية شاهدتها ليلة الجمعة الماضية، وأنا أتابع فيلم السهرة المصري على شاشة التلفاز". التقطتُ فيروزة قلادتي من وسط الأخدود بالسبابة والإبهام، ورحتُ أمررها على السلسلة الذهبية بحركة متناوبة يميناً وشمالاً، لكن الأستاذ لم يعد ينظر صوبي، وانشغل في الدرس وطرح الأسئلة، حينها خطرتْ في رأسي المشاكس فكرة، رحت على إثرها أقرأ في صفحة من الكتاب حتى اهتديت إلى مفتاح فكرتي التي لا ينقصها متعة الكذب. رفعت يدي طالبة الإذن منه، فسمح لي بالكلام. قلت بصوتٍ مرتجفٍ قليلاً: "أستاذ هناك مسألة لم أستطع فهمها أمس حين كنت أراجع واجباتي." دنا الأستاذ مني وما أن وضع يده على طرف الرحلة المدرسية حيث أجلس، حتى زحفتُ باتجاهه وأنا في وضع الجلوس، ثم قرّبت الكتاب من يده وأشرت له على المسألة، وما أن صار

يقرأها، حتى مَسّ نهدي الأيسر ساعده، ثم لززتُ النهد على ساعدهِ أكثر وأنا أنظر إلى وجههِ الذي راح لونه يتغير لدرجة شعرتُ بارتباكه، فابتعدَ سريعاً متجهاً نحو السبورة موضحاً بأنه سيشرح المسألة إلى جميع الطالبات. لكن، ثمة رائحة ساحرة وصلتني بسطوة عظيمة، تقترب من تلك الرائحة التي شممتها وأنا أنظر صوب أمي التي كانت تمتطي أبي عارية، إنها رائحة الرجولة دون أدنى شكّ.

صارت نظرات الأستاذ نبيل تهرب عني، وصارت أصابعه مطحنة للطبشور دون أن يدري، وكم حاولتُ إعادة نظراته صوبي إلاّ أنه تجاهلني تماماً، رغم الارتباك الواضح على ملامحه وحركاته.

لا أدري لماذا ثارت غرائزي في تلك اللحظة، شعرتُ بنشوة ألذ من الفرح وأعمق من الدهشة، وراح فخذي يطبقان على بعضهما حتى بان الاصفرار على وجهي، ذلك ما نبّهتني إليه زميلتي حين مالت عليَّ وهي تسأل هامسة: "ما بكِ، لقد شحب وجهك فجأة؟" تنفستُ عميقاً ثم نظرت إليها مبتسمة وقلت بهمس: "أنا سعيدة، سعيدة جداً... إنه شحوب السعادة".

بعد ثلاثة أيام، وحين عدتُ إلى البيت عصراً بعد زيارة بيت عمتي "غنوة" الأرملة التي عكفت على تربية ابنها الوحيد واليتيم منذ عشرين سنة، وجدتُ الأستاذ نبيل يجالس والدي ووالدتي في صالة البيت، ألقيتُ التحية وتقدمتُ صوب الأستاذ مصافحة له ومرحبة به، وما أن سحبتُ كفي من كفه حتى شعرت بقامة أمي تلاصقني لتسحبني بعد ذلك إلى الداخل حيث المطبخ، لم أقل كلمة، ولم أشأ سؤالها، بقيت أنظر بعينيها مبتسمة ووجهي يقابل وجهها، تلمستُ فزع عينيها وذلك الاحمرار اللاصف فيهما، وعرفتُ منذ تلك اللحظة بأنني أصبحت أطول من أمي قليلاً، وبعد مرور لحظات قالت متسائلة: "هل تعرفين لماذا أستاذك

عندنا؟" هززتُ رأسي علامة للنفي وأنا محتفظة بابتسامتي، فقالت أمي دامعة العينين: "جاء لخطبتك أيتها اللعينة، هل بينكِ وبينه شيء؟" هززت رأسي نافية مرة أخرى وأفلتُ جسدي من قبضة نظراتها اللاسعة لأهرع إلى غرفة جدي.

تعريتُ تماماً ووقفتُ أمام المرآة أتحسس جسدي، وأشكره لأنه منحني تكوين المرأة المشتهاة رغم صغر سني. لم يكن بوسعي فتح جهاز التسجيل والرقص على الموسيقى، فاستحضرت مخيلتي موسيقى أغنية أحببتها منذ الصغر وحفظتها عن ظهر قلب، وبدأت أرقص وفراشات الكون تدور داخل قفصي الصدري، كانت فرحتي قد وصلت حدّ الهستيريا حتى شعرت بجسدي وقد تضمخ بحبيبات عرقه الذي أسكر روحي، فارتميت على فراشي ثملة بحلاوة أنوثتي التي صارت كنزي الثمين الذي يغري أجمل الرجال ويغيظ أمي...

تمكن مني سلطان النوم وجسدي بتكوره يحتضن عالمي الساحر الجديد، كطفلٍ وليد...

رأيتُ نفسي عارية تماماً، وقد نما على كتفيَّ جناحان شفافان عملاقان، كجناح الفراشة... صرتُ أركض علّني أطير... كانت رغبة الطيران عارمة، لكنني لم أستطع... يتغير المشهد والمكان لأكون أمام شجرة عظيمة تتسلق الجدار، وكانت في الأعلى شرفة مزدحمة الورود والنباتات الساحرة بألوانها. تسلقتُ الشجرة بيسر ومتعة، حتى صرتُ داخل الشرفة. نظرتُ إلى عمق الغرفة المظلمة فشاهدتُ عينَيْن واسعتَيْن مضيئتَيْن... ارتعبتُ وحاولتُ القفز من الشرفة هرباً من القط الأسود الضخم كما اعتقدت... وما أن قفزتُ حتى صار بمقدوري الطيران. طرتُ لمسافات بعيدة والسعادة والزهو يغمرانني...

كانت تلك، المرة الأخيرة التي أرى فيها الأستاذ نبيل، ففي مساء اليوم التالي، عرفتُ من والدي الذي جلسَ على سريري حيث غرفة جدي، أو غرفتي، يحدثني عن أهمية إدراك الفتاة لخطورة جمالها واكتمال جسدها الأنثوي وكم النظرات والمضايقات التي تنتظرني مستقبلاً، شارحاً لي مصادر القوة التي يجب التمسك بها، من أجل الحفاظ على نفسي وكرامة عائلتي، ثم أخبرني بأن الأستاذ نبيل بعد أن تلمس رفض والدي القاطع لتزويج ابنته التي ما تزال في مرحلة الصبا، قد أخبره بأنه لا يستطيع الاستمرار بالتدريس في المدرسة التي تكون فيها ابنته، لذلك سيطلب نقله إلى مدرسة أخرى، ويبدو أنَّ ذلك قد حدث فعلاً، فلم يعد درس الفيزياء مسلياً، مدهشاً، مشاكساً، بعد أن حلّت الأستاذة "نُهى" التي تحمل كل عقد ومشاكل الدنيا بين تلافيف روحها، بديلاً عن الأستاذ نبيل.

تعتريني السعادة كلما تذكرت كلمات والدي تلك، فقد تيقنت حينها بأنني أصبحت محط اهتمام الكثير من الناس خصوصاً الشباب منهم، لدرجة صرت أبحث عن ذلك الاهتمام وتلك النظرات التي تمسح جسدي بمتعة، إن غابت لفترة قصيرة.

"كنتُ على يقين أن سوتيان الأستاذة "نهى" محشوٌّ بالقطن."

***

"صرتِ كثيرة الخروج من البيت"، ذلك ما أشارتْ إليه أمي وهي تحدثني بحضور أبي وأخي الصغير، لكنني لم أكن لأخرج إلا ساعات العصر، بعد أن نجتمع لاحتساء الشاي مع الكعك أو البسكويت وبعض المكسرات، بعد قيلولة الظهيرة التي تلي وجبة الغداء. عند ذاك أستبدل ملابسي لأخرج ذارعة زقاقنا العريض بعض الشيء ذهاباً وإياباً، أتطلع في وجوه المارة، أبتسم لهم وألقي التحية على من أعرفهم، أتلذذ بنظرات الذكور نحوي، وأشم رائحة ورغبات خيالهم المتقد، تلك الرائحة التي

غالباً ما تُسكِر روحي وتحلّق بي عالياً... ترافقني في بعض الأحيان "سُمية" ابنة الجيران، التي تمتلك خيالاً خصباً وموهبة متفكهة منصبّة على عالم العلاقة الخاصة بين الجنسين.

لم ترتح أمي لصديقتي "سُمية" التي تكبرني بعامين، كانت تقول عنها جُمل غير مطمئنة، "فتاة لعوب"، "أخشى على سمعتكِ من مرافقتها"، "أهلها غير مكترثين بسمعتهم"، وأقوال كثيرة أخرى تنصبّ في فكرة ضرورة الابتعاد عنها، لذا اقترحتْ أمي عليَّ أن يرافقني "شفيق" ابن عمي حين أروم الخروج والترفيه عن نفسي، ضحكتُ كثيراً حينها، وقلت مندهشة: "شفيق؟... ماذا أتحدث معه؟... عن الرياضيات مثلاً، أم الفيزياء؟... يا أمي شفيق شاب يكبرني سناً، وأنا بحاجة إلى فتاة بعمري، أتحدث معها حديث الفتيات وليس أحاديث الرجال التي غالباً ما تعمد إسداء النصح لفتاة مثلي... يا أمي متى تكفّين عن ملاحقتي؟...".

سئمتُ قوانين أمي ومضايقاتها. لا أدري من أين تأتي بتلك القوانين المقرفة والمتعبة... سئمتُ من ارتداء الشورت المطاط أثناء الدورة الشهرية رغم حرارة الصيف القاتلة... سئمتُ من لملمة شعري إلى الأعلى وتجميعه حيث هامة الرأس بمطاطة الشعر قبل النوم. بحجة أنه يوفر الوقت صباحاً وكهرباء "شسوار" تسريح الشعر حيث لم تعد حاجة لتصفيفه عندما لا تمسّه حبيبات العرق أثناء النوم... والأكثر إزعاجاً، تفحصها اللباس الداخلي وضرورة استبداله وغسله ثلاث مرات في اليوم، لم أكن أتقاعس عن ذلك، وكانت تعرف ذلك، لكن رغبتها السلطوية كان كثيراً ما تقلقها... "لقد سئمتُ أمي".

في الفترة الأخيرة صار شفيق غالباً ما يكون في بيتنا، ولا يذهب إلى بيته الذي لا يبعد عنا كثيراً، إلا عند حلول الظلام، كان مهتماً بي بصورة لافتة،

يبدو أن أمي طلبت منه ذلك بغيابي، كي أبتعد عن "سُميّة" ويكون عوناً لي في دروسي.

كنتُ أعرف أنه "يحبني"، وبتأثير الحب، "تطوع" تدريسي الرياضيات والفيزياء التي كان ضليعاً بها. كان في المرحلة الأخيرة من الدراسة الثانوية، وكان يحصل على أعلى الدرجات إلا مادة اللغة العربية التي أعاد سنته الدراسية الماضية بسببها، كنتُ أنظر إليه أثناء تدريسه لي، كان مرتبك النظرات والجسد والأحاسيس طيلة الوقت، وكنت ألعب بأعصابه وعواطفه حين أقترب منه أحياناً ليلامس ضفاف جسدي جسده، وأحياناً أخرى أصطنع حركات "عفوية" لأتعمد ملامسة أحد ثديي "بروز السوتيان" لساعده أو ظهره، فيرتعد جسده بوضوح، حينها تنطلق الغبطة داخل روحي، وأزداد شهوانية فتغرق مخيلتي بملامسة الجسد الذكوري الذي أشم منه رائحة التهيج التي تمنحني تألق روحي لم أعرف ألذّ منه، فأتركه مرتبكاً وأدخل غرفتي لأقف أمام المرآة وأداعب تفاصيل جسدي بنشوة طاغية.

"حين يترطب جسدي، وتخفت ثورته، أشعر أن منصباً ملكياً ينتظرني، وأن المستقبل طوع يديّ"

من المستحيل أن يذهب تفكيري صوب شفيق، لأنه أقصر مني، قصر القامة المتفشي بين أفراد عائلتي، كثيراً ما يقلقني، "لا أريد إنجاب أطفال قصار القامة" ذلك ما كنتُ أردده في نفسي وأنا أنظر إلى أقاربي الذين كنتُ أطلق عليهم سراً "السنافر"...

أهلي من جهة والدتي، كانوا طوال القامة بنسبة لا بأس بها، لكن أغلب الأقارب من جهة والدي كانوا قصار القامة وكان شفيق من ضمنهم. كنتُ أحترمه جداً لخجله وأدبه الفائض عن الحاجة، لكنني لم أفكر به زوجاً أو حتى رفيقاً، لذا جاء رفضي له بمثابة الطعنة القاتلة، حين صارحني

بشكل مفاجئ بحبه لي عندما كان يدرّسني مادة الفيزياء "المقيتة". كان ردي قاطعاً برفضه، وربما كنت قاسية عليه بعض الشيء... على إثر ذلك، اختفى دون أن يودّع أحداً. عرفتُ فيما بعد أنه اعتكف ولم يخرج من البيت، حتى إنه رفض الدخول أو المشاركة في الامتحانات النهائية، فكان الرسوب من حظه العاثر...

صرتُ بعين زوجة عمي "أم شفيق" العدوة التي حطمت مستقبل ولدها، وصارت تسمعني كلمات قاسية كلما قابلتني، كانت كلماتها طعنات مؤلمة في جسد فرحي واندفاعي المزهو بالحياة: "أين تذهبين من غضب الله؟ سيلعنك الله وتلعنكِ الحياة لأنكِ كسرتِ قلب ولدي"...

بعد بضعة أشهر، وحين كان والدي يحدثنا بأسف عن سوق شفيق إلى الخدمة العسكرية الإلزامية نتيجة رسوبه لسنتين متتاليتين في مرحلة البكالوريا، اعترفت أمي، بأن أم شفيق سبق لها وفاتحتها بمشروع خطبتي إلى شفيق، كونه اعترف لأمه بأنه راغب بي، وقرر أن يتخذني زوجة له. حدث هذا قبل أن يصارحني شفيق بحبه لي ويسمع رفضي القاسي، بعدة أيام.

***

"موسيقى "التشلو" الواطئة المنبعثة من صالة الضيوف، حيث والدي المنسجم مع فكرة الكتاب الذي بين يديه، فقدت سحرها ولم تعد تغريني إلى الجلوس بصمت المصغي هناك...

لقد سرقت "أم شفيق" تلك الرغبة، بعينيها القادحتين غضباً..."

(2)

حين دقتْ طبول الحرب، كنتُ قد انتهيت من أداء امتحانات المرحلة المتوسطة بقرابة الشهرين... دقتْ طبول الحرب معلنة موت الأحلام في أرواح العاشقين، وانتحار الأمنيات في أذهان من كانوا يحلمون بقبلة تحتضن شفاه اللهفة، لتكتب قصة المعدمين حباً بموسيقى الحرمان والأنين.

بعد أن كانت العائلة تتسامر ليلاً مع الضيوف من الأقارب والجيران، صرنا نتسامر مع صور المعركة التي لم تكن صوراً، بل مجازر بشرية ومدافع ورمال وسرفات دبابات لا نعرف وجهتها، ووسط كل ذلك الضجيج المرعب تنطلق الأغاني التعبوية لتشحذ همم الرجال الذين كانوا شباناً مترعين بالأحلام والأمنيات... صرنا نتابع أخبار الشبان ممن يأتون من ساحة المعركة راجلين أو محمولين بصناديق خشبية على الأكتاف، نتابع مَنْ ذهب للتو صوب الجحيم بعد انقضاء فترة خلاصه المؤقتة التي لا تتعدى السبعة أيام من كل شهر... وبدأ السواد وحشاً خبيثاً، يزحف مغطياً خضرة الروح. سواد غطى أجمل الفتيات بعد أن ابتلع أمنياتهن وأحلامهن وزهو الألوان...

"الحرب بوحشيتها، لا تقتل الجندي فقط،

بل الحبيبة الساكنة روحه،

أيضاً..."

***

حين كانت الحرب تطوي الأيام الأخيرة من سنتها الأولى، وحين كنتُ في طريق عودتي من المدرسة إلى البيت، قابلتُ "سُميّة". دُهِشتُ لمظهرها،

كانت ترتدي السواد ووجهها كالح بهالتين سوداوين تحت عينيها، سألتها، فبكتْ، احتضنتها مواسيةً ظناً مني أنها فقدت أحد أفراد عائلتها رغم أنني لم أسمع أي خبر سيئ عنهم كوننا نسكن الزقاق نفسه، وحين كررتُ عليها السؤال محتفظة باحتضاني لها، قالت: "نبيل... الأستاذ نبيل أكلته الحرب منذ يومين..." شهقتُ وأبعدتها كي أنظر بعينيها متسائلة: "هل كنتِ على علاقة معه أيتها المنحوسة؟" هزتْ رأسها موافقة ثم ازداد نحيبها، لينسجم مع دموعي ورعشة جسدي الذي لم أعد مسيطرة عليه...

اصطحبتها إلى بيتنا، وما أن دخلتُ برفقتها حتى طلبتُ من والدتي أن تجهز لنا الغداء، بعد أن أخبرتها بأنني وسُميّة سندخل غرفة جدي، ومن غير المسموح لأحد مناداتي أو الدخول إلينا، وحين سألتْ أمي متوجهة بسؤالها إلى "سمية" عن سبب ارتدائها الثياب السوداء، أخبرتُها بأن الوقت غير مناسب، وأننا سنتحدث على مائدة الطعام لاحقاً.

"أنا لست عذراء... لقد أسلمت نفسي إلى نبيل..." أول جملة قالتها سُميّة ما أن جلسنا على الأرض وحافة السرير تسند ظهرينا.

شهقتُ بعمق ووضعتُ كفي على فمي الفاغر دون دراية مني... ارتعد جسدي حين أحضرت مخيلتي عيني أمي المحمرتين أمامي وهي تنذر بوقوع كارثة عائلية وشيكة، ثم شعرتُ أن الأرض قد تحركت تحت عجيزتي وأن غمامة رمادية قد حجبت عني الرؤية التي اختلطت، وارتبكت، حتى صرختُ دون دراية مني: "عمياء... غبية... أيتها الغبية... كيف تستسلمين؟...".

ازداد نحيب سُميّة، وخرجت بعض كلمات رطبة من بين شفتيها:

"لقد غدرتْ بي الحرب...".

ثم أضافت بعد لحظات: "لا أحد يعرف مصيبتي غيركِ... لقد كتمتُ الأمر عن الجميع...".

في تلك اللحظة، تذكرت شيئاً مهماً، فسألتُ "سُميّة" عن بداية علاقتها بنبيل، أخبرتني بأنها على علاقة معه منذ سنتين تقريباً، لكنها لم تمنحه نفسها إلا منذ مدة قصيرة... "هل يستغل نبيل مهنته ويلعب بمشاعر بنات المدرسة؟" توارد ذلك السؤال في ذهني حينها، ثم سألتها سؤالاً آخر: "هل تعرفين بأن نبيل كان قد خطبني من أهلي قبل أن يترك مدرستنا بأيام قليلة؟" فغرت "سُميّة" فمها ونظرتْ صوبي بعينين محمرتين دامعتين، ودون أن تهمس بكلمة وعلامة الدهشة تسيطر على ملامحها، هزّتْ رأسها علامة للنفي، أو كأنها تقول "مستحيل" فأخبرتها بالحقيقة كلها... بعد ذلك، قالت بأنها كانت تحكي لنبيل عني وعن عائلتي، ثم صار بعد ذلك يسأل عني ويتتبع أخباري في كل لقاء يجمعهما.

خُيّلَ لي أن صوت أمي قد وصلني وهي تنادي لنجتمع على طاولة الطعام، ولكن صوت ذهولي كان الأعلى، فلم أدرك نداءاتها إلا حين هزتني "سمية" منبهةً إلى صوت أمي... أخرجتني هزتها من عالم رمادي مسود، فنهضتُ طالبة من "سمية" الدخول إلى الحمام وكفكفة دموعها، وأن تستعد لتتلقى سيلاً من الأسئلة ستمطرها أمي بها...

بالفعل، ما أن جلسنا إلى الطاولة حتى حركتْ أمي شفتيها المرتجفتين شكاً وحيرة: "لماذا ترتدين السواد يا ابنتي؟" نظرتُ صوب أمي بتذمر وطلبتُ منها تأجيل أسئلتها حتى نكمل أكلنا براحة، لكن "سمية" قاطعتني لتوجه كلامها إلى أمي قائلةً: "يا خالة، ألا تلاحظين الموت الذي بات يأكل أجمل شبابنا، هل يرضيكِ هذا، والله أن كل واحد منهم يستحق حزن الحياة بأكملها... أنا حزينة على فرحنا وأمنياتنا التي ماتت بموت الشباب..." اتسعت عينا أمي وارتسمت ملامح غير المصدقة بما سمعتْ، ثم ضحكت بخبث وقالت وكأنها تشتمنا: "أكملا الأكل، وأنا سأقوم بتجهيز الشاي..." ثم قامت عن الطاولة وهي تهزّ كفها اليمنى علامة الحيرة والاستخفاف.

ما أن خرجتْ "سُميّة" عائدة إلى دارها، حتى شعرتُ بوخزات خفيفة بين أسنان فكي السفلى جهة اليسار. تجاهلتها، وخرجتُ حيث حديقة الدار منتظرة عودة عالمي الخاص الذي طالما اشتقت إليه، فأبي يعود بعد الرابعة غالباً، وقد اقترب موعده. لكن وخزات الأسنان تحولت إلى ألم سخيف مقلق لم أعرف مثله من قبل. أطبقتُ فكيَّ وبقيت على جلستي حيث الكرسي البلاستيكي ونظري متسمّر صوب باب الدار، كتمتُ ألمي خوفاً من أن تشعر والدتي بي وتظهر عطفها البغيض الذي طالما يشعرني بسلطتها.

هرعتُ راكضة صوب الباب ما أن لاح أبي أمام ناظري... احتضنته، وأجهشتُ بالبكاء، وشعرتُ برجفة جسده خوفاً وهو يسألني إن كانت أمي قد ضربتني، فأخبرته أن ألمَ أسناني يكاد يفتك بي، أبعدني عن صدره ماسكاً ذراعيّ، وقال مبتسماً أن الأمر هين، وسوف يعطيني الدواء الناجع حتى يحين صباح الغد ليأخذني إلى صديقه طبيب الأسنان...

استشاطت أمي غضباً، صارت تعنفني لأنني لم أخبرها بألمي، وحين لاحظتُ انكسارها، وتمتعتُ به، قلتُ لها مواسيةً، بأنني أعرف لهفتها عليّ لذا كتمت عليها وجعي خوفاً من إرباكها فمشاغلها كثيرة. ابتسم والدي وربتَ على ظهر أمي بعد أن طبعَ قبلة على وجنتها، وقال: "ألم أقل لكِ بأن "حياتي" تحبكِ وتخاف عليكِ وتحرص على راحتكِ؟" هزتْ أمي رأسها غير مقتنعة بما أراد زوجها إيصالهُ لها ودخلتْ مطبخها وهي تقول بصوت عالٍ: "الحمام جاهز... سأعد طاولة الطعام، ستكون جاهزة حال خروجكَ من الحمّام." لكن أبي سرعان ما خرج من غرفته بعد بضع دقائق من دخوله إليها ودون أن يغيّر ملابسه. كان يحمل بين سبابة وإبهام يده اليمنى تكويرة قطن، وما أن وصل قربي حتى طلب مني فتح فمي وأن أشير إلى مكان الألم، وما أن فتحتُ فمي وأشرتُ له، حتى دسّ تكويرة القطن داخله طالباً مني إطباق فكيّ وإغلاق فمي. شعرتُ بطعمٍ لاذعٍ لم

أذق مثله من قبل، وحين هممتُ بالسؤال، أشار لي بعدم الكلام وقال موضحاً، أنه مخدّر طبيعي سوف يريحني من الألم. عرفتُ بعد ذلك أن أبي قد نقع القطن بالعرق المسَكّر، العرق الذي يحبذه دون غيره من المشروبات الروحية..

في صباح اليوم التالي أخذني والدي إلى كلية طب الأسنان، كانت البناية مبهرة، والطلبة "الأطباء" يرتدون الصدريات البيضاء، وكل منهم ينادي الآخر بلقب دكتور، ولا أدري لماذا كانوا يتضاحكون... دخل أبي وكفّه الحنونة تحتضن كفّي المبهورة بالمكان والخائفة في الوقت نفسه، إلى الطابق الأرضي من البناية، عندها توجهنا صوب المصعد الكهربائي. ضغطَ على الرقم ثلاثة وكان هناك ثلاثة شُبان بصدرياتهم البيضاء، وما أن توقف المصعد وخرجنا منه، حتى توجهنا صوب باب موصد، معلّق إلى جانبه لوحة صغيرة خط عليها كلمة السيد "العميد" وكان تحت الكلمة اسم لا أتذكره.. طرقَ والدي الباب ودخل دون أن أسمع كلمة أو إشارة من الداخل. شاهدتُ وأنا أدخل الغرفة، رجلاً وقوراً يقارب أبي بالعمر، يرتدي صدرية بيضاء يظهر تحتها حيث العنق قميص سماوي اللون وربطة عنق داكنة الزرقة. وقف مرحباً بوالدي: "أبا حياة العزيز، أشتقتُ لكَ يا صديقي..." ثم نظر صوبي وقال مستفسراً إن كنتُ أنا حياة، وحين أشار له والدي موافقاً، اقترب مني السيد العميد وطبع قبلة على وجنتي اليسرى ثم طوقني بساعده اليمنى وقربني من أحد الكراسي طالباً مني الجلوس. جلس والدي قبالتي بينما عاد السيد العميد إلى مكانه حيث كرسيه خلف طاولة المكتب.

شرح والدي لصديقه حالتي، وعلى الفور ضغط السيد العميد على زر الجرس ليدخل الساعي، فأمره باستدعاء "ماجد" فوراً. لم أكن أعرف من هو ماجد، ولكني قلت في نفسي ربما يكون مدير مكتبه.

بعد دقائق معدودات، وحين كان والدي والسيد العميد يتحدثان عن أشياء ليست ذات أهمية بالنسبة لي، دخل شاب قصير القامة، أبيض البشرة، بشعر بنّي مجعد، كان مبتسماً بوجنتين نافرتين، اقترب من والدي وصافحه، ثم صافحني وعاد خطوة إلى الوراء ليوجه كلامه إلى السيد العميد: "هل تأمرني بشيء دكتور؟" ابتسم السيد العميد وقال له: "خذ ابنتي حياة، وافحص أسنانها، فقد كان أمسها كابوساً من الألم...".

"تأمر دكتور" قالها وهو يمد يده اليمنى صوبي، إشارة منه كي أمسكها ليصطحبني. نظرتُ صوب والدي مبتسمة فبادلني ابتسامته الجميلة الحنون. وقفتُ دون أن أضع يدي بيد الشاب، واتجهتُ صوب الباب مستأذنةً من والدي والسيد العميد، فلحقني ماجد، وما أن أفلتُ جسدي من إطار الباب حتى سمعتُ قهقهة والدي ممتزجة بضحكات السيد العميد.

سار ماجد إلى جانبي، والحقيقة أنا من سرتُ إلى جانبه كوني لا أعرف الوجهة، سألني: "اسمك حياة؟" فأجبته بنعم، ثم أمطرني بأسئلة عن عمري ومرحلتي الدراسية، كنتُ أطول منه بقليل، مما أشعرني بسعادة غامرة ورغبة في السيطرة، فسألته إن كان طبيباً للأسنان فضحك وأشار موافقاً...

توقفَ عند باب مغلق، فتوقفتُ، مسكَ الأكرة وأدارها فانفتح، لكنه لم يدخل، بل أشار لي ماداً ذراعه بما يقترب من الحركة المسرحية داعياً لي بالدخول وهو يقول "ليدي إز فيرست" لا أعرف أين سمعت تلك العبارة من قبل، ولكني كنت أعرف مبتغاها جيداً، ولغاية الآن كلما سمعتها، تذكرت ماجد وتلك اللحظة التي انحنى فيها جسده وهو يدعوني للدخول قبله...

"لماذا الرجال أكثر تهذيباً من النساء؟". سؤال طرحته على نفسي حينها، لكنني لم أتمكن من الإجابة عليه إلا بعد حين... "التهذيب، هو المفتاح الأهم لفتح باب "الكمين" أو بداية المشوار.".

طلبَ ماجد مني الجلوس على الكرسي الطويل الخاص بعيادات أطباء الأسنان، وحين أفردتُ جسدي على الكرسي شعرت بأنني أصبحت أكثر ضعفاً، وأن شخصيتي أصبحت طفولية، بينما صار ماجد القوة المسيطرة عليَّ، شعرت ببعض الضيق وفكرت بالنهوض تاركة الكرسي، لكنني هدأت وقبِلتُ الوضع الذي كنتُ عليه، حالما تذكرت الألم البغيض...

طلب مني الدكتور ماجد فتح فمي، حينها وأنا أمتثلُ لأمرهِ، شعرتُ كأنني أفتح ما بين ساقيّ، لكني استسلمتُ لطلبه، وحين مستْ أصابعه شفتيّ، شممت رائحة هزت كياني، كانت رائحة شبقة تقترب من رائحة "الرز المبزول"، استرخيت ورحت أفكر بأصابعه التي صارت تداعب شفتيّ حسب تفكيري تلك اللحظة، ودون دراية مني راحت كفاي تنسحب إلى ما بين فخذي لتتمسك بحمايته... رائحة "الرز المبزول" أعادتني إلى المرآة، إلى رقصي ومداعبة الأصابع، أغمضتُ عيني وسرحت بملكوت الرائحة الذكورية الزكية حتى شعرتُ بشيء ما يمسّ حلمة ثديي اليمنى تماماً، فتحتُ عيني ولاحظتُ أن ماجد قد استخدم كوعه ليلامس حلمتي ويدهُ تمسك شيئاً معدنياً داخل فمي... وضعتُ كفيَّ على ثدييَّ لأجعل منهما حاجز شرف لفتاة في سن مراهقة مرتبكة...

منذ تلك اللحظة، تيقنتُ أن ماجد صار أسيراً لجسدي المكتنز الشهي.

أنهى ماجد عمله، بعد ساعة تقريباً، كانت إبرة المخدر المؤلمة قد منحته حرية العمل على السن المشاكسة على حدّ تعبيره، أخبرني بأنه قام بتنظيف وإزالة التسوس ثم أضاف حشوة مؤقتة، ومن المهم أنْ أكون عنده ثانية بعد يومين.

اصطحبني ليعيدني إلى غرفة العميد، وما أن دخلت بصحبته، حتى تنبهت إلى أن والدي قد غادر. جلستُ حيث مكاني السابق وجلس ماجد على الكرسي الذي كان يحتله والدي، وبطلب من السيد العميد راح يشرح له حالتي، وبمجرد أن اطمأن السيد العميد، وبعد أن سألني إن كنت قادرة على المجيء بعد غد، وأجبته بالإيجاب، ناول مفاتيح سيارته إلى ماجد وطلب منه إيصالي إلى البيت.

في الطريق حاول ماجد أن يُسدي لي بضع نصائح حول سلامة الأسنان والاعتناء بها، ولكني وفي لحظة "خبث" سألته إن كان متزوجاً، ابتسم وقال "بخبث" أكبر: "ما زلت أنتظر ضربة الحظ..." ثم نظر صوبي نظرة خاطفة كانت كافية لألحظ ابتسامته، وأضاف: "لن أتزوج ما دمت لا أمتلك عيادة خاصة بي... العيادة تضمن الحياة الكريمة لزوجتي وأولادي فيما بعد."...

رنت جملتهُ الأخيرة في ذهني وعَلقَتْ. أردتُ مجاراته في الحديث، لكن مرور سيارة تحمل على قمرتها تابوتاً لشهيد، ومن زجاج نوافذها تطل رؤوس نساء متشحات بالسواد وقد اصطبغت وجوههنَّ وما يعتمر رؤوسهنَّ بالطين. مشهد مرعب، مرَّ كلقطة لحظوية أقحمت داخل شريط سينمائي يحكي قصة رومانسية عن الحب. مشهد النساء بوجوههنَّ الطينية الذي ظل عالقاً بذهني فترة طويلة، قد أجبرنا على تغيير دفة الحديث نحو الحرب، حين قال ماجد بأسف: "هذا الصندوق الخشبي، يحمل شاباً انطفأت أحلامه منذ أيام أو ربما ساعات...". قفزت صورة الأستاذ نبيل أمامي وأنا أراه شاباً جميلاً مصبوغاً بلون الدم، ثم تذكرت سمية التي لا أدري ما حلَّ بها جراء مصيبتها، فقلت:

"الحرب أكلت الشباب وأراقت أحلامهم. الشباب فقط من تشتهيهم الحرب."

"يرحلون رغماً عنهم، تاركين آمالهم وحبيباتهم، أو أطفالهم الذين يكتسبون أتعس تسمية وهم في عمر الزهور... "يتيم" تصوري مرارة هذه التسمية على طفل صغير!!". قال ماجد ذلك وهو يضغط على المقود بكفين مضمومين بتوتر واضح، فقلت ولا أدري كيف تجرأت على ذلك كأنني كنت أحدث نفسي بصوت عالٍ، أو ربما وجد عقلي دون دراية مني، الفرصة الأمثل لأبوح بما يقلق روحي: "لي صديقة، أحبت شاباً وأسلمت له نفسها، فقد كانا متفقين على الزواج في وقت قريب، لكن حبيبها عاد بصندوق خشبي محمولاً على سيارة أجرة...". ما أن وصلت كلماتي مسامع ماجد حتى فغر فمه واتسعت عيناه وهو ينظر صوبي، وقال متسائلاً بخوف واضح: "وهل عرف أهلها؟".

"لا... لا أحد يعرف غيري، ولا أدري كيف أساعدها..."

"يمكنني مساعدتها إنْ وافقتْ... كلميها... وإن رضيتْ، دعيها تأتِ إليّ حيث الكلية...". تنفستُ عميقاً وكأن همّاً كبيراً قد أُزيح عن صدري، ثم شددت عليه أن لا يخبر أحداً خصوصاً عميد الكلية ووالدي، ابتسم وطمأنني مشيراً إلى مهنته والقَسَم الطبي الذي يلتزم بكل حرف فيه...

***

مشهد النساء بوجوههن الطينية، وذاك الجسد المعلّب داخل الصندوق الخشبي الذي يعتلي رؤوسهن حيث قُمرة السيارة، صار يلازمني ويؤجّج داخلي رغبة البكاء... تحدثتُ مع عمتي "غنوة" شارحةً لها المشهد بالكامل فأمطرت عيناي بغزارة... احتضنتني ومسحتْ دموعي وهي تطبع قبلاتها على وجنتيَّ ثم قالت بكلمات لا ينقصها الحزن:

"ذرّ التراب على الرأس، أو اغتراف الطين وطَلي الرأس والجسد، حركات "شعائرية" تقوم بها النساء الثكالى، وهو موروث سومري يمتد عمره إلى آلاف السنين، إنها باختصار، رفض حالة الفقد، ومحاولة عدم

تصديقها أو الهروب منها صوب رحم الأرض، إنها ترجمة لحقيقة الرغبة في العودة إلى رحم الأرض قبل القتيل، الذي ستودع جثته الأرض قريباً..."．

***

حين زرتُ "سُميّة" في بيتها، اتخذنا كرسيين من كراسي الحديقة مجلساً لنا، جلسنا متلاصقتين يظللنا فيء نخلة "برحي" شامخة، كانت الساعة تقترب من الخامسة عصراً، لذا، أتت لنا والدتها بكوبي شاي وطبق يحتوي على قطع البسكويت.

كانت "سُميّة" ما تزال قابعة وسط دوامة أفكارها السوداء، وحين سألتها عن جديدها، أخبرتني بأنها زارت منذ يومين بيت نبيل، واتضح لي أنّ عائلته سبق وأن تعرفت عليها، كانت تبتغي من زيارتها إخبار والدته بما جرى لها، لكنها وجدت أنّ الظرف لم يكن مناسباً...

انهمرت دموع سُمية وهي تحكي لي راثيةً حال والدة نبيل التي تعتقد أنها لن تعيش طويلاً... طلبتُ منها الكف عن البكاء كوني أحمل لها أخباراً ربما تكون مفرحة. اتسعت عيناها وهي تنظر لي مستفهمة عن الفرح إن كان بمقدورها تلمسه مرة أخرى بعد أن وقعت وسط أتون المصيبة... احتضنتها وذرفت عيناي دمعتين دون دراية مني، ثم قلت لها وكانت شفتاي تلامس أذنها اليمنى: "أعرف طبيبًا أبدى استعداده لمساعدتك..." ارتعبت سمية ووقفت مرتعشة وكأن مصيبتها حدثت للتو، ثم قالت بصوت مخنوق بالكاد يسمع: "هل أفشيتِ سرّي لأحد؟... هل فعلتِ هذا؟..." طلبتُ منها الهدوء والعودة مرة أخرى إلى كرسيها، ثم شرحت لها ما دار بيني وبين الدكتور ماجد، وأنني لم أذكر اسمها أمامه قط، ثم ناولتها ورقة صغيرة مطوية تحتوي على اسم الدكتور ماجد والطابق الذي يتواجد فيه، تماماً كما أملاه عليّ حين كنا داخل سيارة السيد عميد الكلية...

رفضتْ "سُميّة" الفكرة، وبقيتْ ترتعش حتى احتضنتها مرة أخرى. همستُ لها: "وضعكِ يتطلب الشجاعة، كوني شجاعة حتى تتخلصي من أزمتكِ، واشكري من في السماء كون رحمك لا يحمل دليلاً على الفضيحة...".

حين عدتُ إلى البيت شعرت بحركة غير اعتيادية، هناك جلبة، وتوتر، وبكاء وعويل نسائي يأتي من داخل البيت، ووالدتي ترتدي ملابس الخروج بملامح متشنجة وآثار دموع بعينيها. سألتها عن ما حدث، فدخلت بنوبة بكاء ونشيج ولم أسمع منها جملة مفيدة، وحين كررت عليها سؤالي جاءني صوت والدي وهو يتجه نحوي وخلفه زوجة عمي "أم شفيق" ليخبرني أن هناك من هاتفه ليخبره أن ابن أخيه قد أصيبَ في إحدى المعارك، وإنّها إصابة بليغة، يرقد على إثرها في المستشفى العسكري... نظرتْ أم شفيق إليّ نظرات جامدة لا ينقصها الغضب والبغض، ثم أدارت وجهها صوب باب الدار تروم الخروج، وأطلقت كلماتها المؤلمة:

"الله ينتقم من الذي كان السبب..."

بُترت ذراع شفيق اليسرى، بسبب تهتكها نتيجة إصابتها بشظية قذيفة، وتم تضميد بعض الجروح في مناطق متفرقة من جسده. ذلك ما أخبرني به والدي حين عودته وأمي من المستشفى العسكري.

"بَكتْ والدتي... وبكيتُ أكثر، دون تأنيب ضمير".

(3)

عشرة أيام فقط، كانت كافية ليتدبر ماجد أمر "سميّة" ويخلصها بمعونة أحد أصدقائه الأطباء من مصيبتها، لتعود ضاحكة يملؤها الفرح والحيوية من جديد كما عهدتها، عرفتُ كل ما جرى بعد أن تخلصت "سمية" من كابوسها، حيث زارتني في بيتي. ما أن دخلتُ بصحبتها غرفة جدي وأوصدتُ بابها، حتى بدتْ راقصة وهي تحضنني وتقبلني بهستيريا لا تنقصها كلمات الشكر. لقد التقت "ماجد" في اليوم التالي من لقائي بها. وتوالت اللقاءات حتى تخلصت من مصيبتها. لم أكن أعلم بأي شيء، حتى إنّها لم تخبرني بنيتها لقاء الدكتور "ماجد" في البداية.

رغم اعتراضات والدتي المتكررة، والتي كنتُ أشعر بمتعة كبيرة كلما تلمستُ قلقها وحيرتها، واظبتُ ولمدة ثلاثة أشهر على زيارة كلية طب الأسنان، مَرّة في الأسبوع لأكون تحت سطوة أنامل الدكتور "ماجد" الذي اعتنى بأسناني بكل جدية وإخلاص. الحقيقة وبعد عدة زيارات صرتُ أشتاقه، أشتاق رائحة "الرز المبزول" حتى صرت أنتظر حلول يوم الاثنين بفارغ صبر.

عرفتُ منذ الأسبوع الأول أنه لم يكن طالباً للبكالوريوس، بل كان في بداية دراسته مرحلة الدكتوراه، وحين انتدبه السيد العميد للاعتناء بأسناني كان ذلك خارج المألوف، ولكن العميد انتدب ماجد نظراً لمكانة والدي الخاصة عنده.

بعد أربع زيارات، عمد "ماجد" إلى تحديد موعد المرة القادمة ليكون خلال الساعة الأخيرة من دوامه الرسمي، بحجة أنني طالبة مدرسة ثانوية ويجب منحي الوقت الكافي للوصول إلى كلية طب الأسنان دون أن

يتعارض ذلك مع ساعات دوامي المدرسي، الحقيقة كانت فرحتي كبيرة لتلك الفكرة فقد منحتني أسعد اللحظات حين صار يرافقني، بعد الانتهاء من الفحص والمعالجة، مشياً على الأقدام إلى باب بيتي، لم تكن المسافة الواصلة بين البيت والكلية هينة، بل كانت كبيرة وتزيد عن عشرة كيلومترات، لكن "ماجد" ابتكر طريقة رائعة، حين استأجر تاكسي، وعند نقطة معينة طلب من السائق التوقف، فنزلنا ليطلب مني التمشي كونه يريد الحديث معي بحرية أكبر، بدلاً من أن يكون سائق التاكسي مستمعاً مجانياً... ضحكت كثيراً لمصطلح الاستماع المجاني، وما زلت أضحك كلما تذكرته.

شعرتُ حين غادرنا التاكسي، أن "ماجد" قد اختار المكان بعناية، مما يشير إلى أنه قد درس المكان مسبقاً، لذا اختار الشارع الطويل المحفوف بالأشجار والذي يمتد على طول كيلومترين تقريباً لينتهي عند الزقاق المؤدي إلى بيتنا... فكرته كانت رائعة.

حدثني عن عائلته الفلاحية الكبيرة التي تسكن جنوباً في قرية تشتهر بزراعة الرز، ثم راح يبين لي بكلمات لا تخلُو من المرارة، الفرق الشاسع بين الحياة الريفية وحياة العاصمة التي يعشق، وعرفتُ منه إصراره على عدم العودة إلى قريته مستقبلاً، وأنه ينوي بعد التخرج فتح عيادته الخاصة وسط العاصمة، فقلت وكأني أتمتم ولكني عمدت إلى توصيل جملتي لمسمعه:

"العيادة التي تؤمّن الحياة الكريمة لزوجة المستقبل.". نظرَ إليّ مبتسماً وسألني القصد، فقلتُ دون سابق تفكير وقد شعرتُ بأنني على وشك الطيران، فقد كان ممسكاً بكفي اليسرى وكنت أشعر بحرارة لذيذة تتسرب من كفهِ إلى روحي: "زوجة المستقبل، هي من ستأتيك بالعيادة.". توقفَ، وأفلتَ كفي، ثم اصطنع ابتسامة تائهة وهو يطلب مني إعادة ما قلته. أطلقتُ ضحكة وأنا أضع كفي اليمنى على ثديي، ناظرةً بعمق عينيه، كوني

أعرف تماماً حجم جنونه بتكويرة الثديين وبروزهما، ثم دسستُ ساعدي الأيسر لأحتضن ساعده الأيمن وألزَّهُ على ثديي جهة اليسار طالبة منه مواصلة السير ونسيان ما سمع مني، كونها مجرد كلمات لتفكير بصوت عال.

تلك الكلمات انغرست في ذهني تماماً كنخلة تم غرسها في أرض خصبة منذ سنوات مضت، وصارت الفكرة تسيطر على تفكيري ما أن أختلي بنفسي، لكنني وفي كل مرة أعود ضاحكة على أفكاري، وأسأل "كيف أفكر بالزواج من ماجد وهو ينتمي إلى رهط قصار القامة؟" ثم أعود مرة أخرى أفكر في اللحظة التي يكمل فيها دراسته للدكتوراه وأهديه عيادة متكاملة. أعرف أنّ ذلك مستحيلٌ، فأنا لا أملك المال، وليست عائلتي ثرية تملك العقارات، نحن عائلة متوسطة الحال مثل غالبية الناس ممن لديهم وظائف تابعة للدولة، لكن سِحر اللحظة والتفكير بها وتلك الأجواء المتخيلة وسط الأهل والأقارب والأصدقاء وهم يصفقون فرحين بافتتاح العيادة يجعلني سعيدة منتشية، فأدمنت التفكير بتلك اللحظة وأجوائها.

"لا تمنح خيالك حرية أكبر من طاقتك... كونه، حتماً، سيتآمر عليك في النهاية".

"ماجد" الشاب القصير "نسبياً" كان شعره المجعد بني اللون، لامعاً دائماً. وبشرته البيضاء الصافية وتلك الابتسامة المتوجة بغمازة واحدة جهة اليمين من وجهه، تمنحه براءة طفل مشاكس يعرف كيف يحوز على محبة الآخرين، كان على ثقافة "ممتازة"، وذلك ما تلمسته فيه حينها، ربما لأنني كنتُ مراهقة صغيرة السن، وكنت أعيش مرحلة الدهشة، فقد كان متحدثاً لبقاً، وأجزم أنه كان قارئًا نهماً، كان يحكي القصص والأحداث بطريقة ساحرة، والحقيقة كان يسدي لي النصائح أحياناً، أو يعبر عن حبه لي أحياناً

أخرى عن طريق القصص، وليس بصورة مباشرة، وذلك ما جعلني أنجذب إليه أكثر، كنت أعرف أنه يفكر بي كثيراً، وكان حريصاً على أن لا يزعجني أبداً.

ذات مرة سألني عن مكتبة والدي، أو مكتبتنا البيتية، فذكرتُ له ما استحضرته ذاكرتي حينها من عناوين، ابتسم وقال بأنه يعرف المستوى الثقافي والمعرفي الذي يتميز به والدي، ونصحني بقراءة ثلاث روايات متوفرة في مكتبتنا البيتية واعداً إياي تزويدي ببعض الروايات التي يجدها مهمة وممتعة بالوقت نفسه.

في ذلك اللقاء خطرت لي فكرة دعوته على كوب شاي في بيتنا، لا أدري إن كانت الفكرة نابعة من إعجابي به أم رغبتي في إغاظة والدتي. وافق، وكانت علامات الخجل واضحة على ملامحه، دخل البيت بأذنين ووجنتين محمرتين، وما أن ألقى التحية على والدتي حتى ازداد اضطرابه، يبدو أنه قرأ إشارة ما أرسلتها له عينا والدتي. الحقيقة، كانت والدتي ودودة جداً معه. أكثرتْ من كلمات الشكر والثناء كونه يعتني بأسنان ابنتها الوحيدة... كنا أنا وماجد ووالدتي نجلس وسط حديقة الدار حين شاهدنا والدي يحاول الدخول لفتح مصراعي الباب حتى يولج سيارته المرآب، ولكنه بمجرد أن شاهدنا بمعية الضيف، حتى عدل عن فكرته وأقترب ملقياً التحية مرحباً بماجد، وما أن جلس حتى ناولته والدتي كأساً من الماء، ثم نهضت متوجهة نحو المطبخ لتعد شيئاً ما.

دار حديث بين والدي وماجد وكنت أستمع إليهما بمتعة خاصة، كان الحديث حول الجامعات ومشاكل الطلبة مع القوانين الجديدة التي أصدرتها الوزارة والتي أسماها والدي "قوانين المعركة" عرفت من خلال الحديث، أن تلك القوانين تهدد الطلبة بسوقهم جنوداً إلى المعركة إذا ما

فكروا بعدم الالتزام بها... في ذلك اللقاء وصلت جملة إلى مسامعي كان والدي مصدرها ما زالت ترنّ في ذهني:

"الحرب غالباً ما تؤسس لخراب المستقبل، طفل اليوم الذي اعتاد الموت وأناشيد الحرب التعبوية، وامتلأت جمجمته الصغيرة بصور الموت وهدير الطائرات، وعرف شكل المقابر ورائحة الدم، هل يمكننا أن نطالبه بترميم وطنه حين يأتيه المستقبل؟"

كنتُ أتنقّل بنظري بين والدي وماجد، وكنت أجد مشهداً رائعاً بين أستاذ وطالب، وكان ماجد قد أتقن دور الطالب بحرفية أخلاقية عالية، وكان لخجله دوره المهم في تجسيد صورة لشخصية ظلت عالقة باحترامها في ذهن أبي. والغريب أن ماجد قد أحجم عن النظر إليّ إلاّ لماماً، كانت نظراته تتوزع بين والدي وشجرة الرمان، وحين سألته فيما بعد عن رأيه بشجرة الرمان التي يعتني بها أبي بصورة مبالغ فيها، عرفت منه بأنه لم ينتبه لوجودها.

حين أعلن ماجد رغبته في المغادرة، أصرّ والدي على توصيله، ابتسمتُ وعرفت لماذا لم يُدخل سيارته إلى المرآب. وحين طلبَ أبي مني مرافقتهما، كانت فرحتي عظيمة.

تلك الرحلة القصيرة التي أوصلنا بها ماجد، كانت مهمة جداً لي، حيث عرفت أنه يسكن غرفة صغيرة في حي شعبي، استأجرها عند عائلة فقيرة متكونة من أرملة تعمل فرّاشة في إحدى المدارس الابتدائية وولد لم يكمل دراسته فسيق جندياً إلى جبهات القتال، وبنتين صغيرتين في عمر الصبا... لم ندخل معه سكنه، فلم يكن هناك إمكانية لمرور السيارة، كانت الأزقة ضيقة والبيت يبعد مسافة زقاقين عن الشارع... ودعَنا مبتسماً وغابَ بقامته القصيرة عند أول منعطف داخل الزقاق.

شعرت من خلال حديث ماجد، أنه يخفي شيئاً ما، خصوصاً حين تحدث عن العائلة الفقيرة التي يشاركها السكن، ثمة قلق وبعض خجل صار واضحاً بين كلماته.

لاحظتُ احمرار عينَي والدتي حين دخلت المطبخ طالبة شربة ماء، وحين حاولت سؤالها عن السبب، وكانت متخذة أحد كراسي المطبخ إلى جنب طاولة الفطور مجلساً لها، لم تجب، وأشارت بكفها، أن أغربي عني. حققت لها رغبتها، ودخلت "غرفة جدي" مبتسمة، لا ينقص روحي الفرح، حينها شعرتُ بأن جسدي مضمخ برائحة "الرز المبزول"... كانت أطول فترة زمنية قضيتها بصحبته منذ التقيت به للمرة الأولى... وقفتُ أمام المرآة ورحتُ أحلم...

***

صارت الرائحة الذكورية ترياق روحي، صرتُ أستحضرها وأنا أرقص أمام المرآة رقصة الطيران حيث الانتشاء.

كلما مرَّ شاب أو رجل إلى جانبي عمدتُ إلى استنشاق شيءٍ ما وكأنني كلبة مدربة على اصطياد الرغبة، كانت عيونهم تسبق رائحتهم، كنت أتفحص العيون لأحدد نقطة سقوط سهامها على جسدي، وغالباً، ما يكون النهدان، الهدف والمسقط.

تعلمتُ كيف أرمق الرجال، على اختلاف أعمارهم، بنظرات خاطفة مكتنزة اللهفة والاشتهاء، وإن كانت كاذبة، لكنها تشعرهم بتفردهم من بين كل الرجال عندي... تمرستْ أنوثتي على إرباك الرجال وأسر عقولهم، وأنا أمارسُ طقساً أنثوياً خالصاً بنظراتي...

صار الرجل بالنسبة لي، رائحة اشتهاء، فقط. وكنتُ أحمل تلك الرائحة التي سرعان ما تلتصق بثيابي ثم تخترقها وصولاً إلى جسدي، معي إلى "غرفة جدي" التي صارت تعبق برائحة أنوثة شبقة.

لم يشكّل ماجد لي صورة الشاب الذي أحلم به عشيقاً، لكن رائحة اشتهائه، كانت الحلم والحقيقة.

***

في إحدى الأمسيات، وحين كنتُ وأخي الصغير نجلس إلى جانبي والدي، الذي كان مستمتعاً بكأس العرق وهو يرتشف منه بهدوء طالما أحببته، سألني إن كنت بحاجة إلى مساعدة في دورسي للمرحلة الدراسية الجديدة، كنتُ حينها قد بدأت الدراسة في السنة الخامسة من الدراسة الثانوية منذ قرابة الشهرين، أخبرته بأن الدروس تبدو بسيطة حتى تلك اللحظة، ولا أعتقد بأني سأحتاج إلى مساعدة تُذكر، على ضوء ذلك طلب مني أن أخبره حالما احتجت إلى مساعدة، فوافقتُ مبتسمة. ناولني بضع حبات فستق، بينما لم يكن أخي ليث بحاجة إلى من يناوله، فقد اعتاد مشاركة والده مزَّته، وكان أبي كثيراً ما يشاكسه، متصنعاً بعض الامتعاض من سرعة التهام ليث لما تحتويه الأطباق، وفي كل مرة يعلن فيها أبي امتعاضه، تدخل والدتي بنوبة ضحك عارمة لا تنقصها السعادة.

"حُب أمي الجارف لليث، جعله فارضاً سيطرته عليها بشكل كامل، ومتعبًا بكثير من الأحيان، وكان ذلك يشكل مصدراً لسعادتي".

بعد لحظة سكون، أخبرنا والدي أنه قابل والد "سميّة" وهو في طريقه إلى البيت، فأخبره أن "سميّة" بحاجة إلى من يساعدها في دورسها كونها قد قررت أن تحصل على أعلى درجات امتحانية تؤهلها لدخول كلية الطب. الحقيقة، كان والدي فرحاً بقرار ابنة صديقه، وأشاد به مشيراً إلى ضرورة الانتباه بجدية تامة إلى الدروس والواجبات المدرسية كونها تحدد المستقبل...

"وكيف انتهى اللقاء بينكما؟" سألته أمي مبتسمة بخبث، فأخبرها، أنه وعد الرجل ترشيح من يجده كفئًا لتدريس سمية، وطلب منه بعض الوقت.

سحب ليث صحن السَلَطة، وبدأ يلتهم منه على عجل، فصاحت به أمي أن يعيد الصحن حيث الطاولة ويمضغ ما ملأ به فمه جيداً.

بعد أسبوع من تلك الأمسية، وحين كنتُ أتمشى مع زميلاتٍ لي داخل ساحة المدرسة، لاحظتُ أن "سُميّة" لم تقترب مني، ولم تفعل ذلك طوال الأيام القليلة الماضية، وحين توجهتُ نحوها بغرض الحديث معها كما تعودنا، افتعلتْ الانشغال بشيء ما وأدارت ظهرها متوجهة نحو الممر المؤدي إلى الصفوف الدراسية وكانت تمثل دور الفاقد لشيء ما، بطريقة بائسة، وصارت تبحث عبثاً في جيبَي صدريتها المدرسية. عدتُ حاملة حيرتي التي سرعان ما نسيتها على إثر سماع قهقهات زميلاتي اللواتي كنّ قد بدأن بتبادل النكات والطرائف فيما بينهنَّ. لكن موقف "سُميّة" وسبب هروبها مني وعدم رغبتها في لقائي، حتى وإن كان محض صدفة، بات واضحاً لي بعد عدة أيام، حين قال أبي في إحدى الأمسيات جواباً على سؤال أمي له، بأنه قد رشَّحَ شفيق ابن أخيه مدرساً لسُميّة في مادتي الرياضيات والفيزياء عله يخرج من أزمته النفسية التي ألمت به نتيجة بتر ذراعه. حينها فكرتُ بأن شفيق قد طلبَ منها أن لا تلتقِي بي، ولأسباب أجهلها أو قد أكون قد تجاهلتها حينها، ولكن، وبعد مضي بضعة شهور، وما أن بدأت العطلة الصيفية وكانت الحرب في أوجها، حتى أعلنت العائلة خطبة "شفيق" لجارتنا "سُميّة". في تلك اللحظة، وحين سماع الخبر اتضحت كل الصور وباتت أوضح من شمس صيفنا اللاهب.

عمدتْ أم شفيق إلى زيارة أمي في بيتنا حين كنتُ أجلس في كافيتيريا كلية طب الأسنان مع الدكتور ماجد نتناول وجبة غداء. دخلتْ أم شفيق

بيتنا بعد أن تأكدتْ من عدم تواجدي هناك، وكانت زيارتها قصيرة جداً، طلبتْ من أمي أن تمنعني من اللقاء بـ "سُميّة" أو التقرّب من شفيق، وأخبرتها بعدم رغبة العائلة بزيارتي لبيتهم وأنني من الأشخاص غير المرحب بهم مهما كانت طبيعة المناسبة، سارَّة كانت أم حزينة، وقالت بصريح العبارة كما أخبرتني أمي: "حياة نذير شؤم على شفيق وعلى العائلة، فلا أريد أن تتعس ابني المسكين في حياته... دعوه يفرح مثل بقية الناس، وإن كان بذراعٍ واحدة.".

وكانت أمي قد سمعتْ، بأن أم شفيق قد استعانت بعرّافة لتكشف لها مستقبل ولدها، فما كان من العرّافة إلا أن تحذرها من فتاة شابة تنتمي إلى عائلتها، تضمر لابنها كلّ الشرّ. وقالت لها أيضاً، بأن الفتاة تجهد في عمل سحر قاتل لزوجة ابنها، رغم أنه لم يكن متزوجاً... ذلك ما صارت أم شفيق تدور به حول بيوت كل الأقرباء والمعارف، لأكون بعيون البعض، الشريرة التي يجب الحذر منها...

ذلك، هو السرّ الذي جعل "كل" أصدقائي، من الشبّان فقط... فقد قررت الفتيات خوفاً من شرور السحر وطمعاً بالزوج المناسب، عدم الاقتراب مني. فما نشرته زوجة عمي بين أقربائنا نقلاً عن لسان العرافة، جعلني دون صديقات، كما جعلني قليلة الحضور في المناسبات العائلية. صرتُ أشعر بأنني لعنة عائلية تتحاشاني جميع الإناث، بينما كان أغلب الشباب من أقربائنا، أصدقاء لي رغم تحذير نساء عوائلهم مني، لا أحد يعلم حتى اللحظة بأنني كنتُ أعلم بذلك وكلما اتضح لي ذلك في مناسبة ما، كنت أضحك كثيراً، مرددة: "يا لهذه العائلة الكريمة، يتحاشونني، ويحتفون بشرف مخيط بيد طبيب نذل...".

***

شظية قذيفة بترت ذراع شفيق بعد ستة أشهر من سوقه إلى الخدمة العسكرية الإلزامية، لم أكن أنا من أطلق القذيفة، ولم أكن من ساق شفيق إلى الخدمة العسكرية، ولستُ من أجبره على ترك الدراسة، لكنني تحملت تبعات تلك الذراع المبتورة...!!

***

ربما كان الأخذ بالثأر ما يقف وراء قرار "سميّة" بدراسة الطبّ، لتصبح طبيبة يمكنها خياطة شرف عاشقات على وشك الانتحار، أو لتغسل من ذهنها، صورة ذليلة رسمتها أنامل الطبيب الذي خاطها ورتق شرفها.

تزوج شفيق من سُميّة بعد أن ظهرت نتائج الامتحانات الوزارية، وقد نجحت بالفعل، ولكن، بدرجات متدنية جداً، فضاع منها حلم الطبيبة التي تنذر نفسها لمساعدة المرضى وبعث حياة جديدة بأرواحهم المتعبة، ضاع حلمها ولكن تحقق لها الواقع، بزواج كسيدة تنتمي إلى مجتمع يحترم عاداته وتقاليده، لتنتمي إلى عائلة معروفة بسمعتها الطيبة، والدرجات العلمية التي يحملها العديد من أفراد عائلتي.

حين أخبرتُ ماجد، بأنَّ "سُميّة" قد تزوجت من ابن عمي شفيق، اضطرب وتغير لونه، وصار يتلعثم، حتى إنّه أفرغ قنينة الماء التي أمامه على جرعات صغيرة متلاحقة بحركات لا تنقصها هستيريا التخبط. سألته أن يحدثني بكل صراحة، وبالتفصيل عن كل ما أجراه وزميله الطبيب الجرّاح ليخلصا سمية من محنتها ويعيدا إليها عذريتها، رفض ووقف معلناً المغادرة وعلامات الحيرة والاضطراب واضحة على ملامحه وجسده المرتعش، لكنني قلتُ له وبصرامة واضحة: "إن تركتني وغادرت الآن دون أن تجيب على سؤالي، فلن تراني مرة أخرى.". جحظت عيناه، ووقف صامتاً لثوان،

ثم جلس وتناول قنينة الماء التي أمامي ليشرب نصفها، ثم قال، وكنتُ قد التزمت الصمت بشكل تام وأنا أنظر عميقاً داخل عينيه:

"تمت خياطتها بعد أن تأكد صديقي الدكتور من عدم الحمل، لا أعرف ما الذي جرى بين سُميّة والدكتور، لقد أوصلتها له وطلبت منه الاعتناء بها كونها تهمني، كان الدكتور يظن بأنني من فض غشاء بكارتها، فسألها، ونفت، ثم، وبعد أن تأكد مني شخصياً بأنني لست من تورط معها، بالاضافة إلى تلمسه مسحة جمال وأنوثة لدى سمية، أفلح في استمالتها، وعقد معها اتفاق، على أن يقوم بممارسة الجنس ثمناً لإجراء العملية، فوافقت سُميّة بعد ممانعة غير صارمة، فمنحته ما يريد لثلاث مرات خلال أسبوع، ثم أجرى لها بعد ذلك عملية الرتق "مجاناً".

"مجاناً!!، بعد كل هذا وتقول مجاناً؟".

"لا... أكيد ليس مجاناً... بل كان الثمن باهظاً، ولكن هذا ما حدث، ومن اللحظة التي أخبرني بها صديقي الدكتور قصته مع سمية قطعت علاقتي به نهائياً...".

ارتعش بدني، وصارت دموعي تنهمر دون دراية مني.

طلبَ مني "ماجد" أن أكف عن البكاء، فبعض العيون تلاحقنا بنظراتها، فطلبتُ منه مغادرة المكان وتركي لوحدي، ففعل.

انقطعتْ زياراتي لكلية طبّ الأسنان، وصرت أعيش دوامة مريرة ليس لها ملامح، وانتابتني نوبة إغماء لمرتين، كانت كافية لتثير الرعب في بيتنا، أذكر تماماً أن في الحالتين كان قد فاض بي الشوق لرائحة الذكورة، حتى دخلت نوبة بكاء لم أفق منها إلاّ وأنا بين جمهرة من الأيادي والوجوه الشاحبة خوفاً.

الظاهر أنني كنت أهذي وأتمتم ببعض الكلمات أثناء نوبة الإغماءة، عرفتُ من والدي بعد النوبة الثانية، بأنني كنتُ أطالب بضرورة طلاق

شفيق من "سُميّة"، أخبرني والدي بذلك، حين أجلسني إلى جانبه وسألني سؤالاً مباشراً:

"هل تحبين شفيق ابن أخي؟... هل أنتِ آسفة لزواجه من سُميّة؟". كان سؤالاً صادماً، أذهلني. صرتُ أتلعثم وفقدتُ المقدرة على النطق، ولكن، وبعد برهة استطعت خلالها لململة روحي التي بعثرها الارتباك، سألت والدي عن السبب وراء سؤاله، فأخبرني بما نطقتُ به هاذيةً عندما كنتُ غائبة عن الوعي. ابتسمتُ بتشنج وارتباك وقلت إنها مجرد هلوسات، ثم رحت شارحة الفرق بيني وبين شفيق، وعدم تفكيري بالزواج منه أو بغيره كوني صغيرة السن وأمامي مستقبلي الدراسي الذي أعده أهم بكثير من كل المتطلبات الشخصية. ربت على ظهري وقبلني ثم قال: "أعرف أن "حياتي" أكبر من وساوس وأقاويل النسوان..." تلك الجملة كانت كافية لتحثني على اكتشاف حقيقة ما كان يدور على ألسنة النساء، فقد انتشرت كلمات هذياني بسرعة كبيرة بين عوائل أقاربنا، وأجمع الأغلبية على أنني أشعر بتأنيب الضمير صوب شفيق كوني رفضت حبه، وكان ذلك السبب المباشر لتركه دراسته وضياع مستقبله وبالتالي عوَقهُ حيث أكلت الحرب إحدى ذراعيه.

صارت أم شفيق تكرهني أكثر، وصارت تردد على مسامع أقاربنا جملة باتت تشتهر بها:

"الملعونة، حياة المنحوسة، صاحبة الوجه المشؤوم، تريد تحطيم ولدي بأي ثمن..." ذلك ما وصل مسامعي لأكثر من مرة وعلى لسان العديد من بنات عمومتي.

في لحظة صفاء، كنتُ أجالس والدي الذي دعاني لسماع موسيقى الأسطوانة الجديدة التي جلبها حديثاً، هدية من أحد أصدقائه الأساتذة في الجامعة، الذي كان يدرس في باريس. وقبلَ أن يدير الأسطوانة، صار

يحدثني عن قصتها وموسيقاها وعن مؤلفها الروسي "كورساكوف"، الذي ألفها بعنوان "شهرزاد"... صمتَ ثوانِيَ، ثم طلبَ مني أن أقرّب الكرسي الذي أجلس عليه إلى كرسيه، ابتسمتُ فرحة ورحت ملتصقة به بعد أن ألصقتُ الكرسيين ببعضهما. وضعتُ رأسي على كتفه، فوضع كفه الحنونة على رأسي، وسألني بصوت خافت، كان أرقّ من زقزقة عصافير نخلتنا: "هل تتمنين بالفعل أن يطلّق شفيق زوجته؟". هززت رأسي الذي ما زال ملتصقاً على كتفه علامة الإيجاب. سألني عن السبب، فقلت هامسة أيضاً، وكنتُ أعرف أن همس والدي كان يذهب مبتغاه صوب أمي وأخي الصغير، حرصاً منه أن لا يسمعاه، قلتُ: "لأنها لا تليق بعائلة مثل عائلتنا... هل تذكر تعنيف أمي لي حين أرافق "سُميّة" بمشوار ما؟ هل تذكر ما كانت تقوله عنها؟ إنها بالفعل كما أشارت إليه أمي، فكيف تكون زوجة لرجل بمثابة أخي؟".

***

مضى شهر بأكمله لم ألتق فيه بماجد، وصار شوقي لرائحة "الرز المبزول" يكاد يفتك بي، كنت ألوذ بأبي رغم أن رائحة جسده ليست التي أبحث عنها، ألوذ به لوذ البنت بحنان أبيها، أحتضنه، أقبله، وأحياناً أطيل احتضاني له، فيبعدني عنه ضاحكاً وهو يحاول أن يذكرني بأنني أصبحتُ كبيرة الجسد وثقيلة عليه، وكانت حركته تلك تريح أمي قليلاً بعد أن تكون قد لابت وارتبكت حركاتها واضطربت كلماتها، وكان والدي يضحك لغيرة زوجته من ابنتها...

غالباً ما أكون المسؤولة عن تسليم واستلام بدلات أبي وملابسه عند المكوى الكائن بداية الزقاق جهة الشارع العام، زقاقنا الطويل الذي يبدأ من الشارع العام الرئيس حيث الحافلات والحركة المرورية المزدحمة ساعات النهار، ينتهي بمزرعة على ضفة نهر صغير تفصل بين الحيّ السكني

ومدرستين للبنات، مدرسة ابتدائية وأخرى ثانوية، التي هي مدرستي، وكان بيتنا وسط الزقاق تماماً.

في ذلك النهار طلبتْ مني والدتي تسيلم بدلة والدي الرمادية إلى المكوى بغرض الغسل والكوي، وأعطتني قميصين قالت إنهما بحاجة إلى الكوي فقط، وكان ذلك واضحاً كونها تناولتهما من منشر الغسيل مباشرة.

حين وصلت المكوى لم أجد العم تومي هناك، بل كان هناك شاب طويل أسمر فاحم الشعر، ذكّرتني تسريحته بألفيس برسلي الذي كنت أسمع أغانيه وأترجم كلماتها طمعاً بتعلم اللغة الإنكليزية. كان الشاب يربط حول عنقه على طريقة أبطال أفلام الكاوبوي، منديلاً بلون البخار المتصاعد من ماكينة مكواته الضخمة.

حين التفتَ صوب باب المحل وشاهدني، ترك المكواة وأقبل مبتسماً، شعرتُ بنظراته، كرات زجاجية ساخنة تتدحرج على جسدي من الأعلى حتى استقرت عند النَّهدَيْن. رجعت خطوة إلى الوراء مانحة إياه نظرة الغواية المبتسمة بعد أن وضعتُ الملابس على طاولة الاستلام، وسألتُ عن العم تومي فأخبرني بأنه قد سافر شمالاً ليومين فقط، ثم سألني عن حاجتي بما يخص الملابس فشرحت له ما أوصتني به أمي.

سحب دفترًا صغيرًا وراح يدون اسم والدي، وبعض كلمات لم أنتبه لها، ثم قطع نصف الورقة وأعطاني إياها. نظرَ إليَّ مبتسماً ثم طلب مني الانتظار، فقد قرر كيّ القميصين على الفور، شكرته وبقيت واقفة. صار الشاب يشتغل على ماكينة الكوي الساخنة وهو يلقي بكُراتِ نظراته الساخنة على جسدي بين لحظة وأخرى، وقد أبت ابتسامته مفارقة شدقيه، حين ذاك، بدأتُ أشم رائحة ذكورية مختلطة برائحة بخار ساخن، كانت تصلني خفيفة، ولكنها سرعان ما صارت تتكثف حتى صارت أكثر حضوراً، خصوصاً حين فكَّ الشاب منديله الذي كان يطوق رقبته، ومسح

به وجهه ورقبته، ثم راح يعيد ربطه حول عنقه مرة أخرى... كانت رائحته الذكورية قد أعادتني إلى كرسي طبيب الأسنان الذي ما زال يحلم بقبلة من شفتي المكتنزتين – حسب رأيه –واللتين كنتُ امنحهما له في تخيلاتي أمام المرآة فقط، فهو وباستثناء اللمسات التي كنتُ أمنحها له عن قصد متصنعة العفوية، لم يحظَ بلمسة مني تشير إلى قبوله حبيباً حتى اللحظة. نظرتُ صوب الشاب ممشوق القامة وبدرت مني ابتسامة أعتقدُ أنه لاحظها بعمق، حينها خطرت لي فكرة وجدتها ممتعة، فأخبرته بأنني سأعود بعد فترة قصيرة يكون فيها قد أنجز كيّ القميصين.

في طريقي إلى البيت، وحين عدتُ مسرعة لتحقيق ما فكرت به، تنبهت إلى أنني أرتدي قميصاً شفافاً، وأن السوتيان الأبيض كان واضحاً وضوح الشمس، لدرجة أن شفافية القميص "الجرجيت" قد أظهرت لون بشرة جسدي البيضاء المحمرة، وذلك ما زاد من سرعتي صوب الدار. وحالما وصلت، وبرغبة خبيثة في إطلاق العنان لموهبتي في الكذب وإغاظة أمي، صرتُ أصرخ بوجهها مطالبة إياها الانتباه إلى ما أرتديه حين أروم الخروج كون ذلك من واجبها. وقفتْ "أم حياة" ذاهلة أمامي ولم تنبس بكلمة. تركتها مفتعلة الغضب ودخلتُ غرفتي مسرعة. استبدلت قميصي، ثم دخلت الحمام لثوان وخرجت متجهة صوب مكوى العم تومي، في الطريق أخرجتُ الموسى الذي اخذته من عدة حلاقة والدي التي تنتصب على الرفّ الملاصق لمرآة الحمام، وبضعتُ به إبهام كفي اليسرى، كانت البضعة خفيفة مما اضطرني إلى عصر الأصبع حتى تدفقت بضع قطرات دم احتفظتُ بها حتى وصلت واقفة أمام العامل الشاب ماسكة أصبعي، مفتعلة الألم، وما أن نظرَ صوب الأصبع حتى بادر إلى البحث عن شيء يربط به الجرح، فقلت له وكأنني وجدت الحل الأمثل: "المنديل حول عنقك، أجده كافياً حتى أصل البيت.". انتزع المنديل بخفة ثم طلب مني مدّ يدي حتى يربط الجرح. وصلتني أنفاسه الساخنة المختلطة برائحة التبغ

فارتجف جسدي، وتذكرتُ رائحة أنفاس جدي حين كان يهدهدني كي أنام ملتصقة إلى صدره...

حين دخلتُ البيت حاملة قميصَي والدي، وجدتُ أمي باكية، تندب حظها، قبّلتُ رأسها واحتضنتها معتذرة. نظرتْ صوبي بعينين دامعتين، وقالت بأسف واضح: "يا ابنتي، أنا أمك... ولستُ زوجة أبيكِ..." احتضنتها معتذرة مرة أخرى، ثم أفلتُ جسدي بخطوة إلى الوراء، واتجهتُ مسرعة إلى غرفتي كأنني على وشك البكاء، ذلك ما أردتُ الإيحاء به لأمي، ولكن ما أن دخلت الغرفة واقفلت بابها ورائي حتى أطلقتُ ضحكات مخنوقة الصوت وكأنني انتصرتُ على عدو جبار.

انتزعت المنديل من يدي، وبعد أن خلعتُ آخر قطعة ملابس عن جسدي، وتعريت تماماً، صرتُ أطوّح بالمنديل في فضاء الغرفة وأنا أردد في سريرتي... "انثر شذاك أيها الشبق... انثري شذاكِ أيتها اللهفة، وليمتلئ الفضاء بسر لذتي...". صرتُ أدور كدرويش صوفي راقص وكفّي مرفوعة نحو الأعلى ومن بين أصابعها يتدلى منديل الشاب المترع برائحة رجولته المعطَّرة.

استلقيت على سريري ونمت بسعادة غامرة، سعادة المنتصر التي صارت تغمرني كلما نجحتُ بتنفيذ خطة رسمتها...

وجدتني أعدو قرب النهر بقدمين حافيتين، وحين نظرتُ صوب عثوق التمر الناضج ذهبي اللون، صارت العراجين تقترب مني وكأنّ النخلات قد انحنت تحية لي، وليقدمن ما أشتهي من التمر... في لحظة، بدأت العراجين تعود إلى علوّها، لكنّ المسافة بيني وبينها لم تتغير، فانتبهتُ إلى أن قدميّ صارتا تبتعدان عن الأرض... فصرختُ والسعادة تغمرني... "أطير... أنا أطير... أطير..."

***

"لحسن الحظ... لا تتأثر مرآتي، بأجواء الحرب".

***

ما أن صحوتُ من نومةٍ لذيذة، حتى دخلتُ الحمام، اغتسلت بالماء البارد الذي أعشق... برودة الماء تشد بشرة جسدي الوردية، وتضفي عليها حمرة أتصور على إثرها أنّ جسدي قد تحول إلى مصباح متوهج... أتلمس الحلمتين المتنعضتين بفعل البرودة، لأجدهما وقد صارتا حبتَيْ عنب شهي.

لم أعرف من قبل، فتاة معجبة بجسدها وتفاصيل أنوثتها مثلي... لكنني سأكتشف فيما بعد أنّ أغلب الفتيات مثلي...

نشّفتُ جسدي وأخذتُ علبة "الصيدلية" الصغيرة معي إلى غرفتي، وهناك، وبعد أن ارتديت ملابسي أمام مرآتي الجميلة، ضمَّدتُ جرح أصبعي بلاصقٍ للجروح، ثم أعدت العلبة إلى خزانة الحمام لأدخل بعد ذلك غرفة والدي باحثة عن أحد مناديله التي كانت والدتي تغسلهم وتكويهم بعناية لتصُفهم داخل خزانة الملابس بترتيب دقيق. أخذتُ أحد المناديل، وخرجت متوجهة صوب مكوى العم تومي. وفي المسافة الفاصلة بين بيتنا والمكوى والتي لا تزيد عن الخمسين متراً، لاحت لي سمية بهيئتها التي أعرف، ولكنها ما أن رأتني حتى عادت أدراجها صوب الشارع العام... هربتْ "سُميّة" من مواجهتي، رغم أني لم أفكر في مواجهتها، بل لا أريد منها شيئاً رغم رثائي لحال شفيق المسكين.

وقفتُ عند باب المكوى وكان الشاب يقف خلف ماكينته النافثة للبخار في عمق المحل، وما أن رآني، حتى أقبل مبتسماً ومن ثم مرحباً وهو يسأل عن حال أصبعي، وكان قد ناداني بـ "آنسة" التي كان وقعها حلواً في روحي، ويبدو أنه نطقها بموسيقى مؤثرة... شكرته وناولته المنديل الذي اخترته له، موضحة أنه بديلاً عن منديله الذي لم يعد صالحاً كونه قد تلوث بالدم. رفض استلام المنديل الجديد، وقال أن منديله الذي لفّ به أصبعي،

قديم ولا يستحق كل هذا الاهتمام مني، لكنني أصريت على إعطائه المنديل، وحين وجدته مصراً على موقفه قلت: "أرجوك، خذه وإلا سأزعل..." أطلق ضحكة لا تنقصها الدهشة، وتناول المنديل من يدي قائلاً بخبث واضح: "لا يمكنني أن أتسبب في زعلك، وأعتبر هذا المنديل هدية منكِ..." ابتسمتُ له ثم حيَّيتهُ واستدرتُ بخطى سريعة نحو دارنا، وما أن وصلت باب البيت حتى ألقيت نظرة باتجاه المكوى، فوجدت الشاب واقفاً ينظر صوبي وكأنه أراد معرفة البيت الذي أسكن.

***

بمجرد أن تجاوزتُ باب بيتنا رادةً درفتها ورائي، حتى سمعت أمي تناديني، كان صوتها قادماً من المطبخ. امتثلتُ أمامها مبتسمة وأنا أنظر صوبها دون أن أقول شيئاً. حدجتني بخبث كعادتها وقالت: "سيأتي والدكِ بعد ساعة ومعه ضيف. علينا إعداد وجبة طعام تليق بنا..." ضحكتُ، وقلت هازئةً: "تليق بنا أم بالضيف؟... هو الذي سيأكل ويفصح عن رأيه بالطعام..." حدجتني مرة أخرى ولكن بشيء من العصبية وقالت: "بل تليق بنا، تليق بأبيكِ ومكانته وسمعته.".

"طيب.. طيب... وهل عرفتِ من هو الضيف؟".

"لا... ليس مهمًا، وليس من عادتي أن أسأل مثل هذا السؤال.". ثم ناولتني بعض الخضار المغسولة وطلبت مني إعداد السلطة.

جلست حيث طاولة الفطور، كما كنا نطلق على المنضدة المرتكنة إلى أحد جدران المطبخ، كوننا كنا نستخدمها وقت الفطور غالباً، وبدأتُ بالتقطيع، ولم أنسَ أن أدس بعض القطع في فمي اثناء ذلك، وكانت تلك عادة طالما أغضبت أمي...

"أين ليث... لماذا لا أحس بوجوده؟". سألتُ أمي دون النظر إليها، فردت عليَّ بسؤال لا يخلُو من العصبية:

"ماذا تريدين منه؟... إنه فوق، في غرفته، أو ربما يدور بدراجته على سطح الدار...".

"يا إلهي، كم أتمنى أن يبقى أخي صغيراً ولا يكبر..." قاطعتني أمي منتفضة وهي تخرج كلماتها بصوت عال يقترب من الصراخ:

"لماذا؟... لماذا يا مخبولة؟... هل تتمنين له أن يكون قزماً؟...". نفضت يدي بعصبية واضحة، ووقفتُ ناظرة صوبها لثوان، ثم غادرت المطبخ صوب غرفتي وأنا أردد: "هل تريدينه أن يكبر لتأكله الحرب؟... ألا تشعرين بالحرب، يا أم؟".

دخلتُ غرفتي منزعجة، وأذاني تستلم ترددات صوت أمي الشاكية من عنادي. استلقيت على سريري، ونمت دون أن أحرر ثدييَّ من سجن السوتيان كما تعودت، ويبدو أنني نمت لأكثر من ساعة، فقد ايقظتني رائحة محببة يبدو أنها تسربت من الفراغ البسيط بين بلاط الأرض والحافة السفلى لباب الغرفة.

بدأت الرائحة المنعشة تتكاثف، تماماً كما حيرتي، وصرت أحدّث نفسي بيقينٍ تام، بعد أن تذكرت ما اخبرتني به أمي بخصوص الضيف القادم مع أبي: "أعرف الضيف جيداً... رائحته خير دليل على ذلك...".

خرجتُ من غرفتي مسرعة لأدخل الحمام، كي أغسل وجهي وأزيل أثر النوم... الماء البارد دائماً ما يمنحني الشعور بالسعادة... خرجتُ من الحمام ورغبة عارمة تعتريني في اكتشاف صاحب الرائحة الذكورية التي أربكتني، أو اكتشاف صحة حدسي، وبمجرد أن دخلت الصالة بعد أن رتبت أنوثتي، حتى وجدتُ ماجد أمامي وأن الصالون قد احتفى برائحة "الرز المبزول" وثَملَ بها. تقدمت نحوه متباطئة ومددت يدي لأصافحه، فصافحني مبتسماً. ثم التصقتُ بأبي الذي احتضنته بلهفة وشغف وأنا أجلس إلى جانبه.

"الدكتور ماجد أتى خصيصاً لزيارتك، فقد أقلقه تخلفكِ عن مواعيد مراجعته في الكلية... يعتقد بأنكِ غاضبة، أو زعلانة منه..." قال أبي ذلك ثم أضاف مستفهماً: "متى انقطعتْ زيارتك عن الكلية؟... ولماذا لم تخبريني بذلك؟." . أربكني السؤال، وصرتُ أتلعثم فأطلق ماجد ضحكة خفية مسموعة الصوت وقال راجياً: "بعد أن نتناول طعامنا، ارجو أن تسمحوا لي باصطحاب حياة لنتمشى قليلاً قرب النهر، أعتقد بأنني قادر على إقناعها بالعودة إلى جلسات العناية بأسنانها.".

***

تمشينا متخذين من المزرعة جوار النهر مصدراً خصباً لحديثنا، فقد صار يحدثني عن الفلاح وطبيعته الإنسانية التي طالما نالت إعجابه وحرّكت داخله أفكار إنسانية رائعة، وبعد لحظة صمت، سألني:

"لماذا كل هذه القسوة، من أعطاكِ الحق بتعذيبي؟ تجاهلكِ لي، وغيابك غير المبرر، أفقدني التركيز لدرجة جعلتني أخطئ في عملي لأكثر من مرة".

"لم أفعل شيئاً، كل ما في الأمر أن أسناني باتت جيدة ولست بحاجة إلى زيارة طبيب أسنان.". توقف ونظر في عيني صامتاً، ثم قال بشفتين مرتجفتين: "هل اقترفتُ ذنباً أستحق عليه غيابكِ المؤلم؟".

"الذي حدث مع سمية، ألا تجده ذنباً، وقد ائتمنتُكَ عليها؟"

"إن زرتني غداً في غرفتي حيث الكلية، سأشرح لكِ الأمر."

"عودتي مشروطة أيها الدكتور الذي لا يريد الاعتراف بذنبه".

"ما الشرط؟".

"أن أتعرّف على الطبيب الذي استغل سمية، ثم خلصها من مصيبتها." . أطلق ماجد ضحكة وكأنها علامة للانتصار وقال بفرح غامر: "حين تكونين بغرفتي غداً، ستجدين الدكتور "معاذ" منسدحاً

على كرسي الفحص... هل اتفقنا؟". ابتسمتُ له ووافقتُ بهزة من رأسي، انسدلتْ على إثرها خصلة من غرتي الطويلة على جبهتي، فمد "ماجد" أصابعه ليعيدها إلى مكانها، وكأنه يعلن اهتمامه الفائض بي، وليعلن أن الجفاء قد رحل بعيداً وأنَّ ما بيننا قد عاد إلى ما كان عليه. ابتعدتُ بجسدي خطوة إلى الوراء، ناهرةً إياه.

***

في كلية طبّ الأسنان، ومن بعيد، وأنا أجتاز الممر الطويل، شاهدتُ ماجد واقفاً عند باب غرفته مكتّف الذراعين وكأنه ينتظر زائراً مهماً أو خبراً مصيرياً، وما أن وقعت نظراته عليَّ حتى تهللت ملامحه. تقدم نحوي، وكان واضحاً أنّ رغبة الاحتضان تعتريه... تصافحنا، فاعتصر كفي برقة فائقة، ثم قادني إلى غرفته، وبمجرد أن تجاوزتُ إطار باب الغرفة حتى شاهدت شاباً وسيماً قدَّرتُ أنه أطول بكثير من ماجد رغم أنه كان مستلقياً يحتويه كرسي الفحص بكامله، وحين شاهدني، نهض واقفاً مرحباً: "آنسة حياة، أقدم لكِ نفسي، معاذ، طبيب جرّاح...". أطلق ماجد ضحكة مصحوبة ببعض كلمات:

"جرّاح، ويفكر بمزاولة مهنة الطب التجميلي، أعتقد أنه سيكون أشهر طبيب تجميل في البلد...".

"جمال الروح لا يحتاج إلى طبيب، بل إلى ثقافة إنسانية عالية تعرف كيف تحترم الآخر". قلتُ ذلك وأنا أتخذ من الكرسي المجاور لكرسي الفحص مكاناً لي.

"أيعجبكِ عصير البرتقال البارد، أم سخونة الشاي تغريكِ أكثر في هذه اللحظة؟" سألني ماجد وعلامات الفرح مرتسمة على ملامحه، فقلت:

"الشاي في كافيتيريا الكلية له طعم خاص حين أكون مع الدكتور معاذ فقط.".

لاحظتُ علامات انزعاج على ملامح من اعتنى بأسناني لمدة عام أو أكثر بقليل، ولكن معاذ الذي انتصب واقفاً، متهلل الملامح أنقذ الموقف وهو يشير لي بحركة مسرحية محببة، أن أنفلت من باب الغرفة خارجاً على عجالة.

تركنا ماجد في غرفة الفحص، واستقلينا المصعد الكهربائي النازل حيث الكافيتيريا.

جلستُ قبالته، ومع أول رشفة، سألته بجرأة واضحة:

"لماذا تكون المتعة ثمناً لرتق شرف فتاة مغلوب على أمرها؟". تجمدت ملامح معاذ وكأنّه لم يفهم ما رميت إليه، فأضفت بصلابة أكثر:

"أقصد سُميّة التي تمتعتَ بها لتضيف إلى مصيبتها مصيبة أخرى قبل أن ترتق شرف مجتمعها الزائف.". شعرت بارتعاد جسده، وارتجاف أصابعه بوضوح أمام عيني، مددت كفي لألامس كفه بهدوء، وأنا أقول:

"اهدأ!... لست هنا لمحاسبتك، لست شرطياً... أريد فقط معرفة إن كانت سمية قد شاركتك المتعة، أم أنكَ شعرت بعدم رضاها وأنها كانت مجبرة على ذلك.". حين أنهيت جملتي، قرأتُ ملامح ابتسامة مرتجفة قد ارتسمت على شفتي معاذ المتوجتَيْن بشارب خفيف مشذب. رجع بظهره إلى الوراء وهو ينظر بعينيَّ نظرة متفحصة وكأنه يستفهم عن صنف البشر الذي أنتمي إليه وما مصدر القوة التي أرتكز عليها لأتقمص دور المحقق أمامه. دعك فروة شعره جهة الرقبة وقال بكلمات متتابعة ببطء:

"يومان وماجد يصف لي شخصيتك طالباً مني عدم إخفاء أي معلومة عنكِ، أقصد اليومين المنصرمين، ولكنه لم يقل لي بأنكِ جميلة الشكل والروح كما أراكِ الآن...". قاطعته بحدة لا تخلو من الغنج قائلةً: "لست هنا لتتغزل بي، بل أريدكَ أن تجيب على سؤالي بكل صراحة.". راح معاذ ينظر إلى اليمين والشمال بضيق واضح وهو يزفر ثم قال:

"كانت تشاركني المتعة بمزاج رائع وجميل، وفي المرة الثانية صارت تسمعني كلمات ألهبت مشاعري وأثارت كل زاوية من أحاسيسي...".

"هذا يكفي...". قلت وأنا أهم بالوقوف، ثم أضفتْ: "أشكرك لأنك أنقذتها، أقصد أنقذت شرف عائلة لا ذنب لها إلا لأنها تعيش قانون المجتمع...". وقف معاذ لا يدري ما ستكون الخطوة المقبلة، حتى أشرت له بأن ماجد بانتظارنا.

***

لكرسي طبيب الأسنان، عالمه الخاص وتأثيره الساحر، صرتُ دائماً ما أراه وكأنني عدسة كاميرا مثبتة حيث السقف، عدسة تسجل انفعالات شاب تربى في مجتمع لا يستسيغ الاحتكاك بين الجنسين، فعاش قلقاً محروماً من فكرة التقرب من المرأة، ليجد نفسه دون مقدمات أو تخطيط مسبق، في غرفة مغلقة وأمامه فتاة بكامل فتنتها مضطجعة على سرير الفحص، يلمس شفتيها ووجنتيها، ويوجه لها أوامر بسيطة ولكنها مؤثرة جداً نظراً لاستسلام الفتاة، وتنفيذها الأوامر باسترخاء ورضا. عند ذاك يمكنه أنْ يتجول بسخونة نظراته على كامل جسدها، خصوصاً وأن سنتيميترات قليلة تفصله عن مفاتن أنثوية تعدّ أحد أهم أحلامه...

المرأة التي لا تختلف عن الرجل بشيء فيما يخص التربية المجتمعية وقوانينها، والتي تطيع أمر الطبيب بالاستلقاء على كرسي الفحص، تعي تماماً بأنها تقترب من ذكر، تشم رائحته تنظر في عينيه تقيس المسافة بين شفتيه وشفتيها التي تشعر بأنامل الطبيب وهي تلامسها... تلك الفكرة صارت مثار بحثي وتفكهي وبقيتْ سنوات طويلة تشغل تفكيري بمتعة خاصة حتى تأكدت من أن المرأة، والفتيات على وجه الخصوص، غالباً ما يحبذن طبيب الأسنان الرجل على الطبيبة المرأة، فهي حين تضطجع على كرسي الفحص "الحميمي" تشعر بأنها مستلقية بكل شهوتها تحت سطوة

الرجل الذي يهيمن على المشهد، يداعب شفتيها، أو ربما يمرر إحدى ذراعيه زائراً صدرها، تتلمس حرارته وتشعر بلهفته وتقرأ رغباته...

حين صرتُ تحت تأثير تلك الفكرة، وبتُّ أسأل بعض النساء عن طبيب أسنان شاطر، كان الجواب غالباً ما يُلحَق بعبارة "طبيب شاطر جداً، لكنه متحرّش شاطر أيضاً..." والأكثر غرابة في الأمر، أن ما من امرأة قيل لها ذلك إلاّ وأصرت على الذهاب لذلك المتحرّش!!

***

صرتُ أتتبع رائحة الحزن في شوارع المدينة، في عيون اليتامى، أتتبع رائحة الفقد في ثياب الأرامل السوداء، صرت أجد رائحة الحزن بكل مكان، بل صرت أشم رائحته طيلة السنوات التي تلت...

"رائحة الحزن، الابنة النزقة لرائحة الحرب... تصل المدينة مغلّفة بصناديق خشبية، هديّة للصمت..."

(4)

أعترف بأنني لست قارئة جيدة، لكنني قارئة روايات نهمة، روايات فقط، كونها تمنحني المتعة وأنا أعيش أحداثها متخيلة أماكنها، ومتلمسة كل شيء يتلمسه ويعيشه شخوصها، لدرجة أن مخيلتي غالباً ما تأخذني لأشارك الشخوص أفكارهم وأحلامهم وأكلهم وشربهم وحتى لحظات الحب.

كنت، قد اعتدتُ على كتابة ملاحظات حول ما أقرأ ضمن اليوميات التي أدونها في دفتر خاص كتبت على غلافه وبألوان مختلفة (لكل حرف لونه الخاص) عبارة "الدفتر الصديق"، وحين الانتهاء من قراءة الرواية كنت غالباً ما أكتب رسالة إلى المؤلف، أبين فيها رأيي بروايته الذي غالباً ما يكون إعجاباً وثناءً... أتذكر أنني كتبت رسالة إلى أرسكين كالدويل حين أنهيت روايته "طريق التبغ" وإلى نيكوس كازانتزاكيس لأكثر من مرة، لكنني احتفظتُ بها لنفسي، كوني لا أعرف عنوان المؤلف البريدي، ولكن، الممتع في الأمر، كانت تلك الرسائل العديدة التي كتبتها لبعض الكتّاب السوفيت حين اكتشفت أنّ ثمة عنوانًا بريديًّا مثبتًا في الصفحة الأخيرة من كل رواية، تطلب فيها دار النشر رأي القارئ فيما قرأه. منذ ذلك الحين صار شغفي بالروايات السوفيتية عظيماً، وصرت أبعث الرسائل البريدية دون أن أغفل، تثبيت ملاحظتي "المهمة" التي تطلب راجيةً إيصال الرسالة إلى المؤلف شخصياً، وأعترف الآن بأنني بعثت رسائل عديدة إلى دوستويفسكي، وكنت أنتظر رده بشغف، لكنني توقفت عن إرسال الرسائل حين عرفت أن أغلب الروائيين الذين راسلتهم قد ماتوا منذ زمن طويل، وأن دوستويفسكي قد مات منذ قرابة المئة عام، لكنني لم أكف عن

كتابة الرسائل في دفتري "الصديق" الذي يضم بالإضافة إلى اليوميات، صورًا شخصيةً وجماعيةً لكل من أعرف أو مرَّ بحياتي، والذي صار عدة دفاتر ما زلتُ محتفظةً بها.

الأستاذ موسى صديق والدي، الذي يمتلك مطبعة في شارع المكتبات، والذي اقتطعَ متراً ونصف المتر من بوابة مطبعته، وبعمق خمسة أمتار ليكوّن منها مكتبة لبيع الكتب المطبوعة في مطبعته، وأخرى يختارها شخصياً، إذ يعتقد بأهميتها للقارئ الجاد، وقد عرفتُ فيما بعد، أنه يحتفظ بنسخ أصلية لكتب ممنوعة، يقوم بإعادة طباعتها وبيعها سراً لأشخاص يعرفهم...

أهداني العم موسى في إحدى زياراته لنا، رواية لكاتب عربي يعيش بالقرب منا، حيث المنطقة الراقية التي لا تبعد عن حيّنا سوى الخمسة كيلومترات تقريباً... لا أدري لماذا وجدتُ في الرواية نفسي، وتلبسني شعور بأن الروائي قد صوَّرني بإحدى شخصيات روايته، حيث كان يقصدني في العديد من المشاهد، خصوصاً حين يحلل ويصف شخصية بعينها من بين الشخصيات النسائية التي وجدتها تشبهني إلى حد بعيد، كنتُ حينها في المرحلة الخامسة من الدراسة الثانوية.

اجتهدت في تدوين الملاحظات وأنا أقرأ الرواية، بل شعرتُ بأنني أقدم دراسة مدرسية عن الرواية، وكان ما كتبته عند انتهائي من قراءتها، الأطول والأكثر تفصيلاً بالمقارنة مع كل الروايات التي قرأتها وكتبتُ رأيي فيها من قبل... حبستُ نفسي ثلاثة أيام إضافية لأعيد قراءتها وفعلت، لكنني كلما تعمقتُ في قراءة الرواية، تبعثرتْ تفاصيل كاتبها ونزواته ودوافعه الشخصية أمامي أكثر، حتى حين وصلت نهايتها وجدته أمامي عارياً، مراهقاً، نرجسياً، مولعاً بإغراء الفتيات، يحاول جاهداً إقناعهنَّ بأن قمة السعادة تكمن في مبادلة الحب مع رجلٍ يكبرهنَّ بكثير، وذلك ما دفعني للتحقق من فكرتي عنه، فتلبسني شعور غريب، شعور قلق يقودني إلى

ضرورة مقابلة الروائي صاحب الرواية... أعرف أنّه يسكن في قصر كبير ضمن شارع "الجميلات"، هكذا كان اسم الشارع ولا أدري من أطلق عليه تلك التسمية، ولكن أي بيت من تلك البيوت كان بيته؟ ذلك ما كان تنقصني معرفته...

بعد ظهيرة اليوم التالي، لبستُ أجمل فستان عندي، كان وردي اللون بزهور صغيرة بيضاء، ذا فتحة عريضة عند الأكتاف، مما يتيح إبراز منطقة الصدر وقليل من ما بين النهدين، ولا أدري من أين جاءت فكرة ربط شريط أحمر من الساتان حول رقبتي وعقده بعقدة الوردة، وكأنني أقدم رقبتي وجزءًا من صدري هدية إلى الكاتب الذي أسعدني بروايته... أخذت "الدفتر الصديق" معي، الذي صرتُ أتصفحه وأنا أتخذ من أحد مقاعد الباص مكاناً لي إلى جانب النافذة... صرتُ أقرأ ملاحظاتي حول الرواية، رغم انتباهتي إلى الراحة النسبية التي منحها لي السوتيان الجديد، الذي اشترته لي أمي بقياس أكبر من القديم الضيق الذي بات يزعجني خصوصاً عند الجوانب وتحت الأبطين تحديداً...

"كبر الثديان وصارت اللعبة أجمل..."

كانت الساعة تقترب من الخامسة عصراً حين دخلتُ شارع "الجميلات" وكنتُ قد اتخذت قرار عدم سؤال أي شخص عن بيت الأديب. قررت الاعتماد على حدسي وفراستي. لكن كل ذلك تبخر حين وقع نظري على مستطيل مرمري ملتصق بأعلى الدعامة الحجرية إلى جانب باب فيلّا، منقوش في وسطه بالخط الديواني اسم الأديب... وقفتُ أمام الباب مترددة بعض الشيء، لكنني وبعد ثوانٍ، وحين تأكدت من هندامي وتصفيفة شعري، وبروز النهدين. ضغطتُ على زر الجرس وانتظرتُ مبتسمة، وما هي إلا ثوانٍ معدودات حتى فُتح الباب لتظهر شابة تقاربني في العمر، لكن لون بشرتها أكثر دكنة مني، وقامتها أقصر طولاً،

"مساء الخير، اسمي حياة، أريد مقابلة الأستاذ.".

"هل هناك موعد سابق معه؟"

"لا... لم أكن أعرف أن عليَّ أخذ موعد من حضرته، ولا أعرف كيف.."

"طيب... لحظة من فضلك.". دخلت الفتاة وتركتني واقفة عند الباب قرابة الخمس دقائق، لتعود لي مبتسمة وهي تشير لي بالدخول: "تفضلي آنسة، الأستاذ بانتظارك...".

"آنسة"، كلمة ذكّرتني بعامل المكوى، الشاب الوسيم الذي ينام منديله برائحته المثيرة بين ثيابي داخل خزانة الملابس.

دخلتُ صالة مهيبة، أثاثها ينتمي إلى عصر النهضة، كل شيء فيها ضخم لافت للنظر، أرائك ثقيلة مصنوعة من خشب سميك داكن اللون يميل إلى الزرقة المسودة يذكرك بلون الباذنجان، وأقمشتها فضية مطعمة بخيوط ذهبية لامعة، وما أن صرتُ قبالة الأستاذ الذي كان جالساً، حتى وقف مبتسماً فارداً ذراعيه مرحباً بي... حركته أربكتني، كونها تشير إلى الاحتضان، وذلك ما لم أعتد عليه، تقدمتُ بخطوات متعثرة ثم مددت له كفي بغرض المصافحة وأنا أقف على بعد المتر تقريباً... أطلق ضحكة خفيفة وصافحني مرحباً ثم طلب مني الجلوس حيث الأريكة التي على يمينه. خلعت سترتي الصوفية وأنا أقف إلى جانب الكرسي، قبل أن أهم بالجلوس، وحين خطفتُ نظرة صوب الأستاذ، وجدته يمعن النظر بتفاصيل جسدي دون أن تفارقه الابتسامة.

حالما جلستُ، تأكدتُ من أن الرائحة الذكورية التي وصلتني وأنا أدخل الصالة والتي صارت تتضح عند الاقتراب، أنّها رائحة الأستاذ... كانت رائحة عتيقة جداً، لكنها رائحة أنيقة، تشبه إلى حدٍ ما ربطة العنق الساتان الزرقاء التي تطوق رقبته، ويختبئ أغلبها تحت ياقة قميصه الأبيض

المغطى بروب الستان القصير الأزرق المنقوش برسومات لطيور صغيرة بيضاء في حالة الطيران.

"ماذا تشربين؟"

"أي شيء ساخن... شكراً".

"شاي أم قهوة؟... مع أنني أعرف بأنكم تفضلون الشاي...". ابتسمتُ له وقلتُ بشيء من الإرباك: "إن كنتَ تفضل القهوة فسأشربها معك...". أطلق الرجل ضحكة منتصرة وقال: "شكراً لدبلوماسيتكِ اللافتة رغم صغر سنك.." ثم نظر صوب الفتاة التي ما زالت واقفة تنتظر الأوامر، وطلبَ منها فنجاني قهوة...

"جميلٌ ما يطوق رقبتك... أجده قد اضفى على رقبتكِ جمالاً إضافياً..." قال ذلك بشكل مفاجئ أدخلني في حالة ارتباك، وصرتُ أتحسس الشريط الستان الأحمر حول رقبتي... ابتسمتُ له دون أن أرد بكلمة، ويبدو أنه تلمس حيرتي، فأطلقَ ضحكة خفيفة وقال دون أن تفارقه ضحكته:

"هل قرأتِ لي؟".

"نعم... منذ يومين أنهيت قراءتي الثالثة لرواية "البحث السعيد" لقد عشتُ معها ليالِيَ رائعة..." ثم صمتُ قليلاً ونظرتُ في عينيه مبتسمة وأضفت: "هل كان من بين فتياتك مَنْ تشبهني؟". اتسعت عينا الأستاذ لثوان ثم أطلق ضحكة عميقة، كانت المرة الأولى التي ألاحظ مثلها، ضحكة عميقة تشير إلى عارفٍ ذي خبرة عميقة بزوايا عالم المرأة، لكني لم أستطع تحديد أي زاوية من عالمها أضحكتهُ... نظرَ إلى عينيّ عميقاً وقال مبتسماً: "لو كنتُ قد قابلتكِ قبل كتابة الرواية لكان لشخصيتك حضور أكثر وضوحاً فيها، لكنني أستطيع الإفصاح الآن، بأنكِ كنتِ بالفعل من

بين شخصوص الرواية.". اعتدلتُ بجلستي، دافعة نهديَّ إلى الأمام بحركة تعودتها منذ زمن ليس بالقصير، وقلتُ بزهو المكتشف:

"هل تعتقد أن لكل رجل رائحته الذكورية التي تميزه عن بقية الرجال، تماماً كما بصمة الأصبع؟". نظر الرجل صوبي بصمتٍ محيّر لثوانٍ وسألني بشكل مباغت: "كم عمركِ أيتها الجميلة؟"

"سبعة عشر".

"فقط؟" سأل الأستاذ بتعجب.

ضحكتُ بفرح وقلت: "وثلاثة أشهر.". أطلق ضحكة أخرى ورجع بظهره إلى كرسيه. تناول غليونه، وشرع بقدح النار من قداحة غريبة وجميلة التصميم لم أرَ مثلها من قبل، ثم قال:

"نعم، أنا أعتقد أن لكل رجل رائحته الذكورية الخاصة...". قال ذلك وهو يحاول تجميع أفكاره، ثم أضاف: "كنا أربعة إخوة، أنا وثلاثة غيري. كانت أمي تعرف ملابسنا من رائحتها. تشتم القميص فتعرف إن كان لي أم لأحد من إخوتي، ولم تخطئ يوماً، منذ ذلك الحين وأنا مؤمن بأن لكل رجل رائحته الخاصة به..." كان يتكلم بحنين فائض، مبتسماً سعيداً، وكأنه يتذكر شيئاً عزيزاً عليه... ثم قال وهو يتناول كتاباً من سطح الطاولة الصغيرة التي إلى جانبه: "لكل شيء رائحته الخاصة به، حتى الخوف، والفرح، والدموع، والضحك... حتى المدن، لها رائحتها التي تميزها..." ثم فتح الكتاب الذي شاهدتُ الكلمات الإنكليزية على غلافه، واختار صفحة منه وقال: "كنتُ أقرأ هذه الرواية منذ الصباح، إنها رواية لكاتبة إنكليزية شهيرة اسمها "إيريس مردوخ"، سأقرأ لكِ بعض كلمات تخص الرائحة، على لسان بطلها: "منتظراً أن تستأنف القطارات سيرها، ولمّا تزل رائحة فرنسا عالقة بخياشيمي." إذاً، هناك رائحة للدول أيضاً وليس المدن

فقط..." . أغلق الكتاب وأعادهُ إلى مكانه حيث الطاولة، ورجع بظهره إلى الوراء وهو ينظرُ صوبي بسرور، ثم سألني:

"كيف وضعكِ في الدراسة، هل أنتِ بالفعل ذكية، كما ألاحظ؟".

"لا أدري إن كنت ذكية، لكن لم يسبق لي وأن تعثرت في دراستي...". ظهرت الفتاة حاملة صينية بفنجاني قهوة وقدحي ماء، وضعت الأول أمامي ثم توجهت صوب الأستاذ ووضعت الفنجان وكأس الماء على طاولة صغيرة إلى جانبه، وفي تلك الأثناء ظهرت امرأة ستينية بملابس بيضاء وشعر رمادي أجعد، كانت رشيقة القوام رغم قصرها، رحبت بي وصافحتني، ثم جلست بيني وبين الأستاذ وشرعت تتحدث عن الزيارات المفاجئة لبيتها التي تحدث يومياً من قبل أشخاص معجبين بكتابات الأستاذ، وقالت بوضوح تام: "تعودنا على قلق الزيارات المفاجئة وإرباكها..." نظرتُ صوب الأستاذ ولاحظت امتعاضه رغم ابتسامته الخفيفة التي كانت مرسومة على شفتيه...

***

أعرف أنني فتاة بمقدورها أن تُغري، معتمدة على الحرمان الذي يأسر الشباب، لكنني لا أُغرى بسهولة، أعرف أن كنوز الإغراء لدي كثيرة، خصوصاً بياض البشرة الذي يعد ميزة محببة مرغوبة في بلدٍ تحرق الشمس وجوه أبنائه تسعة أشهر من العام، لكني أعرف أيضاً، أن لا شيء في الرجل يغريني سوى تلك الرائحة التي أدمنتها، الرائحة التي سرعان ما تخترق جسدي وصولاً إلى الروح لتسكرني، الرجل تحول عندي منذ اكتشاف اللذة، إلى رائحة مثيرة فقط، ولم أفكر بالاتصال الجسدي إلا عن طريق خيالي الخصب... يا إلهي كم أشعر بالزهو والانتصار حين أهيّج تلك الرائحة عند الرجل، لتخرج حاملة أبخرة رغباته المكبوتة، ولتحيي داخلي تفتح زهرة الانتشاء.

***

كلما كبرتُ، كانت الحرب تكبر... كلما اكتنز جسدي شباباً وحيوية، كانت الأرض تكتنز شباباً أيضاً، ولكن بصورة جثث اُغتيلت أحلامها...

(5)

بعد مضي قرابة الشهر على لقائي بالأستاذ صاحب رواية "البحث السعيد" وما أن اقتربتُ من مكتبة العم "موسى" بغرض زيارته علّني أجد عنده بعض الروايات التي يقترحها عليَّ، وجدتني أمام الأستاذ وجهاً لوجه، كان جالساً أمام واجهة المكتبة حيث الرصيف ناظراً صوب الشارع، أظنه كان مستمتعاً بحركة المارة وازدحام الشارع كعادته كل يوم جُمعة، وما أن التقت نظراتنا حتى وقف مرحباً بي. لم ألحظ العم موسى هناك. صافحته مبتسمة وكنت أشعر بثقل حركته ومحاولته الوقوف بقامة منتصبة، لكنه لم يفلح كثيراً بمبتغاه. يبدو أنه كان متعباً، وأن سنوات عمره قد أخذت حصتها من عظامه ومفاصله...

"أهلاً عزيزتي حياة... سعيد جداً بهذه الفرصة...". وقبل أن أقول كلمة، قال وهو ما زال مطبقاً كفّيه على كفي بحرارة: "أعتذر جداً عما بدر من أختي... أعرف أن كلامها كان قاسياً، ولكن لا عليكِ، سنتحدث طويلاً بعيداً عنها... أعدكِ بذلك". كنتُ أنظر إلى عينيه اللامعتين وأنا أرسم على شفتيَّ ابتسامة واضحة المجاملة، حين سمعتُ صوت العم موسى مرحباً:

"أهلاً... أهلاً عمو حياة... شكراً لهذه المفاجأة الحلوة..." نظرتُ صوب الصوت حيث اليمين فشاهدتُ العم منفلتاً من ظلام الممر الطويل، أفلتُّ كفّي من بين كفيّ الأستاذ وتوجهتُ صوبه مصافحة إياه بفرح.

جلستُ بين الأستاذ والعم موسى على كرسي بلاستيكي أبيض اللون جاء به شاب لم ألتقِ به من قبل، عرفتُ فيما بعد أنه عامل جديد في المطبعة... شاب في سنته الثالثة لدراسة الأدب العربي.

"ساحرةٌ هي أجواء شارع المكتبات" قلتُ ذلك وأنا أنظر صوب العم، ولكن صوت الأستاذ جاء بعجالة واضحة:

"أنتِ الساحرة يا عزيزتي...". أضحكني جوابه، بل أدخلني بنوبة فرحٍ غريب داعب مشاعري، وشاركني ضحكتي العم موسى وهو يغمز صوب الأستاذ:

"أستاذنا ملك الكلمات... خبير انتقاء الكلمات، لتحقق له أفكاره بكلّ رومانسية.".

نهضَ الأستاذ عن كرسيه، وكنتُ أظن أنّ الزعل قد أخذ من مزاجه حصة، لكنه، وبكلماتٍ مقتضبة، طلب من صديقه السماح له بدخول المكتبة، لكنه استمر متوجهاً إلى الداخل، دون أن يأبه لجوابه إن كان سيسمح له أم لا، وحين غاب بين رفوف الكتب، دَنا مني العم موسى وقال هامساً والابتسامة لم تفارق شدقيه:

"روحه خضراء، في السبعين ويعيش كشاب في العشرين...". هززتُ رأسي موافقة وقلتُ إنّ ذلك شأنه، ولكن المهم، ما يكتب، وليس ما يقول." هزَّ العم رأسه مبتسماً وقال كلمتين مفرحتين بحقي.

عاد الأستاذ وبين يديه كتابان، وما أن جلس على كرسيه حتى قدمهما لي قائلاً:

"روايتان لي، سأكتب لكِ إهداء خاصاً على كل منهما، ولكن ليس قبل أن تعديني بزيارة خاصة حالما تنتهين من قراءة إحداهما"، ثم أضاف ضاحكاً: "كي أنعم بزيارة ثانية حين تُنهين قراءة الرواية الثانية". قال

الأستاذ ذلك وكنت أوزع نظراتي بينه وبين العم الذي أومأ برأسه علامة الموافقة. شكرته ووعدته بالزيارة قائلةً:

"رغم أن الشروط تستفزني، إلا أني أعدكَ بذلك..." ثم نظرتُ صوب العم موسى وقلت: "الحقيقة لقد جئت اليوم لزيارة العم موسى كي أعرف منه كما عودني، إن كانت هناك بعض الروايات التي يقترحها عليَّ، لكن الأستاذ هذه المرة قد ناب عن عمي العزيز مشكوراً.". ابتسم العم موسى بينما وضع الأستاذ كفه على كفي وهو يقول: "أنتِ محظوظة يا حياة... وأنتِ فتاة ذكية تستحقين كل الاهتمام والرعاية...".

"يا إلهي، كم أكره لمسات الحنان الزائفة التي يبديها الرجال وأنا أشم رائحة رغائبهم". قلت ذلك في سريرتي بينما يشير العم إلى أجيره الشاب كي يجلب لنا الشاي، من صاحب الكشك في الجهة المقابلة. عرفتُ حينها أن الشاب اسمه "بشير".

روايتان، الأولى بعنوان "يوميات السراب" والثانية بعنوان "الشوارع الضيقة"، رحتُ أقرأ الإهداء فرحة، فهي المرة الأولى التي أحصل بها على كتاب مُهدى وموقَّع بقلم الكاتب نفسه، ثم تنبّهتُ إلى أن الأستاذ قد كتبَ رقم هاتفه في نهاية الإهداء، شكرته منوهة إلى أنني سأتصل على رقم الهاتف المدوّن لأحدد موعد الزيارة، مما أثار دهشة العم موسى، الذي كان يعرف الأستاذ جيداً.

وقف رجل كان من بين المارة أمام الأستاذ وألقى عليه التحية، ثم مازح العم موسى ببعض كلمات تشير إلى عمق معرفة بينهما. كان يحمل آلة تصوير تتدلى من رقبته بحزام جلدي وتستقر على كرشه المكوّر كبطن امرأة حامل على وشك الولادة. عرفتُ أنه مصور شارع المكتبات الجوال، وأن اسمه "حسن حنظل"... شعرتُ برغبة كبيرة في التقاط صورة لي مع الأستاذ، فطلبتُ منه ذلك وأنا أنظر صوب الأستاذ الذي تلمستُ موافقته

بفرح واضح، والذي اعتدل بجلسته مستعداً... صرت بين الأستاذ والعم ونظرنا المكلّل بالابتسامة، متجه صوب عدسة العم "حسن" الذي ما أن أعلن عن إتمام مهمته حتى وقفتُ معلنةً أن الصورة لي، حيث سارعت في إعطائه المبلغ واستلمتُ منه الوصل على أمل استلام الصورة بعد يومين، تلك الصورة التي سأستلمها بموعدها المحدد وأتفاجأ بظهور الشاب "بشير" واقفاً خلفنا مانحاً المشهد ابتسامته الحزينة...

ما أن أعلنتُ وأنا أقف مبتسمة، عن نهاية زيارتي للعم العزيز، حتى وقف الرجلان مصافحَيْن ومودعَيْن لي بحميمية واضحة، فما أن صافحتُ العم موسى بعد مصافحتي للأستاذ، حتى تمسكَ بكفي وهو ينادي على "بشير" الذي لم يكن بعيداً عنا... طلبَ منه مرافقتي إلى موقف الباص، وأن لا يعود حتى يتأكد من دخولي الباص والجلوس على أحد مقاعده.

يبعد موقف الحافلات مسافة لا بأس بها عن شارع المكتبات، مما أتاحت لي التعرف على "بشير" أكثر، الحقيقة شعرتُ برغبة في التعرف عليه ما أن خطونا الخطوات الأولى مبتعدين عن المكتبة... عرفتُ أنه في المرحلة الجامعية الثالثة لدراسة الأدب العربي، وأنه قد اشتغل منذ فترة قريبة في مطبعة ومكتبة العم موسى ليس بهدف المال، ولكن شغفه بالأدب كان الدافع الأهم...

"أن تكون قريباً من الكتاب، أهم بكثير من أن تكون بقرب مدفأة في ليلة باردة". عبارة قالها بشير وكأنه يلقي بيتاً شعرياً مؤثراً. نظرت إلى عينيه السوداوَيْن مبتسمة، وقد سحرتني عبارته التي منحتني لحظة الدهشة، وكنتُ طامعة بسماع المزيد من العبارات، فسألته عما يقرأ، فأوضح أن كل كتاب له أهميته الخاصة، بغض النظر عن جنسه، وأنه يفضل قراءة الرواية والنقد الروائي، بالإضافة إلى الشعر، وما أن ذكر الشعر حتى ابتسمتُ له قائلةً:

"أبياتٌ قليلة من الشعر، أفضل من قصيدة كاملة..." ضحكَ بصوتٍ مسموع، وقال بأنه يفهم من عبارتي بأنني غير مهتمة بالشعر، كما هو اهتمامي بالرواية، فوافقته مشيرة إلى المتعة التي تمنحها الرواية بالمقارنة مع الشعر. وافقني رأيي، وكنت قد شعرت بأنه يجاملني.

بشير، شاب وجدته لطيفاً، مهذباً، طويل بقامة ممشوقة، وشَعره الكثيف فاحم اللون يضفي على سُمرة بشرته المحمرة جمالاً رجولياً لافتًا، كان يسير إلى جانبي وكفّاه في جيبي بنطاله... شعرت من خلال المسافة التي عمدَ إلى أن تكون بيني وبينه، حرصه الشديد على أن لا يلامسني، لكنني، ما أن وصلتني رائحته الذكورية المثيرة، التي تقترب من رائحة الخبز الساخن، حتى مسكتُ ذراعه دون وعي مني وكأنني أستند إليه. نظرتُ إلى وجهه ولاحظتُ ارتباكه وشحوبه المفاجئ...

فاحت رائحة الذكورة أكثر، وازدادت نشوتي وسعادتي...

رغم أني قد أشرت له بكفي مودعةً وأنا أجلس على أحد كراسي الباص، إلا أنه ظلَّ واقفاً ينظر إليَّ مبتسماً، حتى غادر الباص موقفه... جلستُ منتشيةً برائحة ذكورة "بشير" التي التصقت بثيابي وذاكرتي المشاكسة حتى نزلتُ من الباص أمام بداية زقاقنا، أفلتُ جسدي كفراشة لا تعرف وجهة طيرانها...

***

"هناك أمكنة أو أشخاص دائماً ما ينقذونا بلحظة فرح، من وحشة الحرب وبشاعتها... الحرب التي أكلت فرح البنات وأغنياتهن، لن أسمح لها أن تأكل فرحي ومتعتي..."

***

في اليوم التالي كنتُ على موعد مع ماجد، لم يكن اللقاء بخصوص جلسة للاعتناء بأسناني، بل، لقاء عادي يتم تحت أي ذريعة واهية، وأحياناً

"دون" سبب. أنتظرهُ خارج بناية الكلية في وقت ما بعد الظهر، يكون حينها قد أنهى دوامه. نلتقي عند الناصية مقابل باب الكلية الرئيس، ثم نتّجه مشياً صوب أحد المطاعم الشعبية المعروفة، نتناول وجبة الغداء مع قدح لبن بارد، ثم نطوي مسافة أطول شارع في العاصمة مشياً على الأقدام ونحن نتحدث بما تجود به أفكارنا والتي غالباً ما تعتمد على مزاج اللحظة.

في ذلك اللقاء حرصت على أن أصطحب الروايتين معي كي أطلعه على إهداء الأستاذ، لكنه، ما أن قرأ الإهداءَين ورقم هاتف الأستاذ، حتى طلب رواية "الشوارع الضيقة" كي يقرأها أثناء قراءتي للرواية الأخرى، ثم نوه بشكل عابر عن رغبته بمرافقتي أثاء زيارتي للأستاذ. وافقتُ على الفور كوني وجدتها فكرة حسنة، أردت خوض تجربة أكون فيها بين رجلين، بين رائحتين، ربما أكتشف سراً مهماً، أو أعيش حالة لم أخبرها من قبل.

حين اقتربنا من الزقاق حيث دارنا، وقف ماجد ومسك كفي اليمنى التي كنت أحتفظ بمنديل ورقي داخلها... نظر في عينيّ، وبعد لحظة صمت كان فيها مبتسماً قال:

"إنها سنتي الدراسية الأخيرة يا حياة، أيام قليلة وتبدأ معركتي مع أطروحة الدكتوراه، أعترف بأنني خائف ومرتبك فالقادم من الأيام سيحدد مصيري ومستقبلي..." قاطعته وأنا أحاول طمأنته، من خلال تذكيره بذكائه ومثابرته، ولكنه أضاف:

"ربما لن أجد الوقت لتحقيق لقاءاتنا كما اعتدنا في السابق، ولكن أطلب منكِ أن تثقي بي، وأن لا تتصوري بأن الرغبة في لقائكِ والحديث معكِ قد تخفت يوماً ما..." ضحكتُ بفرح وأنا أنظر في عينيه مستمتعة بحرارة كفيه المطبقتَيْن على كفي اليمنى، قابلني بابتسامة جادة وأضاف: "أريد الاتفاق معكِ على أن تكون لقاءاتنا القادمة، بعد مكالمة هاتفية مني أحدد فيها الوقت والمكان، وأن لا تعمدي إلى زيارتي بشكل مفاجئ..."

زادت ضحكتي اتساعاً وحاولت إفلات كفي من بين كفيه لضرورة استخدام المنديل الورقي لمسح بعض ما تصبب من عرق على جبهتي، لكنه تمسك به وقال بأنه لن يفلت كفي إلا بعد أن نتوصل إلى اتفاق، فقلت:

"لكَ ما تريد، والمهم عندي هو نجاحك بتفوق كما أتوقع، وأعدك بأنني سأحضّر لكَ مفاجأة عظيمة، أقدمها هدية نجاحكَ وتفوقكَ."...

حين ودعته، كان المنديل في كفي اليمنى قد تشبّع برائحته المحببة إلى روحي، صرتُ أتشممه وأنا في طريقي إلى البيت، وما أن دخلتُ غرفتي حتى فاح شذى المنديل مالئاً جو الغرفة برائحة "الرز المبزول"، بعطر ذكورة ماجد، الذي عشتُ معه ساعات مسائي ببهجة ومتعة خاصة.

***

بعد مرور أسبوع على لقائي بماجد، وكنت خلاله قد قرأت رواية "يوميات السراب" لمرتين، اتصل بي طالباً مني تحديد موعد مع الأستاذ شريطة أن يكون بعد الرابعة عصراً، وبالفعل اتصلت على رقم الهاتف الذي كتبه لي الأستاذ مع الإهداء، وقد وصلني صوته فرحاً مرحباً وهو يحدد لي الموعد، لكني لم أخبره بأنَّ هناك من سيرافقني في الزيارة...

في طريقنا إلى بيت الأستاذ، وعند بداية شارع الجميلات، سمحت لماجد بملامستي حين شعرت بخجل كفه وهي تزور وسط ظهري لأول مرة، نظرت بعينيه وابتسمت، حينها شعرت بضغط الكف أكثر وكأنني قد فتحت بذلك عالمًا جديدًا أمامه لا تنقصه السعادة... كنت صامتة، وكان يبادلني الصمت. صارت كفه التي استقرت بكامل دفئها على خصري مصدراً للبهجة، وصارت عالمي الوحيد الذي أشعر به دوناً عن كل الأشياء التي تحيط بي، حتى غزتني رائحة ذكورته، فانتشيت...

"أشهر قليلة وتبلغين الثامنة عشرة أيتها الأميرة." قالها مبتسماً وهو ينظر إلى الأمام، فلم يكن بحاجة النظر إليَّ، كان مكتفياً بكفه التي كانت ترى كل شيء في تلك اللحظات، ذلك ما شعرت به بوضوح تام...

تجاوزنا حديقة دار الأستاذ، وكنتُ أسبق ماجد بخطوة، وحين أفلتُّ جسدي من إطار باب الفيلا الداخلي، وصلتني رائحة ذكورة الأستاذ العتيقة، لكنها كانت أكثر كثافة من المرة السابقة... رفعتُ نظري صوب الداخل، فشاهدتُ الأستاذ واقفاً على مقربة من الباب وكانت ابتسامته مشرقة. تقدّمَ نحوي خطوة وكنت أتقدم نحوه حتى صافحني مرحباً ثم سريعاً طبع قبلتين على وجنتيَّ، ولكن، وبمجرد أن ابتعدتُ بوجهي المبتسم عن وجهه، حتى شاهدتُ علامات امتعاض أفزعتني. يبدو أن نظره قد وقع على ماجد، التفتُّ إلى الخلف وأنا أقول:

"اسمح لي أستاذي العزيز، أن أقدم لك الدكتور ماجد، طالب دكتوراه في السنة الأخيرة من دراسته..." تقدم ماجد صوب الأستاذ وصافحه سريعاً... أقفى الأستاذ متجهاً صوب الصالة الكبيرة وهو يردّد:

"لو كنت أعرف رقم هاتفكِ لاتصلتُ بكِ ولغيت الموعد، فقد شعرت بوعكة قبل ساعتين... تفضلا بالجلوس، وسأطلب من مديرة المنزل خدمتكما.." ثم توقف واستدار نصف استدارة مانحاً لنا بروفايلاً متجهمًا لوجهه وأضاف: "البيت بيتكم، أنا سأدخل غرفتي لأستريح.". بقيتُ واقفة أنظر إلى ظهره وهو يخطو صوب العمق حتى اختفى، كنت ذاهلة، ولكن كف ماجد التي أمسكت كفي وسحبتني نحوه، أعادت لي رشدي لأسمعه يقول هامساً:

"علينا الذهاب الآن... يبدو أن وجودي قد أفسد مزاج الأستاذ."

***

تتسرب الحرب بين خلايا المدينة كالسرطان، ولكن بصوت. اكتست الشوارع بأسماء الراحلين من الشبان، أسماء منقوشة على أقمشة إعلان الحداد. البلد يعلن الحداد والديكتاتور يعلن "انتصاره"، دائماً ما يغير "انتصار" الديكتاتور إيقاع الحياة لفترة ليست بالقصيرة... أو إلى الأبد!

(6)

كان نهاراً ساخناً حين عدتُ إلى البيت بعد أن قضيت اليوم المدرسي الأول بعد العطلة الصيفية القاسية الحرارة، التي كنت خلال أيامها أردد متفكهة "قطعة من القطب، رأفةً بأبناء الجحيم"...

لقد بدأت المرحلة الحاسمة من حياتي الدراسية، إنها مرحلة السادس الثانوي التي ستفتح لي أبواب الدراسة الجامعية...

دخلتُ المطبخ طالبة شربة ماء بارد... وجدتُ أمي جالسة إلى الطاولة تعد السَلَطة، نظرتُ إلى وجهها وأنا ألقي عليها التحية، فوجدتها تعبة شاحبة الوجه، لم أشأ سؤالها، خوفاً من أن تفتح معي موضوعًا يزعجني، كعادتها، ولكنها وما أن شعرت بانفلاتي من باب المطبخ متوجهة صوب غرفتي "غرفة جدي"، حتى أمرتني بالعودة بعد تغيير ملابسي كي أساعدها، كونها، كما أوضحتْ، ليست على ما يرام، وتشعر ببعض التعب.

حين عدت إلى المطبخ بعد أن استبدلت ملابسي المدرسية بدشداشتي "الكودري" المحببة إليَّ صيفاً. جلستُ قبالتها دون أن أقول كلمة، نظرتْ بوجهي وابتسمتْ، شعرتُ حينها أن هناك خبراً تريد قوله، ولم يكذب حدسي حين قالت:

"شفيق ابن عمك صار أباً... ليلة أمس ولدت له سمية بنت جميلة، أصرَّ أن يسميها "حياة" لكن سمية غضبت وأصرت على إيجاد اسم آخر للبنت، فاتفقوا بعد جدال طويل أن يسموها "حنين"... سأذهب لزيارتهم أنا ووالدك وأخوكِ عصراً...".

اعتصرني الخبر، وشعرت بألم في معدتي سرعان ما زحف بخبث حتى أسفل البطن... يا له من حلّ ذكي ومنصف، فقد اختار شفيق حرفين من اسمي، ولكن سمية اختارت حرفًا واحدًا من اسم حبيبها الأول "نبيل" وكررته مرتين في اسم وليدتها، قلت ذلك في سريرتي وأنا أنظرُ صوب أمي محاولة صنع ابتسامة لأداري انزعاجي من الخبر وقلت:

"حرفان اختارهما شفيق، وحرف مكرر من اختيار سمية، فكرة رائعة أن يتم اختيار اسم المولودة بمشاركة عادلة بينهما... مبارك لهما.". قلت ذلك وشعرت حينها أن أمي لم تفهم شيئاً مما قلته... نهضتُ لا أدري إلى أين، إلا أن يد أمي مسكتني طالبة مني البقاء لأنها تريد الحديث معي. أفلتُ يدي من قبضتها طالبةً تأجيل الحديث حتى يعود والدي، ثم دخلت غرفتي باكيةً حتى غفوت دون إرادة مني.

طرقات خفيفة على باب غرفتي كانت كافية لإيقاظي، عرفتها على الفور ونهضت مسرعة صوب الباب لأفتحه وأحتضن أبي. "يا إلهي كم اشتقتُ إليكَ.".

احتضنني وهو يردد كعادته: "حياتي... يا حياتي". ثم أبعدني قليلاً حتى ينظر بوجهي، قبلني واحتضنني مرة أخرى ليهمس في أذني: "يكاد الجوع يفتك بي... هيا لنأكل..." رافقته إلى المطبخ، جلستُ إلى جوارِهِ بينما جلستْ والدتي قبالتنا وإلى جانبها أخي ليث...

كان طعم الأكل شهياً رغم مرارة شكوى أمي من عدم مساعدتي لها. وبعد فترة صمت لم تستمر طويلاً، نفذت إلى مسامعي كلمة، فقدتُ على إثرها قدرتي على الازدراد:

"أنا تعبة، وتعبي قد يستمر لبضعة شهور، لذا، على حياة مساعدتي في أمور البيت..." قاطعتها غاضبة وكأنني أشهر سلاحاً فتاكاً في وجهها:

"وماذا عن دراستي والمرحلة الحرجة، التي تتطلب مني التفرغ للمذاكرة والتركيز..." احمرت عينا أمي وارتجفت شفتاها، ثم قالت بما يشبه التوسل:

"ولكنني حامل يا ابنتي.". لم أدرك الكلمات التي وصلتني حينها، لكنني وقفت ناظرةً صوبها وسخونة حارقة قد سيطرت على حدقتي عيني، فطلبت منها إعادة ما قالت، فكررت جملتها. لا أدري بعد ذلك ما الذي حدث، ولكني أذكر أن لوناً أصفر قد هيمن على المشهد بالكامل، ثم حلَّ ظلام.

البياض، كان أول شيء تستقبله عيناي، وحين جلتُ بناظري لأتبين المكان لاحت ابتسامة أبي، لكن رأسه كان مكللاً بالورود، أطبقت عينيَّ مرة أخرى، ظناً مني أنني داخل حلم، ولكني حين فتحتهما مرة أخرى شاهدتُ أبي مبتسماً وباقة ورود خلف رأسه، كان جالساً على كرسي ملاصق لسريري، ثم شاهدتُ ابتسامة ماجد تعلو باقة الورود، يبدو أنه كان يحملها، فلم أتبين ذلك كوني عدت إلى "الحلم" مرة أخرى.

استيقظتُ أخيراً، فقد جبرتني يد الطبيب التي كانت تداعب وجنتي بطبطبات حنونة على الاستيقاظ، وما أن فتحتُ عينيَّ حتى سمعت صوته:

"هل ترغبين بشُربةِ ماء؟". لكن رأسه كان مكللاً بالورورد، أشرتُ برأسي علامة الموافقة وأنا أجول بنظري باحثة عن وجه أبي وباقة الورد.

رفع الطبيب رأسي بكفٍ حانية وقرَّبَ الكأس من شفتيَّ فشربت إلى آخر قطرة، حينها باتت ابتسامة الطبيب واضحة، وبدأتُ أشم رائحة المكان، حتى الضوء لم يعد مزعجاً، لكن رائحة "خبز ساخن" خفيفة صارت تصلني ببطء محاولةً التغلّب على رائحة المكان، وحين التفتُ جهة اليسار شاهدتُ ابتسامة بشير وارتباكه... ووردة حمراء دُسَّت ساقُها بين

صفحاتِ كتابٍ ملتصقٍ بصدره، بعثتْ شرائط سعادة زينت الفضاء أعلى السرير...

ربّتَ الطبيب على وجنتي مرة أخرى، ثم غادر الغرفة... مددت يدي اليسرى صوب بشير فناولني الكتاب بوردتهِ وهو يتمنى لي السلامة، شعرت بتلعثم الكلمات بين شفتيه، أخذتُ الكتاب واحتضنتُه، فازدادتْ الرائحة الذكورية لتزيد عندي الرغبة في النوم، إلا أنَّ ظهور وجه أبي الشاحب بابتسامةٍ قلقلةٍ بدّد تلك الرغبة، مددت يديَّ صوبه فاقتربَ ليحتضنني، ولا أدري لماذا أجهشتُ بالبكاء... بكيتُ كما لو أني لم أبكِ من قبل، شعرت بأمطار تغسل روحي حتى بات البلل يزعجني، وحين رفعتُ رأسي ناظرةً بوجه أبي، وجدتني وحدي أمام وجهه القمري، وقد خلت الغرفة من شخوصها وأثاثها، وصارت روحي عينًا ثالثةً تراقب المشهد.

أنا وأبي نسبح بفضاء الغرفة البيضاء، ووردة بشير صارت ورودًا حمراء بأوراق وردية وبيضاء تغطي كامل أرضية الغرفة... يا إلهي، هل عدتُ إلى الحلم مرة أخرى؟

استيقظتْ روحي من هيامها حين حاولت كفّ أبي الإفلات من سيطرة كفّي عليه، وقد نجح.

"حياتي... أنتِ الآن بخير، علينا الذهاب إلى البيت، فقد أجاز الطبيب خروجكِ... لم يعد هناك ما يدعو للقلق، كل شيء على ما يرام." احتضنته مرة أخرى، وحين صارت شفتايَ قرب أذنه، همست بوجع: "هل صحيح أن أمي حامل... لماذا؟... هل يعقل أن يكون لي أخ رضيع وأنا في الثامنة عشرة؟..." ثم استدركت بعد أن شعرت بأنانية الكلمات التي وصلت مسامع أبي: "أليس في ذلك خطر على أمي وهي بهذا العمر؟..." أمطرتُ والدي بالعديد من الأسئلة وأنا أدفن وجهي بحنان رقبته، مستشعرة دفء جسده الذي صار يرتجف قليلاً دون أن أعرف السبب...

أبعدني عنه قليلاً ونظر عميقاً في عيني، ثم ابتسم بصمت ونهض صوب الباب. وقف هناك قليلاً وكنت أنظر إلى قامته، ثم استدار وتوجه نحوي طالباً الاستعداد للمغادرة.

"الحر الشديد، والتعرض للشمس بشكل مباشر، وضعف البنية، وعدم شرب السوائل، كان السبب المباشر لما تعرضت له..." قال أبي ذلك وهو يطوق كتفيَّ بساعده الأيسر ونحن نودع بوابة المستشفى متوجهين صوب سيارتنا.

***

في الطريق إلى البيت، أخبرني أنه على سفر، فقد انتدبته الجامعة للمشاركة بمؤتمر سيقام بعد يومين في إحدى الدول المجاورة، قال أن أمي ستعتني بي وأنه لن يغيب طويلاً... وسألني إن كنت أرغب ببقائه إلى جانبي ليلغي سفرته...

"يا إلهي كم أعشق ابتسامة والدي" قلتها في سريرتي، وأنا أبتسم ناظرة إلى وجهه الذي كان ينظر إلى الأمام منتبهاً... ثم قلتُ له بأن سفره أهم بكثير من ضربة شمس أصابتني وقد زال خطرها، ووعدته بأنني لن أخرج من البيت حتى يعود، فقد منحني الطبيب إجازة مرضية لمدة أسبوع.

"وماذا عن الهدية... هل هناك ما ترغبين به؟"

"هديتي أن تعود لي سالماً، وأتنعم برؤية ابتسامتك... هل تعرف بأن ابتسامتك أجمل من الحياة نفسها؟..." أطلق والدي ضحكة صاخبة حتى هلّت دموعه من عينيه، وراح يمسحها بسرعة حتى يتمكن من رؤية الطريق بوضوح.

"ملعونة... من أين تأتين بعباراتك التي تأسر القلب؟" قالها ضاحكاً ثم أضاف: "سأضع بعض النقود في فازة جدكِ حتى تتمكّني من شراء ما

تحتاجينه فترة غيابي..." شكرته بحب متوسلة إياه العودة سريعاً من سفرته التي لم أكن أعلم بها.

الفازة النحاسية التي أهداني إيّاها جدي، حين كنت في الرابعة من عمري، والتي لم تكن حينها أقصر مني كثيراً، كانت وما زالت مصدر سعادتي وشعوري باستقلالٍ شخصي مؤثر جداً، وذلك كلّه جراء تفكير والدي بي، حيث حرص دائماً على وضع مصروفي الشهري داخل الفازة دون أن أشعر، وأعتقد أنّ ذلك يعد أحد الأسباب المهمة التي جعلتني بعيدة بعض الشيء عن أمي، فلم يسبق لي أن طلبتُ منها أي مبلغ حين الحاجة إليه، كانت فازة جدي تكفيني، بل وتزيد عن حاجتي...

قبل وصولنا إلى البيت، أخبرني أبي، بأنه حصل على أسطوانة موسيقية جديدة، وعدني بسماعها معاً عند المساء... قال إنّها "أوبرا" إنكليزية لمؤلف موسيقي إنكليزي عبقري... قاطعته متسائلة بتعجب: "أوبرا؟... لكنني أعرف أنكَ لا تميل إلى الموسيقى التي تتخللها أصوات بشرية...".

"صحيح..." قال والدي ضاحكاً، ثم أضاف: "إنها خاصة جداً... ألم أقل إنها إنكليزية؟..."

"وماذا يعني هذا؟". سألته، فقال موضحاً، إنّ الجمهور الإنكليزي في فترة شكسبير وما تلاها كانوا لا يحبذون فنّ "الأوبرا" كثيراً، كانوا يفضلون المسرح، ولا ضير إن كانت بعض المسرحيات تتضمن أغانِيَ تُنشد خلال المسرحية. لهذا حاول مؤلف موسيقي شاب اسمه "هنري بورسيل" الذي يعتبر أكبر موسيقي إنكليزي في زمنه، أن يتحدى ذائقة أبناء بلده ويؤلف أوبرا "ديدون وإينيه" التي وعدني بسماعها وسرد قصتها مساءً... ثم قال وكأنه يشوقني لسماعها:

"لقد قال أهم النقاد عن هذا العمل: "لو لم يحقق "بروسيل" إلاّ هذا العمل طوال حياته، لاستحق أن يشغل في تاريخ الموسيقى الأوبرالية مكانة

تضعهُ في مستوى فاغنر وفيردي...". ابتسمتُ له ووعدته بأنني سأصغي بكل جوارحي.

***

أقسمتُ على معاقبة والدتي...

"قرار الحمل يجب أن يكون بموافقة الجميع، أنا وأبي وهي وليث، هناك طفل سيعيش بيننا وعلينا الاعتناء به، لذا يجب أن يكون وجوده بموافقة الجميع." ذلك ما أقنعتُ به نفسي، وأنا أتخذ قرار المعاقبة.

دخلتُ البيت وشاهدتُ والدتي بانتظاري، كانت تريد احتضاني، لكنني تجاوزتها مسرعة صوب غرفتي، طالبةً من الجميع عدم إزعاجي، وكانت حجتي التعب والمرض والرغبة في النوم، وقد عرفتُ فيما بعد، أن والدتي انهارت باكية من تصرفي ذاك، لكن والدي حاول تهوين الأمر عليها متحججاً بأثر المرض على مزاجي. ذلك ما عرفته من أخي ليث لاحقاً.

في المساء زارنا ماجد حاملاً معه كتلة اسطوانية مصنوعة من "خوص" النخيل، تحتوي على نوع من التمر يعرفه والدي جيداً، أسماها ماجد "خصافة التمر" بالإضافة إلى كيس كبير يحتوي على نوع من الرز يسمى "العنبر الشِتال" وحين سألته عن كلمة "الشِتال" قال إنّ ذلك النوع من الرز مزروع بطريقة خاصة تسمى "الشِتال"... كيس يفوح برائحة زكيّة لم أشم من قبل أزكى منها، إنها رائحة العنبر التي ظلت عالقة في ذهني وذاكرتي زمناً طويلاً...

ما أن فرغنا من تناول العشاء، حتى جاءت أمي بقدحين ودورق ماء بارد بالإضافة إلى الدورق الخاص بمكعبات الثلج وقنينة عرق... كنا

نجلس في حديقة الدار، وكان النسيم يصلني مصحوباً بكلمات والدي الذي طرح سؤالاً على ماجد تلمست المداعبة وعمق المعلومة فيه اعتماداً على خبرتي بأسئلة والدي وكيفية طرحها: "متى يصبح من المهم إقامة تمثال لطبيب أسنان في أهم ساحة أو حديقة في البلد؟". رسمَ السؤال ابتسامة دهشة على ملامح ماجد الذي أجاب بشكل مقتضب بعد لحظة صمت: "حين يكون مبدعاً مخلصاً في عمله.". أثنى والدي على الإجابة وراح يحدثنا عن طبيب أسنان أمريكي اسمه "فريدمان بلاك" كان مبتكراً مبدعاً مخلصاً بالفعل في عمله. ينتصب تمثاله منذ زمن طويل في "بارك لينكولن" في شيكاغو، وراح والدي يسرد لنا بأسلوبه الممتع قصة حياة ذلك الطبيب المشوقة... بقي اسم الطبيب عالقاً في ذهني، وترسخت عبارة "يمكن لكل صاحب اختصاص، أن يكون عظيماً، حتى عامل الطين." في ذهني حتى اللحظة.

لاحظت أن أخي ليث صار اليد الثالثة لأمي، أحضر المقبلات والسَلطة وبعض الفواكه، وحين أحضر طبقًا كبيرًا يحتوي على قطع البطيخ الأحمر، قال متفكهاً وهو يشير إلى أبي وماجد: "هذا الطبق الكبير لكما، أما طبق السلطة، فهو لي وحياة فقط." أطلق والدي ضحكة صاخبة وراح يشرح لماجد مشاكله مع ليث وأطباق السلطة.

كأسان، كانتا كافيتين ليعلن ماجد اكتفاءَه من الشرب. أوضح بأنه شرب طمعاً في مجالسة والدي والاستماع إلى حديثه الشيّق، ثم أعلن عن موعد مغادرته، وقبل ذلك كان قد طلب بحياء واضح من والدتي أنْ تساعده في شراء بدلة جامعية له ستعرض غداً في الأسواق المركزية القريبة من بيتنا، كونه لا يستطيع التفريط بمحاضراته الدراسية، وأن الأسواق

المركزية تفتح أبوابها في الوقت الذي يكون فيه داخل الحرم الجامعي.. حينها تطوعتُ لشراء البدلة له كوني في إجازة وأمتلك الوقت.

خرجتُ مع ماجد بغية مرافقته حتى موقف الباص... والدي لا يقود سيارته، إن كان محتسياً. ذلك ما قاله لماجد معتذراً عن توصيله.

"هل أنت سكران؟" سألتُ ماجد ما أن استلمت أقدامنا أسفلت الشارع... أطلقَ ضحكة مجلجلة وراح يشرح لي أهمية الشرب على معدة عامرة بالأكل واللحوم تفادياً للسكر، ثم قال متسائلاً وكفه ممسكةً بكفي: "لا أدري من أين استقى البعض طريقة شرب الكحول على معدة فارغة؟... الكثير من أبناء جلدتنا يؤجلون الأكل حتى الانتهاء من الشرب، وتلك جريمة يرتكبونها بحق أنفسهم.." ثم توقف قليلاً لينظر بوجهي مبتسماً وأضاف: "تعجبني أفكار والدك وطريقته في تحليل الأمور، حتى طريقته في الشرب، لها ما يميزها...".

كنتُ صامتة مستمتعة برائحة "الرز المبزول" الذكورية التي تلمستُ بين تلافيفها عطر اليانسون، لكني كنت مصغية لكلماته، محتفظة بابتسامتي ونشوتي التي صارت تخيفني حين شعرتُ بارتباك الرائحة.

قبل أن ننعطف صوب الشارع العام بأمتار قليلة، تمسكت كف ماجد اليسرى بكفي اليمنى، ثم سحبني صوبه منزوياً حيث العتمة. استسلمتُ له منقادة بسحر الرائحة المسكرة التي شعرت بها وقد فاضت حتى ملأت فضاء روحي بأكمله...

منح ظهره لحائط الزاوية وسحبني إلى صدره فالتصقتُ به... شعرتُ بذراعيه يطوقان خصري، نظر منشاراً إلى وجهي، وكانت نظراتي إلى وجهه متفحصةً ارتجاف شفتيه اللتين ما أن وقع نظري عليهما حتى سمعت:

"ألم يحن الوقت لأحظى بقبلة؟". استسلمتُ لرائحته ومنحتها شفتيّ... لا أدري كم طالت الثواني حينها، لكنني أعرف تماماً بأنني جفلت

ورجعتُ خطوة إلى الوراء حين داعبت أصابعه ثديي الأيسر... نهرته دون صوت، وأفلتُ جسدي من بين ساعديه لأعود راكضة صوب البيت.

دخلتُ غرفتي محتفظة برائحة ماجد الذكورية وطعم القبلة الأولى ولهفتي، وما أن تعريتُ تماماً أمام المرآة، حتى منحت أصابعي حرية الاحتفال بولادة القبلة التي أسكرت روحي...

نمت عميقاً... أو ربما دخلتُ بإغماءة لم أفق منها إلا صباحاً...

***

لم تكن الأسواق المركزية غريبة عليَّ، فقد زرتها من قبل أكثر من مرة، ولكن الغريب هو ما لاحظته في تلك الزيارة التي كنت أروم فيها شراء البدلة التي أوصاني عليها ماجد، حيث لفت انتباهي استحداث باب إضافيّ أمام الباب الرئيس للأسواق على الرصيف تماماً، وكانت أكياس الرمل على جهتيها تشكل حدود المدخل الرئيس، وقد وقف عدد من الرجال بملابسهم العسكرية وكأنّ مهمتهم حماية البوابة من خطر محتمل. قلتُ في سريرتي، ربما تكون الحرب، السبب وراء ذلك التغيير المزعج.

كان هناك من يفتش الحقائب، وكان من بينهم امرأة بملابس مدنية تبتعد عن البوابة بضع خطوات إلى الداخل، وما أن اقتربتُ منها حتى أشارت إليَّ بالاقتراب أكثر. كان هناك شاب على مشارف الثلاثين يقف إلى جانبها...

"أفتحي حقيبتكِ يا حلوة..." ابتسمتُ لها وأنا أفتح حقيبتي اليدوية، وحين كانت المرأة تتفحص ما بداخل الحقيبة، لمحتُ الشاب الواقف وهو يتفرسني... أعرفُ قراءة تلك النظرات تماماً، فلقد وصلتني إشارات الرغبة، قبل رائحته الذكورية... ابتسمتُ له وبادلني الابتسامة، وربما شجعته ابتسامتي على الاقتراب أكثر، فقال متسائلاً بلطف:

"هل هناك مادة معينة تريدين شراءَها؟" ثم استدرك بعد أن وصله صمتي المتسائل: "أقصد، إذا تعذر عليك الحصول على ما ترغبين شراءَه، يمكنني توفيره لك..." ثم مد لي كفه اليمنى مصافحاً:

"باسل... اسمي باسل".

"وأنا حياة... شكراً لك".

الطابق الثاني من المبنى مخصص للملابس الرجالية، وفي جولة سريعة للقسم، لم أعثر خلالها على بدلة الزي الجامعي الموحد "السبور" التي وصفها لي ماجد "سترة زرقاء داكنة الزرقة بأزرار معدنية فضية وسروال رمادي"... توجهت صوب موظفة كانت تجلس خلف طاولة استعلامات القسم، وسألتها شارحة لها ما أبحث عنه... أشارت إلى الزاوية اليمنى، فتوجهت صوبها لأجد أن جل ما تبقى، الأحجام الكبيرة فقط.

قررت العودة إلى الموظفة لأسألها إن كان بالإمكان توفير الحجم الذي أريد، وما أن التفتُّ حتى وجدتُ الشاب واقفاً أمامي، محتفظاً بابتسامته، اقترب مني ليمنحني شذى رائحته الذكورية بسخاء، لفّت رائحته ما يحيط بجسدي وأنا أسمع كلماته المتسائلة:

"هل وجدتِ ما تريدين؟".

"لا... للأسف... لم أجد قياس 46، يبدو أنها نفدت..." اتسعت ابتسامة الشاب، وسألني عن عدد البدلات التي أروم شراءَها، فقلت وعلامات الدهشة مرسومة على ملامحي:

"واحدة...!!". تحولت ابتسامة الشاب إلى ضحكة مسموعة وهو يقول:

"هناك من يشتري أكثر من عشر بدلات ليبيعها في السوق السوداء... لذلك نحن هنا كي لا نسمح بذلك..." ثم طلب مني الانتظار حيث أقف

وغاب خلف باب عريض تحتوي على لوحة صغيرة منقوش عليها عبارة رادعة "ممنوع الدخول".

"ممنوع، الكلمة الأكثر تداولاً في بلدي.". قلتُ ذلك وأنا أجول بنظري متفحصة الزبائن وحركتهم، حرقاً للوقت.

كنت أنظر إلى الزاوية البعيدة حيث طفل بعمر الثانية، يبدو أنه قد أفلت من أمه، أو أن أمه أفلتته لأمر ما، كان يبدد طاقة فائضة بالقفز بين بلاطة وأخرى من بلاطات الأرضية، وتصورت أن لي أختًا أو أخًا سيكون بيننا قريباً، وسأكون له أماً... الحقيقة فرحت للفكرة، وأقسمتُ على أن لا أظهر مشاعر حبي اتجاهه، نكاية بأمي التي قررتُ معاقبتها على فعلتها... وأنا مستغرقة بحلاوة فكرتي تلك، سمعت من ينادي: "آنسة حياة..." التفتُ وإذا بالشاب الذي نسيت اسمه حينها، يقف أمامي ورائحته الساحرة باتت تسيطر على المكان. قدم لي ثلاث بدلات وأوضح بأنه اختارها بثلاث قياسات مختلفة، ثم اقترح عليَّ شراء البدلات الثلاث كي يقيسها والدي ويختار التي تناسبه، حيث يمكنني إعادة الأخريين غداً، وقال مبتسماً:

"أعتقد أن قياس 46 يكون صغيراً على والد فتاة بهذا الطول وهذا القوام الرشيق". ابتسمتُ وكادت ابتسامتي أن تقترب من الضحك، وهممت أن أوضح له بأن البدلة ليست لوالدي، ولكني كتمت، ورحت أتفحص النقود التي بحوزتي لأتأكد من أنها كافية لشراء البدلات الثلاث، وكنت أنقل نظري بين الشاب وحقيبتي اليدوية بسرعة وتلاحق، وكان هو الآخر ينقل نظراته سريعاً بين ملامح وعلامات وجهي وحقيبتي، وحين تأكدتُ بأن المبلغ الذي معي ينقصه ثمانية دنانير لتسديد ثمن البدلات الثلاث بعد أن استثنيت منه أجرة التاكسي الذي سيوصلني إلى البيت، وقبل أن أخبره بذلك قال، بأنه سيكمل لي المبلغ ويمكنني إعادته له يوم غد حين أعيد البدلتين.

شكرته وحاولت أن أتذكر اسمه ولكني لم أفلح:

"شكراً أستاذ سـ... بـ...".

"باسل..." قالها وهو يتلمس خجلي، فعالجت ارتباكي على الفور قائلة:

"شكراً لكَ أستاذ باسل، أنتَ الآن صاحب فضل عليَّ... ممتنة لكَ جداً..." صار ينظر إلى عينيَّ مباشرة وابتسامة ساحرة مرسومة على ملامح وجهه الحنطي، وعينيه العسليتين، ثم انتبهتُ إلى ذلك اللون الأشقر لشاربيه، وظننت أنه من أثر التدخين، ولكنه حين شعر بخجلي، حاول تغيير الحال، فسألني بجدية مفتعلة إن كنت أعرف مكان الدفع، هززت برأسي علامة النفي رغم أني أعرف المكان جيداً، ربما طمعاً بالبقاء معه فترة أطول أو على الأرجح، رغبة مني في ممارسة هواية الكذب... كذبة صغيرة قد تريحني قليلاً.

رافقني باسل حتى الباب الرئيس للأسواق حيث أكياس الرمل وتلك المرأة السمراء المبتسمة على الدوام التي تختص بتفتيش النساء، وفي طريقنا، سألني عن مرحلتي الدراسية، وعن عائلتي وعمل والدي، أجبته حقيقة دراستي، ولكنني أخفيت كل معلومة تخص العائلة وخصوصاً والدي وعمله، لا أدري لماذا ولكني كنت مستمتعة بما قلته له، وعرفت من خلال بعض الإشارات أنه ضابط أمن الأسواق المركزية ويمكنه تقديم أية مساعدة أطلبها.

ودعته بحرارة وإعجاب، على أمل اللقاء غداً لأعيد له الدنانير الثمانية.

استأجرتُ تاكسي عند باب الأسواق المركزية، وطلبت من سائقه التوجه إلى كلية طب الأسنان.

لم أجد صعوبة في العثور على ماجد، كان برفقة أربعة من زملائه الذين كنت أعرفهم، فغالباً ما ألتقيهم هنا أو هناك داخل أقسام الكلية، وضعتُ أمامه وتحت أنظار زملائه البدلات الثلاث وطلبت منه قياس البدلة التي تناسبه. حينها شعرت ببعض نظرات الإعجاب التي جاد بها بعض زملائه وهم يوجهون نظراتهم الخاطفة صوبي، وما أن شرع ماجد بقياس جاكيتة الحجم 46 حتى قفز ثلاثة من زملائه في محاولة منهم لقياس البدلتين الأخريين، وجاءت النتيجة أن البدلتين صارتا من نصيب زميلين له، فعرضا علي زيادة خمسة دنانير على سعرها الأصلي للحصول عليها، ابتسمت لهما ثم وافقتُ بعد ممانعة دامت لثوان، وبعد أن قال ماجد لهما، أن الفرق في السعر هو تعويض لمبلغ المواصلات الذي دفعته للوصول إلى الكلية ومن ثم العودة إلى البيت، وقام بتقديم الدنانير الخمسة لي ليكون صاحب المبادرة.

لا أدري لماذا قبلت بالزيادة على ثمن البدلات؟... أعترف بأنني لم أفكر حينها إلاّ في عدم إحراجهم، شعرتُ بأنني واحدة منهم، زميلة لهم، أو شيء آخر لا أعرفه، إلا أنه كان مبعثاً للفرح...

خرجتُ من باب الكلية بصحبة ماجد وبحوزتي خمسة عشر ديناراً زيادة على سعر البدلات الأصلي، الحقيقة كنتُ فرحة بذلك، ليس بتأثير المبلغ، ولكني بذلك الشعور الذي جعلني أشعر بأهمية مضافة كوني أمنتُ بدلات لماجد وأصدقائه، وتحت تأثير الفرحة دعوت ماجد لتناول الآيس كريم في المحل المقابل لبوابة الكلية...

لكن ماجد وكعادته دفع مبلغ الأيس كريم.

***

ما أن جلستُ على الكرسي داخل الباص، حتى خلعتُ فردتي حذائي، لأباعد ما بين أصابعي وأريح قدميَّ من تعرقهما وكتمة الحر وتعذيب الحذاء للقدمين بضيقهِ وحوافهِ القاسية، خصوصاً عند الكعبين...

حين ترجلتُ من الباص عند بداية زقاقنا وأنا أحمل فرحي بتأمين البدلات الثلاث لماجد وزملائه، لاحظت حركة عُمال وجلبة بناء، عند بداية الزقاق تماماً. كان من الواضح أن محلاً صغيراً على وشك التكوين. يبدو أن صاحب الدار قد قرر التخلي عن جزء كبير من حديقة بيته لتكون محلاً تجارياً، أو ربما شيئاً آخر. المحزن، أن شجرة رمّان معافاة نضرة، كنتُ قد أحببتها وأقمت علاقة حميمة معها، حتى صارت بيني وبينها لغة إشارة مشتركة، كانت أغصانها تبتسم لي صباحاً، وتلوح لي مساءً، وكنتُ أبادلها التحية... شاهدتها قتيلة مرمية إلى جانب الرصيف، حيث بقايا وأنقاض السياج المُزال... حزنتُ جداً، وأردتُ فعلَ شيء لمواساتها... أخذتُ غصناً منها عسى أن أعيد له الحياة.

مررت بمكوى العم تومي ونظراتي تبحث عن الشاب صاحب المنديل الذي يستقر في خزانة ملابسي برائحته الساحرة، دون أن ألمحه، ولكنني استطعت أن ألمح العم تومي خلف مكواة البخار. اقتربت من باب المحل، وألقيت عليه التحية، فردها مبتسماً، وحمّلني تحياته لوالدي.

ما أن دخلت صالة البيت، بعد أن وضعتُ غصن شجرة الرمان في جردل ماء كان مركوناً في زاوية الحديقة القريبة من شباك صالة الضيوف، حتى استقبلتني برودة حميمة جاد بها عليَّ مكيّف الهواء، عشيق والدتي كما كنا نطلق عليه... تلك التسمية التي أوحى لنا بها والدي حين قال يوماً كانت الحرارة فيه تصل إلى ما لا طاقة لنا فيه: "زوجتي باتت تعشق مكيّف الهواء أكثر مني، لدرجة أنني بتُّ أغار منه..." ثم دخل في نوبة ضحك سرعان ما أصابتنا عدواها لنضحك طويلاً.

جلستُ أمام والدي وكأس الماء المبرّد بين يدي، أخبرته بما فعلته خلال الوقت المنصرم فضحك عالياً وأشار إلى أن ابنته صارت "دلالة" تشتري وتبيع ما يحتاجه الناس، الحقيقة آلمني تلميح والدي، فلم أكن قد خططت لما حصل، لقد جاء بالمصادفة، وقبل أن أظهر له امتعاضي مما أشار له قال: "حياتي، بما أن الطبيب قد منحكِ إجازة لمدة أسبوع، وبما أنني مسافر بعد غد للمشاركة بمؤتمر أدبي، فما رأيكِ أن تطلبي من السيد باسل أن يساعدكِ في الحصول على عدد من قناني الويسكي الفاخر لأخذه معي هدية لزملائي هناك؟"...

"يا إلهي... والدي يطلب مني خدمة... يا الله كم أنا سعيدة..." قلت ذلك بسريرتي، ثم أخبرت والدي بأنني سأكون غداً صباحاً داخل الأسواق المركزية لأعيد الدنانير الثمانية للسيد باسل بكل الأحول وسأسأله عن النوعية الفاخرة للويسكي الذي تطلبه. أشار لي والدي حين فتح ذراعيه بالاقتراب منه كي أحظى بأحضانه فسارعت مرتمية على كرشة المحبب إلى روحي.

تذكرتُ غصن شجرة الرمان، فخرجتُ إلى الحديقة، وأخذت الغصن إلى المطبخ، وضعتُ الغصن في قدح زجاجي كبير وأدخلته غرفتي ليستقر على طاولة صغيرة جنب صديقتي الحميمة، مرآتي التي تعرفني أفضل من الكثير... يبدو أن أمي كانت تراقبني، فما هي إلا دقائق حتى سمعتُ صراخها وعربدتها، ثم سرعان ما دخلتْ غرفتي متوجهة بشكل مباشر صوب الغصن لتأخذه بعصبية وسط صراخها، بحجة أن الغصن يحتوي على الكثير من الحشرات التي ستفسد هوسها في النظافة... وما أن وصلتْ بالغصن سور الحديقة حتى حذفته خارجاً، ثم استدارت نحوي بغضب وصارت تعنفني أكثر... هربتُ من أمامها باكية، ودخلتُ غرفتي التي لم أخرج منها إلا حين سمعتُ نقرات والدي الثلاث على باب الغرفة... احتضنته باكية، ورحتُ أسرد له قصة شجرة الرمان القتيلة...

***

كان صباحاً ساخناً دون نسائم، ذلك الذي التقيت به باسل عند بوابة الأسواق... صارت ابتسامته أوضح ملامحه ما أن أبصرني على بعد عشرة أمتار تقريباً، ألقيت عليه التحية وشكرته بحرارة وأنا أناوله الدنانير الثمانية. سألني عن البدلة التي ناسبت والدي، فأخبرته بأن البدلات الثلاث صارت من نصيب أفراد العائلة، ثم سألته عن نوعية الويسكي الذي أخبرني بها والدي، فاتسعت ابتسامته وطلب مني مرافقته، وما أن خطونا بعض خطوات حتى صار يسألني عن عائلتي وكيف أقضي يومي، ولم ينسَ أن يسألني عن هواياتي. كانت أسئلته قد أثارت فيَّ روح المداعبة، فأجبته كاذبة على كل أسئلته، لقد اختلقت لي عائلة لا تشبه عائلتي، واخترت هوايات لم أمارسها من قبل، أعرف أن ذلك ليس مثار اهتمامه، فقد كانت رائحته الذكورية التي صارت أكثر وضوحاً وتأثيراً تشير إلى اهتمامه الوحيد. انتبهتُ إلى أن رائحة باسل الذكورية، تقترب من رائحة "التمر المكبوس"... ضحكتُ سراً حين تذكرتُ "خصافة" التمر التي جلبها لنا ماجد...

لم ندخل بهو الطابق الأولى، بل انحرف بي يميناً حيث ممر يحتوي على عدة أبواب شاهدتُ على أحدها علامة WC ، وبعد عدة خطوات فتح باب إحدى الغرف وطلب مني الدخول فدخلت بكل ثقة، لأشاهد مكتباً بسيطاً وبعض كراسي.

طلب مني الجلوس محدداً لي المكان أمام طاولة المكتب بينما جلس هو خلف الطاولة حيث الكرسي المتحرك، وسألني عن رغبتي في شرب شيء ما، فطلبتُ ماءً مبرّداً. رفع سماعة الهاتف وطلب قنينتي "كراش كولا" وماء، ثم نظر صوبي مبتسماً وسألني عن عدد قناني الويسكي التي أريد شراءَها، تذكرت حينها أن والدي طلب مني ثلاثاً "إن كان بمقدوري"،

ولم أكن أعي ما قصده بذلك، ولكني ابتسمت له وأكدت له بأنني قادرة على ذلك، ثم تذكرت العم تومي الذي قابلني بابتسامته المحببة وحين سألني عن سبب عدم ذهابي إلى المدرسة في ذلك الوقت، وأخبرته تمتعي بإجازة لمدة أسبوع وأن وجهتي الأسواق المركزية لتأمين ما طلبه والدي، ابتسم لي وقال على حياء: "هل بإمكانك تأمين قنينتين لعمك تومي؟" ثم استدرك ضاحكاً: سأدفع لكِ زوج دنانير زيادة على سعر القنينة الواحدة..." منحته ابتسامة صادقة وقلت: "أنتَ تأمر عمي العزيز".

نظرتُ إلى صفاء عينَي باسل وقلت: "خمس قناني". أطلق ضحكة رزينة واقتربَ بجزء جسده العلوي صوبي وهو يشبك كفيه وقال بوضوح: "عزيزتي حياة، أتمنى أن تعلمي بأن هناك تعليمات تمنع شراء أكثر من قطعة واحدة للشخص الواحد، وهذا يشمل جميع البضائع المعروضة..." شعرت بالارتباك وأنا أتلمس جديته فيما قال، ولم يمنحني الفرصة لأتساءل عن السبب، حيث أضاف: "البلد في حالة حرب، والسوق السوداء رائجة بشكل جنوني، والبضائع المستوردة لا تصل بسهولة، وعلينا تأمين حاجة المواطنين ولكن بالتساوي..." شعرت أنني بحاجة إلى صلابة للخروج من ذلك الموقف الذي بات يزعجني فقلت بثقة: "اسمح لي أن أقدم اعتذاري لك، فلم أكن على علم بتلك التعليمات...". قاطعني بتهذيب لافت وقال مبتسماً: "لدينا صلاحيات بسيطة يمكننا من خلالها منح بعض الاستثناءات، وأجد أنكِ جديرة بالاستثناء، لذا سأؤمن لكِ ما تطلبين..." شكرته وكررت أسفي طالبة منه نسيان الأمر إن كان فيه بعض الاحراج، لكنه أصرّ على موقفه وقال كلمة أزعجتني... "سأساعدك" كلمة جعلتني أشعر بالضعف، فأوضحت على أثرها بأن ما أريد شراءَه ليس لي، بل هناك مناسبة فرح نقيم فيها حفلاً فاقتضت الضرورة إلى تأمين بعض الشراب. وافقني مبتسماً وأراد أن يقول

شيئاً إلا أن دخول الساعي وهو يحمل المشروبات الباردة، قد أجبره على التزام الصمت.

طلب باسل من الساعي الانتظار، وسألني إن كان المبلغ المطلوب بحوزتي، فأعطيت المبلغ للساعي بعد أن طلب منه باسل تأمين القناني وجلبهم إلى مكتبه.

بمجرد أن غادر الساعي، نهض باسل واقفاً، ثم استدار ليحتل الكرسي المقابل لي إلى جانب طاولة المكتب، كان مبتسماً وأطراف موضوع مهم مرسوم على ملامحه، أحسست بأهمية ما سيقوله لي، لكنني حين سمعت كلماته، تفاجأت:

"آنسة حياة، هل لي بطلب مساعدة؟". ابتسمتُ له تحت تأثير المفاجأة، فمن أنا حتى أقدم مساعدة لضابط في الأمن؟ ثم قلت له ممازحة، إن ذلك يعتمد على نوع المساعدة، رغم أني أقصد ما عنيت، فقال محتفظاً بابتسامته:

"غداً، يتم بيع جهاز تلفاز حديث وبسعر مناسب، وبما أن السوق السوداء رائجة، وأن الكمية محدودة، فمن الطبيعي أن تنفد المادة المعروضة خلال أقل من ساعة..." كنتُ أصغي إليه وكلي شغف لالتقاط الفكرة، حتى قال: "أتمنى أن تساعديني غداً صباحاً في شراء تلفاز ومن ثم توصيله إلى بيت امرأة عزيزة جداً عليَّ." وافقت دون تفكير، ووعدته بأنني سأكون غداً أمام باب الأسواق قبل موعد بدء الدوام بدقائق.

دخل الساعي حاملاً ثلاث علب كارتونية وكل علبة تحتوي على قنينتين، وضعهما على الطاولة الصغيرة التي تتوسط المسافة بيني وبين باسل، ثم ناولني بعض القطع النقدية المعدنية بقية المبلغ المدفوع، أعدت له القطع المعدنية إكرامية له، وأنا أشكره بحميمية، ثم انصرف بعد أن عرف من سيده بأنه ليس بحاجته خلال الساعة القادمة.

"إنها ست قناني وليست خمسًا" ابتسم باسل وقال موضحاً أن البيع بالعلبة وليس بالقنينة، وهذا من حسن حظي طبعاً. سألته كيف ذلك، فقال بأن هناك من يقف خارج باب المبنى ليشتري من الناس بضائعهم بضعف السعر، وإن أحببت بيع القنينة السادسة سأجد الكثير من الراغبين بذلك... أظهرت ممانعتي واستهجاني للعب دور "الدلالة" أمام الناس، فأشار باسل بأنه متأكد من ذلك.

صارت رائحة "التمر المكبوس" تسيطر على المكان، مما زاد من متعتي حتى كادت تسكرني، كنت مبتسمة وأنا أرمي سهام نظراتي صوبه بشكل خاطف، وكان يتلقى السهام بفرح غامر، وفي لحظة نهضتُ من على الكرسي معلنة زمن المغادرة، فوقف هو الآخر وأشار بأنه في خدمتي دائماً، وطلب مني عدم التردد في طلب أي مساعدة حتى وإن كانت خارج نطاق عمله... شعرتُ بأنفاسه تلهب وجهي وعنقي وأن رائحته صار تتغلغل إلى أنسجة جسدي، فاقتربتُ منه مصافحة، لكنني وفي لحظة لم أع مكنوناتها احتضنته شاكرة، وبسرعة خاطفة أفلتُّ جسدي.

بقي باسل بمكتبه ولم يرافقني، شعرت حينها أن إرباكاً جسدياً وذهنياً قد سيطر عليه.

عرفتُ فيما بعد، وبعد تفكير عميق، أن سبب احتضاني لباسل كان الطمع... طمعي في أن تعلق رائحة ذكورته بملابسي وجسدي أكثر.

عند البوابة اقتربتْ مني امرأة خمسينية تسألني إن كان في نيتي بيع بضاعتي، فرفضت، وما أن ابتعدتُ قليلاً حتى اقتربتْ مني امرأة أخرى لتطرح عليَّ السؤال نفسه، لكنني لم أجبها، فقد وقع نظري على بشير واقفاً وكأنه ينتظر شخصاً ما رغم أنه كان ينظر إليَّ مباشرة. نظرت إليه مبتسمة، فتشجع واقترب مني. بعد التحية، سألته عن أحواله، وحين سألته عن سبب وقوفه في ذلك المكان لم يجب، وعرض علي المساعدة في حمل علبة أو

علبتين، فوافقت قائلة: "إذا لم تكن بانتظار شخص ما أو لست مشغولاً، فيمكنك مرافقتي حتى موقف الباص..." شعرت بفرح صارت عيناه تشرق به، وعلى الفور حمل علبتين، في كل يد علبة، وحين صار إلى جانبي، ونحن نخطو أولى الخطوات شعرت بطوله المحبب، وتذكرت المرة اليتيمة التي تمشيت معه ليوصلني حتى موقف الباص بطلب من العم موسى، ثم انتبهت إلى أن يدي اليمنى باتت حرة، فمسكت ذراعه والتزت إليها. فاضت رائحة "الخبز الساخن" مصحوبة بشهقة عميقة أطلقها بشير، ثم التفتَ إليَّ مبتسماً، وهو يتمتم: "كم حلمتُ بتكرار تلك اللمسة التي صارت سبباً لأرقي"...

أصرَّ بشير على مرافقتي حتى البيت، لكنني رفضت، وبعد إلحاح وافقت على أن يرافقني رحلة الباص فقط، فوافق.

في الباص جلسنا متلاصقين، كنت مستمتعة برائحته الذكورية التي تلمستها متعبة مضطربة رغم صخبها. سألته بعد أن استدرتُ نصف استدارة، ليصير صدري ملامساً لزنده الأيمن:

"الآن وقد بدأت مرحلتك الدراسية الجامعية الأخيرة، كيف ترى وضعك؟... هل ستكون من الأوائل لتكمل الدراسة العليا؟". جفل بشير من سؤالي، ثم ضحك بصوت مسموع وقال بأن كلماتي المتسائلة قد أوحت له بصورة والده، قال بأنه كان يتمنى أن يكون والده على قيد الحياة ليقول له كلاماً مثل الذي سمعه مني. ثم قال بعد أن صمت قليلاً:

"إن طلبتِ مني التفوق، تفوقتُ لأجلكِ فقط...". أدهشني، فقلت:

"كلا يا مجنون، ليس من أجلي، بل من أجلكَ، فالحرب ما زالت مستعرة، وتخرّجك بدرجة متواضعة يجعلك حطباً رخيصاً لها، عليك التفكير في الخلاص والابتعاد عن طاحونة الحرب، فالدراسة خير حافظ".

كنت أنظر إلى وجه بشير متفحصة ملامحه، وكان يهرب بنظراته في الاتجاهات البعيدة. صرتُ أقرأ ملامحه وأترجم ارتباكه، كان قلقاً مرتبكاً، وكلما نظرتُ إليه، تلمستُ غربته ووحشته، ومرارة الأمنيات المقموعة... ثمة لوعة تكتنزها روحه، أكبر من قدرتي على فكّ طلاسمها...

اختلطت رائحة ذكورة بشير برائحة باسل العالقة على ثيابي وجسدي، وما أن تلمست ذلك الشعور حتى ابتسمت بخبث، وقلت في سريرتي: "ستكون تجربة رائعة حين يبحر بي خيالي وأنا برائحة ذكرين... رائع."

ودعتُ بشير وأنا أروم النزول من الباص في الموقف القادم، وقفتُ عند الباب، ناظرة صوبه محتفظة بابتسامة مَنَحتهُ سعادة غامرة، ذلك ما شعرت به وهو يبتسم لي ناقلاً نظراته بيني وبين كفيه المطبقتَيْن بين فخذيه...

ما أن لامست قدماي الأرض وأنا أنفلت من باب الباص حتى صار أمامي محل لتصليح السيارات وتغيير الإطارات، تم افتتاحه -على ما يبدو -منذ قليل، كان ذلك المحل الذي أُنشِئَ على جثة صديقتي شجرة الرمان، والذي انتبهتُ لعملية إنشائه أمس... "الورشة العصرية لتصليح كافة أنواع السيارات" ذلك ما قرأته على اللوحة الكبيرة التي صارت تعتلي سقف البناية حديثة البناء... تأسفت كثيراً فقد كنت أحب شجرة الرمان الكبيرة، كانت أغصانها تتدلى من السياج وكأنها طفلة جلست تتفرّج على العالم من فوق السور... ترى ما الذي حلَّ بها؟... أين دُفنت؟...

مررتُ على العم تومي حيث محله، كان حينها يستلم بعض الملابس من صبي أعرفه، ألقيت التحية عليه وداعبت شعر رأس الصبي وأنا أنظر مبتسمة بوجه العم تومي، ابتسم وهو يرى علبة الويسكي، وراح يشكرني وهو يناول الصبي وصل استلام الملابس، ثم تسلم العلبة الكارتونية ودخل إلى عمق المحل، غاب دقائق معدودات كانت كافية لتمنحني فرصة سؤال الصبي عن أحواله ووضعه المدرسي، وحين عاد تومي، دس في كفي مبلغاً

من المال أودعته جيبي دون عدّه، ثم سألته عن الشاب الذي كان يعمل معه، فأخبرني بأن "حسام" قد التحق بالخدمة العسكرية... "اسمه حسام إذاً... ذاك الشاب الوسيم الذي يسكن منديله خزانة ملابسي برائحته التي سيطرت على مخيلتي أيامًا عديدة.". ودعتُ العم تومي متوجهة صوب دارنا وروحي تردد بحزن عميق:

"ستأكله الحرب... ستأكل الحرب حسام، وتحتفظ الأرض برائحته الذكورية إلى الأبد... هل تمتلك الأرض مخيلة تقودها إلى الوقوف أمام مرآة...؟".

"هل رائحة الأرض هي ذاتها الرائحة الذكورية، لكثرة ما احتضنت من أجداث لشباب حالمين؟" سألتُ نفسي، ثم سرعان ما رنّتْ إجابة السؤال في مخيلتي، جعلتني مبتسمة بفرح: "عند المطر فقط.".

***

صباح اليوم التالي، وحين وصلتُ مع موعد فتح أبواب الأسواق المركزية، التقيت باسل هناك، لمحت منه نظرة لم ألمحها من قبل، صارت نظرته جدية كلياً نحوي، رغم فرحها الواضح... ونحن نسير صوب الداخل حاول باسل وضع كفه على كتفي، وفعل، لم أبدِ أي ممانعة، منحته الفرصة راضية، بل شعرت حينها ثمة حرارة حميمة تتسرب إلى روحي... سألته إن كان بإمكاني شراء جهاز تلفاز لبيتنا، فضحك وقال مؤكداً بأن كل ما تحتويه الأسواق تحت أمري، شكرته صادقة، وسألته عن المبلغ المطلوب، وما أن أجابني حتى صرنا أمام فتاة جميلة تقف امام جهاز المحاسبة، دفعت لها المبلغ بعد أن أخبرها باسل بما نروم شراءَه، وناولتني وصل استلام المبلغ، وما أن تسلمتهُ، حتى أخذه باسل بطريقة مهذبة لا تخلُو من المداعبة، ثم سألني إن كنت أحمل بطاقة الهوية معي، كونه يريد استخراج بطاقة عضوية لي خاصة بالأسواق المركزية، ستسهل لي الكثير،

وتجعلني ضمن الأعضاء الذين لهم الأولوية. فرحتُ للفكرة وسلمته هوية الأحوال المدنية... تسلمها مني وأشار لشاب يقف قريباً. اقترب الشاب من باسل ووقف لصقه. سلّمه الوصل والهوية ودس في أذنه بعض كلمات لم أسمع منها شيئًا.

ونحن ندخل غرفته أخبرني باسل بأن سائقه سيوصلني إلى بيت السيدة التي يروم إيصال جهاز التلفاز لها، كونه يعرف العنوان جيداً، ثم أشار إلى أن السائق سيوصلني إلى بيتي أولاً كي أوصل التلفاز خاصتي، ثم يتوجه بي إلى بيت السيدة.

بعد مضي قرابة ربع الساعة تحدثنا خلالها عن اهتماماتي وهواياتي، رنَّ الهاتف. رفع باسل السماعة ثم أغلقها دون أن يقول شيئاً. نظر صوبي مبتسماً ثم أخبرني بأن الجهازين صارا داخل صندوق السيارة.

ودعتُ باسل ثم جلستُ إلى جوار السائق الخمسيني صاحب الكرش المتدلية بشكل لافت. سألني عن عنوان بيتنا فأخبرته باسم المنطقة والشارع، بعد ذلك ساد الصمت، صمتَ السائق ولم يقل شيئاً، غير أنه رفع صوت المذياع الذي كان يبث سموم الحرب على شكل أخبار منتصرة لا نشعر بها، إلا حين نشاهد التوابيت المغطاة بعلم الدولة، تعتلي سيارات التاكسي.

ما أن انعطف السائق بسيارته داخلاً زقاقنا حتى أشرت إلى مكوى العم تومي كي يقف هناك، فقد حرصتُ على أن لا يعرف السائق عنوان بيتنا، فذلك يعني أن باسل سيعرفه بالضرورة، ولا أدري لماذا سيطرت عليَّ تلك الفكرة، ولكن، كان ذلك، تفكير اللحظة حينها. سألني السائق إن كانت هناك صلة بيني وبين صاحب المحل، فأوضحتُ له بأنه عمي، ربما انبثقت متعة الكذب حينها، لكنني شعرت ببعض النشوة وأنا أكذب.

طلبتُ من السائق أن يساعدني في إنزال العلبة الكارتونية من صندوق السيارة، بينما توجهت للعم تومي طالبة منه الاحتفاظ بالجهاز أمانة لديه حتى يوم الغد، وافق الرجل دون تردّد وأشار للسائق إلى المكان المناسب.

***

اتضح لي أن بيت السيدة التي يجب عليَّ تسليم الجهاز لها، ليس بالبعيد، فقد اتجه السائق صوب الجسر القريب من حينا، وما أن وصل نهايته حتى انعطف جهة اليسار ليدخل قرابة المئة المتر في شارع تحفّه الأشجار ويتوقف عند بوابةِ بيتٍ فارهٍ بحديقة رائعة الاعتناء. ترجل السائق وضغط زر الجرس، ثم توجه نحو سيارته وحمل العلبة الكارتونية طالباً مني الوقوف أمام باب الدار.

حين فُتح الباب، ظهرت امرأة خمسينية ترتدي ملابس بيتية بسيطة، سألتني على الفور: "هل أنتِ حياة؟" وحين أجبتها بالإيجاب ابتسمتْ وطلبت مني الدخول، ثم نظرت صوب السائق وقالت بصوت متماسك يقترب من الأمر: "أُدخل يا سعيد، وضع التلفاز في صالة الضيوف!" العبارة تلك، كانت مفاجأة كبيرة لي. لقد كشفت لي أن السائق يعرف البيت، وهناك مَنْ يعرفه مِنْ داخل البيت. إذاً لماذا أرسلني باسل لهذه المهمة؟...

حين دخلتُ صالة البيت، شممت رائحة حزنٍ عتيق، لكنني سرعان ما تناسيت تلك الرائحة حين كانت المفاجأة، وقفتُ مذهولة أمام شخصية طالما أحببتها وأحببتُ أغانيها وشخصيتها "المتماسكة"، لكنني في لحظة تفكير خاطفة، تلبسني الشكّ، فقررت اختبار فراستي ولعب دور السذاجة فاقتربتُ منها مصافحة، ملقية عليها التحية، ابتسمتْ وطلبتْ مني الجلوس قربها، وما أن جلستُ، حتى طلبتْ السيدة من المرأة الخمسينية دورق عصير بارد وقدحين: "عزيزتي أم صالحة اجلبي لنا العصير البارد

وقدحين من فضلك.". عبارة في غاية التهذيب... كنت أنظر صوبها متلمسة شخصية سيدة أرستقراطية تنحدر من عوائل النبلاء رغم أن البلد لا يضم نبلاء بين تلافيف مجتمعه...

يبدو أن المرأة قد تلمست حيرتي حول شخصيتها، فابتسمت وسألتني إن كنتُ أعرفها أو رأيتها من قبل، فقلت بارتباك مفتعل:

"إذا كنتِ الفنانة ذكرى صباغ، فأنا إحدى المعجبات بصوتك وشخصيتك..." أطلقت المرأة ضحكة ملؤها الفرح واحتضنتني مؤكدةً بأنها بالفعل الفنانة ذكرى. بادلتها الاحتضان وقد أسمعتها كلمات تبحث في سرّ اختفائها عن شاشة التلفاز أو حتى الصحف والمجلات الفنية، فقالت مبتسمة: "تزوجتُ" وصمتتْ.

دخلت أم صالحة حاملة العصير والماء وبعض الأقداح وقد جمعتهم بصينية زجاجية زهرية اللون رائعة النقوش.

تبادلنا النظرات وبعض كلمات عامة ونحن نشرب العصير، وفي لحظة طرحتُ عليها السؤال الذي بات يثير حيرتي: "لاحظت أن السائق يعرف البيت جيداً وأن أم صالحة تعرفه، وهذا يدل على أنها ليست المرة الأولى التي يأتي بها إلى بيتكم، ولا أدري لماذا طلب مني السيد باسل توصيل التلفاز لكم، بدلاً من أن يكلّف سعيد السائق بذلك، دون أن أرافقه إلى هنا؟". ابتسمت السيدة ذكرى وراحت تداعب أطراف أصابعها لثوانٍ ثم نظرت صوبي بنظرة حنونة متماسكة وقالت: "أنتِ فتاة ذكية جداً، تماماً كما وصفوكِ... الحقيقة أنا لا أعرف من هو باسل، ولكن من المؤكد أنه أحد رجال زوجي، ومن المهم أن تعرفي بأنكِ هنا بطلب مني... أنا من طلب حضوركِ إلى هنا، لأنني بحاجة إليكِ.". صدمتني كلماتها، وشعرتُ ببعض غبطة، "الفنانة الشهيرة ذكرى صباغ تطلبني شخصياً!!!؟" ثم

سألتها بدافع دهشتي، إن كانت تعرفني من قبل، فنفت، ثم طلبتْ مني الاصغاء وراحتْ تشرح لي:

"الحقيقة، منذ وقت ليس بالقصير وأنا أعاني من العزلة والانقطاع عن المحيط الخارجي، وصرتُ أشعر بأن الكآبة على وشك السيطرة على عقلي وروحي، فطلبت من زوجي حسب نصيحة طبيبي الخاص، أن يجد لي فتاة متعلمة تنتمي إلى عائلة محترمة، فتاة مهذبة وذكية، كي تكون أنيستي، صديقتي، أو لنقل عيني التي أرى بها العالم الذي ابتعدتُ عنه..." أردتُ أن أقول شيئاً، ولكنها أشارت لي بضرورة الإصغاء فأضافت: "ومنذ ذلك الحين، طلب زوجي من بعض معارفه انتخاب فتاة بالمواصفات المطلوبة، ويبدو أن أحد أصدقاء زوجي قد عثر على ما أتمنى، فقدمكِ لي هدية لا تقدر بثمن...".

"إنه شرف كبير لي أن أكون صديقتكِ... ولكن لماذا العزلة؟" سألتها دون تحفظ، فراحت تنظر إلى كفيها المستلقيَتَيْن وسط حجرها، وقالت دون أن ترفع رأسها: "إنه أمر يطول شرحه..."، ثم رفعت رأسها مبتسمة بمرارة واضحة، وقالت: "سعيد السائق ما زال بانتظارك، يمكنكِ الذهاب الآن، ولكن لنا موعد بعد غد، عند الساعة الثالثة بعد الظهر، سأنتظرك..." أشارت لي راجية عدم المقاطعة وأضافت: "إن أتيتِ على الموعد أكون سعيدة جداً، فقد أحببتكِ أيتها الفتاة الذكية، وإن لم تأتِ، سأفهم حينها أنكِ ترفضين صداقتي، ولكِ في ذلك مطلق الحرية، وتأكدي بأنني لن أضايقكِ أبداً..." احتضنتني وطبعتْ قبلتين على وجنتيّ وهي تودعني...

***

أوصلني سعيد السائق، إلى محل العم تومي حسب رغبتي. وجدتُ العم تومي جالساً على كرسيه داخل محله، وحين شاهدني هبّ واقفاً وهو

يسألني عن صاحب السيارة الذي أوصلني مرتين إلى محله، فأخبرته إنه سائق يشتغل عند أحد أصدقاء والدي، ورغم أني لم ألمس تصديقه لكلامي، حاولت أن أغيّر جهة الحديث، فسألته عن التلفاز... أخبرني بأنه في موضعه الآمن داخل المحل، ثم سألني عن حاجتي إلى التلفاز وإن كنتُ قد اشتريته لبيتنا أو لبيت آخر، فقلت له دون تفكير عميق: "إنّه للبيع"، ابتسم وعرض عليَّ ضعف السعر الذي دفعته عند الشراء، فوافقت على الفور، فلم أعرف حينها أن سعره في السوق السوداء يزيد عن ثلاثة أضعاف ثمنه.

***

جابهني غضب أمي حين دخلت البيت... بدأت بسيل الأسئلة وأنا أقف أمامها صامتة، مصوبة نظرات جامدة صوب عينيها، ولكونها تعرفني جيداً، وتعرف تلك الوقفة الخرساء "الوقحة" التي لن تطال من ورائها أية فائدة، اقتربت مني لتهزني بعنف كعادتها في كل مرة، ولكن ما أن شعرت باقترابها حتى صرخت في وجهها محذرة إياها من لمسي، فارتعبت، ووقفت جامدة لثوان، ثم حركت شفتيها المتشنجتين: "أين كنتِ؟... ألا تعرفين بأن عليكِ الذهاب إلى المدرسة غداً صباحاً؟...". ابتسمت لها، وشعرت أن الفرصة باتت مناسبة كي أرمي حجر العقوبة بوجهها، العقوبة التي أقسمت على صبها فوق رأسها ولزمن ليس بالقصير، نتيجة حملها الذي صدمني خبره، فقلت محتفظة بابتسامتي المفتعلة:

"هذا العام، استراحة... لن أذهب إلى المدرسة، لقد قررت تأجيل دراستي عامًا كاملاً". ثم أفلتُّ جسدي من أمامها وتوجهت صوب غرفتي، وكنت أسمع موسيقى لطمات كفيها على وجنتيها، كنت أسمع "موسيقى" صرخاتها وإعلان حيرتها ومصيبتها حين تخبر والدي بذلك.

وقفتُ أمام مرآتي وقفة الأميرة المنتصرة دون أن أفقد ابتسامتي...

***

جميلة مرآتي... دائمة الفرح، فهي لا تعرف "جنون" أمي، ولا "نزق" أم شفيق.

(7)

وضعتُ الدنانير التي كسبتها من بيع التلفاز إلى العم تومي، بالإضافة إلى ما كسبته من البدلات الثلاث، وقناني الويسكي، داخل "فازة" جدي... تلك الفازة النحاسية الجميلة المنقوشة بحرفية الصانع الماهر الذي يعشق فنّ النقش، الفنان الذي يعشق مهنته.

كنتُ أجالس جدي وهو يعمل على طاولته الصغيرة داخل غرفته، كان ينقش أشكالاً ساحرةً على القطع الذهبية والفضية والنحاسية أحياناً، يصنع الحلي والميداليات، وأشياء أخرى ساحرة الجمال لم أكن أعرف ما هي، وكان يضحك فيتورد وجهه، حين أقص عليه بعض الحكايات حول العصافير والحشرات والحيوانات وما تجود به مخيلة طفلة صغيرة، حكايات لا أتذكرها الآن، ولكنني أعرف أنها كلمات وجمل غير مترابطة، أحاول خلالها استخدام كل الكلمات التي كنت أعرفها، وكان جدي كثيراً ما يصلّح لي أخطائي تحت نوبات ضحك، تدمع أحياناً إثرها عيناه... ذات صباح طلب مني أن أغنيه أغنيته المفضلة، فرفضت كوني لا أريد النوم، وقد حاولتُ أن اشرح له بأن الأغنية التي حفظتها عنه إنما للنوم فقط، لكنه أصرّ على ذلك، وكنتُ مصرة أيضاً، لكن على الرفض، حتى رضخت لطلبه حين أخبرني بأنه يخبئ لي هدية جميلة، فغنيت له:

نامي يا "حياتي"

النخل يعشق الفخاتي...

وإن كنتِ لا تعلمين

فإن الحياة مسرعة

ولا تسير... تاتي... تاتي

نامي يا "حياتي"...

وما أن انتهيت حتى أخرج "فازة" نحاسية تماثلني في الطول، رائعة النقوش، ليقدمها لي هدية، وقبل أن أعلن امتعاضي من هديته، كونها ليست بالحلوى كما كنت أنتظر، وضَّحَ لي بأنه سيضع كل يوم قطعة نقدية من فئة "الخمسة فلوس" داخل الفازة ليكون عندي "ثروة" حين أكبر. احتضنتُ الفازة كأنني أحتضن شقيقة لي... اكتشفتُ حين ربتُّ على جسدها بيديَّ الناعمتين، ثمة نغمات موسيقية رائعة تخرج من داخلها... لصقتُ أذني على جسدها جيداً، فصارت الموسيقى أكثر جمالاً.

احتفظتُ بالفازة منذ ذلك الحين، فقد صارت مرتبطة "ذهنياً وروحياً" بالمستقبل الذي لا تنقصه الرفاهية...

***

في صباح اليوم التالي أيقظتني والدتي، معلنة ضرورة الذهاب إلى المدرسة، ولم تنس تذكيري بأنني في المرحلة المنتهية: "عندك بكالوريا ماماتي...". فتحتُ عينيَّ لأشاهد وجه أمي مبتسماً، سألت عن الدافع الذي أيقظتني من أجله، فأعادت عليَّ جملتها مع بعض الإضافة: "هذه السنة فقط، وتكوني في الجامعة، هيا تنشطي، إنها سنة البكالوريا حبيبة ماما...".

"ألم أخبركِ بالأمس، بأنني قررت تأجيل الدراسة إلى العام القادم؟... أنا مريضة، ولا أريد سماع إزعاجاتكِ مرة أخرى... متى تفهمين؟... أوف...".

***

صرتُ أمام بوابة الأسواق المركزية قبل دقائق من موعد فتحها، كنتُ أنظر إلى الداخل باحثةً عن قامة باسل وعينيه الشهلاوتين، فقد أتيت خصيصاً لألعب لعبة، فكرتها وليدة الليلة المنصرمة التي بقيت لساعة متأخرة أفكر بالتخطيط لها، أردت أن أضع باسل تحت اختبار بسيط، ربما أكتشف شخصيته أكثر، ذلك ما كنتُ أطمح إليه...

ما أن أُعلنَ عن فتح البوابة حتى رأيت بشير واقفاً أمامي راسماً ابتسامته الجميلة على شفتيه، وبريق عينيه يحكي لي قصة عشق ضبابية لا تخلُو من الإرباك...

"صباح الخير صديقي".

"صباح الخيرات آنسة حياة... ما أجمل هذا الصباح!". ضحكتُ وأخذت زنده اليمنى بكفي اليسرى ودخلنا معاً.

"ما الذي تفعله هنا أيها الطالب الكسول؟... مثل هذا الوقت يجب أن تكون داخل الحرم الجامعي!!". نظر صوبي مبتسماً، وقد غزتني رائحة "الخبز الساخن"، ثم نظر أمامه وهو يقول بفرح واضح:

"لستُ كسولاً، فقد وعدتكِ أن أنجح بتفوق، وأنا عند وعدي..." فقاطعته وكأنني معلمته: "هل لكَ أن تفسر لي وجودك الآن في هذا المكان؟" قال وكأنه يصرّ على عدم النظر إليَّ:

"الأمر بسيط جداً... أمامي ثلاث ساعات حتى تبدأ محاضرتي الأولى واليتيمة لهذا اليوم، وليس من عادتي تضييع الوقت..." ثم نظر صوبي على حياء وأضاف: "أما ما تبقى من قصة تواجدي في هذا المكان، فستعرفينه حين نخرج من هنا ونجلس في مكان هادئ...".

"هل أفهم بأنك تدعوني إلى تناول شيء في كافيتيريا أو مقهى؟" نظر صوبي وأطال النظرة، شعرت خلالها ولأول مرة بصلابة شخصية رجولية مكنونة داخل روحه لم ألحظها من قبل، وبعد لحظة صمت قال:

"هل تجدينني قاصراً؟". الحقيقة شعرتُ بالخجل فقد شعرت بصلابة وصدق اعتزازه بنفسه، فسارعت إلى الإشادة بشخصيته ورجولته، فابتسم ابتسامة النبيل المنتصر... ثم قال، بأن ثمة أقداح كريستال سيتم بيعها، وهو ينوي شراء ما باستطاعته. سألته عن أهمية تلك الأقداح، فأشار إلى أن عائلة أحد أصدقائه قد طلبوا منه ذلك، كونها باهظة الثمن في السوق السوداء.

افترقنا حين توجه بشير صوب معرض البيع، وتوجهتُ صوب غرفة مكتب باسل علّني أجده هناك، لكن، ما أن وصلت قرب باب الغرفة حتى بادرني الساعي بالإشارة إلى أن الأستاذ باسل لم يحضر حتى الساعة، ولعله يتأخر قليلاً... توجهتُ صوب صالة البيع، وحاولتُ شراء دزينة أقداح الكريستال لأقدمها إلى بشير مساعدة مني لتلبية طلب عائلة صديقه، فقانون الأسواق لا يسمح بشراء أكثر من علبة واحدة للشخص الواحد كما أخبرني باسل سابقاً، وبالفعل اشتريت علبة كارتونية واحدة تحتوي على ست أقداح، ثم نظرتُ حولي باحثة عن بشير فلم أجده، إلا أن صوتاً رجولياً سمعته هامساً بالقرب مني، وما أن التفتُّ حتى وجدته مبتسماً... أخبرته بما اشتريت، وطلبت منه اللحاق بي حيث كافيتيرية الأسواق حين ينتهي مما جاء من أجله، فوافق.

حين دخلتُ الكافيتيريا وفي طريقي صوب البائعة المختصة ببيع المشروبات لشراء كوب شاي، شاهدت باسل يجالس فتاة تقترب مني عمراً. عمدتُ إلى أن أمرَّ من أمامه ليراني، وحين تحقق لي ذلك، رفعتُ كفي ملقية التحية عليه عن بعد، فبادلني بمثلها، ثم أشرت له بأنني سأعود إليه، أو أفهمته بأنني بانتظاره.

عدتُ مع كوب الشاي واخترت طاولة مجاورة إلى التي يجلس إليها باسل والفتاة، وما أن انتبه باسل لجلستي ومكاني، حتى قام وتوجه نحوي

مصافحاً وهو يلقي التحية، ثم طلب مني انتظاره في غرفة مكتبه. لكنني أخبرته بأني أنتظر شخصًا سيحين موعده بعد دقائق، وكنت أقصد بشير الذي ضربت معه موعداً قبل قليل. لاحظتُ علامات امتعاض وابتسامة مفتعلة على ملامح باسل وسألني إن كان الشخص أحد أفراد عائلتي فأجبت نافية وأكدت بأنه صديق... ربتَ على كتفي وطلب مني انتظاره حتى ينتهي من لقائه مع الفتاة...

يبدو أن باسل قد أنهى لقاءَه مع الفتاة على عجل، فلم تمضِ عشر دقائق على حديثه معي، حتى ودَّعَ الفتاة وتوجه صوبي مبتسماً... "لم يأتِ صديقكِ!؟" سألني وكأنه قد تيقن بأن هناك كذبة وراء ادعائي بانتظار صديق، أو راح تفكيره صوب الغيرة، ربما فكَّرَ بأن الغيرة قد تمكنت مني حين شاهدته مع الفتاة... فقلت له ربما هو مشغول بمحاولة شراء أقداح الكريستال، ثم صمتُ قليلاً وأنا أغرس نظراتي وسط عينيه، فسألته دون مقدمات، معلنةً بدء لعبتي معه:

"لماذا أرسلتني لبيت ذكرى صباغ في الوقت الذي كان بإمكان سعيد السائق القيام بمهمة توصيل التلفاز؟". ثم صمتُّ منتظرة رده، لكنه صمت هو الآخر، وراح يدعك خصلات شعره بقلق، وكأنه قد عرف شيئاً لم يخطر له ببال، ثم طلب مني طرح السؤال على السيدة ذكرى، وبعد لحظة صمت، أشار إلى أن شخصية مهمة قد كلفته بترشيح فتاة مهذبة تنتمي إلى عائلة معروفة لمهمة إنسانية. كان لكلامه تأثير الصدمة عليَّ، فهو لا يعرف عني الكثير ولا يعرف عائلتي، فسألته إن كان يعرف كل ذلك دون علمي، فاتسعت ابتسامته، ورجع بظهره إلى الوراء وربما مدَّ ساقيه باستقامة تحت المنضدة ليعلن عن نوبة استرخاء، فأشار إلى أنه يعرف عني كل شيء يهمه أو يخدم المهمة التي تم تكليفه بها، وأضاف: "أعرف أن والدك أستاذ جامعي ويتمتع بسمعة طيبة، وأنه مسافر الآن إلى بلد مجاور لحضور مؤتمر مهم..." فقلت محاولة إخفاء علامات الدهشة التي

ارتسمت على وجهي: "أرجو المعذرة، لقد نسيت بأنك رجل أمن، وجمع المعلومات من صميم عملك..."، ثم أخذت رشفة من كوب الشاي الذي برد وشارف على النفاد، وقلت محتفظة بابتسامتي: "أتمنى أن تساعدني في الحصول على أربع دزينات من أقداح الكريستال، هل هذا ممكن؟" أطلق ضحكة ودودة ووضع سبابة كفه اليمنى على أنفه وكأنه يعلن تلبية طلبي بكل إخلاص. في تلك اللحظة وصل بشير وألقى التحية... وقف باسل معلناً ضرورة تواجده في مكتبه بعد أن رد التحية إلى بشير، وأشار لي بأنه ينتظرني في مكتبه لتأمين ما طلبته منه.

صارت عينا بشير أكثر اتساعاً، ولاحظتُ ارتعاش كفّيه، ابتسمتُ له وسألته إن كان يريد قول شيءٍ ما، فسألني:

"هل بينك والنقيب باسل صلة قرابة؟" ضحكتُ وأجبت بالنفي، فبادرني بسؤال آخر: "هل تعرفينه جيداً؟". ازدادت ضحكتي وطلبت منه توضيح الدافع من وراء سؤاله، فطلب مني راجياً أن أجيبه على سؤاله كون هناك ما يترتب عليه، فقلت له بأنني أعرفه جيداً وأنه ليس من أقاربي... سحب نفساً عميقاً طلباً للاسترخاء لكنه ظل مضطرباً. دعك كفيه وقال بعد برهة صمت:

"سأكون صريحاً معك، وأرجو أن تتفهمي وضعي وما سأقول..." تحفزت حواسي للإصغاء، فقد تلمستُ جدية وأهمية ما سيقوله، فأضاف: "النقيب باسل بالنسبة لي يعد الباب التي إنْ فُتحت بوجهي، ستغير حياتي، حتماً، نحو الأفضل، فأنا مسؤول عن عائلتي. أنا المعيل الوحيد لعائلتي، وما تواجدي هنا إلا من أجل الحصول على بعض البضائع، لأبيعها في السوق السوداء كي أؤمن لعائلتي لقمة عيشهم، وأؤمن بعض المال الذي يعينني على إكمال دراستي...".

عرفتُ من حديث بشير، أن والده اختفى منذ سبع سنوات، وقد كثرت الأقاويل حول اختفائه، وتضاربت بين اعتقال وهروب وإعدام وغيرها، وهناك من قال أنه مات نتيجة حادث سير وقع جنوب العاصمة، حيث تفحمت جثته بعد أن احترقت الحافلة العمومية التي كان داخلها، نتيجة الحادث، إلا أن المهم بالنسبة إلى بشير هو تأمين لقمة العيش، بأية وسيلة كانت شريطة أن تكون بشرف، وذلك ما دفعه إلى العمل بعد الظهر عند الأستاذ موسى في شارع المكتبات. وأجبر السبب نفسه والدة بشير على العمل "خبّازة" في بيتها، تبيع الخبز لجيرانها وعوائل المنطقة.

وعدته بعد أن أعطيته دزينة اقداح الكريستال، شريطةَ أن يعيد لي ثمنها لاحقاً، بأنني سأفاتح باسل بشأنه، ثم ودعته على أمل اللقاء قريباً.

"يصنع الفقر نبلاء... كما يصنع الحب شعراء".

دخلتُ غرفة باسل ووجدته بانتظاري... يبدو أن وجود بشير قد أثار داخله بعض الأسئلة المقلقة، فما أن جلست وتلمست ابتسامته المتشنجة حتى سألني عن طبيعة علاقتي ببشير، حينها شعرت ان الفرصة قد حانت كي أضرب عصفورين بحجر، فقلت:

"أشكرك لأنك سألتني، وأشكرك لأنني تلمست حرصك عليَّ من خلال سؤالك..." طويتُ ساقاً على ساق ونظرتُ إلى عينيه فوجدته مصغياً بكل حواسه، ثم قلت: "بشير شاب مسكين بحاجة إلى المساعدة، هو المعيل الوحيد لعائلته بعد أن مات والده بحادثة سير، لذا أتمنى عليك مساعدته إن استطعت..." شعرت ببعض الارتياح قد ارتسم على ملامحه، فشجعني على الاسترسال: "بالمناسبة، بشير في العام الدراسي الجامعي الأخير، وهو شاب ذكي لمّاح يمكنك الاعتماد عليه بقلب مطمئن." أطلق باسل ضحكة أنيقة وصارت عيناه تمارسان الخبث، حيث صارت نظراته تتجول على تفاصيل جسدي، شعرت بحلاوة وألق رائحة ذكورته،

فأعدت عليه طلب دزينات كؤوس الكريستال. ابتسم وأشار إلى زاوية الغرفة التي خلفي فنقلت نظري لأجد أربع علب كارتونية بانتظاري...

***

عمدتُ إلى ارتداء أجمل ثوب عندي، كان بلونه الأبيض المحمر يقترب من لون بشرتي، إلا أن الفراشات الصغيرة المنقوشة عليه، كانت أكثر حمرة... كنت مصرة على أن لا أخلف الموعد مع السيدة ذكرى صباغ. كانت الساعة تقترب من الثانية والنصف بعد الظهر حين صرتُ عند موقف الباص، وصارت ورشة تصليح السيارات التي شُيّدت على أشلاء شجرة الرمان خلفي، وبعد مرور بضع ثوان على وقوفي هناك، سمعت صوتًا رجوليًّا يتغزل بتفاصيل جسدي، حاولت الانزواء علّني أكون مخطئة في ظني، إلا أن جملة أخرى وصلت مسامعي أكدت لي بأنني المقصودة، شعرتُ بضيق، ولأول مرة أشعر أن رائحة رجولية عدوانية في طريقها إليَّ، لكنها لم تصل. سيطر علي الخوف حين سمعت جملة لا تخلُو من كلمة نابية مخدشة... تسمرت نظرتي إلى الأمام وكنت حريصة على ألا أنظر صوب مصدر الصوت، كانت لحظات مريرة أنقذني منها الباص بوصوله... تعثرت قدمي بحافة الباب وأنا أروم الصعود مما زاد غضبي.

حاولتُ أن أضفي بعض الاسترخاء على روحي وأنا أجلس داخل الباص، فقد كنت حريصة على أن أكون في بيت ذكرى صباغ بكامل اتزاني.

لا أدري لماذا طبعت أم صالحة قبلتين على وجنتيَّ بعد أن فتحتْ لي الباب وتهللت ملامحها فرحاً!

ما أن دخلتُ الصالة حتى غزتني رائحة ذكورية تحمل بين تلافيفها آثار بارود محترق... أخذتني السيدة ذكرى بأحضانها، قبلتني عدة مرات، ولاحظتُ مشروع ولادة دمعة كانت عصية. أجلستني لصقها، وهي تردد

كلمات الشكر كوني وفيت بوعدي وقمت بزيارتها حسب الموعد الذي حددته هي، ثم أشارت إلى أم صالحة بتجهيز الطعام...

ثمة لحظة صمت أعقبت ابتعاد أم صالحة، كانت السيدة ذكرى تنظر إليَّ بحنان فائض، ثم جاءت كلماتها لتؤكده: "كنتُ أتمنى لو دعوتكِ لزيارتي أمس، ولكنه كان يوم حضور زوجي، فهو يزورني مرتين في الأسبوع..." أردتُ أن أقول شيئاً لكنها لم تمنحني الفرصة وأضافتْ: "لا أدري لماذا شعرتُ بحاجة إليكِ أمس رغم انشغالي بزوجي، ورغم أنني لم أركِ إلا مرة واحدة..." ثم صمتت قليلاً وقالت وهي تصوب نظرات صريحة نحوي: "أنا بحاجة إليكِ".

عرفتُ وأنا أجالس السيدة ذكرى إلى مائدة الطعام، بأن زوجها من كبار رجالات الأمن، وأن له سلطة كبيرة، وحظوة لدى القائد العام، وكان قد تزوج الفنانة ذكرى دون أن يأخذ رأيها – على حد تعبيرها – فقد فرض عليها اعتزال الغناء والتواري عن الأنظار وأن لا تغادر بيتها تحت أي ظرف كان. وعرفت بأنها صارت لا تقل تعاسة عن السجينات... لقد عرفت سبب لهفتها للقائي يومها، وإن ذلك ما يقف وراء قبلات ولهفة أم صالحة حين فتحت لي الباب لأنها شعرت بحصار سيدتها وحاجتها لشخص تحادثه.

سألتني السيدة ذكرى عن عمري، فأخبرتها بأن عيد ميلادي الثامن عشر سيحل بعد قرابة الأسبوع، ثم سألتْ، إن كنت أنوي الاحتفال بالمناسبة... أخبرتها بأن عائلتي صغيرة ومن المؤكد أنها ستقيم احتفالاً عائلياً مصغراً... ابتسمت وقدمت لي التهنئة مصحوبة بقبلتين على الوجنتين.

***

لحسن الحظ... لم تلتقِ مرآتي بجسدٍ عسكريٍ "مغتصبٍ" من قبل.

(8)

أسبوعان قاسيان انقضيا، دون أن أنعم بحميمية والدي، دون أن أتلمس تواجده البهي تحت سقف الدار أو أسمع موسيقاه، رغم ذلك، كانت الفترة حافلة بلقاءات ومواعيد وانشغالات. التقيت بباسل وبشير، واشتريت بضائع مختلفة من الأسواق المركزية، قمت ببيعها وحصلت على ضعف أثمانها، وزرت السيدة ذكرى ثلاث مرات، والتقيت بماجد الذي كان مزدحماً بدراسته، مرة واحدة خارج بناية الكلية حيث محل المرطبات... تشاجرتُ مع أمي صبيحة ومساء كل يوم، وكانت تدخل بنوبة بكاء بعد كل مشاجرة، وذلك ما كان يمنحني دافعًا لا تنقصه السعادة وأنا أخرج من دارنا صوب عالمي الذي بدأت أعشق، عالم النضوج والوقوف على عتبة الاعتماد على النفس.

"كلّ دموع الأمهات صادقة، إلاّ دموع أمي...".

في زيارتي الأخيرة للسيدة ذكرى، التقيت بزوجها، السيد سهيل، الذي عرفتُ من زوجته، أنه عسكري برتبة لواء يعمل في جهاز أمني مهم جداً... صارت السيدة ذكرى في أوج ارتباكها وقلقها، حين دخل زوجها البيت فجأة، فما أن رأته أمامها داخل الصالة، حتى شحب لونها واحمرت عيناها وأذرفت بصمت... اقترب الرجل مني وصافحني، ثم شكرني على مجالسة زوجته بعض الوقت، وأشار إلى أن قربي من زوجته صار يجلب لها السعادة. ثم سأل إن كنا قد تناولنا غداءنا، فأجابته أم صالحة بأنها تعد المائدة التي ستكون جاهزة بعد دقائق.

أعلن الرجل ضرورة استبدال ثيابه، فخرج من الصالة متوجهاً إلى مكان لا أعرفه داخل البيت... رجل تشير سحنته إلى العوائل الفلاحية، أحمر الوجه متوردهُ، ضخم الجثة، بطين، طويل القامة...

حين أعلنتْ أم صالحة جهوز المائدة، مسكتْ السيدة ذكرى يدي كأني طفلتها، واصطحبتني إلى طاولة الطعام حيث غرفة الضيوف الملاصقة للصالة، وفي وسط المسافة الفاصلة، سكبت في أذني جملة هامسة أرعبتني، قالت: "اجلسي إلى جانبي، ولا تتكلمي كثيراً مع سهيل..." هززت رأسي موافقة وكان لها ما أرادت.

جلس السيد سهيل على رأس الطاولة، ثم السيدة ذكرى إلى يساره، وجلستُ أنا إلى يسارها كما طلبتْ مني... حين باشرنا بالأكل على إثر إشارة من السيد سهيل، رانت لحظة صمت لثوانٍ، سرعان ما هشمها السيد اللواء بصوته المرتفع، طالباً مني عدم الخجل، والأكل بشهية مفتوحة، ثم أمطرني بسيل من الأسئلة، كنت أجيب عليها باقتضاب دون النظر إليه، فقد عمدتُ التركيز والنظر إلى طبقي، لدرجة أنني كرهت الأكل حينها...

بعد الانتهاء من الغداء، وحين كنا نشرب الشاي، أعلن السيد سهيل ضرورة مغادرته، ثم عرض عليَّ فكرة إيصالي إلى البيت. اعترضت السيدة ذكرى وادّعت بأنها ما تزال بحاجتي لمناقشة موضوع مهم أشارت إليه قائلة: "بعد يومين سيكون عيد ميلاد حياة، لذا فهي تريد استشارتي بخصوص الحفلة الصغيرة التي ستقيمها لها العائلة.". نظر السيد سهيل شزراً صوب زوجته وسأل بتهكم واضح: "وهل لديكِ الرغبة في مشاركتها الحفل؟". أطرقت السيدة برأسها، وتمتمت ببعض كلمات لم أفهم منها شيئاً، لكنها رفعت رأسها ناظرة بشيء من الدهشة حين سمعت

فجأة قهقهات زوجها، وما أن التقت نظراتهما حتى بادرها قائلاً: "نتفق لاحقاً، دعيني أوصل حياة لبيتها ثم نتحدث غداً..".

"طيب، اذهب أنتَ إلى سيارتك وستلحق حياة بكَ سريعاً." قالت ذكرى ذلك وهي تسحبني من يدي لتنزوي بي داخلاً، وحين تأكدتْ من خروج زوجها، قالت هامسةً: "سيحدثكِ كثيراً، ويطلب منكِ عدة طلبات، لكن عليكِ التمسك بالصمت، ولا تعديه بشيء..." ثم سألتْ بصرامة: "هل فهمتِ ما قلته؟" هززت رأسي موافقة، ثم قالت: "حالما تصلِين البيت، تلفني لي لتخبريني بوصولكِ." وافقتها، ثم قبلتها وخرجت.

في المسافة الفاصلة حاولتُ ترتيب أنوثتي قبل الوصول إلى السيارة الفارهة.

حدث كل ما نبهتني السيدة إليه، حيث صار السيد سهيل يمطرني بأسئلته، ومنها عن احتياجاتي التي عرض عليَّ توفيرها حالما أطلبها منه، ثم سألني السؤال الأهم: "هل ذكرى راغبة بالفعل حضور حفلة عيد ميلادكِ؟". الحقيقة أربكني سؤاله، وأخرجني من لعبة إدراك أسرار الرائحة الذكورية التي وجدتها تقترب من تلك الرائحة التي يتركها نعش شهيد متبوع بالنواح. التي أسميتها "رائحة الحرب البعيدة"، التي سرعان صارت تدور بفضاء السيارة الداخلي.

الحقيقة، لم أسمع من السيدة ذكرى ما يشير إلى رغبتها بالحضور، لكنني، حاولت بخبث أن أحيّد الأمر لصالحي، فابتسمتُ له ابتسامة أنثوية أوقدت داخله مرجل التبخير لتتكاثف رائحته الشبقة، وقلت: "أنا من يتمنى ذلك، بل هو طلبي الأول من حضرتك، الذي أتمنى أن توافقني عليه..." ابتسم الرجل مرتبكاً، وصار يدير رأسه يميناً وشمالاً وكأنه أمام خيار مصيري، ثم حاول استثمار اللحظة، وأوضح أنَّ هناك شرطًا واحدًا

للحصول على الموافقة، وحين سألته عن شرطه، بعد أن منحته الأمل بالموافقة ظناً مني ببساطة ما سيطلب، قال بطريقة ثعلبية لم أتعرف عليها من قبل: "في مزرعتي القريبة من هنا حيث النهر، هناك ببغاء جميل، يتكلم بطلاقة، أود أن أقدمه لكِ هدية بعيد ميلادك، لكن هذا يتطلب منكِ زيارته أولاً، فإن تلمسنا قبوله وارتياحه لكِ سيكون من نصيبك...".

"هذا كثير علي، ولكنني أشكرك جداً... لندع الزيارة للظروف..." قلت ذلك وبوادر الإرباك بدأت تدبّ في عروقي، فقال:

"ولماذا ننتظر الظروف؟... نحن بها... لنذهب الآن إن أحببتِ.". ارتعدتُ... ونشف ريقي بسرعة هائلة، فطلبت منه التروي، وشحذت همة الكذب في تفكيري، لأجد حلاً يخلصني من الموقف، فادّعيت مرض والدتي وانتظارها لي لأمر في غاية الأهمية... أطلق الرجل ضحكة منزعجة اهتز كرشه على إثرها، ثم وافقني، على أمل تحديد الموعد قريباً.

اتفقنا، على أن يكون الحديث الذي جرى بيننا سراً، وأن لا أخبر به أحداً... ذلك ما وعدته به وأنا أخرج من سيارته أمام بيتنا، وبالفعل، لم أخبر السيدة ذكرى بما دار بيني وبين زوجها، حين اتصلتُ بها هاتفياً حال وصولي إلى غرفتي.

***

أسبوعان، ذاقت فيهما أمي مرارة عصياني ونزقي، ووقاحتي التي كانت السبب المباشر في دخولها نوبات البكاء اليومية... "إنه العقاب أيتها الأم القاسية... تذوقي ألمي، فما عاد بالإمكان فرض قساوة كفكِ أو نعلكِ على صدغي...".

لم تكفّ أمي عن البكاء أمامي، منذ أن أخبرتها بقرار عدم الذهاب إلى المدرسة لذلك العام، وكانت في كل مرة تسمعني جملتها القاسية التي تعرف جيداً حجم قساوتها على روحي: "أنا أُمكِ ولستُ زوجة أبيكِ".

"غالباً ما كنتُ أشعر، أن أمي، تحاول انتزاع ملكية أنوثتي مني، لتحتفظ بها إلى الأبد داخل خزانة قوانين مجتمعها الصدئة...".

حين عاد والدي، ابتسمت دارنا وتراقصت أزهار وأغصان الحديقة... التصقتُ به. أقبله تارة وأداعب خصلات شعره تارة أخرى، لم أكن أريد الابتعاد عنه، فبعودته عادت إليَّ الطمأنينة، وصارت ضحكاتنا تملأ البيت... حصلتُ وأخي ليث على عدة هدايا، وبالتأكيد قد حصلت أمي على هداياها التي لم أتعرّف عليها أو أرها، وكنتُ على ثقة من أنها كانت تتمنى أن أسألها عنها كي تعرضها لي، لكنني لم أمنحها تلك الفرصة.

في جلستنا المسائية، سألتُ والدي عن عُملة البلد الذي زاره، وإن كان قد جلب معه بعضاً منها، فنفى وأوضح بأنه أعطى لعامل الحقائب في المطار هناك، كل ما تبقى في جيبه من عملة البلد "كان مبلغاً ضئيلاً" قال موضحاً، ثم طلبَ مني جلب سترته المعلقة على شمّاعة الملابس في غرفته، وحين جلبتها، أخرجَ من أحد جيوبها الداخلية وريقات خضراء اللون قال أنها دولارات، كنت أعرف ما هو الدولار ولكني لم أرَه من قبل، أمعنت

النظر فيها وقلبتها، وكذلك فعلت والدتي وليث أيضاً، كان عدد الأوراق خمس ورقات، وحين عادت جميعها بين يديَّ حاولتُ جمع المبلغ من خلال الأرقام المثبتة على كل ورقة، وجدتها 240 دولاراً. سألته عن قيمتها المقابلة لعملة بلدنا، فضحكَ وقالَ: "قسّمي المبلغ على ثلاثة وستعرفين الجواب..."، ثم راح يشرح لنا أهمية تلك العملة عالمياً، وأن بلدنا يبيع النفط بها، وبها يشتري السلاح ويستورد البضائع، لذلك تتغير قيمة تصريفها نظراً لتغيّر عملة بلدنا، حسب أوضاع البلد الذي يمر بحالة حرب. ثم قال لي: "الدولارات لكِ، احتفظي بها إن أحببتِ..." فرحتُ بها كونها أول عملة أجنبية أحصل عليها، لكن الذي شغل تفكيري، هو قوة هذه العملة وأهميتها كما وضّحَ والدي، وعلى الفور، هرعتُ إلى غرفتي لأودع الأوراق داخل فازة جدي، وقررت حينها أن أجني العديد منها، رغم إني لم أكن على دراية بكيفية الحصول عليها.

كان لصباح اليوم التالي طعمٌ آخرُ، إنه طعم اللؤم الذي طالما صبّته أمي في روحي، اللؤم الذي أجبرني على معاملتها بجفاء وبرود... أمي لئيمة جداً... ففي الوقت الذي كنتُ أتلمس به نسمات الصباح الباردة وأنا أسبح داخل ملكوت نومة هانئة، شعرت بأصابع حنونة تداعب وجنتي وخصلات شعري التي كانت تغطيها، فتحتُ عيني لأرى أجمل ابتسامة مرتسمة على أجمل وجه في الدنيا...

"صباح الخير حياتي... انهضي لتشاركيني الفطور ولتلتحقي بزميلاتك حيث المدرسة..." ارتعد جسدي حالما سمعت كلمات والدي، وراحت بوادر انزعاجي تتجه صوب أمي التي لا بدّ وأن أخبرته. خرجت من بين شفتَيَّ كلمات متعثرة لا ينقصها الإرباك:

"صباح الخير بابا حبيبي" ثم أضفت مدعية المرض بنبرة دلال كان والدي يعرفها جيداً: "لقد أجّلت السنة الدراسية إلى العام القادم، أشعر

أنني لم أتعاف بعد وأن جسدي لا يقوى على أي تعب..."، تغيرت نبرة صوت والدي، وهو يقول بصوت خافت يقترب من الانكسار: "طيب حياتي... شاركيني الفطور ليكون يومي سعيداً.." طبع قبلة على جبيني وتركني على أمل اللحاق به.

تضع أمي بوجه متجهم طبق البيض المقلي أمام ليث، أعرف أن وجهها تجهّمَ حالما شعرتْ باقترابي من طاولة الطعام. كان والدي بكامل أناقته. إنه اليوم الأول لمباشرته وظيفته بعد غياب دام عشرة أيام بسبب السفر، طبعتُ قبلتين على وجنتيه ومثلهما على وجنتي ليث، وجلست قبالة والدي وإلى جانب أخي، فصارت أمي أمامي جهة اليسار، وكنتُ أسترقُ النظرَ إليها بعينين وقحتين، شعرتْ أمي بوقاحتهما وصارت تتململ بجلستها وكأن هناك ما يَخِزُها، ولكنني أعرف تماماً سبب تجهمها، كونها على يقين بأنني أعرف بأنها قد شكتني لوالدي طيلة ليلة أمس... انشغلتُ بفطوري ولم أعر لها أي أهمية.

"أعتقد أنكِ قد اتخذتِ قراراً خاطئاً... المدرسة والمستقبل ليست لعبة خاضعة لمزاج أو رغبة، إنها واجب وعليكِ الالتزام به، تماماً كما أن عليّ واجب تأمين حياة كريمة مستريحة لكم... هل أمنح لنفسي الحق باتخاذ قرار الاستقالة من عملي، وأجلس في البيت دون عمل...؟" قال أبي ذلك بكلمات واضحة تماماً كعادته، قالها وكان يصوب نظراته الحنونة إلى عينيّ مباشرة دون أن أشعر بأي انزعاج، قالها وكأنه يلقي محاضرة شديدة الأهمية على تلامذته في الجامعة، والغريب أنّه لم يكن ينتظر ردي، بل صمت قليلاً ثم ابتسم ومد كفه ليمسك كفي، وقال بنبرته الحنونة: "كل عام وأنتِ حياتي، يا حياتي... غداً نحتفل بعيد ميلادك، فهل هناك ما تقترحينه عليَّ؟" هممت لأفلت جسدي من بين الكرسي وطاولة الطعام، لأتوجه صوبه وأحتضنه وأنا أطبع قبلة على رأسه ثم قلت: "لا أبداً، ليس هناك أية اقتراحات، ولكن كلما كانت الحفلة صغيرة ومقتضبة يكون أفضل..." ثم

أضفت بخبث وأنا أنظر صوب أمي: "لا أريد لأمي أن تُتعب نفسها في الطبخ وإعداد المقبلات وأشياء أخرى تعرفها..." ابتسم والدي وهو يصوب نظراته صوب أمي وكأنه يؤكد بعض ما كان يردّده على مسمعها، ثم قلت بشيء من الزهو: "أعتقد بأن هناك مفاجأة تنتظركم في الغد، أتمنى أن تتحقق..." وكنت أفكر بحضور السيدة ذكرى صباغ.

نهض والدي معلناً وقت مغادرته، وقال موجهاً كلامه لزوجته: "اليوم سأتناول غدائي مع حياتي خارج البيت، فلا تحسبي حسابنا على الغداء" ثم حمل حقيبته ووقف هاماً بحمل كيس بلاستيكي كان إلى جانب كرسيه، عرفتُ فيما بعد أنه يحتوي على بعض الهدايا لزملائه الأساتذة، فسارعت إلى التقاط الكيس وحملته لأصطحبه حيث سيارته، وهناك طبع قبلة على جبيني وودعني منطلقاً بسيارته بعد أن شرّعتْ أمي درفتي الباب الرئيس.

منذ زمن، لم يعد لبس السوتيان متعباً، حيث تخلصت من مساعدة أمي في ربطه، فقد علمتني عمتي "غنوة" كيف أربطهُ أولاً ثم ألبسه بمهارة تامة كما ألبس البلوزة، وكما يبدو، فإنّ أمي تعرف الطريقة، فما من مرة طلبتْ مني مساعدتها في لبس سوتيانها، لكنها أرادت تفحّص جسدي بشكلٍ يومي، وأن أبقى تحت رحمة مساعدتها، لذا لم تعلمني الطريقة... ارتديتُ ملابسي، ورتبتُ أنوثتي أمام مرآتي، وخرجتُ قاصدة الأسواق المركزية، وبمجرد وصولي موقف الباص متجاوزة ورشة التصليح حتى سمعت صوتًا رجوليًّا يتغزل بقامتي، كان الصوت نفسه الذي أربكني بكلماته الوقحة قبل أيام، وكنت بسببه على وشك التعثر أو حتى السقوط أرضاً... التصقتُ بسيدة كانت هي الأخرى تنتظر وصول الباص، وقد شعرتْ بخوفي وارتباكي، فابتسمتْ لي في محاولة منها إلى إضفاء بعض الهدوء عليَّ، ويبدو أن صاحب الصوت قد تلمس ارتباكي وخوفي فراح يطلق ضحكاته بقهقهة مستفزة، وهو يردّد بعض الكلمات التي تشير إلى حنيّته التي من شأنها أن تنقلني إلى عالم السعادة حين أكون زوجة له، ولم

يدخر كلماته النابية التي يقشعر لها البدن، إلا أن كف السيدة العجوز التي مسكت كفي وضغطت عليها، جعلت من جسدي أقل ارتعاشاً، ولم تهدأ ارتعاشة جسدي وقلقي إلا حين اتخذت من أحد مقاعد الباص مجلساً لي، حينها اختلستُ النظر صوب الورشة فلم أفرز صاحب الصوت، كان هناك أربعة أشخاص بين سيارتين متوقفتين.

حتى اللحظة لا أدري لماذا لم تقل السيدة العجوز كلمة واحدة، كانت مكتفية بالابتسامة... يا إلهي كم كانت ابتسامتها ساحرة!!

لم أتجه صوب صالة المبيعات داخل الأسواق المركزية، بل توجهتُ مباشرة إلى غرفة باسل... هناك، وجدته منشغلاً بأوراق، لململها بسرعة ودسها في درج مكتبه، وهو ينثر كلمات الترحيب بوجهي كزائر فَرَح، كان ينتظره منذ زمن، وبمجرد جلوسي قبالته حتى همس بفرح غامر: "كل أيامك فرح وسعادة... أتمنى لك مستقبلاً مشرقًا، وكل عام وأنتِ بخير..." فاجأتني كلماته، وحين سألته عن مصدر معلوماته وكيف عرف تاريخ ميلادي، أطلق ضحكة ودودة لا ينقصها الزهو، وأوضح أن ذلك من صميم عمله، وحين تلمس إصراري على معرفة المصدر حاول أن يغيّر دفة الموضوع، وسألني إن كنت بحاجة إلى بضاعة بعينها، فواجهته بالصمت وعيناي تفصح استهجان هروبه في الإجابة فقال بصوت راكز وواثق: "هناك قنينة ويسكي، هدية مني للسيد الوالد، أتمنى أن يكون سعيداً بها غداً، وهو يشارك إطفاء الشموع الثماني عشرة..." شكرته، وحاولت أن أقول شيئاً، لكنه بادرني بسؤاله المعتاد، إن كنت أرغب بشرب شيء معين، فطلبتُ الشاي، ثم رنّ بذهني سؤال مفاجئ، يبدو أنّ الموقف الذي تعرضت إليه منذ قليل عند موقف الباص كان الدافع الرئيس له:

"لماذا يعاكس شاب، فتاة لا يعرفها، ويُسمعها كلامًا بذيئًا وهو يتغزل بتفاصيل جسدها؟" أطلق باسل ضحكة عارمة وظلّ يضحك حتى

دمعت عيناه، ثم نظر صوبي وهو يعتذر عن نوبة الضحك التي ربما سببت لي الانزعاج، حسب قوله، وقال متسائلاً:

"هل عاكسكِ أحدهم هذا الصباح...؟" ثم أضاف دون أنْ ينتظر جوابي: "والله معاه حق، فكيف يرى فتاة جميلة مثلك ولا يعاكسها؟..." وأطلق ضحكته مرة أخرى، وبعد أن هدأ قال: "هل تعرضتِ للمشاكسة بالفعل؟".

"نعم ولأكثر من مرة". ثم شرحتُ له كيف ومتى، وتجرّأتُ على ذكر بعض الكلمات التي أرعبتني بحق، عندها انتبه إلى أنّ هناك شيئًا جديًّا، وقال بأنها بالفعل قلة أدب تخرج عن حيز الإعجاب، فطلب مني تحديد المكان وأوصاف الشخص، فأجبته بكل ما أعرف باستثناء أوصاف الشخص لأنني لم أرهُ...

في تلك الأثناء سمعنا طرقاً خفيفاً على الباب، وكل تفكيرنا كان منصباً على الساعي الذي سيجلب لنا الشاي، إلا أن سرعان ما انفتح الباب ليظهر أمامنا السيد سهيل ماطاً زوايا فمه بابتسامة تقترب من الضحك، انتفض باسل واقفاً حالما رآه: "أهلاً وسهلاً سيادة اللواء... زارتنا البركة" قال ذلك وهو يستل كامل قامته من بين كرسيّه وطاولة مكتبه، ويتقدم نحو السيد ليصافحه. ثم اقترب السيد اللواء مني فصافحته ورحبتُ به مبتسمة.

اتخذ السيد سهيل من كرسي باسل خلف المكتب مقعداً له، بينما جلس باسل قبالتي...

"كيفك يا حياة... هل باسل لطيف معك؟" رغم أني استشعرت بعض التهكم في سؤاله إلا أنني أجبته بكل احترام بأنني بخير وأن باسل إنسان مهذب حنون، ولم يردّ لي طلباً، ليتلفت السيد اللواء إلى باسل ويقول له:

"كل طلبات حياة، تعتبر طلباتي، وأنت تعرف أنَّ طلباتي لا تُرد.". ابتسم باسل وأبدى رضاه واستعداده لتلبية كل طلباتي، ثم قال ممازحاً وكأنه يعمد إلى تغيير جو اللقاء ويخرجه من طابعه الرسمي:

"لكن حياة منزعجة جداً... لقد حاول أحد الشباب مضايقتها أكثر من مرة، وقد جاءت اليوم خصيصاً لتشكو لي أمره.". أظهر السيد سهيل استياءه من الخبر، وطلب من باسل اتخاذ اللازم، بل وشدد على عبارة "لك الصلاحيات كلها لإنهاء هذا الموضوع، واحرص على أن لا يتكرر أبداً.". ثم نظر صوبي وقال مبتسماً: "أي ساعة تبدأ حفلة عيد ميلادك غداً؟". وحين أخبرته في الوقت المحدد، أخبرني بأنه وافق على حضور السيدة ذكرى وأنه سيوصلها بنفسه حتى باب دارنا، في تلك اللحظة شعرت بفرحة غامرة، فوقفت دون تفكير مني واقتربت منه لأحتضنه وأطبع قبلة على خده قائلة: "شكراً عمو حبيبي.. شكراً... شكراً...". أطلق ضحكة صاخبة وصار يردد لأكثر من مرة: "ملعونة، أنا عمو... ملعونة..." ثم استدرك غامزاً لي بكلامه: "الببغاء يسلم عليكِ..." ابتسمتُ له، ثم نظرتُ إلى باسل متفحصة ملامحه، لأتأكد إن كان يعلم شيئاً عن الببغاء ومكانه، فلم ألمح أي تعبير يمكنني تفسيره.

خرجنا نحن الثلاثة إلى صالة المبيعات في الطابق الأول، وبمجرد أن خطونا بعض خطوات حتى لاح لي بشير على مبعدة. وما أن شاهدني حتى لوَّحَ لي بيده والفرحة مرتسمة على محياه. حين انتبه السيد سهيل لإشارة بشير، مال برأسه نحوي وسألني إن كنتُ أعرف الشاب، فهززتُ رأسي موافقة، ثم استأذنتهما لألتحق ببشير واعدة إياهما بالعودة سريعاً.

***

حين عدتُ، لم أجد السيد سهيل هناك، كان قد غادر لأمر طارئ، ذلك ما أخبرني به باسل مشدداً على ضرورة العودة إلى غرفته لأمر مهم، ظننت

أنه يروم إعطائي قنينة الويسكي التي تحدث عنها كهدية لوالدي، لكن ذلك لم يكن كل شيء، فبمجرد دخولنا الغرفة وحين اتخذ كل منا مقعده، حتى طلب مني أن أكون عند موقف الباص القريب من بيتنا صباح الغد عند العاشرة صباحًا بالتحديد، ولكنه لم يقل لي أي شيء عما ينوي فعله. ثم سلمني ثلاث قناني من الويسكي قال إنها من النوع الفاخر، وأخبرني أن إحدى القناني، هدية منه للسيد الوالد، أما الأخريان، فهما هدية من السيد اللواء، ثم صمت قليلاً وقال: "السيدة ذكرى تفضل هذا النوع من الويسكي، وطريقتها في الشرب، هي أن يضاف ثلث الكأس من الويسكي ثم ثلثين من السفن آب دون إضافة الثلج. حين تطلب منكِ السيدة إعداد الكأس، عليكِ "تعميره" بهذه الطريقة، هل هذا واضح؟"

"واضح جداً، السيدة ذكرى في القلب دائماً، وطلباتها أوامر..." قلت ذلك بفرح وزهو المنتصر.

وأنا عائدة إلى البيت، وقبل أن يصل الباص إلى الموقف الذي عليَّ النزول عنده، تذكرت الصوت الذكوري الذي يشاكسني بكلمات نابية، لذا فكرت بالنزول قبل أو بعد الموقف المعتاد بموقف واحد، لكنني تراجعت عن فكرتي احتراماً لشجاعتي، وما أن لامست قدمي إسفلت الرصيف حتى سمعت الصوت متغزلاً بقامتي وعنقي وشعري من خلال أغنية شعبية هابطة صار يتغنى بها. ركزت نظري صوب نقطة بعيدة وانتصبتُ بقامتي متمسكة بما تحمله يداي من أكياس وسرتُ كجندي شجاع رغم خوفي وانزعاجي، وكم تمنيت أن يكون باسل إلى جانبي كي يسمع ما بات يزعجني ويعكر صفوي...

حين هممتُ بفتح باب الدار توقف والدي بسيارته. يبدو أننا وصلنا بوقت واحد. نظرتُ صوبه لألتقط ابتسامته الحنونة. لكنني التقطتُ معها إشارة من رأسه تطلب مني الدخول إلى السيارة والجلوس إلى جانبه، وما

أن استقر جسدي على المقعد وكنت قد طبعت قبلة على وجنته اليمنى بعد أن وضعت الأكياس في حوض السيارة الخلفي، حتى انطلق بسيارته صوب الشارع العام. سألته إن كان من الضروري أن يدخل البيت ويغير ملابسه أو حتى يشرب شيئاً، فقال مازحاً بأننا سنأكل ونشرب ما يطيب لنا بعد قليل.

على حافة النهر، حيث الكورنيش ومطاعم السمك المشوي، قادني والدي، وما أن اقتربنا من أحد المطاعم حتى سمعتُ كلمات ترحيب يطلقها رجل قصير بدين كثيف الشعر. كان متجهاً صوبنا، خمَّنتُ أنه صاحب المطعم، ولم يخب ظني... ويبدو أن والدي قد اتفق معه مسبقاً، فحين جلسنا وقُدمَ لنا عصير الزبيب المبرّد، أخبرني أبي بأنه اعتاد ارتياد هذا المطعم، وأن صاحب المطعم صديقه منذ سنوات عديدة، ثم قال مبتسماً: "أحد أولاده، تلميذ عندي، أعتقد أن له مستقبلاً مشرقاً، فهو ذكي لماح ومثقف..." ابتسمتُ وسألته بخبث: "هل هذا يعني بأننا لن ندفع الفاتورة؟" أطلق حبيبي ضحكته الجميلة وقال نافياً وموضحاً بأن الاستغلال موضوع بشع جداً، وأضاف جملة ما تزال ترن في ذهني: "استغلال العلاقة، للحصول على مكاسب، مهما كانت صغيرة أو كبيرة، من أبشع الطرق التي من شأنها أن تفقدكِ أهم الأشخاص في حياتكِ، بغض النظر إن كان الشخص صديقاً أو من الأقارب أو حتى من أفراد العائلة..."

طبق معدني واسع تفوح منه رائحة شواء لم أشمّ مثلها من قبل، دار حولنا ثم استقر على الطاولة التي تتوسطنا أنا وأبي، سمكة مشوية على نار الحطب، وكأنها هي من احتطبت وقودها، اختارت حطبها بعناية كي تصير أشهى سمكة يتمتع بها ابن آدم، وكأنها تقدم نفسها هدية ثمينة أو لذيذة لنا...

"هذا هو السمك المسگوف" قالها أبي الحبيب وهو يشير بيده لي كي أفتتح الوليمة ثم أردف مبتسماً: "هدية أولية لعيد ميلاد حياتي".

"لكن عيد ميلادي يحل غداً وليس الآن." قلت له ذلك وعلامات الدهشة تهيمن على ملامحي، فقال بتحببٍ طالما منحني السعادة:

"ألم أقل بأنها هدية أولية؟".

ونحن نلتهم لذيذ طعامنا، حدثني والدي عن أهمية التعليم، وضرورة التسلح بالشهادة الجامعية التي من شأنها أن تكون السند وتمنح القوة والثبات أمام معوقات الحياة التي صارت لا تعد: "الحياة يا حياتي باتت أشبه بالكابوس بدلاً من أن تكون الملاذ الآمن والصدر الحنون لنا... الحياة زمن الحرب، صورة من صور الموت، لذا علينا العيش مرفوعي الرؤوس وبقامة منتصبة، وذلك لا يحدث إلا إذا كنا متسلحين بالشهادة التي تشير بقوة إلى تحصيلنا العلمي..." ثم صار يحدثني عن أهمية الوئام بين البنت وأمها، قال إنّ البيت يكون سعيداً حين يكون هناك تفاهمٌ إنسانيٌّ حميمٌ بين أفراد العائلة، لذا اقترح عليَّ ولم يأمرني، بتحسين علاقتي مع والدتي.. وحين شعرتُ بأنني بدأت أقتنع بكلامه وذلك ما قد يفقدني حريتي التي كسبتها نتيجة ترك الدراسة، طلبتُ منه أن يوافقني على أن أؤجل سنتي الدراسية وأبدأ دراستي بقوة عند حلول العام الدراسي القادم، ثم وعدته بأنني سأباشر مراجعة كافة الدروس المطلوبة مني اعتباراً من الغد، حتى أتفوق وأحصد أعلى الدرجات حين العودة لدراستي في العام القادم... فوافق مبتسماً وهو يقول محركاً سبابته بوجهي: "اعتباراً من بعد الغد، فغداً عيد ميلادك...".

***

عند العاشرة صباحاً، خطوت الخطوة الأخيرة وأنا أنفلت بجسدي المغلّف بفستانٍ أبيض مخضر تحفه نقوش بطات صغيرة داكنة الخضرة عند

الحافة السفلى وكُمَّيهِ القصيرين، متوجهة صوب موقف الباص حسب الاتفاق مع باسل، وما أن اقتربت من الموقف حتى سمعت الصوت الذكوري:

"صباح الورد على أجمل قامة كانت سبب أرقي ليلة أمس... أدفع عمري كله ثمناً لثوانٍ أغفو بها على هذا الصدر المرمري.". ثم انقطع الصوت وكأنه كان صادراً من مذياع تم قطع الإرسال عنه.

سمعتُ جلبة ورائي، وثمة صوتًا يتوسل وآخر يأمر مما دفعني إلى الالتفات لأتبين الأمر، شاهدتُ باسل وهو يهيمن بجسده على جسدٍ بشري آخر ويحاول أن يزجه داخل سيارته وهناك شاب يقف إلى جانبه يشهر مسدسه بوجه رجل آخر كان يشرّع بيديه بشكل عشوائي وهو يتفوه بكلماتٍ لم أعِ معناها تحديداً...

ارتعد جسدي، وشعرت أنّ هناك كارثة ستحلّ، لم أعِ لحظتها ما عليَّ فعله، فقد صار نظري ينتقل بسرعة هائلة بين باسل الذَي بان عملاقاً يهيمن على فريسة، والمسدس الذي يشهره صاحبه، على ما أظن... وفي لحظة خاطفة التفت باسل ناظراً نحوي لأشاهد عينين محمرتين هي الأكثر رعباً مما شاهدته في حياتي، ودون شعور مني وكأن العينَيْن قد أصدرتا أوامرهما لي، هرعتُ راكضة صوب بيتنا... شعرت بأن المسافة صارت أطول بكثير من المعتاد وأنّ قدميَّ لا يقويان على حملي، وحين تجاوزتُ باب الدار وصرت قريبة من باب المطبخ، سمعت صرخة نسوية قادمة من داخل الدار، ثم ظلمة حالكة كانت آخر ما أتذكره. لكنني أتذكر جيداً حين فتحتُ عينيَّ وجدتني محاطةً ببعض النسوة وأنا ممدّدة أمام باب المطبخ، تحتضنني أمي وتولول باكية، وامرأة لم أتبينها تحاول أن تسقيني شربة ماء.

حضر أبي واختفى جمع النسوة الذي كان متحلقاً حولي... عيناه لا ينقصهما الهلع والدموع، ولهاثه سَمِعتْهُ حتى عصافير نخلة الحديقة.

احتضنني وسار بي نحو غرفة جدي، أو غرفتي، وهناك أجلسني على السرير وسحب الكرسي الوحيد من أمام المرآة ليجلس قبالتي، ويطلب مني بحنانه الفائض الاسترخاء حيث السرير، وحين هدأت أنفاسه قليلاً قال مبتسماً، وكنت أعرف ألم تلك الابتسامة:

"ما الذي حدث؟ هل تشاجرتِ مع أمكِ؟" ابتسمت له عسى أن تبعث ابتسامتي بعض الطمأنينة إلى روحه، وأخبرته أن جسدي ما زال يشكو الوهن، ثم أضفت بشيءٍ من الخبث: "لذا كان معي كل الحق حين أجلت سنتي الدراسية للعام القادم"..

***

"نقاء الروح، الحب، والإيثار، صفات تترجمها الأفعال... مجانية الكلام، وهمٌ، بمحاولةِ تضليل".

(9)

عند تمام الساعة السادسة مساءً، وحين كانت الصالة تصطخب بالضيوف من الأقارب والأصدقاء، الذين تجاوز عددهم العشرة أشخاص، قُرع جرس الباب، لأهرع إليه بكل فرح وكأنني أنتظر عزيزاً غائباً منذ سنوات... فتحتُ الباب على عجل لأجد السيدة ذكرى بكل أناقتها تقف أمامي مبتسمة والنظارة الشمسية بلونها الأرجواني الغامق تغطي عينيها... ارتميت عليها حاضنة إياها وأنا أردّد كلمات الشكر والفرح بحضورها، طوقتُ خصرها وأنا أرافقها لتدخل بيتنا... اتجهتُ بها نحو الصالة، وكنتُ ألاحظ بعض العيون تتفحص القادم إلينا بفضول واضح من خلال الشباك، وبمجرد دخولنا الصالة، أزاحت السيدة ذكرى نظارتها الشمسية، لتتعالى شهقات الدهشة، الغريب أن والدتي كانت أول من احتضن السيدة وهي تردد كلمات الترحيب والفرح ليلحقها من كان في الصالة وكأنهم قد تدربوا على ذلك اللقاء أكثر من مرة. لم يتسنَّ لي مراقبة اللقاء بالسيدة ذكرى كاملاً، كون والدي قد انزوى بي حيث المطبخ وراح يسألني عن سرّ علاقتي بها، ولماذا لا يعرف بتلك العلاقة من قبل، فأخبرته بعد أن طبعت قبلتين على وجنتيه، بأن ذلك حدث في فترة سفره ولم يتسنَّ لي الوقت لإخباره، فاقتنع ممتعضاً على أن نتكلم لاحقاً...

في ذلك المساء الذي امتلأ فيه بيتنا بجمهرة من الناس لم يتسع لها بيتنا وحديقة الدار، حيث هرع الناس إلى دارنا حالما انتشر خبر تواجد الفنانة ذكرى صباغ في بيتنا، غنت السيدة ذكرى أشهر أغنياتها نزولاً عند رغبة وإلحاح الحاضرين خصوصاً النساء، واكتشفتُ أن أمي من المعجبات بصوت السيدة ذكرى لدرجة أنها تحفظ أغلب أغنياتها، كانت دهشتي

كبيرة بذلك الاكتشاف، فقد صارت أمي تغني بصوت مسموع وكان صوتها حلواً... الغريب أن عمتي "غنوة" قد غنت أيضاً، كانت أغنيتها خاصة جداً، لم تكن إحدى أغنيات السيدة ذكرى بل كانت أغنية قديمة لمطربة ذاع صيتها قبل أن تعرف ذكرى صباغ طريق الفن. صمتَ "الحضور تحت إشارة السيدة ذكرى وهي تطلب منهم الإنصات...

غنت عمتي بعذوبة أطربت ذكرى صباغ وكل الحاضرين... كانت ليلة لم نشهد مثلها أبداً، وظلّ الناس في حيّنا يتذكرونها لسنوات طوال...

لم يحضر ماجد، رغم دعوتي له...

كانت أمسية بهيجة، حفلة رقص فيها كل من حضر، حتى العم موسى الذي كان يجالس والدي ويشاركه قرع الكؤوس، قام راقصاً بعد أن أجبرتُهُ على ذلك بدلال لا يُرد... كنتُ ملكة الحفل، ذلك ما شعرتُ به حتى لحظة سيطرة حالة الوسن على جفنيَّ وأنا مستلقية على السرير، لكنني أعترف بأن ذكرى صباغ كانت الملكة دون منازع...

***

رنَّ الهاتف مبكراً صباح اليوم التالي، ليخبرنا، أن ظافر ابن عمتي "غنوة" أكلته الحرب.

***

غابت عمتي "غنوة" عن الوعي... كانت تفيق لثوانٍ تبحث عني، ثم تحتضنني وتغيب عن الوعي مرة أخرى... الطبيب فسَّرَ حالتها، على أنها حالة رفض، صارت ترفض الحياة بشكل صريح، لا تريد أن يكون فقدان ولدها الوحيد حقيقة، لا تريد سماع التعزية والمواساة، تريد الاحتفاظ بأمسها، حيث ظافر مزهواً بحيويته وطاقته الشابة، لذلك قررت انعزالها الحياة والابتعاد عن كل شيء قد يشير لها بفقدان ابنها، لهذا طلبتْ عمتي من الطبيب الذي قرر إخراجها من المستشفى بعد ستة أيام من مكوثها

هناك، أن يعصبَ لها عينيها كي لا ترى شيئاً وهي في طريقها إلى البيت، ففعل ذلك بعد أن أخذ موافقة أبي. خرجنا وهي متمسكة بي أكثر مثل كفيفة تخشى الهاوية، وحين وصلنا دارها، رفضت إزالة القماشة عن عينيها طالبة عدم دخول أي مخلوق إلى غرفتها، ثم طلبت من أبي أن يبقيني إلى جانبها، فوافق على الفور مشترطاً أن يكون الوضع مؤقتاً.

زارتنا السيدة ذكرى في بيت عمتي وكانت برفقة زوجها السيد سهيل، وزارنا بغرض المواساة أناس كثر، لكن السيد سهيل كما أخبرني والدي، كان الرجل الأول طيلة الأيام الثلاثة التي استمرت في إقامة مجلس الفاتحة الخاص بالرجال، فقد كلف عشرة أشخاص من أتباعه بما فيهم المشرف على الذبح والطبخ وتجهيز الموائد للمعزين طيلة الأيام الثلاثة، الحقيقة لقد أذهلني ذلك الخبر وصرت أفكر بعمق عن الدافع الحقيقي الذي يقف وراء ذلك.

خمسةَ عشرَ يوماً كانت كافية لأخرج من بيت عمتي التي لازمتها طيلة هذه الفترة، حتى بدأتْ تأكل وتشرب بعد جهد عظيم بذلتهُ في إقناعها، لكنها بقيت معصوبة العينين، تردد: "هل تبخرت روح ظافر، كما تبخرت روح والده؟"... "لماذا ظافر، وليس غيره؟" وكنت دائماً ما أقول لها وأنا أمسّد فروة رأسها: "الحرب أخذت الآلاف غيره يا عمتي..." وكانت في كل مرة تطلب مني ترديد جملة بعينها: "لن أتزوج إلا بظافر... ظافر زوجي الوحيد". وكنت أردد ذلك باكيةً بمرارة إرضاءً لها، لأنني أعرف تماماً أنّ الأموات لا يتزوجون...

كنت أهرب من الحزن بالقراءة، قرأت بعض مختارات مما وجدته في مكتبة عمتي، التي كانت تضم كتبًا قليلةً. روايات وقصص قصيرة ودواوين شعرية، ومجلات دورية صاخبة بأخبار الفنانات والفنانين... لفت انتباهي وأنا أقرأ إحدى القصص لكاتب إيرلندي، أن هناك من تصلهم

رائحة أشياء دون غيرهم، بل أنهم ينسبون تلك الرائحة إلى دلالات وأشياء تختلف عن غيرهم:

"ليس لدي ما أقوله ضد المقابر، فأنا أتنزه بين القبور على سجيتي أكثر من أي مكان آخر على ما أظن حين أضطر للخروج، ولا تزعجني إطلاقاً رائحة الجثث التي أشمها وتفوح من تحت العشب والتراب. رائحة فيها طعم السُكَّر، سُكَّر زيادة، رائحة فيها إلحاح، ولكنها أفضل بكثير من رائحة الأحياء، رائحة الإبطين والقدمين والمؤخرة وقلفة الذكر اللامعة والبويضات التائهة." هذا المقطع عزز ثقتي بنفسي، وجعلني أكثر اتزاناً، وبرهن لي بأنّ الرائحة الشبقة، الرائحة الذكورية التي تصلني حالما تفوح بقربي، ليست وهماً، بل حقيقة...

***

منحني البقاء في بيت عمتي حرية أكبر... تخلصتُ من مشاجراتي مع والدتي، وصرتُ ألتقي من أريد وأخرج متى أشاء، وكان للسيدة ذكرى صباغ دورٌ مهمٌّ في تغيير الطابع المأساوي الذي شهدناه وعمتي طيلة الشهرين الماضيين، صحيح أنها زارت عمتي مرتين فقط، أنشدتْ فيهما بصوتها العذب، أبياتاً شعرية لا ينقصها الحزن والعذوبة في آن، لكنها جعلت من أم صالحة دائمة الزيارة لبيت عمتي وبشكل يومي تقريباً. كانت تأتي ساعتين أو أكثر بقليل يومياً، ولكنها كانت تنجز كل شيء تقريباً في ذلك الوقت القصير، تطبخ، وتنظف البيت، ثم تقبّل رأس عمتي بحميمية وتغادرنا تاركة بعض الفرح والهدوء على أرواحنا...

في إحدى زيارات أم صالحة، وكان الوقت ظهراً حيث اعتادت عمتي أن تأخذ قيلولتها، سحبتني أم صالحة إلى المطبخ، وهناك همست في أذني كلمات تشير إلى أن السيد سهيل سيأتي غداً صباحاً ليلتقيني، لأمر هام جداً... سيكون متوقفاً بسيارته عند باب المنزل، وحين سماعي صوت المنبه

لمرة واحدة عليَّ الخروج لأوافيه، كما أنها شددت عليَّ بضرورة إخبار عمتي بأنني أروم زيارة السيدة ذكرى لبضع ساعات... كانت أم صالحة مرتبكة جداً، وكأنها تنبئني بخبر كارثي، وكنت ألاحظ ابتسامتها المتشنجة التي تحاول عبثاً إضفاء بعض الهدوء عليها، لكنها فشلت بذلك... لم تشأ أم صالحة مفارقتي، حتى تأكدت بأنني استلمت الرسالة وفهمتها. ثم قالت وكأنها تستدرك شيئاً مهماً قد نَسيَته: "لقد شدّد علي السيد سهيل بضرورة كتمان هذا الاتفاق وأن لا يصل للسيدة ذكرى أبداً". ابتسمتُ لها وهززت رأسي موافقة، لكن الجملة الأخيرة دوت في رأسي كالرعد، وشعرتُ برجفة خفية سيطرت على جسدي لثوانٍ، لكنني سرعان ما صرتُ تحت سيطرة نوبة ضحك حالما دخلتُ غرفتي وأغلقتُ الباب، لم أكن أعرف سبب الضحك ذاك، لكني شعرت بأن لعبة ممتعة تنتظرني، لعبة لم أدخلها من قبل، وقد قبلتها دون أي تفكير بالنتائج.

كنتُ قد أنهيت فطاري، وبدأت أرتشف الشاي بتلذذ ومتعة، متفحصة حديقة الدار بألوانها الساحرة، حين سمعتُ منبّه سيارة قرب باب الدار... كنت مستعدة لذلك اللقاء، حيث استبدلت ملابسي واخترت السوتيان والقميص المناسبين "المستفزين" وسرّحتُ شعري وتعطرت، لأجلس منتظرة سماع المنبه وأنا أتناول الفطار.

قابلني وجه سهيل الممتلئ حالما خرجتُ من باب الدار، كان جالساً خلف المقود وابتسامتهُ تسيطر على ملامح وجهه المحمر بسمرةٍ خفيفة... دسست جسدي إلى جانبه مستمتعة برائحة "الحرب البعيدة" التي غزتني حالما فتحت باب السيارة، وقبل أن أغلق الباب، قلت له بجدية واضحة بعد أن ألقيت عليه التحية الصباحية: "أتمنى أن يكون الأمر مهماً بالفعل، وأن لا يطول حديثنا ويأخذ الكثير من الوقت، فأنا على موعد مهم في الأسواق المركزية بعد نصف ساعة، وعليَّ أن لا أتأخر هناك لأن عمتي بحاجة إليَّ كونها تمر بوضع صحي مقلق...". نظر سهيل صوبي وكأنه قد

وقع تحت سيطرة المفاجأة، ثم ابتسم وقال موضحاً دون أن يرفع نظراته المهتاجة عني، بأن هناك موعداً بيننا قد اتفقنا عليه سابقاً، وتحديداً قبل عيد ميلادي، وقد اتفقنا على الذهاب إلى المزرعة كي نزور الببغاء الذي سيكون هدية عيد ميلادي. أطلقتُ ضحكة هازئة ونظرتُ إليه مصطنعة التعجب. أوضحتُ له بأنني أمر بوضع عائلي صعب جداً، وقبل أن أكمل كلامي قاطعني موضحاً بأن من الأفضل أن نكمل كلامنا وهو يقود سيارته كي يوصلني إلى الأسواق المركزية. وافقته شاكرة إياه وسألته عن السيدة ذكرى وعبّرت عن شوقي لها بغية تغيير الحديث الذي كان بيننا، ثم فجأة انبثق سؤال في ذهني عاجلت بطرحه على سهيل قبل أن يعود إلى موضوعه الخاص الذي أعرف نواياه:

"سيد سهيل، كيف لي أن أشتري الدولار؟" وكأنني وخزتُ روحه بسؤالي فألتفتَ صوبي كالمفزوع... ارتفع حاجباه، واتسعت عيناه يكللهما الذهول، ولولا تنبيهي له، كي ينظر صوب الطريق لكان حادثٌ قد ألمَ بنا... ركّز نظراته إلى الأمام صامتاً لثوانٍ ثم ابتسم ابتسامة متسائلة ليطلق بعدها ضحكة صاخبة، سألني بعدها سؤال تقليدي سأعتاد عليه فيما بعد: "هل أنتِ مجنونة؟". نظرتُ صوبه وأجبته ضاحكة: "أحياناً". اتسعت ضحكته مرة أخرى، ثم مدّ كفه اليمنى صوب رأسي وراح يداعب شعري، ثم قال: "لم تكن ذكرى مخطئة حين وصفتكِ بالمتقدة ذكاءً ودهاءً..." ابتسمتُ له قائلةً: "شكراً على الأولى فقط."

دخل السيد سهيل بسيارته إلى شارع فرعي، لم يتسنَ لي الاستفسار عن وجهته حيث كنت أعرف الطريق المؤدي إلى الأسواق المركزية تماماً، ثم توقف بعد أقل من دقيقتين أمام أحد المصارف طالباً مني مصاحبته في الدخول إلى المصرف ففعلت...

وكأنه يعرف كل زاوية وموظف هناك، بل شعرت بأن، حتى المصابيح والشبابيك والكراسي تعرفهُ أيضاً. اتجه صوب العمق وهو يلقي التحية على كل من يقترب منه منادياً بالاسم... توقف لثوان عند باب خشبيّ مغلق، طرقه بنقرتين من عقدة سبابته، وأدار الأكرة. دخلَ وكفه اليسرى محتفظة بكفي اليمنى، بحرصٍ على أن أكون إلى جانبه تماماً...

"صباح الخير سيد رياض". قالها سهيل ضاحكاً وهو يتقدم صوب الرجل الذي عرفتُ اسمه للتو.

"شخصية مريحة" ذلك ما شعرتُ به كانطباع أول، حين وقفتُ أمام الأستاذ "رياض" الذي صافحني بكل ودّ... صحيح أنه أقصر من السيد سهيل، لكنه يماثلني في الطول تقريباً، رشيق القوام، منحهُ قميصه الأبيض إشراقة انعكست على وجهه الحليق بعناية مبالغ فيها. عنقه الطويل وشعره القصير وبشرته الحنطية المائلة إلى البياض، وأصابع كفّيه، تشير إلى شخصية موسيقية محترفة... نظراته منحتني الشعور بأهمية وجودي، فانتصبتُ بجسدي أكثر وأنا أجلس على الأريكة الجلدية البيضاء.

كانت رائحة السيد رياض "يابسة"... ذكّرتني برائحة الحطب اليابس، وسألت نفسي مبتسمة: "تُرى هل هو شخص يابس بالفعل؟".

ونحن نشرب الشاي، أخبر سهيل صديقه الحميم -كما كان واضحاً- بضرورة تلبية طلبي في الحصول على موافقة دائمة لتصريف العملة، وقال مضيفاً: "الآنسة حياة من طرفي، لذا أرجو أن تصرف لها ما تطلبه وكأنني أنا الذي يطلب التصريف..."، قاطعه السيد رياض موافقاً وراجياً عدم الإكثار من الشرح لأنه هو أيضاً وجدني آنسة تستحق الاحترام على حدّ قوله، وكانت عيناه تفضحان هوساً رجولياً لم أعرفه... قرّبَ سهيل رأسه من رأس السيد رياض وهمس له بصوت مسموع: "مبالغ صغيرة لا تتعدى مئة أو مئتَي دولار على أكثر تقدير... أطلق السيد رياض ضحكة

صاخبة وهو ينظر إليَّ ليجاريه سهيل بضحكة مشابهة استمرت بضع ثوان...

شكرتهما على لطفهما، وأنا ألوذ بحيرتي، فلم يكن ببالي تلك الفكرة المجنونة التي لا أعرف إلى أين تؤدي، فكل ما بغيته من حديثي إلى سهيل، أن أغيّر موضوع غَزَلَهُ وأقلل من تدفق "رائحة الحرب البعيدة" الذكورية التي كادت أن تُسكرني وتطرحني "شهيدة معركة خاسرة" غافية بأحلام لا تُحمد عواقبها...

أوصلني السيد سهيل عند بوابة الأسواق المركزية بعد أن ودعنا السيد رياض على أمل زيارته في وقت قريب بغرض تحويل الدنانير إلى دولارات... وحين ودعتُ السيد سهيل وترجلتُ من سيارته، لم يبرح المكان بل ظلت سيارته متوقفة قرب البوابة الرئيسية، ذلك ما لاحظته وأنا أصافح بشير الذي كان بانتظاري مبتسماً كعادته... دخلنا الأسواق معاً لنتمَّ ما اتفقنا على شرائه سابقاً.

لم ألتقِ بباسل هناك، سألتُ عنه، فعرفت أنه مشغول باجتماع مهم، كانت بداخلي رغبة عارمة لمعرفة المصير الذي لحق بالشاب الميكانيكي المتحرش الذي أخذه باسل ورفيقه من ورشة التصليح، فمنذ ذلك الحين، ورغم قلة مروري من أمام الورشة بسبب بقائي قرب عمتي "غنوة" لم أسمع أي كلمة أو تلميح مزعج كما كان في السابق... أقنعتُ نفسي بأنني سأعرف ذلك لاحقاً.

ما أن خرجتُ وبشير من بوابة الأسواق حتى شاهدت السيد سهيل أمامي مبتسماً، وبمجرد اقترابنا منه طلب منا الصعود إلى سيارته عارضاً خدمة توصيلنا... لا أدري لماذا ارتعب بشير، اتسعت حدقتا عينيه، وتجمدت حركته أمام السيد سهيل، كان يطلق نظرات جامدة في وجه سهيل، هززته حالما شعرت بأن جموده قد أخذ وقتاً، فنظر صوبي وابتسم

بتشنج، ثم حاول أن يجد بعض الأعذار ليتفادى الدخول إلى السيارة، لكنني سحبته من ذراعه متحججة بثقل ما يحمله من بضائع، وأنا أشكر السيد سهيل محتفظة بابتسامتي، وأجبرته على الدخول والجلوس داخل السيارة حيث المقعد الخلفي، بينما اتخذتُ مكاني السابق إلى جانب سهيل الذي أعلن ما أن أدار محرك سيارته بأنه سيوصل الشاب إلى بيته أولاً، دون أن يسأله عن اسمه أو عنوان بيته.

"اختلطت رائحة "الحرب البعيدة" برائحة "الخبز الساخن"... صار فضاء السيارة ثقيلاً برائحة القلق.".

أصرّ بشير على أن يكون شارع المكتبات المكان الذي يروم الوصول إليه، وبالمقابل أصر سهيل على توصيله إلى بيته... شعرت من كلا الإصرارين بأنهما يعرفان بعضهما وأنّ هناك ارتيابًا واضحًا بين أحدهما والآخر، ولهذا يرفض بشير أن نعرف عنوان سكناه، لكن سهيل رضخ في النهاية لإصرار الشاب وأوصله عند نهاية الجسر حيث بداية شارع المكتبات...

سمعت زفرة قوية من بين شفتي بشير حالما ترجّلَ من السيارة، ودون أن يلتفت واصل سيره مسرعاً، كأنه انفلت بمعجزة من بوابة جحيم...

لم يتحرك السيد سهيل بسيارته حين غادر بشير، بل ترجّلَ من سيارته تاركاً محركها مشتغلاً، ودخل أحد المحلات القريبة ليعود بعد قليل منتصراً، لا أدري على من انتصر ولكنني تلمستُ انتصاره المرتسم على شكل ابتسامة لا تنقصها الغبطة.

جلس خلف المقود وأدار جهاز المسجل لتنطلق حنجرة نسائية عذبة بالغناء وهي تبشرنا بأن الدنيا صارت عالمًا من الكريستال تحت ضوء الشمس. كان الصوت العذب ذاك، صوت ذكرى صباغ وهي تغني إحدى أغنياتها المحببة للناس قبل أن تعرف السيد سهيل الذي نظرَ صوبي مبتسماً،

وأخبرني بأن هناك مفاجأة تنتظرني... قاد سيارته عائداً، ثم سلك الطريق الجنوبي للعاصمة، وحين مررنا على مقربة من حينا ولم يتوقف، سألته عن وجهته، قال ضاحكاً، ومشيراً إلى ضرورة الاستمتاع بحلاوة الأغنية، التي ما أن تنتهي، حتى تكون المفاجأة أمامنا. رحتُ أخمّن قصر المسافة نظراً للمدة الزمنية التي تستغرقها الأغنية التي أعرفها جيداً، فلطالما سمعتها ورددتها... لكنه لم يتوقف حتى بعد أن انتهت الأغنية وأعادها للمرة الثالثة. استدار جهة اليسار ودخل بسيارته طريقاً ترابياً سرعان ما احتضنت أشجار النخيل سيارته بظلالها، ثم استدار جهة اليسار مرة أخرى ليدخل بستاناً عامراً بأشجار النخيل والليمون، واستمر يقود سيارته بهدوء حتى توقف عند حافة النهر... أطفأ المحرك وطلب مني الترجل، وحين فعلت، أخذ بيدي ووقف على حافة النهر ناظراً صوب الضفة الأخرى، كان هناك قارب صغير يقف وسطه شبح رجل بملابس بيضاء، أشار له السيد سهيل فرفع الرجل البعيد ذراعه ملوحاً بتحيته، عند ذاك قادني السيد سهيل إلى داخل البستان لأشاهد بيتاً عصرياً من طابقين، وحين سألته عن وجهتنا قال إنَّ المفاجأة تسكن داخل البيت... في تلك اللحظة، سيطرت عليَّ أفكار مقلقة، تراجعتُ قليلاً ثم أخبرته بأن عمتي تنتظرني لشيء هام جداً، فأطلق ضحكة مجلجلة وقال بأن أم صالحة لا بدّ أن تكون عندها الآن، لتخبرها بأنكِ بضيافة السيدة ذكرى لأمرٍ غاية في الأهمية قد يطول حتى الغد.

يبدو أن البيت قد تم تنظيفه منذ دقائق، فرائحة المعطر الممتزجة برائحة سائل مسح البلاط، ما زالت تملأ الصالة التي تحتوي على أرائك بقماش مخملي ذهبي اللون تناغم مع لون الستائر المسدلة من السقف حتى الأرضية الرخامية التي توزع عليها بعض مزهريات كبيرة الحجم وضع بداخلها أغصان وورود بلاستيكية طويلة لم أرَ مثيلاتها في الواقع... جلستُ على أقرب أريكة وكانت لشخص واحد، وقبل أن أعلن عن عطشي وأطلب

شربة ماء، طلب مني سهيل أن أنتقل إلى الأريكة الكبيرة موضحاً بأنها أكثر استرخاءً، ابتسمتُ له وانتقلت حيث أشار وأعلنت رغبتي بشربة ماء، فصفق لي مرتين وقال بأن طلباتي أوامر فشكرته.

غاب سهيل للحظات خلف أحد الأبواب ليعود وهو يدفع قفصاً كبيراً وضع على لوح عريض بعجلات أربع... كان ينظر إليَّ مبتسماً، وقبل أن يتوسط القفص الصالة شاهدت طير ببغاء كبير الحجم طويل الذيل، ما أن رآني حتى أطلق صافرة وكأن شاب يعاكسني، وحين ناداني سهيل باسمي وبصوت مرتفع، ردّدَ الطير اسمي بكل وضوح:

"حياة... حياتي..." وصار سهيل يكررها والطير يعيد وراءه... يبدو أن سهيل قد درَّب الطائر على نطق اسمي خلال الأيام الماضية!... أخذتني الدهشة واقتربتُ من القفص، إلا أن ظهور امرأة بملابس ريفية سوداء أوقفني، لأشاهد جسداً رفيعاً لا ينقصه الطول متلفعًا بالسواد من قمة الرأس حتى القدمين، لكنها تمتلك ابتسامة ساحرة... كانت تحمل صينية كبيرة بعض الشيء عليها دورق ماء مثلج وعدة أقداح وأطباق صغيرة أوحى لي شكلها على أنها أطباق مكسرات... ألقت المرأة الخمسينية التحية ووضعت الصينية على الطاولة ثم عادت من حيث أتت بكل هدوء...

اقتربتُ من القفص، وصرت أكلم الطير لكنه لا يعيد الكلمة بعدي، حتى اسمي، لا يردده إلاّ حين يسمعه بصوت سهيل الذي كان ينظر إليَّ بشبق واضح مفضوح الرائحة...

اقترب سهيل مني وهو يحاول أن يشرح لي طريقة ناجعة تجعل الطائر يردد ما أقوله، اقترح أن يقف خلفي ويردد ورائي الكلمة التي أنطقها للطائر، فوافقتُ بفرح، لكنه ما أن صار خلفي حتى التصق بي، شعرتُ بكرشه يلامس ظهري فضحكتُ بشكل فاضح، مما شجعه على الالتصاق أكثر، بل، مدّ ساعديه ليلامس بطني بكفّيه، حينها شعرت ببوادر حركة

عدوانية قريبة الوشوك، فحاولت الابتعاد لكنه تمسك أكثر وقرب شفتيه من أذني اليسرى وقال هامساً: "بعد قليل ستأكلين أطيب وأشهى وجبة سمك... أكلة لا تليق إلاّ بالأميرات..." ضحكتُ وتملصتُ من بين يديه لأعود حيث مكاني السابق، وأنا أفصحُ عن رغبة آنية: "أتمنى أن ألتقط صورة تذكارية مع هذا الطائر الجميل...". ضحكَ سهيل وكأنه سمع رغبة طفولية، وقال: "في المرة القادمة، تكون الكاميرا بانتظاركِ...". أطلقتُ ضحكة حين تلمستُ وعداً خبيثاً، وسألت: "هل هناك مرة قادمة؟؟".

صرتُ أتأمل الطائر بألوانه الرائعة بعد أن خرج سهيل صوب النهر، ثم انتبهت إلى غياب المرأة الخمسينية، فلم يصل مسامعي أي صوت أو دبيب حركة... تفحصت جدران الصالة حيث شاهدتُ سجادة معلقة منقوش عليها ثلاث نخلات إلى جانب نهر وسماء صافية الزرقة، لكن ما شد انتباهي، وجود سيف كبير معلق في الجانب الأيمن للسجادة بينما شغل الجانب الأيسر خنجر ضخم ذهبي اللون... فكرتُ بالاقتراب وتفحص الخنجر الذي فجّرَ فضولي، إلا أني ترددت قليلاً وفضلت الانشغال بمداعبة الطائر الذي لم أرَ مثله من قبل، وما أن حاولت نطق اسمي على مسامعه حتى دخل سهيل الصالة يتبعه رجل ثلاثيني طويل القامة أسمر البشرة نحيف القوام، يرتدي دشداشة بلون طين النهر يحمل صينية معدنية كبيرة، تم تغطية محتواها بأرغفة خبز ساخنة وصلتني رائحتها الشهية بحميمية طاغية، فتذكرتُ بشير على الفور... كنتُ جائعة بالفعل...

وضع الرجل ما كان يحمله على الطاولة الواطئة أمامي دون أن ينبس بكلمة أو حتى ينظر صوبي، ثم غادر المكان بصمت، ليعود بعد دقائق حاملاً "منقلة" جمر يستقر في طرف منها إبريق شاي متوسط الحجم، وضعها على الأرضية الرخام. نظر صوب سهيل وقال: "ألف عافية..." ثم غادر...

جلس سهيل إلى جانبي، ورفع الأرغفة الساخنة لأشاهد سمكة عظيمة تمّ شواؤها على الفحم، وقد توزعت قطع الطماطم والبصل والخيار المخلل على جوانبها... تذكرتُ تلك السمكة التي شاركتُ وأبي بأكلها في مطعم الكورنيش.

"أجمل وأشهى سمكة، لأجمل وأشهى حياة..." قال سهيل ضاحكاً، فاعترضت على كلمة الأشهى كوني لست وجبة طعام. قابلني سهيل بضحكة عميقة وصار يشرح لي الطريقة الأفضل لأكل السمك المشوي، حتى إنّه أطعمني بيده مرتين...

كانت شهية بالفعل...

"الشاي سيد الموقف الآن..." صاح سهيل وهو يشير صوب "المنقلة"، ثم اتجه صوب المطبخ ليعود حاملاً قدحين وعلبة زجاجية تحتوي على السكّر...

***

قبل أن أنهي كأس الشاي، سألني سهيل سؤالاً قرأت الجديّة فيه، قال: "هل تعتقدين بأنني من الممكن أن أؤذيكِ؟". نظرت صوبه مبتسمة، وقلت بقناعة لا تخلو من الحذر: "أكيد، لا..." فابتسم وتوردت وجنتاه وفاحت رائحته الذكورية أكثر حين قال: "دعيني أقبلكِ إذاً...". وبالرغم من تمنعي إلّا أنه طوقني وقبَّلَ عنقي، حاولت إفلات جسدي من قبضة جسده، لكنني لم أفلح، يبدو أن محاولتي كانت واهية، فثمة شعور بالرغبة في خوض تجربة جديدة كان يسيطر على كياني، فظهر تمنعي واهياً قد يُفهم على أنه أقرب إلى الرضا... انزلق سهيل بجسده الضخم أمامي وأنا في وضع الجلوس، حتى لامست ركبتاه الأرض الرخامية، فصار وجهه مقابل السوتيان اللعين تماماً... نظر صوب عينيَّ نظرة توسّل بليغة المعنى، وقال هامساً: "لن أؤذيكِ... أقسم بأنني لن أؤذيكِ..." أسكرتني

"رائحة الحرب البعيدة" فأغمضتُ عيني وأستسلمتُ له تماماً... تأكدتُ حينها، أن رغبتي في خوض التجربة، كانت أشد حزماً من خوفي...

داعبتْ أصابعه نهديَّ، من خلف القميص والسوتيان، فاسترخيت تماماً، ثم دسَّ رأسه بين فخذيَّ بعد أن رفع طرف التنورة وغطى بها رأسه، وكأنه يختبئ من شيء ما، تماماً كما يختبئ الأطفال...

لأول مرة، أطير محلقة بسماء المتعة، دون أن تشاركني مرآتي... لأول مرة، أسكرُ منتشيةً بماء العذوبة، دون أصابعي... كان لسان سهيل، أعذب أصابع الدنيا، وأحنّها...

تظاهرتُ بالبكاء وأعلنت استهجاني لما فعله، واتهمته بنكث الوعد وخيانة الأمانة... لكن، كل ذلك، كان تمثيلاً ولا يمت لشعوري المنتشي بشيء... كنت أطير انتشاءً وأنا أُمثل امتعاضي، كنتُ أسعد من في الدنيا وأنا أبكي... كنتُ، "لست أنا"...

"ما زلتُ محتفظةً بعذريتي" قلت لنفسي بفرح غامر وأنا أقفُ على أرضية الحمام تحت قرص الماء الرشاش، الذي كان كريماً وهو يغدق ماءَه البارد على جسدي...

***

لحظة الدهشة كانت أعظم من أن تتحملها روحي... طار جسدي محلقاً بكامل انتعاشته، مغرداً مثل طائر حديث الطيران.

***

قبل أن يوصلني إلى بيت عمتي، دسَّ سهيل في كفي اليسرى التي كانت قريبة منه وهو يقود سيارته، أوراق نقدية لم أستطع تخمين مقدارها... شعرتُ بالإهانة من تلك الحركة، مما تسبب في استفزازي وإثارة غضبي... رميتُ الأوراق دون تفكير مني فاستقرت بين قدمي الرجل المنشغل بقيادة

سيارته الفارهة... لكنه بعد أن أطلق ضحكة صاخبة بسبب انفعالي المفاجئ، طلب مني التقاط المبلغ من أرضية السيارة والاحتفاظ به، بغية الذهاب صباح الغد لمقابلة السيد رياض حيث المصرف، ومطالبته بتصريف المبلغ إلى دولار، وأضاف دون أن ينظر إليّ: "دعينا نختبر جديته في وعده لنا...". ترددتُ كثيراً، لكنني، التقطت المبلغ أخيراً ودسسته في حقيبتي دون تفكير فقد كنت مأخوذة بارتجاف جسدي والدوار اللذيذ الذي كان يسيطر على رأسي...

***

طيور ضخمة مذبوحة متدلية الرؤوس، تطير فوق رأسي دون دماء... خفقان أجنحتها يحرك الهواء بعنف، فينتشر شعري بحركات مجنونة، ثم يلتف على وجهي ليغطي عينيَّ، فتحتجب الرؤية... أصرخ هلعةً، وأنا أناشد الضوء وعودة البصر...

أفيقُ من النوم فزعة، على صوت أمي، وهي تندب حظها العاثر، طالبة مني المساعدة في قضاء عمل مزعج.

***

لم تكن نظرات السيد رياض المختلطة برائحة الحطب اليابس بريئة، بل كانت وقحة بشكل فاضح، حين تلمستها وأنا أضع بين يديه مبلغ الثلاثمئة دينار الذي دسَّه سهيل في كفي مساء أمس... أخذتُ شهيقاً عميقاً حبسته في صدري كي يرتفع النهدان أكثر، وأنا أتفحص شفتيه باحثة عن لسانه الذي قد يكون شبيهاً بلسان سهيل... حطت نظراته كطائر أنهكه العطش على النهر الوردي بين النهدين لثوانٍ، لكنه سرعان ما تدارك نفسه وسألني إن كنت أرغب بفنجان شاي، فوافقتُ شاكرة...

بعد غياب السيد رياض لدقائق، دخل الساعي حاملاً "استكان" شاي وكأس ماء بارد وضعهما على طاولة المكتب بالقرب مني وغادر.... شربت الماء حتى أفرغتُ الكأس، وتلك عادتي حين أكون لوحدي، فلم أفعلها أمام أي شخص من قبل، حتى والدتي. شعرتُ بالانتعاش، وبدأتُ تقليب سُكّر الشاي، وما أن أخذت الرشفة الأولى، حتى دخل السيد رياض باسماً...

"تسعمئة دولار بالتمام والكمال..." قال ذلك وهو يضع أمامي حيث الطاولة مظروفًا بنيَّ اللون، أخذته ودسسته في حقيبتي اليدوية وأنا أقدم له الشكر الجزيل، وحين شعر بأنني على وشك المغادرة طلبَ مني التريث لدقائق كي نتعرف على بعض كما أوضح. ابتسمتُ ناظرة إليه بكل ودّ وأبديتُ استعدادي لذلك: "يشرفني التعرف عليك أستاذ رياض...".

***

صرتُ أتفحص شفاه وألسن الرجال، باحثة عن الشيطان الكامن في ذلك التكوين اللعين... تكوين اللذة واحترام العذرية... وصرت أكثر بحثاً وتمسكاً بالرائحة الذكورية المسكرة... يا إلهي، أي سحرٍ كامنٍ في أفواه الرجال!!؟

تُرى هل يخبئ لي ماجد، العسل على طرف لسانه وبين شفتيه... أم تراه لم يعرف ذلك بعد؟

***

في السنة الرابعة للحرب، صارت المدن تشتاق ألوان فرح الفتيات... تشتاق الشوارع والحافلات إلى زحام الأنوثة المبهجة، صارت الشوارع تكره السواد، وتحنّ إلى عالم الألوان والفراشات في فساتين وقمصان البنات. بنات المدارس والجامعات والحدائق ولمسات العشق... الحرب تسدل سوادها على جمال المدينة، وتسرق الضحكات.

(10)

ثلاثة أيام مرت ثقيلة جداً، رغم زيارتي لأهلي واحتضان أبي وشقيقي الجميل ذي العشر سنوات الذي صار يكبر مثل فرح أمي الذي صرت أتلمسه في عينيها وهي تنظر صوب ليث، تبتسم له وتقول: "رجل البيت، وروح الروح"... أمي التي أوشكت على الولادة كما أخبرتني، وطلبت مني البقاء إلى جانبها، حتى تزول محنتها وتنهض بسلامة على حد تعبيرها، بل واقترحتْ على أبي أن يجلب شقيقته "غنوة" لتعيش معنا في دار أخيها، لكن عمتي رفضت، كونها لا تستطيع مفارقة غرفة وفراش ولدها الهامد تحت التراب. بل اقترحتْ أن أطلبَ من أم صالحة البقاء معها حين أكون بمرافقة أمي أثناء ولادتها، فالمستشفى ليست بالبعيدة عن دارنا... وافق والدي على ذلك وهو يمسح على رأس أخته الثكلى...

ثقل الأيام الثلاثة، كان انتظاراً... شوقًا للحظة، سيدها ذلك الوجه المحمر المدور كرغيف خبز ساخن، كنتُ أنتظر إشارة منه لنلتقي ثانية، لكنه لم يفعل إلا حين دقت التاسعة مساءً حيث رنّ هاتف بيت عمتي التي كانت تُسبّح لربها في غرفة فقيدها... رفعتُ سماعة الهاتف فكان صوت سهيل على الطرف الآخر. تصنّعتُ الزعل وأوضحت له بأنني أقسمتُ على عدم لقائه ثانية، فراح يعتذر ويعد بعدم تكرار ما فعل، لكنه طلب اللقاء ثانية لأمر في غاية الأهمية، فمانعتُ وطلبت منه منحي فرصة للتفكير، وكانت دواخلي تَمور برغبة عارمة للقائه في اللحظة نفسها، لدرجة صرتُ فيها أشم رائحة "الحرب البعيدة" بل وشعرتُ بها تلفني كشرائط فرح محتفلة الألوان... صار سهيل يطلق الضحكات دون سبب، علّه تلمس

لهفتي وزيف ممانعتي، فأغلق الهاتف بعد أن اتفقت معه على أن يهاتفني مساء الغد وفي التوقيت نفسه.

في صبيحة اليوم التالي، وحين أعددتُ الفطار لي ولعمتي التي كانت تكثر من شرب الشاي المطعَّم بالهال، سألتني إن كنت على موعد أو ثمة ما يشغلني صباح الغد، فأخبرتها بامتلاكي كل الوقت وأن لا شيء يشغلني عنها، حين ذاك أخبرتني بخبر لم أكن أتوقعه:

"سنذهب غداً صباحاً إلى كاتب العدل لأكتب لكِ التوكيل بغرض استلام مستحقات ظافر..." ثم صمتت، وصارت دموعها تتساقط بغزارة لدرجة وددتُ القول "إنكِ تمطرين يا عمتي" ولكنني احتضنتها ودخلت معها في نوبة نحيب لم يقطعه إلاّ وصول أم صالحة.

كان طلب عمتي غريباً جداً، فقد تعرضت إلى ضغوطات هائلة لتستلم مستحقات ابنها "الشهيد" وكانت ترفض بشكل قاطع، حتى إنّ بعضًا من رجالات السلطة تدخلوا في الأمر وزاروها في بيتها عسى أن تعدل عن رأيها، لكنها كانت ترفض، أما سبب عدولها عن رأيها، فقد عرفتُ فيما بعد بأنها تعرضت إلى التهديد من قبل ضابط أمن المنطقة شخصياً، الذي زارها بحضور أم صالحة، وقال لها بعبارات صريحة مقتضبة: "من يرفض استلام حقوق الشهيد، فهو ضد الدولة وإلى جانب الأعداء...".

بعد أن دخل الاطمئنان إلى روحي، بحضور المرأة الطيبة "أم صالحة" استبدلتُ ملابسي وأعلنتُ عن ضرورة خروجي نحو الأسواق المركزية كوني على موعد هناك... لكن أم صالحة غمزتني، طالبةً مني التريث قليلاً... انتبهت عمتي لطلب المرأة، فنصحتني بتلبية طلب أم صالحة علّها تريد قول شيء مهم... الحقيقة، كان حدس عمتي مصيباً، فقد كانت المرأة تحمل رسالة لي من السيدة ذكرى صباغ، مفادها، أن لا أثق بسهيل، كونه يحترف غواية الفتيات... ثم راحت تشرح لي أهمية احتفاظ الفتاة بـ

"شرفها" وتحافظ على سمعة أهلها وسمعتها حتى تحظى بمستقبل مشرّف وغير ملوث... وحين دمعت عيناها واحتضنتني خوفاً عليّ، صارحتني بقصة ابنتها التي أغواها شاب كان قد استأجر غرفة من غرف بيتها المتهالك. كان طالباً جامعياً في سنته الدراسية الأولى، وكان العوز وقلة الحيلة يقف وراء موافقتها تأجير إحدى غرف بيتها الذي لا تزيد غرفه عن الثلاث. وبعد مضي ثلاثة أشهر، وفي ليلة شتوية ماطرة اعترفت صالحة لأمها بأنها أسلمت نفسها للشاب المستأجر منذ يومين "وحتى لا أطيل عليكِ" قالت أم صالحة لتختصر القصة، ولتخبرني بأن الشاب أظهر شهامةً ونبلاً مستوعباً فداحة فعلته، فوافق على الاقتران بصالحة، وفعل. تعيش صالحة الآن مع زوجها الطالب في غرفته، ولديها صبي بعمر الثلاث سنوات وبنت ولدت حديثاً...

باكيةً احتضنتُ أم صالحة طويلاً وكأني أعتذر عن الجرح الذي سببته لها فعلة ابنتها...

"البحرُ بضفة واحدة دائماً... تلك، حقيقة ما نراه".

***

لم ألمح "بشير" عند البوابة، لذا، دخلتُ باحثة عنه، وحين لم أعثر عليه حتى بعد أن اشتريت قطع الملابس المتفق عليها، توجهتُ إلى غرفة باسل الذي ما أن طرقتُ بابه استئذانًا بالدخول حتى قام مرحباً بي، وكأنه افتقدني منذ زمن. طلب لي العصير وهو ينظر باسماً صوب الأغراض التي بحوزتي... الغريب أن رائحة "التمر المكبوس" لم تسجل حضورها، لقد اختفت، لدرجة أن أنفي في تلك اللحظات، قد حاول استعارة أنف كلب للبحث عنها لكنه لم يفلح.

"هل اشتريتِ الموديل الذي يعجبك؟... إنها صناعة أجنبية ممتازة..." قال باسل ذلك ثم أضاف وهو ما يزال محتفظًا بابتسامته: "هل ترغبين

بالمزيد من القطع وبأحجام مختلفة؟ يمكنني توفيرها لكِ إن أحببتِ". تذكرت بشير الذي ربما تعذّر عليه المجيء لسبب ما، وقبل أن أجيبه شاكرةً له كرم سؤاله، سألته إن كان قد لمحَ بشير في أروقة السوق. لكنني تفاجأت بتغير ملامحه واختفاء ابتسامته، وقال بشكل يوحي بالقرف: "لا أعرف من يكون بشير هذا، والأفضل لكِ ان لا تعرفيه..." ارتعد جسدي وأنا أسمع كلماته الصارمة، ناظرةً صوب عينيه اللتَيْن تغير لونهما فجأة... يبدو أن باسل قد لاحظ ارتباكي، فحاول تغيير مزاج الجو المشحون، فسألني مبتسماً عن السيدة ذكرى وعن انطباعي عنها... مدحت السيدة وشكرته لأنه كان السبب وراء معرفتي بها، فصفق براحتيه لمرة واحدة وقال: "أرجو أن تذكريني بخير أمام السيد اللواء إن قابلته..." ثم وقف وأضاف بابتسامة عريضة لا ينقصها الانتصار وهو يشير إلى ما اشتريت: "ستة أحجام بستة ألوان مختلفة من هذا الفستان الذي اشتريتِه سيحضرهم الساعي لكِ بعد قليل...".

"ولكن المبلغ ليس بحوزتي الآن!!". قلتها وأنا أشعر بقليل من الفرح كوني سأوفر على بشير قلقه بسبب تعذر حصوله على ما كان يبتغيه، فقال باسل ضارباً كفه اليمنى على صدره: "باسل سدّاد... ولا يهمك". رن الجرس فدخل الساعي. أمره بجلب ما وعدني به وشدد على أن لا يضيع الوقت.

دخل الساعي وهو يحمل قطع الملابس الست، وضعهم على الطاولة التي أمامي واستأذن بالانصراف وخرج.

اتفقتُ مع باسل بأنني سأعيد له مبلغ الفساتين بأقرب فرصة، ثم ودعته على أمل اللقاء، ولم أكفّ البحث عن رائحته الرجولية التي اختفت تماماً... قبل أن أصل إلى الباب، التفتُّ صوبه وسألته بصورة مباغتة:

"ما الذي حدث للشاب الذي كان يعاكسني؟... لم أتفحص المشهد جيداً، لكنني متأكدة من أنك قد أدخلت شاباً إلى سيارتك بالقوة، فما الذي حدث؟." كان باسل يسمعني ضاحكاً، وحين أتممت كلامي وضع كفه على متني وقال بزهوٍ مبالغ".

"الذي يزعج أميرتنا الرقيقة، عليه الاختفاء إلى الأبد...". كلمات مرعبة وصلت مسامعي، لدرجة كادت تبكيني، فسألت إن كانوا قد قتلوا الشاب، فازدادت قهقهات باسل وقال جازماً أنْ لا أحد قد قُتل، ثم قال كلمتين بعثتا الاطمئنان والشكوك في آن واحد:

"غياب مؤقت." ثم ربت على كتفي مرة أخرى وطلب مني عدم القلق وأن لا أحد سيزعجني بعد الآن...

خرجتُ حاملة كيس الملابس باحثةً عن بشير الذي تأخر كثيراً... انتظرته قرابة الساعة عند البوابة، وأنا أفكر بالطريقة الصحيحة للعثور عليه إن طال غيابه، فوجدت أن خير من يدلّني عليه أو يعرف أخباره هو الاستاذ موسى، ابتسمت لفكرتي واستقليت تاكسي إلى شارع المكتبات للقاء الأستاذ موسى أو العم موسى كما يحب أن أناديه...

وجدتُ الأستاذ موسى منشغلاً بفرز كتب التراث والروايات، قال أن طلبية كبيرة قد طُلبتْ منه، وعليه تجهيزها لتكون جاهزة نهار الغد. كان ذلك بمثابة اعتذار أنيق قدمه لي كونه لا يستطيع منحي الوقت الكافي. سألته إن كان من الضروري أن يحظى بمساعدة بشير له في مثل تلك الحالة، فرفع نظره صوبي وقال بشيء من الحزن أو الآسف بأنه لم يرَ بشير منذ أول أمس، عند ذاك أخبرته بموعدي مع بشير الذي أخلفهُ صباح هذا اليوم، رغم أنه شدّد عليَّ ضرورة شراء بعض الملابس النسوية من الأسواق المركزية... ثمة قلق ولد للتو، قرأته في عينَي الأستاذ موسى، الذي أقرَّ بعد لحظة صمت، بضرورة المرور على بيت بشير ليسأل عنه، بعد أن يسلّم

طلبية الكتب لأصحابها نهار الغد. سألته إن كان بالإمكان أن أذهب معه فوافق على الفور، حينها رجوته أن يسمح لي بإيداع كيس الملابس في زاوية من محله حتى يحين موعدنا غداً فنأخذها معنا... ودعته على أمل اللقاء غداً، ولن ينسى أن يحملني تحياته لوالدي.

***

لم تكن والدة بشير بالكبيرة سناً، رغم ذبول وجهها المفضوح بعجزٍ حزين، لكن الدهر قد منحها ضعف عمرها بعد أن أخذ العديد من أسنانها واجتهدَ بإزميله القاسي ليحفر أخاديد قاسية على وجنتيها. امرأة عادية تصلح أن تكون أصدق إعلان لبؤس العالم وطيبته.

"يومان والوحيد غائب، أين اختفى؟ أشعر بقرب الموت مني، قلبي يؤلمني، ونَفَسي يضيق" قالت أم بشير ذلك وهي تصب شكواها وسيل أسئلتها أمام الأستاذ موسى. كنتُ أستمع لها بقلبٍ مكسور...

"سيعود". قلتُ بنبرة واثقة حرّكت شيئاً ما داخل روح المرأة التي منحتني نظرة حنونة وكأنها تسأل سراً "أتحبينهُ؟". استلمتُ رسالة سؤالها المدفون داخل حيرتها الكبرى وجزعها، فاقتربتُ منها طابعةً قبلة صادقة على وجنتها لأكلل ذلك بعناق لا تنقصه الدموع، وهمست كلمتي مرة أخرى: "سيعود".

"إن شاء الله". قالت المرأة وهي تحاول كفكفة دموعها.

اتفقتُ مع أم بشير على أن أزودها بكل ما تطلبه من بضائع الأسواق المركزية، فقد عرفت منها أن بشير كان يشتري البضائع ويسلمها لها، فهي من كان يتفق مع الزبائن، وكان ذلك يشكّل المصدر المهم لتأمين عيشهم بالإضافة إلى بيع الخبز، فقد كانت العائلة "محظوظة" حسب قولها لأن البيت ملكها وليس بالإيجار.

أوصلني العم موسى إلى باب بيتنا وحين هممت بالنزول، ناولني كيساً بلاستيكياً عرفتُ حينها أنه يحتوي على بعض كتب، وسرعان ما اكتشفتُ وأنا أفتحه حين صرت داخل غرفتي أنه يحتوي على ثلاث روايات، إحداهن كانت رواية "الساعة الخامسة والعشرون" الرواية التي لا يمكن نسيانها...

***

عند التاسعة مساءً، كما في الأمس وأول أمس رن الهاتف وكان سهيل على الطرف الآخر، وحال سماع صوته، سألته دون مقدمات:

"أين بشير؟" صمت قليلاً ثم قال بصوت لا ينقصه الانزعاج: "عن أي بشير تتحدثين؟ لا أعرف أحداً بهذا الاسم..." تأكدتُ حينها أن هناك أمرًا كارثيًّا قد حلّ به، لكن الفكرة تراجعت قليلاً في ذهني وكأنني لا أريد تصديق ذلك، فقلت لسهيل بأنني لن ألتقي به ثانية إلا حين يكون لديه أخبار عن بشير، عند ذاك ضحك وقال: "لنلتقي غداً إذاً". فأخبرته بأنني على موعد مع عمتي للذهاب إلى كاتب العدل، فعرض عليَّ خدماته وقال بأن سائقه الشخصي سيكون عند باب بيت عمتي في تمام التاسعة، سيوصلنا إلى هناك ويتابع المعاملة ليعيدنا إلى بيتنا... شكرته واغلقتُ الهاتف متمنية له ليلة سعيد...

ما أن أغلقتُ الهاتف حتى انهمرت دموعي، وصرت أتلمس مرارة وجزع تلك الروح التي تلوعتْ بغياب ولدها. أم بشير المسكينة التي لم تذق من حياتها إلاّ المرارة... ولا أدري لماذا تذكرت ماجد لحظتها؟ يبدو أن غيابه هو الآخر بحاجة إلى بعض الدموع، فقد ابتعدتُ عنه لأمنحه فرصة الدراسة لإتمام رسالة الدكتوراه التي سيناقشها بعد قرابة الشهرين، صحيح أنه يتصل بي هاتفياً بين فترة وأخرى، مستخدماً تلفون الجامعة، كوني لا أستطيع الاتصال به حيث لا تلفون خاص في البيت أو الغرفة التي

يستأجرها، وصحيح أننا تقابلنا على فنجان شاي لمرتين سريعتين لكنني بتُّ أشعر بابتعاده عني أو هكذا تصورت.

في تلك الأثناء رنّ الهاتف، جاء صوت ماجد مسترخياً وكأن الملل من دفعه إلى مهاتفتي. تحدثنا قليلاً، ثم فجأة تغير حديثه لينحو صوب الوقاحة، صار يتغزل بي ويفصح عن شوقه، كانت كلماته تثيرني، لكنني حاولت إخفاء إثارتي بضحكات صرتُ أطلقها وأنا أطلب منه أن يكون أكثر تهذيباً، ولكنه صار يتمادى، وأخبرني بعد ذلك بأنه سيزور والدي نهاية الأسبوع القادم ويتمنى أن يراني هناك لنخرج قليلاً إلى الحقل والنهر الصغير القريبَيْن من بيتنا، فوعدته بذلك.

عدتُ إلى مواصلة قراءة الرواية التي فتحتُ صفحتها الأولى منذ ثلاثة أيام، لم أقرأ عذابات بشرية بهذا الكمّ وتلك الصورة، قبل أن أقرأ رواية فيرجيل جورجيو "الساعة الخامسة والعشرون" لكن ما لفت نظري وجعلني أتأمل يومياتي بتمعّن شديد، ذلك المقطع الذي يتحدث عن الرائحة بشكل غير مباشر، تيقنت حينها أن لكل شيء رائحة، حتى النظرة والابتسامة وتلويحة الكف صوب حبيب مسافر... وأنا أقرأ العذابات التي سطرها جورجيو، قرأت ما جاء على لسان "تريان" النزيل في أحد سجون النازية وهو يخاطب سجانيه: "لقد صرتُ أستنشق العبير الذي يتضوع في الأجواء، وأجده مشبعاً برائحة دهن الإنسان. إن معسكركم عبارة عن مكبس جبّار لاستخلاص شحم المساجين. وقد صرتُ أشم رائحة هذا الشحم في الهواء. ألا يحدث لكم استنشاق هذه الرائحة مثلي، كلما فتحتم نوافذ مكاتبكم؟ إن ثيابكم كلها مجبولة فيها. ولكم أن تسألوا زوجاتكم أو عشيقاتكم، اللواتي تنامون بقربهنّ ليلاً، عما إذا كنّ لا يجدن في الرائحة التي تفوح من شعركم وجلودكم رائحة شحم الإنسان؟ إن النساء يفقن الرجال بحاسة الشم. فاسألوهنّ يجبنكم.".

***

في صباح اليوم التالي، خرجتُ وعمتي "غنوة" المتلفّعة بالسواد، بعد أن دخلتْ علينا أم صالحة على غير عادتها فالوقت مبكر جداً، لتخبرنا بوصول السيارة بسائقها، وأنها سترافقنا إلى دار العدالة حيث مكتب كاتب العدل، لإتمام المعاملة...

هناك، تم كل شيء بسرعة فائقة وكان جميع الموظفين لديهم علم أو توصية بإتمام طلبنا، وقبل وصولنا إلى دار العدل سألت عمتي عن السبب الذي يقف وراء قرارها هذا، ولماذا اختارتني أنا دون البقية لتمنحني الوكالة، لماذا لا يكون والدي، شقيقها، من يتوكل عنها، فأخبرتني بأنها تحدثت مع والدي وتم اتخاذ القرار بموافقته...

"لكن يا عمتي، الموضوع يتطلب مني السعي بين الدوائر الرسمية لإتمام المعاملة وأن هناك أموال ممنوحة لكِ..." قلت لها ذلك فقاطعتني، قائلة وكفها اليمنى مرفوعة بوجهي: "خلاص، لا مجال للنقاش... سأشرح لكِ فيما بعد...". ثم تمتمت بصوت مسموع:

"تُنتزع ملكيتنا في الحياة، دون أن يكون لنا حق الاستئناف... تلك هي الحرب.".

حين أتممْنا أوراق الوكالة بجهود سائق السيد سهيل الذي صار يتنقل من غرفة إلى أخرى، وخرجنا من بناية المحكمة، حيث مكتب كاتب العدل، وحين اقتربنا من السيارة أَخَّرَني السائق لأكون خلف عمتي وأم صالحة، وهمس في أذني بأن عليَّ البقاء في السيارة وعدم النزول حين الوصول أمام منزل عمتي، كونه سيأخذني لمقابلة السيد اللواء، وهذا ما برّرَ سبب وجود أم صالحة مع عمتي، حيث عليها أن تخبر عمتي أثناء الطريق، بأنّ السيدة ذكرى تطلبني لأمر ضروري، وخلال فترة زيارتي ستكون أم صالحة بصحبتها طوال النهار... كان السائق ينظر إلى الأرض أثناء همسه

لي، وكنتُ أتفحّص فمه ولسانه، فشدَّ انتباهي شارباه الرفيعان، وتصورت شعيراتها تداعبني، فابتسمتُ برغبة وقحة...

كان سهيل في انتظاري واقفاً حيث بداية بستانه، وكانت "فيلتهُ" وردية اللون بخطوطها القرمزية تلوح خلفه كقلعة فارس ينتظر انتصاره المؤكّد... شاهدته وأنا أترجل عن السيارة التي انطلقت ما أن لامست قدماي الأرض. كان مبتسماً وأنا أدبّ خطواتي نحوه، وحين ضاقتِ المسافة بيننا فتح ذراعيه مرحباً وكأنه يطلب الاحتضان، فوقفتُ ناظرة صوبه بغضب، حين ذاك ازدادت ضحكته لتصل حد القهقهة، فتقدم نحوي واحتضنني. همستُ في أذنه وأنا مسبلة الذراعين: "إذا لم يكن بحوزتك ما ستخبرني به عن بشير فسأعود حاملة خيبتي...". طوَّقَ بذراعه اليسرى كتفيّ واصطحبني داخلاً صالة البيت... لم تفارقه ابتسامته بل أحياناً تصل حدّ الضحك، وذلكَ ما استفزني، فنظرت عميقاً إلى عينيه وأنا أتصنّعُ الانزعاج: "ما الذي يضحكك؟... هل أمامك قرد؟". أطلق ضحكة صاخبة وقال متمسكاً بضحكته: "أشعر بالفرح والسعادة كونكِ إلى جانبي...". اتجهتُ إلى الأريكة حيث مكاني الذي غادرته في المرة السابقة، أقصد المكان الذي حلّقتُ منه منتشية في لقائنا السابق، فما كان من سهيل إلاّ وجثا على ركبتيه أمامي وطوق خصري ووضع رأسه في حجري ليطلب مني أن أغني له أغنية العاشقة التي تناشد رجوع حبيبها... لكني وأنا أداعب شعره الخفيف، قلتُ له محذرةً بكلماتٍ ينقصها الصدق: "إياكَ أن تعيد فعلتكَ المخجلة مرة أخرى!..." فضحك وغرس رأسه ببطني دون أن يقول كلمة... كانت رائحة "الحرب البعيدة" قد فاحت لتغلف المكان، وتشعرني بنوبات سُكرٍ لذيذة، صرتُ أتمنى أن يعيد فعلته بل تحرقتُ لها، ودون دراية مني دفعتُ رأسه إلى الأسفل... سمعتُ تنهيدة عظيمة أطلقها وكانت أصابعه تشتغل بحنان كريم، وكأنه يعزف لحن الطيران... ثم اختفى تحت فستاني فاختفت نباهتي وتلاشى الزمن، وغبتُ في اللامكان...

حالما خرجتُ من الحمام، وقد ارتديت ملابس بيتية كان سهيل قد اشتراها لي دون معرفتي، سألته بصرامة ووضوح: "أين بشير؟"

"أعطني اسمه الكامل، وسوف أوافيكِ بأخباره بأقصر فترة..." نظرتُ إلى وجهه، ويبدو أنه تلمس غضبي، فأضاف: "لا أعرف عنه أي شيء...".

شعرتُ حينها أنني أصارع الهواء، وأن لا جدوى من استلال أي معلومة من ذهن سهيل المليء بالأسرار وربما الكوارث السلطوية، فقررت عدم النفخ بالقربة المعطوبة التي أمامي... لا جدوى مهما حاولت، وكانت تلك المرة الأخيرة التي أسأل فيها سهيل عن بشير، فقد قررتُ اللجوء إلى أساليب الإثارة مع باسل، عله يُفلت معلومة أستطيع الارتكاز عليها في بحثي عن الشاب المهذب المسكين.

حين قررنا العودة، بعد أن ارتديت ملابسي ورتبتُ شعري وكامل مظهري، قفز سهيل إلى الداخل وكأنه تذكر شيئاً مهماً، وما هي إلاّ دقائق معدودة حتى عاد وأمامه قفص الببغاء وفي يده اليمنى كاميرا فوتوغرافية. تذكرتُ حينها وعده بالتقاط صورة لي مع الببغاء، فوقفتُ إلى جانب القفص والتقطَ لي عدة صور... طلبتُ منه أن أصوره لتكون الصورة لي بعد طبعها، فاعترضَ، لكنه عدل عن قراره ووعدني بإعطائي الصورة الخاصة به مع صوري إلى جانب القفص...

في طريقه إلى بيت عمتي، طلب مني سهيل كافة البيانات والأوراق الخاصة بمعاملة الشهيد ابن عمتي، كونه عرض عليَّ المساعدة، وتخليص كافة الإجراءات بوقت قصير، شكرته على ذلك وشرحتُ له حيرتي كوني لم أعتد على دخول الدوائر الرسمية والسعي بمعاملات من هذا النوع، فاتفقنا على أن أسلم البيانات وصورًا عن الأوراق صباح الغد إلى باسل حيث مكتبه في الأسواق المركزية.

لم تعد رائحة باسل الذكورية تصلني، اختفت رائحة "التمر المكبوس" الفتية المفعمة بالشباب، بل حلّت محلها رائحة مشوبة بالخوف، أصابتني بالذعر... سلّمته المظروف الخاص بالأوراق الرسمية كي يوصلها إلى السيد سهيل، وحاولت أكثر من مرة إثارته، استخدمت معه "فلسفة السوتيان"، التصقت به ثلاث مرات، وفي المرات الثلاث، كان يجفل ويبتعد عني، كأن تياراً كهربائياً قد مسّه حين غفلة. سألته بخبث وأنا أطلق على مسامعه كذبة طازجة، تحدثت عن حلم شاهدته ليلة أمس. حيث رأيته مكبلاً بسلاسل ضخمة وينادي عليَّ كي أخلصه من أسره، لكنني، كنت مستمتعة بموسيقى الطبول وكأن هناك شهيداً يزف حديثاً إلى قبره...

لاحظتُ دهشته وخوفه مما سمع، وأراد أن يقول شيئاً، لكنني باغتهُ بسؤال:

"ما الذي تغيّرَ فيكَ... أراكَ مرتبكاً خائفاً، بل متحفظاً معي، على غير عادتك؟".

نظر باسل صوبي بنظرات لا تنقصها الدهشة، ثم طلب مني أن أقسم بحياة والدي أن لا أخبر أحداً بما سيقوله لي، ففعلت. حينها، أوضح لي بأنني أصبحْتُ من مقدسات السيد اللواء، وصرت محرَّمة على أي شخص يحاول الاقتراب مني... أرعبتني الفكرة، وصار جسدي يرتعش كأن كارثة عظيمة قد حصلت وكنتُ السبب المباشر وراء حدوثها...

"هل اختفى بشير إلى الأبد؟". ذرفتُ دموعاً مُرَّة، لم أستطع نسيان مرارتها أبداً...

***

حين انتهيتُ من رواية "الساعة الخامسة والعشرون" كتبتُ إلى قسطنطين جورجيو، بأن بشير قد رحلَ مقتفياً أثر "مورتنيس" بكل

إخلاص. لقد اعتقلوه بسببي، اعتقله باسل، أخذه ولفَّقَ له تهمة اللاعودة...

***

(11)

رنَّ الهاتف عند السابعة صباحاً، رنين على غير العادة، هرعتُ إليه وأنا نصف نائمة، لأسمع صوت والدي على الطرف الآخر، شعرتُ به ضاحكاً، فأخبرني إن المخاض قد داهم والدتي وأنه في طريقه لأخذها إلى المستشفى القريبة، وطلب مني موافاته هناك.

ساعة ثقيلة قضيتها بين استبدال ملابسي وإقناع عمتي "غنوة" بعدم الجدوى من مرافقتي إلى المستشفى، وبالعثور على التاكسي الذي أقلني إلى باب المستشفى... تلك الساعة، كانت كافية لتهز كياني وتدخلني حالة قلق مريرة. كنتُ خائفة على والدتي، فقد كنت أتصورها كبيرة، طاعنة في السن وأن الولادة قد تقضي عليها، فلا طاقة لها بآلام المخاض، لكنني لم أكن أدرك أن والدتي في السادسة والثلاثين من عمرها حينذاك، أي أنها شابة، بل وفي أوج طاقها...

وجدتُ أبي جالساً عند بوابة صالة الولادة، وما أن شاهدني حتى وقفَ مستقبلاً، ثم احتضنني وأخبرني أثناء ذلك بأن الأطباء قرروا الولادة القيصيرية، كون وضع الطفل لم يكن طبيعياً... قبَّلته وهونت عليه، وأخبرته مطمئنة كما طمأنت نفسي وأنا داخل التاكسي: "أم حياة قوية وما تزال شابة، هل نسيت أنها في السادسة والثلاثين فقط؟..." ثم نظرتُ في وجهه وقلتُ مازحة: "كم كان عمر والدتي حين تزوجت بها؟". أطلق "أبو حياة" ضحكته التي أعشق وقال كما كل مرة: "ملعونة... لا يغلبك الشيطان...".

"طلبتْ مني أختكَ "غنوة" بعد جهد بذلته من أجل أن أثني رغبتها بالمجيء معي إلى المستشفى، أن أتلفن لها حالما أعرف جنس المولود..."

قلت هذا لوالدي الذي ضحك وقال بأنه يدري بأنها تنتظر صبيًّا كي تسميه ظافر، ثم أضاف بشيء من الجدية: "وأنا أتمنى ذلك أيضاً...".

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى خرجت الممرضة لتخبرنا بأن أمي قد ولدت بنتاً جميلة تشبهها تماماً... وضع والدي بعض ورقات نقدية بيد الممرضة وسألها عن وضع زوجته الصحي، فأخبرته مطمئنة أن وضعها ممتاز.

طرتُ فرحاً، ولا أدري إن كنت رقصت أم لا، ولكني أعرف أنني هرعت راكضة إلى الهاتف العمومي لأخبر عمتي التي حالما سمعت بالخبر، حتى قالت كلمة واحدة: "نايات" ثم أغلقت الهاتف... شعرتُ حينها أن عمتي قد أمطرت شلال دموع خيبتها.

وقفتُ أمام والدي، تأخذني الحيرة، ابتسمتُ له وعانقته مهنئة، ثم أخبرته بما سمعته من عمتي: "كلمة واحدة قالتها عمتي، كلمة واحدة فقط...".

"نايات" قال والدي مقاطعاً كلماتي، فأخذتني الدهشة، وسألته عن كيفية معرفته ذلك، فابتسم حزيناً، وأخبرني بأن ظافر كان يقول لنا دائماً، أنه حين يتزوج سينجب بنتاً، سيمنحها اسم "نايات" تكون أشهر موسيقية في البلاد، وكان يقسم على أنه سيمنحها كل ثانية من وقته، وحين كنا نسأله فيما لو أنجبت زوجته صبياً، كان يقول جازماً وكأنه يعرف "زوجته" المستقبلية جيداً، بأن زوجته لا تنجب الصبيان...

صمتَ والدي قليلاً، ثم قال هامساً لنفسه:

"الموتُ حطّاب... لكنّ الغابة خالدة".

***

حين كانت السنة الرابعة للحرب تلفظ أيامها الأخيرة المزدحمة بالجثث... وُلدتْ "نايات"

***

عند الثانية بعد الظهر غادر المخدّر جسد أمي تماماً، ذلك ما أخبرتنا به الطبيبة التي أجرت عملية الولادة، وذلك ما أضفى على روح أبي الهدوء والسكينة، شعرتُ به يتنفس أفضل وأصبح وجهه يعيد عافيته تدريجيّاً بعد أن غزا الشحوب لونه، لقد كان قلقاً أو خائفاً من شيء ماء لا أعرفه، تيقنت بعد ذلك أن الحب وراء ذلك الخوف والقلق. احتضنته وطلبتُ منه الذهاب إلى البيت ليرتاح قليلاً، ففعل...

"نايات" ملفوفة بقماشة بيضاء وتستقر في حجري بكامل جسدها الذي شعرت به أخف من طائرٍ وأرق من ابتسامة... كنتُ أنظر إلى عينيها وأتلمس وجنتيها المحمرتين ببثورها البيضاء، وكنت غير مصدقة أن الإنسان يبدأ حياته بهذه الصورة، بهذا الحجم، بتلك الوداعة. ترى هل كل من عرفتهم، كانوا بهذا الشكل، وهذه الوداعة... حتى "بطل الحرب"؟".

"كنت خائفة من سرقة أختي حديثة الولادة، لا أدري لماذا استحضرت ذاكرتي قصصًا قديمةً سمعتها عن سرقة أو استبدال الأطفال في المستشفيات...".

في المساء بعد أن نامت أمي، مثلما نامت "نايات" الصامتة "طفلة لا تعرف البكاء، أمر غريب!!" ذلك ما قالته الممرضة المشرفة... هاتفت والدي وطلبتُ منه عدم المجيء، واعدة إياه بأنني سأعتني بوالدتي على أكمل وجه... جلست على السرير المقابل الذي كان معداً لاستقبال حالة جديدة، وأثناء ما كنت أتصفح أخبار الحرب في جريدة الحرب، سمعت أنيناً موجعاً، مصدره الردهة المقابلة... كان أنيناً مستفزاً، تتخلله بعض كلمات مستغيثة. نهضتُ يدفعني الفضول لأستبين مصدر الصوت المؤلم، وحين وصلت بوابة ردهة الولادة صار الصوت أكثر وضوحاً، لأعرف

بشكل واضح أنه قادم من القسم المقابل الخاص بالحروق... دخلت ودليلي أنين فتاة أو ربما صبي لم يبلغ الحلم بعد، وقفت عند باب غرفة حين تلمست مصدر الأنين عن قرب، وما أن دخلت الغرفة حتى اصطدم نظري بأربعة أسرة ثلاثة منها فارغة... مشيت على أطراف أصابعي صوب السرير المشغول والصوت بات أكثر وضوحاً وأكثر جزعاً...

"أمين!!... آه... آه... أمين..." صار الصوت أكثر وضوحاً، وتلك الكلمات التي لم أتبين وضوحها باتت واضحة تماماً، مجرد أنين ونداء يستغيث بشخص اسمه أمين... نظرتُ صوب مصدر الصوت فراعني ما رأيت... شيء ما، نصف أسطواني يرتفع فوق السرير، مغطّى بشرشف أبيض، وفي إحدى نهايتيه كومة شعر منثور... اقتربتُ أكثر، فشاهدتُ وجه صبية سمراء رائعة الجمال. حاولتُ رفع الغطاء الأبيض، فتبين لي أنها قفص حديدي نصف أسطواني يعتلي جسدًا مبقّعًا بالأحمر والأسود والأصفر المحمر، علمتُ فيما بعد أنها الطريقة الأمثل لتغطية الأجساد المحترقة... جسد أنثوي شاب أو صبياني صغير محمر بفقاعات كبيرة وردية اللون وحمراء، ومناطق منه متيبسة بنية اللون، لم تسعفني شجاعتي للنظر إلى كامل الجسد، فما رأيته كان مفزعاً... مرّرتُ أصابعي على الرأس ملامسة الشعر فبدرت من الفتاة أنة هائلة وكأنها تحمد السماء كونها تلمستْ حسًّا بشريًّا إلى قربها... "لا تخافي أيتها العزيزة أنا قربك" قلت لها مطمئنة، لكنها لم تكف عن مناداة أمينها الذي لا أعرفه...

تحرّكتُ قليلاً صوب حافة السرير حيث القدمان وتناولت الصحيفة المعدنية المثبت عليها بعض أوراق، وقرأت الاسم "جنات عبد الرحمن" وكانت الحالة حروق بمختلف الدرجات نتيجة اندلاق ماء ساخن بدرجة الغليان على الجزء الأمامي من الجسد، والبطن بالجزء الأسفل منه الأكثر تضرراً، بعض تلك التفاصيل عرفتها من الممرضة المشرفة على حالة "جنّات" في صباح اليوم التالي حين زرتها بعد أن حضر والدي وعمتي

"غنوة" التي بانت أكثر إشراقاً وجمالاً، وأن ملابسها السوداء وذلك الشال المخملي الذي ينسدل من قمة رأسها ويغطي الكتفين نزولاً حتى وسط الصدر، قد أضاف لها هيبة لا ينقصها الجمال... سألتني:

"أين الهالة الموسيقية، أين "نايات"؟".

أشرتُ لها صوب السرير الصغير وتبعتني إليه. حملتْ "الوليدة" بين ذراعيها، وراحت تتأمل وجهها بفيض دموع تحكي قصة الفقد.

قلتُ لها، بهدف طرد الحزن، بأن أبي أشار إلى أن "نايات" ستكون موسيقية في المستقبل، وسيفخر بها أبناء وطنها. قالت وهي تنظر إليَّ بعمق، شعرتُ أن نظراتها قد لامست روحي:

"ليس للطفل وطن... الوطن ذاكرة".

أرعبتني كلمات عمتي. لم تكن منسجمة مع ما قلته. ابتسمتُ لها وتوجهتُ نحو باب الصالة يتلبسني الذهول جراء عبارتها الأخيرة التي أشعرتني بتبدل حالتها، وكأنها تتجه صوب منحى لا أعرفه...

جلستُ إلى جانب الأنين المرّ حيث سرير "جنّات" المحترقة، وصرتُ أداعب بأصابعي شعرها الفاحم، قلت لها أن أسمي "حياة" وأنتِ "جنات" وأن اسمينا متشابهان تقريباً، فرددت اسمي لمرتين ثم عادت تنادي "أمينها" فسألتها عن أمين وما صلة القرابة بينهما، فلم أسمع منها غير ترديد اسمه لمرات، ثم سألتها إن كانت بحاجة إلى شيء ما، فلم أسمع منها غير تكرار اسم "أمين" ولمرات متلاحقة...

"بكيت كثيراً لوحدتها، وغربتها المرة، فقد عرفت أن أهلها قد رفضوا زيارتها، لسبب لم تفصح عنه الممرضة، التي عرفت منها أن هناك شخصًا واحدًا فقط، قد زارها خلال الأيام الخمسة الماضية، يدّعي أنه خالها...

ربما قضيت من الوقت ساعة كاملة إلى جانب أنينها الذي كاد يفتك بروحي. حكيتُ لها إحدى حكايات جدي عن النخلة التي عشقت "الفخاتي" وعن عراجينها الذهبية عسلية المذاق، وحين شارفت الحكاية على نهايتها، ختمتها كما كان جدي يختمها لي، داعبت شعرها وغنيت لها بصوت واهن لا ينقصه الحزن:

نامي يا "حياتي"

النخل يعشق الفخاتي...

وإن كنتِ لا تعلمين

فإن الحياة مسرعة

ولا تسير... تاتي... تاتي

نامي يا "حياتي"...

دخلتُ الغرفة يأخذني الشوق إلى احتضان أبي، الذي تصورته جالساً قرب سرير أمي يداعب أصابعها حباً، لكن المفاجأة حدثت حالما دخلتُ بنظراتٍ باحثة عن سرير الصغيرة، حيث وقع نظري على ماجد وهو يحاول ترتيب بعض الزهور البيضاء في فازة نحاسية إلى جانب سرير "نايات" القريب من سرير أمي، وما أن نقلتُ نظري صوب والدتي حتى شاهدتُ سمية ناظرة صوبي والابتسامة مرتسمة على ملامحها، ولم تكن ابتسامتها تختلف كثيراً عن ابتسامة شفيق ابن عمي الذي كان يحمل "حنينه" أقصد ابنته "حنين" على ذراعه الوحيدة... ابتسمتُ لهما دون تفكير مسبق، كانت ابتسامة عفوية تحت هول المفاجأة. في الأثناء دخل والدي مبتسماً، وما أن شاهدني حتى أعلن عن فرحته وكأنه قد أتمَّ سيناريو مفاجأة قد طبخها سرّاً.

"رائع جداً، لنجتمع حول سرير "نايات" ونلتقط صورة تذكارية بالمناسبة.". شاهدتُ كاميرة والدي بين كفَّي إحدى الممرضات التي طلبت منا الابتسامة للعدسة... حتى الساعة، كلما نظرت إلى الصورة، أدخل في نوبة ضحك تستمر طويلاً، فقد كنتُ عابسةً، وكنتُ أعرف سبب ذلك العبوس.

بعد أن انتهينا من التقاط الصورة، درتُ بجسدي صوب الباب لأخرج إلى حيث لا أدري... بعد بضع خطوات خطوتها على بلاط الممر، شعرت بوقع خطوات ورائي، وأن هناك من يناديني، التفت بانزعاج، لأشاهد وردة بيضاء تسبق وجه ماجد المبتسم. يبدو أنه استلّ الوردة من بين ورود الباقة التي كان يرتبها... تقدم نحوي محتفظاً بابتسامته، وقدم لي الوردة، ثم طبع قبلة على وجنتي اليسرى وهو يبارك لي سلامة والدتي بولادة الأخت الصغرى التي ستكون لي الأخت والابنة، على حد تعبيره... وهو يطبع قبلته، جعلتُ مقدمة السوتيان تلامس صدره ثم تراجعتُ لأنظرَ في عينيه فوجدتهما تتراقصان... قرأت بعض اضطراب طرأ للتو على ملامحه، "إنها فلسفة السوتيان يا صديقي" قلت في سريرتي مبتسمة، وحين حاولتُ التملص من أسر نظراته، حاول أن يرافقني وهو لا يعرف وجهتي...

ثلاثة أيام كانت كافية حسب رأي الطبيب، لخروج والدتي من المستشفى، رغم صعوبة حركتها وآلامها التي تسببها ذلك الجرح العنيف الذي خرجت منه "نايات" الجميلة، والذي شاهدته بعد عشرة أيام حين أتت ممرضة إلى بيتنا لتستبدل الضمادات. أفزعني منظره وبكيت لدرجة لم أصدق فيها حالي "هل صرتُ أتعاطف مع أمي؟" سألت نفسي وأنا أتدارى حرصاً على أن لا تنتبه لي... لذتُ بعمتي "غنوة" التي كانت تحتضن نايات، والتي لم تفارقها منذ زيارتها الأولى في اليوم الثاني من ولادتها. الغريب أنها رغم حزنها، إلا أنها كانت تغني لها أغاني الفرح وكأنها تدرّبها على سماع نغمات كانت تعرفها جيداً، وقد لفت انتباهي حين

زارتنا السيدة ذكرى صباغ مع زوجها، طلبتْ عمتي من ذكرى أن تغني لها سبع أغنيات بسبع مقامات مختلفة، وأن تشرح لها الفروق بين تلك الأغنيات، كونها تروم جراء ذلك أن تتعلم اختلاف المقامات حتى تغنيها للصغيرة ابنة أخيها بغية تحفيظها المقامات الأساسية لأغنيات التراث، فذكرت السيدة ذكرى وهي تدندن لحن سبع أغنيات معروفة بسبعة مقامات مختلفة، كانت عمتي تحفظهم عن ظهر قلب...

في أحد الصباحات، وبعد بلوغ "نايات" الأربعين يوماً من عمرها، هاتفني سهيل، حين كنتُ أقف أمام مرآتي أروم التحليق في فضاء المتعة المدهشة، لقد أخرجني نداء عمتي وهي تخبرني بضرورة رفع سماعة الهاتف في غرفتي كي أرد على المكالمة، أعترف بأنه كان نداءً مزعجاً، ولكن ما أن سمعتُ صوت سهيل حتى طرت فرحاً، واصلت لعبتي على صوته، ووصلتُ إلى متعتي وهو يخبرني بضرورة اللقاء قريباً...

"يشتاق المرء حتى للطاغية... إن تعوَّدَ عليه...".

***

طلبتْ مني عمتي "غنوة" التي قررت العيش معنا "في بيت أخيها" لتكون قريبة من "نايات"، أن أفتح حساباً بنكياً، بعد أن أخبرنا سهيل بأن كافة الأوراق الرسمية صارت جاهزة، وما علينا سوى الذهاب إلى مديرية الشهداء كي نستلم مستحقات الشهيد وقطعة الأرض والرواتب المتأخرة، وراتبه التقاعدي... كان والدي يستمع ولم تبدر منه أي ملاحظة، حتى حين عرض عليَّ سهيل اصطحابي إلى البنك بغرض فتح الحساب، لكنني قرأت بعض التردد في ملامح أبي، فاعتذرتُ من سهيل شارحة سهولة الحصول على الحساب البنكي، خصوصاً وأنا على معرفة جيدة بالسيد رياض مدير البنك الذي عرفني عليه سهيل، فوافق ضاحكاً.

لم يكن السيد رياض بوضع مريح حين دخلتُ إلى مكتبه، بعد أن أخبرتْهُ إحدى الموظفات برغبتي في لقائه، كان مرتبكاً بشكل واضح، حيث لم ألحظ ذلك الارتباك عليه خلال الزيارات الأربع التي قابلته فيها سابقاً... وجنتاه محمرتان وجبينه يتصبب عرقاً رغم اعتدال حرارة الغرفة بفعل التكييف المركزي. طلبَ من الساعي فنجاني شاي ودورق ماء بارد بعد لحظات من جلوسي قبالته. لم تكن رائحته اليابسة قد سجلت حضورها بشكل طاغ، بل كانت خفيفة جداً وكأن هناك من يعمل على خنقها، كانت خفيفة جداً وبحاجة إلى بعض التركيز للشعور بها. نظرتُ إليه مبتسمة وسألت: "هل أنت محموم سيد رياض؟" زاد ارتباك الرجل ونفى أي شعور بالحمى، وتحجج بضغط العمل، وسرعان ما طلب مني المستمسكات الرسمية المطلوبة لفتح الحساب، وما أن تسلمها مني وتفحصها جيداً حتى كبس على زر الحاكية ليطلب من السكرتيرة المثول أمامه... نظر صوبي بتمعن وتصنَّعَ ابتسامة ليسألني عن طبيعة العلاقة التي تربطني بالسيد سهيل، وفيما إذا كانت هناك صلة قرابة بيننا، فأجبته كاذبةً بأنه صديق أبي المقرَّب... حينها تنهد بعمق ليزفر هماً ثقيلاً ملأت سخونته الفضاء، وبدأت رائحة الحطب اليابس تسجل حضورها... حاولت أن أقول شيئاً إلا أن دخول الموظفة حال دون ذلك...

"آنسة حياة، أحتاج مساعدتكِ" قال السيد رياض ذلك وهو ينظر إلى سطح منضدته، حالما خرجت الموظفة. لم أفهم لحظتها ما قَصَدهُ، لذا طلبتُ منه معتذرةً أن يكرر على مسامعي ما قاله، فرفع نظره صوبي وقال لي، بأن أمراً إدارياً قد صدر بنقله إلى محافظة غربية بعيدة عن العاصمة، ولكن، دون المساس بدرجته الوظيفية، وأن الأمر في غاية الصعوبة كونه ابن العاصمة وله فيها الكثير من المصالح والارتباطات بالإضافة إلى عائلته التي يصعب عليه مفارقتهم... الحقيقة أذهلني ما سمعت، وسألته عن الكيفية التي يمكنني بها مساعدته، دون أن أنسى أهمية وجوده في مكانه بالنسبة لي على

أقل تقدير، فهو الوحيد الذي يساعدني في عملية تصريف العملة، فضحك بملامح متشنجة، وقال مستخفاً بالمبالغ الصغيرة التي أحولها إلى العملة الصعبة عن طريقه، ثم أخبرني بأن السيد سهيل يمكنه إلغاء أمر النقل. ابتسمتُ له وطمأنته بأن أمر السيد سهيل بسيط، ووعدته أن أطلب منه ذلك بأقصر وقت، فشكرني وعرض عليَّ خدمات مستقبلية يقدمها لي إن كنت بحاجتها، شكراً وعرفاناً...

خرجتُ من مكتب السيد رياض، بعد أن أتممت فتح الحساب الذي أودعت فيه مبلغاً زهيداً حسب التعليمات، وقبل أن يفلت جسدي من إطار الباب الخارجي، شعرتُ بجسدٍ رجولي إلى جانبي، وما أن نظرتُ شزراً حتى شاهدتُ رياض مبتسماً عارضاً عليَّ وبإصرار توصيلي إلى البيت بسيارته... شكرته، واتخذت مكاني إلى جانبه داخل السيارة... كنتُ أنظر إليه وهو يقود سيارته، كانت ملامحه الحزينة قد تغيرت قليلاً نحو الاسترخاء، وما أن انتبه إلى نظراتي نحوه حتى بادرني قائلاً دون أن تغيب ابتسامته: "لكِ بذمتي دعوة غداء فاخرة..." ضحكتُ وقلت دون تردد: "ليس اليوم." أطلق ضحكة مسموعة الصوت وشكرني لقبول الدعوة.

"سمك مسگوف؟" سألته ممازحة، فضحك ووافق على الفور.

قبل أن أغادر السيارة بدقيقة، شعرتُ برائحة رياض الرجولية وقد تحركت، شممتُ بوادرها وأنا أنظر إلى جهة وجهه اليمنى، لألاحظ ثمة ثقبًا في نهاية أذنه اليمنى، ابتسمتُ وتذكرتُ ماجد، الذي كان هو الآخر مثقوب الأذنين، "ذلك ديدن بعض العوائل الفلاحية، يدللون الصبي حتى يصبح صبياً، ليصبوا جام ممنوعاتهم وأوامرهم عليه، ويعتبرون تلبيس الأقراط للصبيان نوعًا من الدلال أو أحد علامات الغنى..." ذلك ما قاله ماجد لي حين سألته عن سرّ ثقب أذنيه...

***

كان البيت صاخباً، ذلك ما لاحظته وأنا أدخل الصالة، ليث وثلاثة من أصدقائه يحتلون وسط أرضية الصالة يتابعون لعبة كرة القدم بين ناديين محليين، عمتي تحتضن "نايات" وتغني لها أغنية الطيور الصغيرة والفراشات على مقام الرست، ومن المطبخ صوت المذياع وهو ينث سموم إحدى أغاني الحرب، يبدو أن معركة طاحنة ستفرّخ الكثير من التوابيت واللافتات السوداء...

اقتربتُ من عمتي وقبّلتُ رأسها قبل أن أقبّل صغيرتي واسعة العينين وردية البشرة... ثم استأذنتها بعد أن أخبرتها بإتمام عملية فتح الحساب البنكي.

كانت أمي جالسة إلى طاولة المطبخ تعد سَلَطة الغداء، ألقيت عليها التحية وأنا في طريقي إلى القدر المنتصب على موقد الغاز، وبمجرد اقترابي منه، صاحت بي محذرةً من رفع غطاء القدر، أزعجني صوتها، فتوجهت منفعلة صوب غرفتي...

رفعتُ سماعة الهاتف واتصلتُ بمنزل السيدة ذكرى صباغ بغية الحديث مع أم صالحة التي اعتادت الرد على المكالمات حين تكون هناك، لكن المفاجئ أن يصلني صوت السيد سهيل في مثل ذلك الوقت بالذات، وما أن سمعتُ صوته حتى أطلقتُ ضحكة مسموعة، لأسمع بعدها كلمة "حياتي"، ثم أردفها بطلب اللقاء معبراً عن شوقه الذي يكاد يفتك به على حدّ تعبيره، ضحكتُ وأخبرته بما كلفني به السيد الرياض، وأن ما من لقاء بيننا حتى يحلّ مشكلته... شعرت أن هناك اهتمامًا واضحًا من قبل سهيل بموضوع رياض، وقد أفصح لي أن وجود السيد رياض في وظيفته الحالية يعتبر مكسباً مهماً لهم، قال: "لنا" وما أدري من هم ولماذا عند هذه النقطة تحديداً تكلم بصيغة الجماعة، عند ذاك، طلبَ مني اللقاء بعد يومين، كوننا

سنذهب غداً لاستلام مستحقات الشهيد، وإنه سيكون غداً صباحاً عند العاشرة تحديداً أمام بيتنا ليأخذني وعمتي لإتمام الإجراءات...

كررت على مسامعه، شرطي، للقاء القادم: "إذا لم تحل مشكلة السيد الرياض قبل أن يحل موعدنا، فلا لقاء بيننا..." وافق وقال لي بثقة عالية: "إذا لم يتصل بك السيد رياض ويعلمكِ بحل مشكلته فلا لقاء بيننا..."

"يا حبيبي". قلتها بخبث

"ماذا؟؟!!". سأل سهيل مندهشاً، فأغلقتُ سماعة الهاتف مبتسمة يغمرني الزهو.

***

"جميلة مرآتي... فهي لا تكذب، ولم ترَ ببغاء من قبل."

***

"إنه مبلغ كبير يا عمتي!!". قلت لها وهي تضع بين يديَّ الحقيبة الجلدية الصغيرة التي وضعتْ داخلها مجموع المبالغ المستلمة، لكنها لم تجب، بل نظرتْ صوب سهيل شاكرة له جهوده ومسعاه، وطلبتْ منه راجيةً أن يوصلنا إلى بناية البنك الذي فتحتُ به حسابي الجديد، ثم طلبتْ مني أن أدلَّه على العنوان، فضحك سهيل وأبدى استعداده لذلك مرحباً...

استأذنت السيد سهيل كي أجالس عمتي حيث مكانها في الحوض الخلفي من السيارة، فوافق مسروراً، وما أن انطلقت السيارة حتى ألصقتُ شفتي إلى أذنها اليمنى وسألتها: "لماذا يكون المبلغ وقطعة الأرض باسمي أنا وليس اسمكِ؟". قالت هامسة وهي تنظر بعيني حتى شممت رائحة ماء الورد في أنفاسها: "إنه مهرك يا زوجة وحيدي.". ارتجفَ جسدي، وشعرت أن عمتي تحاول اعتقال مستقبلي، كوني قد أصبحتُ "حسب ما

يدور بذهنها" زوجة ابنها الساكن تحت تراب وطن كان جلّ أمانيه، أن يهرب منه كي ينعم بإنسانيته...

"سأهرب أنا الأخرى... لكن فوق الأرض، وليس تحتها..." جملة قلتها في سريرتي وأنا أطبعُ قبلة على وجنة عمتي.

لم ندخل غرفة السيد المدير، فقد كان خارج بناية البنك، ذلك ما أخبرنا به الساعي حين سأله السيد سهيل عند الباب... سلَّمتُ المبلغ إلى الموظفة التي راحت تتأكد من قيمته بواسطة ماكينة العدّ، ثم دونته في أوراقها وعلى الدفتر الصغير الخاص بي... كانت عمتي تجالس السيد سهيل أثناء ما كنت أقف أمام موظفة البنك، لم تكن المسافة بالبعيدة، وكنت أسمع حديثهما بشكل واضح، فقد طلبت عمتي من السيد سهيل، مساعدتها في العثور على مؤجر محترم لبيتها، كونها قررت أن تعيش معنا، وأنها قد اتفقت مع والدي على ذلك، ولم أدرِ أن الفكرة تلك كانت لوالدي، وهو من اقترح عليها ذلك، إلا بعد مضي أكثر من ثلاث سنوات...

استمر حديث عمتي مع السيد سهيل ونحن داخل السيارة في طريقنا إلى البيت، حين ذاك اقترح سهيل على عمتي أن تؤجر بيتها إلى شركة أجنبية، كون مبلغ الإيجار سيكون مضاعفاً، فوافقت على الفور، ووعدها بأن يرد لها خبر الحصول على مؤجر خلال يومين، وذلك يشير إلى أنه كان يعرف تماماً مَنْ يكون المؤجر...

حين وصولنا البيت، دعت عمتي السيد سهيل إلى مشاركتنا الغداء، لكنه اعتذر لكثرة مشاغله وارتباطاته، ثم انطلق بسيارته مودعاً.

بعد مرور قرابة نصف ساعة من دخولي غرفتي، حيث كنا ننتظر وصول والدي كي نجتمع على الغداء، وأثناء ما كان أخي ليث منبطحاً على أرضية الغرفة يراجع دروسه وواجباته، رنّ الهاتف، فسارعت إلى رفع السماعة القريبة مني، لأسمع ولأول مرة صوت السيد رياض عبر الهاتف،

وبعد الترحيب، قدم لي جزيل شكره وامتنانه على تقديم عظيم المساعدة له، فقد ألغي قرار النقل، وما كان سبب عدم تواجده في البنك حين كنا هناك، إلا أنه كان عند رؤسائه، ليتمم ذلك الإلغاء... فرحت كثيراً، لسماع ذلك الخبر، وفرحت أكثر، بل وشعرتُ بالزهو كوني أصبحتُ شخصية مؤثرة يمكنها حلّ مشاكل كبار الموظفين... ضحكتُ كثيراً، لذلك الاستنتاج، وهزَأت من نفسي التي أخبرتها، بأن سهيل من قام بالمساعدة ولست أنا...

***

بعد مرور أقل من أربعٍ وعشرين ساعة على مكالمة السيد رياض ليخبرني بأمر إلغاء النقل، كنتُ أجالسه في مطعمٍ للسمك المسگوف على الكورنيش، كان المطعم المجاور لذلك الذي تناولتُ فيه السمك مع والدي قبل عيد ميلادي الثامن العشر بيومٍ واحد... طلب السيد رياض كأسين من اللبن لحين وصول وجبتنا، أخذ رشفة من كأسه ليعلن عن الطعم اللذيذ ويطلب مني تذوقه ففعلت، كان لذيذاً بالفعل خصوصاً مع مكعبات الثلج التي منحته برودة منعشة... اعترتني رغبة أكل قطعة من الثلج وهرسها تحت أسناني، لكنني تراجعت بفعل الخجل... لا أعرف السبب الكامن وراء رغبة النساء الدائمة في أكل قطع الثلج...؟.

بعد أن طرح عليَّ بعض أسئلة تخص دراستي وأمنياتي المستقبلية، عرض الرجل استعداده في تصريف أي مبلغ أحدده رغم الصعوبة التي سيواجهها أمام رؤسائه، فالتصريف لا يتم إلا بكتاب رسمي من وزارة المالية، ثم راح يشرح لي أهمية العملة الأجنبية وضرورة الحصول عليها كون عملة بلدنا معرضة للهبوط وبهذا سيربح من يمتلك العملة الصعبة أموالاً مضاعفة، ثم استفاض بشروحاته حول الموضوع وأنا أبحر بعينيه وأتفحص حركاته باحثة عن شيء لا أعرفه، لكنني كنت طيلة اللقاء أشم رائحة رجولته "رائحة الحطب اليابس" التي صارت محببة لي...

وضع العامل صينية كبيرة تستلقي عليها سمكة ضخمة مشوية بعناية، يحيطها بترتيب شهي، قطع من الطماطم والخيار والبصل والمخللات، عند ذاك طلب رياض قنينة بيرة باردة بعد أن سألني إن كنتُ راغبة بمثلها، فرفضت، واكتفيتُ بكأس آخر من اللبن...

وأنا أعلن عن لذيذ الطعم الذي كانت عليه السمكة، راح رياض يتحدث عن طبخ النساء ولذته وأهميته لرجل يعمل أكثر من عشر ساعات في اليوم، حين يعود لبيته وينعم بما تقدمه له زوجته، ثم تنهَّدَ وأفصح عن همٍ يؤرقه، حيث قال بأن لا أحد في حياته يمكنه التحدث إليه ويفصح له عنٍ همومه، فطلب مني راجياً أنْ أكون ذلك الشخص... وافقتُ بكل ارتياح وأكدتُ له بأنني سأكون بئر أسراره. عند ذاك انفتحت أساريره وراح يحدثني عن الزوجة التي هجرت سريرها ومعاناته في إرضائها، ووحدته التي باتت لا تطاق...

كان حديث رياض مفاجأة كبيرة لي، هل من المعقول أن تهجر امرأة موظفاً كبيراً مثل السيد رياض الذي بمقدوره تأمين حياة كريمة لزوجته وأم أولاده... والذي أجده هادئاً ودوداً كطفل... ترى أي نوع من النساء، تلك التي هجرت سريرًا يشاركها فيه مدير البنك؟

طلبَ قنينة بيرة أخرى، وصار يتحدث أكثر، حتى نسيَ الأكل، فلم يضع في جوفه إلا لقيمات قليلة، وكنت أستمع له وأنا أمضغ ببطء شديد، مما اضطرني إلى تنبيهه عدة مرات لبرودة الأكل، وأنَّ أمامنا متسعًا من الوقت لنتحدث، ابتسم وباشر بالأكل وهو يتمتم لاعناً مشاكله التي لا تنتهي...

بعد الانتهاء من الأكل اقترح أن نتمشى قليلاً، فالمكان جميل وهناك نسائم مشجعة على التنزّه، فوافقته. وبمجرد أن ابتعدنا قليلاً عن المطعم وتسلّمت أقدامنا الشارع الإسفلتي الضيق المجاور للنهر، الذي تحفّه

الأشجار، أخذ رياض يتحدث عن أهمية العلاقات الإنسانية، وضرورة أن يكون الإنسان اجتماعياً كي يحظى ببعض الأصدقاء، وفي أثناء حديثه، مسكَ كفي اليمنى، وشبكَ أصبعه بأصابعي، ثم ضغط عليها وتوقف، فوقفتُ على إثر ذلك، نظر إلى عيني نظرة توسل وقال:

"هل من الممكن أن نكون أصدقاء... هل تصبحين صديقتي التي أفضي لها بأوجاعي؟؟". ابتسمتُ له وسرعان ما تحولتِ الابتسامة إلى ضحكة خفيفة دون صوت ووافقت على طلبه، مؤكدة له فرحي الغامر بأن أكون كاتمة أسراره... ظل ماسكاً كفي وهو يسير إلى جانبي ويتحدث... تحدث على أشياء كثيرة، وكان للموسيقى حصتها، ليدخل بعد ذلك إلى مواضيع أخرى، وكنتُ أقول كلمة أو كلمتين رداً أو تأكيداً على ما يقوله... قطعنا شارع الكورنيش بأكمله، وبدلاً من العودة، سحبني بلطف ليدخل بي شارعًا فرعيًّا وهو مستمر في أحاديثه، وما أن تجاوزنا قرابة المئة متر، حتى صرنا أمام متجر لبيع المواد الغذائية. توقف رياض ليخبرني أن شقته فوق المتجر الذي أمامنا تماماً، وسألني إن كانت لديّ الرغبة بكوب من الشاي نتناوله في شقته، شكرته وتحججت بضيق الوقت، لكنه لم يحرر أصابع كفي من بين أصابعه، حتى وافقتُ على زيارته غداً عند الخامسة مساءً. ودعته شاكرةً له كرمه على دعوة الغداء بسمكها الشهي.

في اليوم التالي، وعند الخامسة عصراً، ضغطتُ على زر الجرس الخاص بشقة السيد رياض الذي فتح لي الباب مبتسماً، لم يطل وقوفي وراء الباب إلاّ ثوانيَ معدودات وكأنه كان يقف خلفه منتظراً. دخلتُ مباشرة إلى الصالة، كانت أنيقة ونظيفة. جدران مطلية باللون الأبيض اللامع. أرائك جلدية بيضاء وطاولة خشبية سوداء تعتليها ثرية كريستال مبهرة وثلاث كراسي خشبية سوداء أيضاً تتوزع على زوايا الصالة بدراية وذوق عال...

"الأسود والأبيض متناسق جداً في الصالة سيد رياض، يبدو أن ذوقاً نسائياً قد رتّبَ لكَ كل هذا الجمال..." قلت هذا وأنا أتخذ مكاني على الأريكة الجلدية الواسعة. ضحك وأخبرني أن كل ما موجود في شقته من اختياره وترتيبه، وليس هناك أي يد أخرى شاركته. أثنيت على ذوقه وطلبتُ شربة ماء باردة فوافق مسروراً ودخل المطبخ وهو يعلن عن إعداده الشاي قبل دقائق من وصولي.

كانت الشقة محتفلةً برائحة ذكورته، وكأنه قد جنَّدَ كل تفكيره ومشاعره صوب مغامرة جسدية يكون جسدي بطلاً لها... لم أكن مترددة، كنتُ أعرف ما أريد، وكنتُ سعيدة كوني مثار اهتمام الآخرين، وصرتُ أتفحص لسانه وشفتيه بفضول جارف...

ونحن نشرب الشاي، كان رياض يجلس على الصوفة الصغيرة، يكفي مني ربع استدارة إلى اليسار ليكون قبالتي تماماً، صار يحدثني وأنا أستمع إليه دون أن أنسى إثارته، بنظراتي، وحركات جسدي ووضعية جلستي التي كنتُ أغيّرها بين حين وآخر...

نظرات ماكرة، ثم إغواء موارب، فتمنع... من فتاة تتظاهر بالاستكانة... كنتُ أعرف أن رياض ليس بحاجة إلى هذا، لكنني كنتُ طامعةً بتأجيج رائحته الذكورية أكثر... صار تهيّجه يتصاعد حتى تجرأ وطلب مني قبلة، حدث ذلك بعد مضي قرابة ساعة من دخولي لشقته. ابتسمتُ له بدلال واضح، ووقفتُ أمامه بصلابة دون أن تفارقني ابتسامتي، نظرتُ في عينيه وقلت:

"حين أجدكَ أهلاً لثقتي سأمنحك أكثر من قبلة..."، ثم احتضنته وطبعت قبلة على رقبته، واتجهتُ صوب الباب بغية الخروج من الشقة، مسكتُ أكرة الباب والتفتُ ناظرةً صوبه، منحته قبلة في الهواء، وقلت: "أعرف أنكَ منحتني ثقتكَ لأكون صديقتك وكاتمة أسراركَ، وأنا سعيدة

بهذا جداً وأقدره عالياً، وأعتقد أنكَ ستنال ثقتي في وقت قريب...".
أرسلتُ قبلة أخرى وخرجت.

"يا لها من متعة توفرها لي لعبة الغواية والتمنّع... لم أبغِ الإذلال، بل وصول الرائحة الذكورية إلى روحي ومسامات جسدي، قمة سعادتي... يا إلهي كم أنا سعيدة الآن.".

(12)

لم تكن قطعة الأرض التي استلمتُها وعمتي، كأحد مستحقات الشهيد، بعيدة عن بيتنا، حيث، وبكل أسف، تم تقسيم قطعة الأرض الزراعية القريبة من بيتنا، والتي طالما تنزهنا بها، حيث النهر الصغير الذي يفصل حيّنا عنها، لتكون أراضي سكنية تم توزيعها على ذوي شهداء الحرب التي ما زالت تدور رحاها طاحنة الآلاف من الأرواح الشابة دون رحمة... سميت تلك المساحة الكبيرة بعض الشيء بـ "حي الشهداء" الذي سرعان ما انتشرت على أرضه التي كانت تفيض بحنانها على الزرع والطير، كتل كونكريتية وكثبان متفرقة من الرمل الأصفر وأخرى للحصى المستخدم لغرض البناء، وباتت الأزقة المجاورة ممرات للشاحنات المحملة بمواد الإنشاء... يبدو أن عمتي في تلك الفترة كانت تراقب حركة البناء المحمومة، فقررت بيع قطعة الأرض تخلصاً من متاعب البناء.

"إن كان للشهيد وطن... فذلك السقف الذي يستر عُري خيبة الحبيبة وجزعها"

***

ضباب الخوف أضعف من أن ينتصر على جبروت اللهفة للمتعة

"لا تخافي!... لن أؤذيكِ، حتى لو كانت لدي النية في إيذائكِ، فلن أستطيع..." رنت جملتهُ بذهني وكأنها نذير شؤم، فقد قالها وهو يطلب مني الاستلقاء على جسده العاري إلاّ من لباسه الداخلي الطويل، احتضنني وراح يداعب شعري ويقبل جيدي بحنان فائض، ثم همس بأذني، جملة تمنيتها رغم تمنعي: "إن كانت لديكِ الرغبة في إسعادي، فسأكون العبد المطيع حين تتجردين من ملابسك..." ضربته على صدره بقبضتي، ونعتّهُ

بالوقاحة وقلة الأدب، لكنني رضخت لطلبه بكل سعادة، كنت على يقين من تمسكه بوعده وأنه لن يؤذيني أبداً...

أوصلني سهيل ذلك المساء إلى ذروتي ثلاث مرات... كانت سعادتي غامرة، أكلنا ورقصنا، شربَ كأسين من الويسكي، وشربتُ ثلاث قناني من المياه الغازية المطعمة بالليمون، وكنتُ قد تحممتُ بعد تحلق روحي بألقها عند الذروة الثالثة، خرجتُ من الحمام وليس على جسدي سوى روب الحمام الزهري الذي اشتراه لي منذ لقائنا الثاني، وما أن خطوت داخل الصالة، التي كانت تضج بموسيقى أغنية إيقاعية عديمة الأصالة، حتى طلبَ مني أن أرقص له، فوقفتُ بصرامة أمامه، وحذرته من أن يطلب مني مثل هذا الطلب مرة أخرى وقلت بانزعاج واضح: "لستُ جاريتك يا سهيل!!" أطلق ضحكة صاخبة واحتضنني وهو يردد: "بل حبيبتي، انتِ حبيبتي وحياتي...".

ضحكتُ وأعلنت الصفح عنه، ورجوته أن لا ينتزع مني السعادة بطلبات سخيفة ينقصها التحضر، ثم قلتُ له وهو ما زال محتفظاً بضحكاته:

"لم يخطر ببالي أبداً، أنّ بالإمكان ممارسة الفتاة للجنس مع رجل، ووصولها إلى أقصى الذروة والمتعة، وهي محتفظة بعذريتها... ترى أي عذرية زائفة هذه، وأي مجتمع غبي يحكمنا؟؟".

"فلنصلِّ إذاً، إلى سماحة اللسان، وفِقه الشفتين، ولنبارك نعمة التذوق..." قالها سهيل، ثم أطلق ضحكة مختنقة شعرت بها وهي تشق صدره من الداخل، بهوائها الساخن...

في لحظة صفاء لم تفارق فيها ابتسامة سهيل ملامحه، نظر صوبي بجدية وطلب مني الإنصات، فما سيقوله غاية في الأهمية... "أرعبتني!! ماذا هناك؟" قلتُ له بغنج زائف، فاتسعت ابتسامته وطمأنني، طالباً مني

الاسترخاء، ثم قال بعد أن مسك بقبضته اليمنى كامل كفي اليسرى: "هناك وظيفة محترمة لكِ، أتمنى أن توافقي عليها، كونها سترسم لكِ مستقبلاً باهراً..".

"أنا موظفة!!؟... كيف وأنا لم أكمل دراستي الثانوية بعد؟" قاطعته باندهاش، فقال بشيء من البساطة:

"المهم، أنكِ قد بلغتِ السن القانونيّة، وتجاوزتِ الثامنة عشرة منذ بضعة شهور، والأهم من ذلك، أنكِ وصلتِ بدراستك مرحلة البكالوريا".

"ولكن ما طبيعة هذه الوظيفة؟" سألته وأنا ممتلئة بالفرح، فقال وكأنه يفضي إلي سراً خطيراً:

"منذ سنتين، وحين انكسر جيشنا في معركة طاحنة دامت قرابة الشهر، تكبدنا فيها خسائر كارثية في الأرواح، أصدرت القيادة مرسوماً جمهورياً، يجيز قبول كل من لم يكمل دراسته الثانوية أو يحصل على البكالوريا، في دورات خاصة ليكونوا ضباطاً، بعد دورة تدريبية مكثفة... لذا أطلب منكِ أن تغتنمي الفرصة وتقدمي أوراقكِ، لتكوني بعد أشهر قليلة ضابطاً في أهم جهاز أمني في البلد، وتحت إمرتي...". شعرت بهزة عنيفة داخلي، وتيبُّس شفتي، وأردت أن أقول شيئاً، إلاّ أن سهيل وقفَ منتفضاً وقال بصوتٍ أمرٍ: "ما بكِ؟؟؟ ارتعد جسدكِ وتيبست شفتاكِ، هل قلت إنّ حكماً بالإعدام ينتظرك؟".

"شيء يشبه هذا، ذلك ما وصل مسامعي..." قلت له وجسدي ما زال محتفظاً بارتعاشته... فأطلق ضحكة صاخبة ومسح على رأسي، ثم أحتضنه وضمه إلى صدره... "لا عليكِ، الأمر بسيط جداً..." قالها وراح يشرح لي طبيعة العمل، وطبيعة جديته وسريته...

عرفتُ حينها، أن كل شيء ممكن، وأن شخصًا مثل سهيل يمكنه رسم حياة غير متوقعة لشخص ما، ويقلب، أو ينهي حياة شخص آخر بإشارة منه... قال أن "المديرية الرابعة"، بحاجة إلى شابة جميلة تمتلك الذهنية المتقدة وسرعة البديهة. طلبتُ منه مهلة للتفكير، لكنه رفض، وأراد أن يسمع موافقتي بالحال، فسألته عن الضمانات ومدى ارتباط الوظيفة بالدولة، فقال بصريح العبارة: "لا ضمانات غير مهاراتك وذهنك المتقد، والوظيفة رسمية وتابعة لجهاز أمن الدولة..." ثم أخذ وجهي بين راحتيه وراح ينظر بعمق عينيَّ وكأنه يحاول زرع شيء من روحه داخل روحي، وأضاف: "ستحصلين على الهوية والراتب والسلاح الخاص بك...".

"سلاح... المجال العسكري... "أنا"... سهيل ما بك، هل جننت!!؟".

"نعم، سلاح، وهل هناك ضابط في جهاز أمني مهم لا يحمل سلاحاً؟". لا أدري لماذا قفزت صورة والدي أمامي، حبيبي الذي صار الصمت عنواناً له منذ أن قررت التوقف عن الدراسة، أبي الذي كانت ضحكته تراقص زوايا البيت وهو يحتضنني، صار ينظر إليَّ بصمت، وأحياناً يبتسم بانكسار، فقلتُ دون تفكير مني: "دعني أستشر والدي.". فقال سهيل على الفور وبصوت مرتفع بعض الشيء دون أن يحيد نظره عن عينيّ: "لا أحد يعرف الاتفاق الذي سيتم بيننا... لا أحد.".

"حتى أبي؟".

"حتى رب السماوات...". بدأتُ أعصر أصابعي بأصابعي، وصرتُ أنظر إليه وجسدي مستمر الارتعاشة، ثم سألته عن الترتيبات فقال: "شهر تدريب في معسكر خاص، ثم يتم تعيينك في دائرة حكومية، بدرجة وظيفية مدنية تناسب تحصيلك الدراسي، وبشكل رسمي..." قاطعته متسائلة: أتدرب على ماذا؟ وأين يكون المعسكر الخاص؟"

"أتركي الموضوع لي، سأقنع أهلكِ بأن ترافقي زوجتي إلى شمال البلاد في سفرة سياحية لمدة شهر، والحقيقة أنكِ ستسافرين لوحدك حيث المعسكر التدريبي الذي سيبدأ قريباً، وهناك يمكنك الاتصال هاتفياً بأهلك يومياً... تمام؟".

"تمام!!". قلتها دون دراية أو تفكير عميق، لكن الفكرة كانت مرعبة، ولم أكن على قناعة تامة بها...

***

قبل يومين من حلول موعد دفاع ماجد عن أطروحته للدكتوراه، كنتُ مع أخي ليث نتبضع من متجرٍ في شارع "عشرين" القريب من بيتنا... شارع تجاري مزدحم بالمحلات والمارة وعيادات الأطباء، عشرات اليافطات معلقة أو مثبتة على الحيطان تشير إلى أطباء بمختلف الاختصاصات ومحامين وشركات تجارية، كنت أنظر إليها وأتصور أن يافطة جديدة ستكون باسم الدكتور ماجد قريباً... فوق المتجر الذي كنتُ أتبضع منه تماماً، شاهدت يافطة تعلن عن بيع عيادة لطب الأسنان بداعي السفر والدراسة، وعلى الفور رنّت فكرة برأسي.. قررتُ الصعود إلى البناية للبحث عن تلك العيادة، وما أن وضعتُ قدمي على أول درجة من السلم حتى سمعت صوتًا رجوليًا يناديني، التفتُّ إلى اليمين لأشاهد رجلاً خمسينيًّا يعتمر كوفية بيضاء وعقالاً، سألني وجهتي والسبب من دخول البناية، فأخبرته بما أروم، فأخبرني أن العيادة مقفلة وهناك وكيلٌ لصاحب العمارة يجب التحدث معه. أعطاني قصاصة ورق مدون عليها الاسم والعنوان ورقم الهاتف، شكرته وأنا أمسك كف أخي ليث الذي سحبته إلى جانبي وتوجهنا صوب الشارع لنكمل جولتنا وشراء ما جئنا لأجله... بمجرد وصولي إلى البيت، تناولت سماعة الهاتف وطلبتُ رقم الوكيل المثبت على قصاصة الورق... استفسرتُ منه عن كل المعلومات، وعرفت

الثمن المطلوب لشراء العيادة وكذلك الإيجار الشهري للشقة... كان المبلغ المطلوب كبيراً، فسألته إن كان بالإمكان الدفع بالتقسيط، فقال أن لا مشكلة، شريطة أن نزوره في مكتبه ونتفق على كل شيء... الحقيقة، كان حلمي كبيراً بتأمين عيادة لماجد، ولكن هناك عقبة واحدة تقف عائقاً دون تحقيق المفاجأة، "يجب أخذ رأي ماجد، فربما لن تعجبه أو يجدها غير مناسبة"... لذا، قررت التحدث معه بالأمر، بعد انتهاء مناقشة الأطروحة...

وكأني عروس طالما حلمت بيوم زفافها وقد نالت مرادها... بعد ثلاث ساعات قضيتها في الصالون القريب من بيتنا، لترتيب شعري وأظافري، ارتديت الفستان الذي اشتريته قبل بضعة أيام خصيصاً للمناسبة، فستان أبيض بنقوش نباتية بيضاء محمرّة ناتئة، يحفه دانتيل مخملي بكمَّين قصيرين منتفخين، ولم أنسَ الشريط الزهري الذي طوَّق رقبتي والعقد الذي طالما نال "إعجاب" ماجد وهو ينظر إليه مستقراً بين النهدين... استقليت سيارة تاكسي وشدّدت على السائق بضرورة المرور بمحل الزهور القريب من المستشفى لشراء باقة تليق بالمناسبة، وكنتُ قد دسستُ بحقيبتي الصغيرة "الكارت" الذي سأطلب من صاحب محل الورد تثبيته على باقة الورد، والذي كتبت داخله عبارة شعرية قرأتها في أحد الدواوين الشعرية ودونتها في دفتري الصغير:

"أنتَ والضوء، عملتان،

الأولى لروحي

والأخرى لروحي أيضاً

فكلاهما بالحب

يزدهي"

"حياة... حياتك"

دخلتُ قاعة المناقشة أحمل باقة الزهور وعيناي تبحثان عن "العريس" الذي سيحصل على شهادة الدكتوراه بعد قليل، أربع خطوات كانت كافية لتفاجئني عينا أم صالحة المليئة بالفرح مرحبةً بي، وقد تفاجأتْ هي الأخرى بحضوري، وبعد أن طبعت قبلتين على وجنتيَّ، سألتها وعيناي تتفحص الوجوه: "هل أنتِ هنا لحضور مناقشة الدكتور ماجد؟". لمحتُ وجه ذكرى صباغ وإلى جانبها شابة تحتضن طفلاً...

"طبعاً، الدكتور ماجد زوج ابنتي صالحة... ألم أحدثكِ عنهما؟". صعقتني كلمات المرأة، ولم أشعر إلا وأنا أضع باقة الورد بين يديها لأطلب منها توصيلها إلى الدكتور ماجد، وخرجتُ مسرعة لا أدري إلى أين...

***

وأنتَ تعيش لحظة الأمنية، تشعر بحريتك أكثر... عند مقتل اللحظة بخنجر الخيبة، تعود إليك رائحة الحرب الشرسة

***

"موافقة". كلمة واحدة قلتها لسهيل، كانت كافية لأدخل عالمًا آخر... عالمًا لم أجد نفسي فيه، بل كانت فتاة أخرى لا تشبهني.

"في المتاهة،

كلّ صوت...

ضجيج..."

سِفر المتاهة

مكتبة
د. محمود عبد العزيز العاني

(13)

بعد يومين من موافقتي، أخذني سهيل إلى المديرية التي كان أحد كبار آمريها، كي أقدم أوراق انتسابي، وهناك، وبعد ملء العديد من الاستمارات والأوراق، طلبوا مني طلباً غريباً، كان عليَّ أن أختار اسماً بديلاً عن اسمي، سيمثلني طالما كنت منتمية لهم، وإن تعذر عليّ ذلك سيختارون الاسم لي بشكل عشوائي، وبعد مناقشتي الأمر مع السيد سهيل اخترت اسم "جنّات عبد الرحمن" الفتاة المكتوية بالماء الحار التي واظبتُ على زيارتها بشكل يومي تقريباً، حتى بعد أن خرجتْ والدتي و"نايات" من المستشفى، والتي عرفت منها بعد أن صار بإمكانها الكلام والتركيز وتجاوز الصدمة، بأن والدها من حاول قتلها بالماء الحار حين اكتشف علاقتها بابن الجيران، ورفضها الزواج بابن عمها الجندي الفاشل دراسياً والذي يتخذ من أحد جحور الحرب ملجأً له طيلة أيام الشهر حتى يحين موعد إجازته... والتي خرجت من المستشفى ولا أعرف إلى أين، فحين عاودتُ زيارتها بعد انقطاع، عرفتُ أنها خرجت من المستشفى دون علم الأطباء...

***

شهر كامل في أرض خالية تلامس الأفق، شعرت خلاله بأنني قد تحولت إلى رجل، ونَمت في جسدي عضلات الرجال، حتى إنني شككتُ بأن شاربَيْن نبتا فوق شفتي، وكنت كل ليلة قبل أن أدخل فراشي العسكري لأنام كالقتيلة، أنظر إلى وجهي الذي كسته الشمس سمرة قبيحة، كي أتأكد من شاربي فلا أعثر إلا على وجه جلاد مستعد لافتراس ضحيته...

الكل يناديني "جنّات" حتى اعتادت حواسي عليه، فصرتُ مثلها، محترقة الروح بماء عالمي الجديد الساخن.

تدربتُ على العديد من الأسلحة، وركضتُ كثيراً، ونمت في جحور حفرناها بأيدينا أنا ورفيقاتي المجندات بأسمائهن المستعارة، وتعرضت إلى العقوبة لأكثر من مرة... الزحف لمسافة طويلة، وحمل الصخور، والغطس في المياه الآسنة، وكان الأكثر إيلاماً، عض الضفادع وحبسها في الفم لمدة يقررها الضابط آمر الفصيل.

تدربنا على الاختفاء، وقراءة الوجوه وحركات الجسد، والتنصت، وسياقة السيارة، والتصوير الفوتوغرافي، وكان درس التحقيق قاسياً جداً، حيث حققنا مع "مجرمين" كانوا يأتون بهم من أماكن لا نعرفها، يطلب منا الضابط، التحقيق معهم واستخدام أقذر الطرق لنيل الاعترافات التي نرغب بها والتي يحددها لنا الضابط المسؤول... مُنعنا من استخدام الكريمات والمكياج، وصودرت منا منذ اليوم الأول، الملاقط وقلامة الأظافر وكل ما تحتاجه الفتاة في حياتها اليومية العادية، ولم يسمحوا لنا إلا بالمشط والصابون وفرشاة الأسنان...

سئمتُ الرائحة الأنثوية، فكل من يحيط بي من الإناث، واشتقتُ إلى استنشاق رائحة ذكورية تنعش روحي التي صارت تذوي مثل نار موقدٍ متروك في أرض جرداء، وسئمتْ مخيلتي استحضار روائح من عرفتهم قبل النوم، لدرجة أنني حاولت غواية الضابط آمر الفصيل، طمعاً في استنشاق رائحة ذكورته، لكنه ما أن تنبّه للعبتي حتى أخضعني لأقصى عقوبة، دسَّ ضفدعة في فمي وأغلقه بقوة من كفّيه، وأمرني بعدم فتح فمي حتى يأمر بذلك، في ذلك الوقت العصيب استحضرت مخيلتي رائحة الحطب اليابس فتمنيت أن يكون رياض بديلاً عن ذلك الضابط الدميم...

منذ ذلك اليوم "الضفدعي" القاسي، صرتُ أحلم كل ليلة. تختار ذاكرتي أحد الذين أعرفهم، لأمارس عليه الغواية وفلسفة السوتيان، وأحياناً مع رجل لا أعرفه "وجه ضبابي ممحي الملامح"... أمنحهُ جسدي برضا وقناعة، بل وأمارسُ معه كل ما عرفتهُ وتصورتهُ وتمنيت، بسعادة غامرة، تبقى عالقة بروحي المنتشية، حتى ساعات النهار...

كنا ننام أربع ساعات ليلاً فقط، وساعة أخرى بعد الغداء ظهراً... لا أعرف أحداً، فكل الأسماء مزورة، لكنني وجدت عالمَ نساء مختلفًا تماماً، نساء لا يكترثن لشيء، ولا يسيطر على تفكيرهنّ إلاّ استخدام القوة ثأراً لتجاربهن السابقة...

قبل أن نغادر المعسكر بيوم واحد، كانوا أعادوا لنا الأشياء التي تمت مصادرتها في اليوم الأول لدخولنا، وطلبوا منا الاغتسال وترتيب مظهرنا، بغرض التقاط صور شخصية لنا... وقفنا بطابور أمام باب غرفة آمر المعسكر، لندخل تباعاً، وحين جاء دوري ودخلت، قابلت امرأة ثلاثينية ترتدي الملابس العسكرية برتبة نقيب، أعطتني قميصًا وقبعةً عسكرية طالبةً مني ارتداءها والوقوف أمام كاميرا مثبتة قبالة حائط ناصع البياض، وما أن ارتديت القميص العسكري أمام مرآة كبيرة، حتى فاجأتني نجمتان ذهبيتان على كتفيّ، ثم اعتمرت القبعة العسكرية ووقفتُ بوضع الاستعداد كما أمرتني سيادة النقيب، التي قامت بالتقاط ثلاث صور لي لم أرهما إلّا بعد مراجعتي للمديرية بغرض استلام أوراق تنسيبي وظيفياً.

في الليل، وحين فردتُ جسدي على السرير العسكري، صارت مخيلتي تُقلّب شكلي وهيئتي بالملابس العسكرية، والنجمتان الذهبيتان تلمعان على الكتفين. تصورتُ أشياء كثيرة ومشاهد أتصرف فيها كضابط له هيبته، حتى أخذني سلطان النوم... في المنام وجدتني أقف وقفة الاستعداد العسكري أمام السيد الرئيس "بطل الحرب" بغية تقليدي نوط

الشجاعة... ثم وجدتني داخلةً معه في نقاش عسكري أعجبه كثيراً، وراح يشيد بذكائي وأفكاري... أخذني من يدي ليدخل بي غرفة العميد آمر المعسكر، وهناك، جردني من ملابسي العسكرية، ثم هيمنَ لسانه الطويل الخشن على عنوان أنوثتي، وصار يتأوه بتلذذ، وأنا أطلب منه المزيد، كان مخيفاً، وكنت مرتعبة، فقد سيطرت عليَّ فكرة التهامه لما بين فخذيَّ... سيأكله كقطعة سمك مشوية على نار الشهوة برائحة عيدان حطب الغرب الذي يمنح الشواء طعماً زكياً... حين استيقظتُ صباحاً على صوت "عريفة" الفصيل، شعرت بسعادة وانتشاء، وبعض الألم في مفاصلي وما بين الفخذين.

في حفل التخرج، الذي جرى على أرض كانت مزروعة بالقمح، تم حصاده، وقفنا بملابسنا العسكرية، ضمن كردوس نسائي، تغطي رؤوسنا طاقيات عسكرية، ونحن نردد القسم أمام آمر المعسكر، لمحت سهيل إلى جانب آمر المعسكر، كان ينظر إليَّ مبتسماً، وحين أنهينا القسم، أدينا التحية العسكرية للسيد القائد، ولكنني أديت التحية إلى سهيل شخصياً، وشعرت حينها أنه استلم الإشارة فأدى التحية لي بكل فخر...

"في تلك الفترة، اشتقتُ إلى أشياء كثيرة، والغريب أني اشتقت لأمي!!"

***

عند باب المعسكر، كانت هناك سيارة شخصية زرقاء تنتظرني، نادى سائقها عليّ باسم "الآنسة جنّات"، فاتجهتُ صوبه. طلبَ مني بصوتٍ منخفضٍ الدخول إلى السيارة وأخبرني أنه مبعوث من قبل السيد اللواء... انطلقت السيارة بسائقها الشاب بملابسه المدنية الأنيقة قرابة العشرة كيلومترات ليتوقف عند مطعم طريق تصطف العديد من الشاحنات أمامه، وما أن دخلتُ برفقته إلى المطعم حتى اتجه بي صوب باب موصد

معلق عليه قطعة معدنية تشير إلى "إدارة المطعم" وبمجرد دخولنا قابلني وجه سهيل الضاحك، وهو يأمرني بأمر الاستعداد وأخذ التحية العسكرية، ففعلت بكل رضا، لتنطلق بعدها ضحكته الصاخبة ويقترب مني محتضناً...

أخذني سهيل إلى بيته الآخر، حيث السيدة ذكرى التي كانت بكامل أناقتها تنتظر وصولنا، وما أن أطلق سهيل منبه سيارته لمرتين عند باب البيت دون أن نترجل من السيارة، خرجت السيدة ذكرى كأميرة من أميرات القصر الملكي، ودخلت الحوض الخلفي للسيارة التي انطلق بها سهيل صوب بيتنا، لم تنبس ذكرى بكلمة واحدة غير التحية التي ألقتها على عجل وهي تأخذ مكانها خلفي تماماً...

دخلت ذكرى معي بيتنا، وما أن قابلتنا أمي التي احتضنتها طابعة قبلتين على وجنتيها، حتى صار أبي بعينين دامعتين أمامي، هرعتُ صوبه ولا أدري من أي زاوية من الروح انهمرت دموعي وأنا أدسّ وجهي بين جيده ووجهه.

كانت عمتي "غنوة" تغني لنايات أغنية حالمة بطيرانها حين دخلنا الصالة، وصلتني بعض كلمات منها وأنا أقترب لأقبّل رأسها... احتضنتُ أبي مرة أخرى وأنا أجلس إلى جانبه معبرةً عن اشتياقي له، أشبعتُ وجهه قبلات وأنا أوزع نظراتي بين أمي ونايات المستسلمة لحضن عمتي... في تلك الأثناء دخل سهيل وخلفه ليث حاملاً حقيبة سفر صغيرة لم أرها من قبل، لكنني فهمت سبب وجودها، حين قال سهيل ضاحكاً وموجهاً كلامه لوالدتي: "إنها حقيبة حياة، ربما تحتوي على بعض هدايا..." صاح ليث على إثر كلام سهيل، بأنه يريد فتحها ليأخذ هديته فوافقه سهيل على ذلك...

***

بعد انتهاء إجازة الأسبوع، كان عليَّ مراجعة "المديرية الرابعة" صباحاً، ففعلت. استقبلتني هناك، وفي مكتبها العابق برائحة القرفة، امرأة قد تجاوزت الثلاثين منذ بضع سنين. حنطية البشرة بشعرٍ كستنائي، رشيقة القوام تماثلني في الطول، يميزها وركان جذّابان وخصر دقيق يعلوه نهدان اعتمدا على ذكاء السوتيان ليكونا بحجم برتقالتين ناضجتين... قدّمتْ لي نفسها: "الرائد بثينة". وأخبرتني بأنها المسؤولة عني منذ تلك اللحظة... سلّمتني بطاقة الهوية ملصق عليها صورتي بالرتبة العسكرية التي التُقطتْ لي في اليوم قبل الأخير من المعسكر التدريبي، ومسدس عيار تسعة ملميتر نوع "طارق بن زياد" وأربع علب رصاص، كانت قد دونت رقم السلاح ورقم الهوية وتاريخ إصدارها على إحدى صفحات سِجِل كبير بعض الشيء وطلبت مني التوقيع أسفل الصفحة، ولم تدعني أخرج من مكتبها إلا بعد ساعة ونصف من إسداء التعليمات والأوامر التي كنت أعرفها مسبقاً، ثم أخبرتني بصوت منخفض بأن هناك توصية خاصة بي من قبل السي "اللواء سهيل"، وقبل أن تسمح لي بالخروج سلّمتني أمر تعييني، باسمي الصريح "حياة سلّوم الشهاوي" لكن بطاقة الهوية العسكرية التي يمنع عليَّ إبرازها إلى أي مخلوق كان إلا إذا شارفت على الموت، كانت باسم "جنّات عبد الرحمن الشهاوي". ثم أمرتني بمباشرة عملي بعد الغد عند السابعة صباحاً في "مركز البحوث والدراسات والوثائق"، بدرجة سكرتيرة مكتب المدير العام، وكنتُ أعرف مهمتي وطبيعة عملي بالتفصيل الدقيق الذي طبعته "الرائد بثينة" بذهني كالنقش على عملة معدنية.

كلّ المعلومات والتعليمات التي تلقيتها من الرائد "بثينة"، كنتُ قد عرفتها بالتفصيل من السيد سهيل، الذي شرح لي باستفاضة تامة، طبيعة عمل المنتسبين إلى "المديرية الرابعة" التابعة إلى جهاز المخابرات العامة، والتي يميزها أن معظم منتسبيها ورغم رتبهم العسكرية، هم من الأشخاص العاديين في المجتمع. موظفون مدنيون في دوائر الدولة البعيدة

عن المنظومة العسكرية. معلمون، أطباء، أساتذة جامعات، مهندسون، موظفو سكرتارية، حتى سعاة مدارس ودوائر رسمية، وكسبة، وأصحاب مقاهٍ وبارات ومطاعم وأكشاك، وبائعو سكائر على الأرصفة....

منذ خروجي من مكتب الرائد "بثينة" لم تفارقني حقيبتي اليدوية، حتى أثناء النوم كنت أدسها تحت فراشي خوفاً من اكتشاف ما بداخلها من قبل والدي أو أي إنسان آخر، لكن الأمر لم يدم طويلاً فقد أرشدني رياض بعد أن سألته بطريقة غير مباشرة عن كيفية الاحتفاظ بأشياء ثمينة داخل المنزل، إلى شراء "قاصة" صندوق حديدي صغير بأرقام سرية يستخدم عادة في الفنادق، كي يحفظ أشيائي... لقد منحني ذلك الصندوق راحة ذهنية واسترخاءً عظيمًا، وكأنني تخلصت من أثقل عبءٍ عرفته البشرية.

في صباح اليوم الأول، وجدني المدير العام لمركز البحوث والدراسات والوثائق، الدكتور همام، جالسة خلف مكتبي. كنتُ قبل ذلك، قد قمت بترتيب ما استطعتُ، واعتنيت بمكتب السيد المدير بشكل مبالغ فيه. كنتُ قد قطفت ثلاث وردات جوري من حديقة منزلنا، واحدة حمراء واثنتَيْن صفراوَيْن لهما رائحة مميزة. وضعتُ الوردات الثلاث بفازة زجاجية تقترب بشكلها من الكريستال، وجدتها في مطبخ المركز، وضعتها بعناية على طاولة مكتب السيد المدير... توقف الدكتور همام حالما رآني، فتوجه نحوي قائلاً بابتسامة عريضة: "صباح الخير آنسة حياة، إنها المرة الأولى التي أجد فيها أحد الموظفين وقد باشر دوامه قبلي..." صافحته رادةً عليه التحية الصباحية، وكنتُ على علم بأنه يعرف عني ما يهمه من المعلومات. كان الدكتور هُمام قد وافق على تعييني سكرتيرة له، قبل أن يقابلني، ذلك ما أخبرني به سهيل، حين كنت بضيافته بعد تخرجي من الدورة العسكرية، وقال أن لا خيار أمام هُمام غير القبول، رغم أنه وافق راضياً بعد أن شاهد صورتي الشخصية ضمن ملفي الشخصي المقدم إليه من قِبل دائرة شؤون التعيينات التابعة لوزارة التعليم العالي، والذي لا أعرف عنه شيئاً.

الدكتور هُمام المتخصص بعلوم الحاسبات والحاصل على شهادة الدكتوراه من إحدى جامعات لندن، شخص غامض جداً، ذلك ما عرفته عنه خلال الأسبوع الأول من مباشرتي الوظيفة... بشرته بيضاء، بعينين عسليتين وقحتين، قصير القامة، بيدين قصيرتين سمينتين، شعره المسترسل الضارب إلى اللون الكستنائي، يزيد من بياض وجهه المحمر... حاد الطباع والقرارات، عصبي المزاج على الدوام. لا يحبذ الحديث وقوفاً، نزولاً عند عقدة القصر التي يعاني منها...

بعد أيام قليلة من مباشرتي العمل، صارت نظراته غالباً ما تتركز على نهديَّ وعنقي، وكان في كل مرة يعلن عن إعجابه بالعقد الذي يزيّن صدري، وكنت في كل مرة أقول في سريرتي مبتسمةً: "إنها فلسفة السوتيان يا رجل..." كوني أعرف أنه يقصد صدري بنهديه البارزين... مسسته عدة مرات بطرف السوتيان وأنا أفتعل حركات عفوية، كنت ألاحظ اهتزازات جسده، بل كنت أسمع انكماشة جلده حين تعتريه حالة القشعريرة، التي سرعان ما تنتج رائحة ذكورية تتماهى مع رائحة الكنائس ببخورها واحتراق شموعها...

كانت مهمتي، حسب ما شرحها لي الدكتور همام بدقة واستفاضة، والتي كنتُ أعرفها سابقاً منذ اللقاء بالرائد "بثينة"، تتطلب ترتيب مواعيد المقابلات والزيارات الخاصة، بالإضافة إلى استلام وتصوير كافة البحوث والدراسات والمشاريع المقدمة إلى المركز والاحتفاظ بنسخة منها ضمن ملفات الأرشيف، ونسخة أخرى تكون على مكتب الدكتور همام لغرض الدراسة وإبداء الرأي، وكان ذلك عملي الذي تمّ تعييني لأجله. لكن المهمة الخاصة التي تم تكليفي بها من قبل "المديرية الرابعة" والتي لا يعرف عنها الدكتور همام أي شيء، تتطلب رصد الزيارات الخاصة التي تحدث في مكتب السيد المدير العام وإعداد تقرير يومي بكل ما يحدث أثناء ساعات العمل، بالإضافة إلى استنساخ نسخة ثالثة من البحوث

والدراسات والمشاريع المقدمة، وتسليمها مع التقارير اليومية إلى الرائد "بثينة" التي ألتقيها مرة في الأسبوع... في بداية الأمر لم تكن المهمة سهلة، بل كانت شاقة جداً، خصوصاً ذلك القلق الذي يشطرني إلى شخصين ينتميان إلى جهتين مختلفتين، لكن، بمرور الزمن والتعوّد، صار روتين العمل يأخذ مساره بصورة أقل صعوبة.

جلّ طاقم الموظفين في المركز من الأناث، والذكر الوحيد، هو الدكتور همام الذي أطلقت عليه الموظفات "ديك القن" وكنتُ أضحك كثيراً جراء تلك التسمية، حتى صرتُ أمازحهنَّ بـ "دجاجات" المدير العام، فأسمع من تتفكه قائلة "أنتِ الدجاجة الأقرب لديكنا المبجل...".

منذ الأسبوع الأول أعلن الدكتور همام عن رضاه وإعجابه بعملي، ومنحني صلاحيات ومهام إضافية، وأول تلك المهام أن أكون أول من يحضر صباحاً وآخر من يغادر بعد الظهر، حدث ذلك خلال اجتماع عام بكل الموظفات في المركز، وفي الوقت الذي أدخل كلامه وثقته السرور في نفسي، لمحتُ ابتسامات وضحكات خبيثة من قبل بعض الموظفات، أثارت فضولي، وحين حاولت معرفة سرّها، عرفتُ بأنها ليست المرة الأولى التي يعلن فيها مدير مركزنا عن موظفة تكون آخر من يغادر المركز، وحين التقطتُ الإشارة قررتُ معاقبته حتى "يتأدب".

عملي في سكرتارية المركز كان ممتعاً جداً، فقد تعرفتُ على شخصيات لها وزنها، كان أساتذة الجامعات أكثر ما أثار اهتمامي، حيث تعرفت على الكثير، وكان من ضمنهم أصدقاء لوالدي، ثم إنني أدمنت قراءة الأطاريح المقدمة للمركز بغرض الموافقة عليها خصوصاً أطاريح الدكتوراه في المجال الأدبي، أما تلك التي تتناول عالم الرواية فكنت أحمل نسخة منها معي إلى البيت بعد استنساخها حتى أتمتع بقراءتها بمزاج مستريح...

صار الدكتور همام يضايقني كثيراً... أعترف أن رائحته كانت تغريني جداً، وذلك ما دفعني إلى إغوائه ومن ثم الامتناع بغرض تعذيبه... "ابن الكلب، يمتلك رائحة مقدسة، لا يمكن لأي فتاة ردع الرغبة عنها..." لكن عقلي كان أقوى من رغباتي، فصرتُ أتلذذ بتعذيبه...

بعد شهرين من عملي وإلحاح همام المستميت لدرجة البكاء، وكنت في كل مرة أتحجج بعذريتي، استطاع بعد تنازلات كثيرة أن يرى النهدين، وأن يحظى بالملامسة وبعض القبلات... لكنه ومع مرور الأيام صار يطلب المزيد، فلا يجد غير الردع، والكثير من الإغواء المدروس الذي كنتُ أمارسه عليه.

على ضوء التقارير اليومية التي كنتُ أوصلها للرائد "بثينة"، طلبتْ مني أن ألتقط صورة جماعية لجميع موظفات المركز مع السيد المدير العام الدكتور همام، وقالت بشيء من التحدي: "دعينا نتلمس ذكاءَك ودهاءَك في إتمام هذه المهمة". ثم أشارت إلى نقطة في غاية الأهمية، لم أكن منتبهة لها رغم أن التقارير التي كتبتها، كانت المؤشر المهم لها: "الدكتور "طاهر" شخصية مهمة، وحسب تقاريرك، اتضح أنه يزور الدكتور همام كل أربعاء وسبت، وبشكل منتظم خلال الشهر المنصرم، نريد أن تكثفي مراقبتكِ له خصوصاً الأحاديث الخاصة التي تدور بينهما...". وكالعادة، لم أسأل، ووافقتُ على الفور، وكأني أقبل التحدي، أو جعلته اختبارًا عمليًّا لي، لكنها ابتسمت لي وأثنت على تفهمي للأوامر الصادرة دون إثارة أي أسئلة، ثم أخرجت علبة كارتونية صغيرة وقدمتها لي، وهي تقول: "أعتقد أنك تعرفين ما بداخل العلبة وقد تدربتِ عليه جيداً.".

حين فاتحت الدكتور همام بموضوع الصورة الجماعية، رفض بشكل غير حازم، كان مبتسماً، وذلك نادر الحدوث، حين يعلن رفضه لمقترحٍ ما، فالحزم عنوان إجاباته دائماً، وذلك ما شجعني على إعادة طلبي، وقد

أضفت على مقترحي، أن يكون موضوع الصورة تقليد سنوي، نقوم بتعليق الصورة الجماعية على أحد جدران مركزنا، ومع مرور السنوات يكون لدينا أرشيف رائع بذكريات أكثر متعة، فوافق على غير قناعة وترك الموضوع لي في تحديد الوقت...

في اليوم التالي، اتفقت مع "فتّاح" مصور الجامعة التكنولوجية القريبة من المركز على أن يأتي يوم الأربعاء الساعة الثانية عشرة تحديداً لالتقاط الصورة التذكارية، ولم يكن اختياري ليوم الأربعاء عبثاً... أخبرتُ الدكتور همام بذلك، وكذلك موظفات المركز اللواتي فرحن بالفكرة...

كان موعد تناول وجبة الغداء الخفيفة لجميع موظفي المركز بين الحادية عشرة والنصف، والثانية عشرة والنصف، ساعة كاملة يغلق المركز أبوابه بوجه المراجعات لنجتمع مجاميع صغيرة نتناول فيها السندويتشات غالباً، وكنتُ أعد لهم الشاي والقهوة قبل دقائق من الموعد... في تلك الساعة تحديداً يصل الدكتور "طاهر" يومي الأربعاء والسبت ليكون بضيافة الدكتور همام، وهذا ما خططتُ له...

حلَّ يوم الأربعاء، وكنتُ كعادتي أول من يدخل بناية المركز، دخلتُ غرفة الدكتور همام، ودسستُ جهاز التسجيل الصغير الذي استلمته من "بثينة" بعد إعداده بالشكل المطلوب، خلف صورة السيد الرئيس "بطل الحرب"، وبمجرد جلوسي خلف طاولة مكتبي، سمعت خطوات الدكتور همام، فهممت واقفة كي أقدم له القهوة الصباحية التي اعتادها منذ زمن دراسته في لندن...

عند الحادية عشرة تماماً شاهدتُ "فتّاح" المصور بابتسامته، واقفاً على باب غرفتي. طلبتُ منه الجلوس، ورحتُ طالبةً من الموظفات التجمع وسط الفسحة الكبيرة التي تتوسط مبنى المركز، ثم توجهتُ إلى غرفة السيد المدير بغرض إعلامه بجهوزية التقاط الصورة، لكنني تراجعت مؤجلة ما

كنت أروم فعله، ودخلتُ غرفتي القريبة لأطلب من المصور مرافقتي حيث غرفة السيد المدير... طرقتُ الباب وخلفي "فتّاح"، وحينما فَتحتُ الباب على إثر صوت السيد المدير وهو يسمح لي بالدخول، شاهدتُ الدكتور همام يجالس الدكتور طاهر. ابتسمتُ لهما وأخبرت السيد المدير بأن المصور يقف عند الباب حتى يأذن له بالدخول كي يتعرف عليه، وهمستُ بأذنه: "ربما يكون لديك بعض التحفظات..." فوافق، ودخل المصور ملقياً التحية، وما أن شاهده همام حتى انفرجت أساريره، فلم يكن "فتاح" شاباً، وتلك نقطة مهمة يحسب لها الدكتور همام ألف حساب، فالغيرة من الشباب على موظفات المركز كثيراً ما سببت لنا المشاكل... هزَّ رأسه موافقاً وأخبرني بأنه جاهز لإتمام "مقترحي المتعب" على حد تعبيره... عند ذاك اغتنمتُ الفرصة لأعلن رغبتي في التقاط صورة خاصة له ولضيفه ولي أيضاً... ودون أن أسمع موافقته، وبشيء من الوقاحة طلبتُ من المصور التقاط صورة تذكارية لنا الثلاثة... وقفتُ إلى جانب الدكتور همام وكفي اليمنى تداعب ظهره، بينما وقف الدكتور طاهر إلى يمينه، ليعلن المصور بعد دقيقة عن إتمام مهمته. خرجنا حيث المكان المتفق عليه لالتقاط الصورة... وقف الدكتور همام وسط الموظفات وكنتُ إلى جانبه الأيسر بينما وقفت المحاسبة "المحجبة الوحيدة" في المركز إلى يمينه، وأمامنا عدد من الموظفات في وضع الجلوس حيث جهزتُ لهن الكراسي المناسبة... ابتسمنا خمس مرات على عدد الصور الملتقطة واستجابةً لأوامر المصور المبتسم كي نساير ابتسامته...

وأنا أودع "فتّاح" عند الباب، ذكّرته باتفاقنا: "تذكر، نسختان من كل صورة تصل إلى مكتبي، وليس إلى أي مكان آخر..." اتسعت ابتسامته أكثر، وأنا أضع في يده المبلغ المتفق عليه...

بعد مجالستي القصيرة لوالدي "الصامت" إلا من ابتسامته، احتضنته وطبعتُ قبلة على خده، وأنا أعلن ضرورة دخولي غرفتي، قبّلتُ "نايات" وعمتي وليث الذي كان يقرأ الصفحة الرياضية في الجريدة الرسمية، متمنية لهم نوماً هانئًا وصباحً بهيجًا، دخلت غرفتي وأدرت مفتاحها داخل القفل، في الوقت الذي كانت فيه والدتي منشغلة داخل مطبخها تعدّ المازة لوالدي.

أدرت جهاز التسجيل لأعد التقرير الخاص بلقاء همام بالدكتور طاهر، وحين انتهيت من سماع ما ألتقطه الجهاز، عرفتُ أنّ للدكتور طاهر قريبًا متزوجًا من شقيقته، هاربًا مع زوجته خارج البلد، يعملان مع المعارضة. وأن الدكتور طاهر يخشى اكتشاف أمرهما، لذلك قرر السفر خارج البلد تفادياً لما هو آت. لذا كان يطلب من الدكتور همام مساعدته في السفر من خلال ترشيحه للاشتراك في أي مؤتمر أو نشاط يقام في دول الجوار...

صار جهاز التسجيل الصوتي دائم الاختفاء خلف صورة "بطل الحرب" في مكتب الدكتور همام، خصوصاً يومي الأربعاء والسبت... حسب الأوامر.

وأنا أروم الدخول إلى غرفة الرائد "بثينة" لمحتُ السيد سهيل عن بعد، فوقفت منتظرة حتى اقترب، أخذتُ له التحية العسكرية وسألته إن كانت لديه الرغبة في لقاء قريب... ابتسم ووعدني بالاتصال هاتفياً، ثم واصل طريقه صوب الشعبة القانونية... كنتُ قد التقيت بسهيل ثلاث مرات منذ تعييني بمركز البحوث والدراسات والوثائق، وفي المرة الأخيرة التقينا في مطعم خارج العاصمة، سألني أثناء ذلك اللقاء عن رغبتي في جني بعض المال إلى جانب وظيفتي، فأشرت برأسي بالإيجاب منتظرة المزيد من التوضيح، فقال: "هناك أشخاص يطلبون مني بعض الخدمات مقابل أموال، بل هناك أشخاص يتوسطون لدى أشخاص آخرين كي يصلوا لي

من أجل خدمات مهمة، وكما تعرفين، يصعب عليَّ استلام أي مبلغ من أي شخص نظراً لحساسية وظيفتي، وتحسباً من محاولات الإيقاع بي، لهذا ولأسباب أخرى رشحتكِ لتكوني من يستلم تلك الأموال...".

"كيف؟" قاطعته متسائلة، فأضاف:

"من خلال هاتف عملك في المركز، أقصد هاتف السكرتارية، يتصلون بكِ فتتفقين معهم على وقت ومكان محدد فيتم الاستلام..." أردت أن أقول شيئاً لكنه طلب مني التريث حتى يكمل كلامه، حيث قال: "من يتصل بك سيقول بأن لديه أمانة يريد توصيلها لوالدكِ، وكلمة أمانة تعني أنها لي، وحين يتم استلام المبلغ، عليكِ التأكد من قيمته أولاً، ثم تستقطعين خمسة بالمائة منه ليكون حصتكِ، والمبلغ المتبقي تسلمينه للأستاذ رياض وتخبرينه أن يضعه في حساب "فريحة ساهي"، تذكري الاسم جيداً...".

"خمسة بالمئة يا بخيل!؟" قلت له ممازحةً، فأطلق ضحكة بصوت مسموع وقال: "لتكن سبعة... حلال عليكِ".

"ومن تكون فريحة ساهي سعيدة الحظ؟". سألته فنظر صوبي باندهاش لا تنقصه الابتسامة وأخبرني بأن ذلك غير مهم في الوقت الحاضر...

عرفتُ فيما بعد أن "فريحة ساهي" هي زوجته الأولى، ابنة عمه وأم أولاده السبعة...

"أشعر أن سهيل، كثير البكاء، رغم أني لم أرَ عينيه دامعتَيْن قط."

طرقتُ باب غرفة الرائد "بثينة" ودخلتُ بغرض تسليمها الأوراق والتسجيل الصوتي، لأتفاجأ وأنا أؤدي التحية العسكرية بوجود النقيب باسل مبتسماً. اقتربتُ منه ودون تفكير مني احتضنته بشوق مما زاد ضحكات "بثينة" التي طلبتْ مني الجلوس قبالة باسل.

"الرائد باسل زوجي" قالت بثينة، لتصنع علامات الدهشة بأشد وضوحها على ملامحي، فتحججت عدم معرفتي بالترقية التي حصل عليها، وباركتُ له معلنة سعادتي لمعرفة أنهما زوجان، لأداري السبب الحقيقي وراء دهشتي.

خمس دقائق كانت كافية لكلمات المجاملة، خرج بعدها باسل مودعاً، لأكون تحت رحمة أوامر وتعليمات "بثينة" التي تسلمت مني الأوراق وقرص التسجيل، لكنني أخرت قليلاً تسليمها المظروف الذي صار يتأثر بعرق كفي وأنا أتمسك به، وحين سنحت الفرصة، ناولتها المظروف مبتسمة، فقابلتني بابتسامة لا ينقصها الفرح وهي تتمعن بالصورة التي أخرجَتْها منه، فقد كانت الصورة التي تجمعني بالدكتور همام وضيفه الدكتور طاهر أول صورة تراها...

"إنجاز رائع، إتمام المهمة بهذه السرعة والدقة، يحسب لكِ، أيتها الشجاعة..."

***

خلال الأشهر الثلاثة منذ بداية عملي في المركز، التقيت رياض ثلاث مرات في مكتبه داخل بناية المصرف، بسبب صرف راتبي، الذي يصلني من "المديرية الرابعة" والذي كان يحوّل إلى حسابي الشخصي مباشرة، وفي كل مرة يطلب مني زيارته في شقته التي أعرفها جيداً، وكنتُ أعده بكلمة "قريباً" وكان في كل مرة ينظر إليَّ مبتسماً ويقول: "أليس لكلمة "قريباً" موعدٌ محددٌ؟... أجد أن "قريباً" قد صار بعيداً جداً..." ضحكتُ وأنا أربتُ على كفه اليسرى بحنان صادق، وأخبرته بأن زيارتي لمكتبه هذه المرة، لسبب آخر...

الحقيقة، أنّ شخصًا لا أعرفه قد اتصل بي على هاتف المركز أثناء عملي، وأخبرني بأن لديه "أمانة تخص السيد الوالد" وتلك عبارة كنتُ متفقة

عليها أنا وسهيل بخصوص استلام المبالغ التي تخصه، فاتفقتُ معه على اللقاء أمام باب المصرف الذي يديره رياض... وبالفعل، أتى شاب في نهاية العشرينيات، سلمني مظروفًا بنيَّ اللون بعد أن تأكد من شخصي، وغادر...

دخلتُ المصرف، وتوجهت إلى مكتب السيد المدير الذي استقبلني بحرارة سرعان ما هيجت رائحة اشتياقه الماجنة، وصار يتوسل اللقاء في شقته...

أخبرته بأنني أحمل مبلغاً من المال، أروم إيداعه بحساب السيدة "فريحة ساهي" فوافق مبدياً سعادته لإتمام الأمر دون أن ينسى ضحكته التي تشي بمعرفته المسبقة بكيفية الحصول على المبلغ... أخرجتُ المبلغ من المظروف وسلمته إلى رياض طالبةً منه إدخاله ماكينة العد لنتأكد من مقداره، ثم طلبتُ منه استقطاع سبعة بالمائة منه كونها تخصني. حين ناولني حصتي ضاحكاً، قلت له وأنا أعيد المبلغ إلى كفّه: "أريدها دولارات". وضع سبابة كفه اليمنى على عينيه بالتناوب، وهو يقول: "من عينيَّ... لكن ليس هنا، تتسلمينه في شقتي..." ضحكتُ لكلماته، ومازحته متهمة إياه بـممارسة "الاستغلال الملعون" وأنا أستمتع برائحته اليابسة.

"الرجل أكثر وضوحاً من المرأة، على الأقل، تفضحهُ رائحته حين يُثار، ويفضحه ذلك التكوّر المنتعض أسفل البطن... لكن المرأة، سيدة الغموض، تكذب حتى في حقيقة مشاعرها، فلا انتعاض يفضحها، ولا الصدق مقروء في عينيها...".

عند المساء، وبعد مهاتفتي سهيل من أجل إخباره بمقدار المبلغ الذي تسلمته من الشاب، هاتفتُ رياض في شقته، يبدو أنه كان ثملاً، وذلك ما يفضح استمرار تشنج علاقته بزوجته. لم أطل الحديث معه. أخبرته بأنني سأزوره غداً عند الخامسة مساءً، فتهلل صوته، وسألني عن الأكلة المفضلة

كي يعدّها لي، فأخبرته ضاحكةً، بأن يطلب الكباب المشوي من مطعم "الرشاقة" القريب من بيته، فغرق بنوبة ضحك لم تنقطع إلا بإغلاقي الهاتف.

الحقيقة، اكتشفتُ وأنا أقف أمام مرآتي، بأن شوقًا يعتريني إلى رائحة ذكورة رياض اليابسة، ويبدو أن مضايقات الدكتور همام، ومحاولاته المستميتة، وسأمي من رائحة ذكورته التي تصلني بهجومها الشرس بشكل يومي، تقريباً، قد زادت من عطشي إلى تلك الرائحة، خصوصاً وأن رائحة سهيل "رائحة الحرب البعيدة" باتت بعيدة المنال منذ آخر اتفاق بيننا، وذلك ما دفعني إلى مهاتفة رياض لتحديد موعد اللقاء...

منذ اللحظة الأولى لدخولي شقته، عرفتُ أن شيئاً رائعاً قد تم إعداده. رائحة الورد المختلطة برائحة "الحطب اليابس" تسبح بفضاء الصالة، والشموع الموقدة المنتشرة في أغلب زوايا المكان، وتلك الموسيقى التي يعود زمنها إلى بداية القرن العشرين، المنبعثة من أسطوانة ممهورة بصورة كلب أبيض، والطاولة أمام الأريكة التي انتشر على سطحها الزجاجي العديد من الأطباق الصغيرة والكؤوس اللامعة بضوء شمعتين كبيرتين على طرفيها...

رياض الذي احتضنني حالما فتحَ لي الباب، وطبع قبلتين ساختنين على وجنتيّ، دون أن تنسى رائحته تسجيل حضورها الشفيف، تركني ودخل المطبخ ليعدَ الطعام الذي جلبه من المطعم، حسب طلبي، في أطباق تليق باللقاء على حدّ قوله، وما هي إلا بضع دقائق حتى دخل الصالة حاملاً طبقين كبيرين وهو يقول بشيء من الزهو: "كورساكوف، من خلال سمفونية "شهرزاد" يرحب بكِ بأبهى عملٍ له..." ابتسمتُ له وأخبرته بأنها الموسيقى المحببة إلى والدي، والتي سمعناها مرات عديدة، بعد أن يسرد والدي لنا قصة هذا الموسيقي العبقري...

"لنأكل! فما زال الطعام ساخناً.". قالها رياض بحركة مسرحية لا تنقصها الفكاهة، فتذكرت حينها شيئاً مهماً. طلبتُ على إثره السماح لي بإجراء مكالمة هاتفية مهمة.

اتصلتُ بهاتف بيتنا، وسمعت صوت "أم حياة" التي بمجرد سماعها صوتي حتى انبرت تسأل عني وعن سبب التأخّر في المجيء إلى البيت بعد انتهاء ساعات العمل، ودون مقدمات أو شروحات كثيرة، أخبرتها بأنني سأتأخر حتى المساء، كون إحدى زميلاتي في العمل تمر بظرف سيئ... وضعت سماعة الهاتف واتجهت صوب الأريكة الواسعة لأجلس إلى جانب رياض وأمام الطبق الذي خصصه لي.

بعد وجبة الكباب الشهي، وحين كان فنجان الشاي محمولاً بالسبابة والإبهام من كفي اليمنى، وكأس الويسكي بين أصابع رياض... التصق بي وقرَّب شفتيه من رقبتي، فمنحتهُ إياها بسعادة واضحة، وما أن طبع قبلته حتى طوَّق خصري بذراعيه، أنزلَ شفتيه بسخونة أنفاسه ليستقرا بين النهدين بكل رشاقتهما الندية... أخذ شهيقاً عميقاً ومدّ لسانه بين النهدين وكأنه يتذوق طعم جسدي بمتعة وخشوع...

شعرتُ في لحظة، أن رائحة ذكورة رياض اليابسة، جديرة بالثقة، فاستسلمتُ لها راضية بانتظار الطيران...

غبتُ عن الوعي مرتين، وفي كل مرة أفيق على صوتي: "ما أسعدني، يا للسعادة" لكن اللسان لم يكن يسمع، كان منشغلاً بحرث سرِّ المتعة... في لحظة، شعرتُ أن رغبتي وصلت حدّ الشبع، انتفضَ جسدي مبتعداً عن جسد رياض الذي كان غائباً وسط متعته...

توقفت موسيقى "شهرزاد"، وصمتَ "كورساكوف" ولم يبق من الصوت إلاّ خشخشة الإبرة على سطح الاسطوانة الأملس، ممتزجاً بصوت ذهول رياض الصامت كالتمثال...

لم يتغير شيء، أنا الآن، تماماً كما كنت قبل خمس ساعات، أو خمسة أيام، أو ... الشيء الوحيد الذي شعرتُ به وتذوقتُ مرارته داخل حلقي، ذلك الوهم الذي تربينا عليه وتلك القوانين المخيفة التي لم نكن نعرف لها أي مصدر مشرّع، وهي تصوّر لنا ما بين فخذي الفتاة، كفوهة بركان من شـأنه التهام عوائل بأكملها إن ثار دون مباركة...

***

لصمت والدي أسباب كثيرة، أهمها عدم مواصلتي الدراسة، ووظيفتي بعنوان سكرتيرة التي أضحت أمرًا واقعًا عليه التعايش معه... الإحباط سبب مقنع لصمت أجمل وأرقّ رجال الكون، فقد كان طموحه كبيراً بأن أحذو حذوه وأحصل على الدكتوراه في اختصاص محترم حسب رأيه، وذلك حلم قد تبدّد... ثم صار الواقع يحزه بألم، فقد سئمَ تبرم والدتي وشكواها المستمر من التصاق "غنوة" بـ "نايات"، صغيرتها التي تريد تربيتها على طريقتها وكما تحب، لكن عمتي وقفت عائقاً أمامها، حين تبنت تربية الصغيرة... ذلك، هو الحديث الليلي المتكرر لوالدتي حين تختلي بأبي الذي بات يكره الليل، وغرفة نومه، وذلك الحديث وتلك الشكوى المستمرة.

في مساء صيفي، كان أبي مسترخياً على كرسيه أمام حديقة الدار، ناظراً صوب شجرة الرمان التي طالما منحها عطفه واهتمامه... اشتكى فجأة من ألم في صدره، ثم راح يشكو من صعوبة التنفس... نظرتُ إلى وجهه فراعني شحوبه... هرعتُ على الفور إلى غرفتي كي أستبدل ملابسي، وحين عدتُ، سمعتُ صرخات والدتي معلنة غيابه عن الوعي. تماسكتُ وطلبت من والدتي مساعدتي في حمله إلى السيارة، وما أن صار داخلها حتى جلستُ خلف المقود وأدرت محركها، حين ذاك سمعت والدتي وهي تصرخ بي طالبةً ترك السيارة كي لا أتسبب في حادث كارثي... طلبتُ من ليث

الصعود إلى جانب والده والحرص على تدليك صدره بقوة، ففعل، وما أن تأكدتُ من ذلك حتى انطلقتُ بالسيارة صوب المستشفى... لقد نفعتني دروس السياقة في المعسكر التدريبي رغم خوفي وارتباكي، لكنها لم تكن سهلة وأنا أروم نقل أعز إنسان بأسرع وقت ممكن.

"ذبحة صدرية" قال الطبيب الخفر، وهو يحاول حقن الشريان في كف أبي، بدواء لا أعرفه... ثم أجبرنا على ترك الغرفة ليقوم الأطباء باللازم...

بعد مرور نصف ساعة من الانتظار المرير، فُتِحت بوابة الصالة وخرج الطبيب ليخبرنا بعودة الوعي لأبي، وأن حالته في طريقها إلى الاستقرار.

كنتُ قد قرأت الرعب في عينَيْ "ليث" المغرورقتين... كان طيلة فترة الانتظار يضغط على كفي وكأنه يريد التمسك بشيء ما يخشى خسارته، وبعد أن هدأت مخاوفي، احتضنتهُ ورحتُ أطمئنه ماسحةً على فروة شعره، فدخل بنوبة بكاء كان يردد خلالها كلمات خوفه من فقدان والده، وحين هدأ بعد أن كفكفتُ دموعهِ، أراد أن ينتقل بي إلى مزاج مختلف، همس في أذني: "قيادتك للسيارة أكثر من رائعة، أين تعلمتِ ذلك؟"... نظرتُ إلى عينيه وقبّلته وأنا أخبره بأنني أمتلك إجازة سوق منذ فترة ليست بالقصيرة، وأن والدي كثيراً ما شرح لي طريقة القيادة وأنا أجلس إلى جانبه حين قيادته للسيارة.

في صبيحة اليوم التالي خرج أبي من المستشفى، وكنتُ قبل خروجه بنصف ساعة تلفنتُ للدكتور همام لأخبره بما أنا عليه، فأتى لزيارة والدي ونحن نروم الخروج من البوابة، ألقى عليه التحية واستفسر عن حالته، فقال أبي دون أن تفارق الابتسامة شفتيه بأنه لا يعرف ما جرى، وعليه أن يسأل "حياة"، فهي من أنقذ حياته... منحني همام إجازة ليومين، رفضتها على الفور واكتفيت بيوم واحد، فبعد غد الأربعاء، وعليّ إعداد جهاز التسجيل خلف صورة القائد "بطل الحرب" قبل حضور همام إلى مكتبه.

وافق همام ضاحكاً وكأنه صار على يقين بأنني لا أطيق الابتعاد عنه، وأنني في شوق للقائه خلال فترة ما بعد انتهاء الدوام الرسمي...

حين وصلنا سيارتنا، شرعَ والدي بالجلوس خلف المقود، فنهرهُ ليث طالباً منه الجلوس في الحوض الخلفي، وهو يقول له: "أبا حياة العزيز، لقد منعكَ الطبيب من السياقة لأسبوع، فتفضل بالجلوس إلى جانبي، لأنني لا أثق بمهارتك في السياقة، "حياة" أفضل منكَ بكثير..." فغر والدي فاه مندهشاً من لهجة ولده الصغير الذي صار صبياً بعقل رجل يمكنه إصدار الأوامر، فضحك واحتضَنه ودخل معه حوض السيارة الخلفي، بينما أدرتُ محرك السيارة مودعةً الدكتور همام على أمل اللقاء بعد غد الأربعاء.

في الطريق سألني والدي عن سرّ تعلمي قيادة السيارة، فقلت له بكل فخر واعتزاز، أن تعليماته وشروحاته التي كان يسديها لي وأنا أجالسه أثناء قيادته السيارة منذ كنت صغيرة، كان لها الفضل الكبير في تعلمي، بالإضافة إلى أنني تعلمت القيادة مستغلة سيارة المركز الخاصة منذ تعييني حتى الآن، حتى قدمت إلى الامتحان وحصلت على إجازة السوق منذ شهر تقريباً. حينها شعرتُ بنبرة غبطة تخللت صوته وهو يشيد بقدراتي على التعلم، دون أن ينسى ذلك الأسف الذي يستوطن روحه، كوني لم أتم دراستي الثانوية...

***

"حين يخزني بنظرةٍ، تبعثرها ابتسامة خجولة بأسفها... أعرف إلى أي الخسارات أنتمي... نظرته الواخزة المتبعثرة... أداة انتقاد أخطائي".

(14)

بعد مرور عام على تعييني سكرتيرة للدكتور همام في "مركز البحوث والدراسات والوثائق" اتصلت بي الرائد "بثينة" على هاتف المركز، لتتفق معي على موعد صباح الغد أمام بناية المركز لتأخذني لمدة ساعتين إلى مكان مهم، وأمرتني بتقديم إجازة زمنية للسيد المدير الذي سيوافق حتماً، وقد شددتْ على ضرورة جلب الوثائق الرسمية الشخصية خاصتي...

في صباح اليوم التالي أخذتني "بثينة" إلى مديرية التربية العامة، وقد أخبرتني بنبرة آمرة أن أقدم أوراقي لدخول الامتحان الخارجي لنيل شهادة البكالوريا للفرع الأدبي، وحين أفصحتُ عن رغبتي في الدراسة العلمية، قالت بشيء من الانزعاج، لدينا الكثير من الضباط في الجامعات العلمية التي نادراً ما تسبب لنا القلق، لكن الجامعات والكليات الأدبية صارت بؤرة لتصدير الإزعاج والقلق لنا، لذا علينا السيطرة بأقصر وقت ممكن... استشفيت من كلام بثينة، أن عليَّ النجاح ودخول الدراسة الجامعية لأكون ضابطة أمن وطالبة في الوقت نفسه... الفكرة غمرتني بالسعادة ورحت أتصور قامتي مزدانة بالزي الجامعي وأنا أدور بين زميلات وزملاء جدد قد أجد فيهم من يعوضني حرماني من الصديقات والقريبات بفعل ما كانت تشيعه زوجة عمي "أم شفيق"، والأهم من ذلك، تحقيق رغبة أبي... لكنني، وفي انتباهة صغيرة، شعرت أن وظيفتي في مركز البحوث مهددة بالفقدان... نظرتُ صوب بثينة وهي تقود السيارة، فسألتها عما يدور بخاطري، فضحكت مشيرة إلى ضرورة طرح الأسئلة على العقل أولاً قبل طرحها على الغير، وحين أشرت إلى أن الجواب على سؤالي لم يصلني بعد،

زفرت سخونة رئتيها بتذمر مفتعل، وقالت: "الفروع الأدبية في الجامعة، لها أقسام للدراسة المسائية...".

تقدمتُ بطلب الموافقة على الامتحان الخارجي، وقدمت الأوراق المطلوبة، ودفعتُ المبلغ المطلوب لذلك عند محاسب المديرية واستلمت الكتب الخاصة بالمرحلة...

يبدو أن قراءة الأطاريح التي كنت أختارها لغرض المطالعة، وتلك التي قرأتها ضمن مجال وظيفتي، قد منحتني قدرة مضافة على استيعاب مواد ودروس السادس الثانوي بسهولة، بالإضافة إلى مساعدة والدي في تقديم الشروح والتفسيرات بفرح غامر، قد زودتني بشحنة هائلة ورغبة في مواصلة الدراسة والإصرار على التفوق... ستة أشهر كانت كافية لأكون على أتم الاستعداد لخوض تجربة الامتحان الذي صار يقترب بأيامه، وكان الدكتور همام الذي صار يتابع دراستي بتشجيع واضح قد قرر منحي إجازة لمدة شهر كامل قبل موعد الامتحانات حتى أتفرغ للدراسة، لكنني رفضت بشكل قاطع مما أثار استغرابه... اكتفيت بالغياب عن وظيفتي خلال الفترة الصباحية يوم تقديم الامتحان فقط.

ستة امتحانات بستة صباحات صيفية، لا يمكن نسيانها. أن أكون طالبة مرة أخرى، صورة مدهشة لحلم جميل عشته.

"تسعة وثمانون بالمئة، معدل الدرجات الامتحانية التي حصلتِ عليها" جملة قالتها "بثينة" بمكالمة هاتفية صباحية، جعلتني أرقص فرحاً. هرعتُ لغرفة الدكتور همام لأبشره، وما أن سمع الخبر حتى احتضنني، وهو يردد كلمات التهنئة أكثر من مرة، ثم طلب مني الدخول إلى غرفتي وعدم الخروج منها حتى يأذن لي... في تلك الأثناء، حسب ما عرفت فيما بعد. كلّفَ الدكتور همام مديرة الحسابات بشراء كعكة خاصة من محل المعجنات القريب. واتفق مع الموظفات لترتيب حفل مصغرًا، وبالفعل

حين أمرني بالخروج من غرفتي وهو يقودني ماسكاً يدي إلى الفسحة الواسعة "صالة الزائرين والانتظار"، وجدتُ تجمهر الموظفات تتوسطهم كعكة مزينة بجمال آسر احتفالاً بنيلي شهادة البكالوريا...

لم أستطع مهاتفة والدي لأخبره، كونه أثناء الدوام الرسمي لذا انتظرتُ حتى وصل البيت ليسمع زعرودة أمي التي فاجأته وهي تبشرهُ بمعدّل الدرجات التي حصلتْ عليها ابنته... احتضنني مبتهجاً وشكرني لأنني حققت له أمنيته "وإن جاءت ناقصة". كلمة توقفتُ عندها وسألته عن سببها، فأفصح عن أمنيته التي كانت تتصورني وقد نلت أعلى درجات الفرع العلمي لأدخل كلية الطب... أمنية لم يفصح عنها من قبل... وحين سألته عن الفرع الذي يفضل بعد أن أخذت الشهادة بفرعها الأدبي، قال دون تردد "القانون" فسألته إن كان يقصد كلية "الحقوق" فضحك وطبع قبلة على وجنتي، وقد فهم مزاحي قائلاً: "كنتُ أتمنى حين حصلتُ على البكالوريا، الانضمام إلى كلية "الحقوق" لكن كلية "الآداب" أخذتني... اليوم تبدل اسمها، وصارت كلية "القانون والعلوم السياسية" وستكون من نصيبك نظراً لدرجاتك الممتازة.

الغريب، أن الرائد "بثينة" حين زرتها في اليوم التالي في مكتبها، وبعد أن قدمتْ لي التهنئة، أخبرتني بأن كلية "القانون" المكان الأنسب لي، تذكرتُ رغبة والدي ووافقتُ على الفور...

كانت فرحة الدكتور همام غامرة حين عرف أنني اخترت الدراسة المسائية لفرع "القانون" وإني متمسكة بوظيفتي مهما تبدلت الظروف، متحججة بحاجتي الماسة إلى راتب الوظيفة – الحقيقة، نصف راتبي من مركز الدراسات كان يذهب إلى أم بشير عن طريق الأستاذ موسى الذي لم أقطع زياراتي له – كنتُ أعرف سبب فرحة همام وبهجته، فالدوام المسائي يعني أن هناك ثلاث ساعات فاصلة بين انتهاء الدوام في مركز البحوث

وبين الدوام في كلية "القانون" تلك الساعات الثلاث كانت أثمن هدية قدمتْها له الظروف الجديدة، كوني سأكون معه داخل بناية المركز. ذلك ما خطط له، وأضاف إلى ذلك استعداده لتوصيلي حيث باب الكلية يومياً، وحين أخبرته رغبتي بشراء سيارة خاصة لي، بغرض سهولة التنقل، عرض عليَّ إحدى سيارات المركز لتكون تحت تصرفي، وذلك ما حدث بالفعل، فقد تسلمتُ في اليوم التالي سيارة "الميتسيوبيشي" البيضاء عهدة بذمتي لضرورات الوظيفة، كما تم تدوينه في سجل المركز من قبل مديرة الحسابات.

***

السياقة المسائية ترهقني، صحيح أن شوارع العاصمة مضاءة، لكن ضمائر الكثير من الرجال حالكة الظلمة... عبارة صرتُ أرددها كل مساء تقريباً وأنا عائدة من الكليّة. كثرة المضايقات والكلام البذيء وصوت المنبه المستمر بسبب وبدون سبب، بالإضافة إلى الخوف من الحوادث المجانية، ومضايقة الحذاء أثناء القيادة، الذي اضطرني إلى الاحتفاظ بحذاء خفيف أستبدله بالحذاء "الرسمي"، ليسهّل عليَّ "الدعس" أثناء السياقة... كل هذا بات مبعثًا للإرهاق وشدّ الأعصاب...

"طالما شعرت، أن الأحذية النسائية، أحد القيود المؤلمة التي تعاني منها المرأة وتقيّد حريتها... الأحذية النسائية المؤلمة، صناعة رجالية رديئة."

لم أكن أتوقع أن الدراسة الجامعية المسائية بهذا البؤس، والخطأ يكمن داخل ذهني وليس ضمن الواقع، فقد كنتُ أتصورها تماماً كالدراسة الصباحية، كنتُ أتصورها مليئة بالضوء وليس كما عشتها على أرض الواقع بظلمته، عشرة زملاء أصغرهم في الثلاثين من عمره، وثلاث طالبات أنا أصغرهنَّ، والأستاذ بكرش متكاسل يلقي علينا محاضرة متثائبة، ذلك انطباع اليوم الأول، أما الأيام التي تلت، فقد كانت قاعة

المحاضرات لا تضم أكثر من خمسة طلاب في الغالب... أغلبهم متغيب بعذر مشروع نظراً لوظائفهم وحالاتهم العائلية... أي دراسة جامعية كنت أحلم بها، إنها كابوس بالفعل... ذلك ما تضمنه تقريري الأول عن الدراسة الذي قدمته للرائد "بثينة"...

ثلاثة أشهر مضت لم أغب يوماً واحداً، ولم أخلف محاضرة واحدة، وجلّ ما حصلت عليه، مجموعة من الأوراق تضم محاضرات وأسماء وعناوين كتب عليَّ مراجعتها وإعداد دراسة حول مضامينها... كل ذلك، بالإضافة إلى التقرير اليومي الذي أعده عن الكلية والأساتذة وكل تحرك. والأكثر إرهاقاً كان التفسيرات والرأي الخاص والتقييم الشخصي الذي عليَّ تضمينه التقرير...

***

صباح السبت، وقبل حضور الدكتور همام تلقيت تعليمات من قبل "بثينة" بضرورة التسجيل الصوتي في غرفة المدير، رغم أن الدكتور طاهر سيتغيب عن اللقاء على غير عادته... قمت بإعداد الجهاز خلف صورة "قائد الحرب"... لم يحضر الدكتور طاهر حتى فترة الغداء، لكن، وبمجرد انتهائنا من تناول طعامنا ودخولنا مكاتبنا، حتى شاهدتُ الدكتور همام ماثلاً أمامي. رغم أنه لاحظ ابتسامتي، لكنه ظل متمسكاً بتجهمه، أغلقَ باب غرفتي ودنا مني "موشوشاً" في أذني: "سأخرج الآن، ولن أحضر غداً، عليكِ إتمام ما مطلوب منكِ بالدقة المعهودة، وإن سأل عني أحد، أخبريه بأنني في الوزارة..." ثم التقط شحمة أذني بشفتيه لثوان، وقال: "سأسافر الليلة إلى بلد مجاور لمدة ثلاثة أيام فقط، وحين أعود الأربعاء القادم أجد كل شيء كالمعتاد..." ثم طبع قبلة على شفتي، ولم تنس أصابعه زيارة الجزء "المقدس" من صدري بلمسة خاطفة، وحين جفلتُ، ضحكَ مبتعداً وهو يرفع سبابة كفه اليمنى قائلاً بصوت بالكاد

يُسمع: "لا أحد يعرف غيركِ" هززتُ رأسي متفقةً، ولم أنس ابتسامتي المحببة عنده، كما ألمح لي لأكثر من مرة.

بعد أن تأكدتُ من مغادرة "همام" بناية المركز، هاتفتُ "بثينة" لأخبرها بما سمعت، كان الأمر ضرورياً ومستعجلاً... شكرتني بدورها، وطلبتْ مني توصيل التسجيل الصوتي لها على وجه السرعة... اتفقتُ معها على أن تمرَّ إلى كلية القانون لتتسلم مني كل ما طلبته...

عند السابعة مساءً، جاءت "بثينة" مرتديةً الزيّ الجامعي بكل أناقة، يتبعها عطر "الشانيل" الذي يميزها... الغريب أن لا عطر يميز غرفة "بثينة" إلاّ رائحة القرفة، تلك الرائحة التي سرعان ما تختفي حال خروجها من غرفتها، ليفوح منها "شانيلها" المميز الذي يأخذك على الفور إلى تمعّن جمال رقبتها بلونها الحنطي الساحر...

في المقصف، جلستْ لصقي. وضعتْ حقيبتها المفتوحة على الطاولة بيني وبينها وبدأت تتحدث كأنها زميلة لي، ورغم أنها أخبرتني بضيق الوقت، إلا أنها طلبت مني اختصار فحوى التسجيل الصوتي... فأخبرتها بما هو مهم... كانت مكالمة تلفونية تشير بشكل غير مباشر إلى السفر مع الشخص المتحدث وزوجته، وبكل تأكيد كان المتحدث الدكتور طاهر، بعد أن تأكدتُ من أرقام المكالمات...

بحركة خفيفة وسريعة، وضعتُ المظروف داخل حقيبة "بثينة" التي سرعان ما تناولتها دون أن تغلقها، ووقفتْ لتودعني بابتسامةٍ سريعة...

"أن تكون مرتاح الضمير، ذلك لا يعني أنكَ ملاك... ربما تكون إحدى سَكَراتِ إدمان النذالة!"

حتى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، كان كل شيء هادئًا، إلاّ دواخلي، كنتُ أترقب مكالمة هاتفية مهمة... استلمت أطروحة دكتوراه واحدة، وقابلتُ أحد رؤساء الأقسام الجامعية الذي جاء يسأل عن

الدكتور همام، دونتُ طلبه وما أوصاني بتوصيله إلى السيد المدير العام. وأسئلة كثيرة كنتُ أجيب عليها بعبارة واحدة: "لديه اجتماع في الوزارة، ولا أدري متى يعود...".

قبل الساعة الثانية عشرة بقليل، رنّ هاتف مكتبي، وما أن رفعتُ السمّاعة حتى سمعتُ صوت سهيل متهللاً: "طالت غيبتك يا أبيض علينا..." ضحكتُ بصوتٍ مسموع، وأخبرته أن الأغنية التي استعار مقطعها تقول "طالت غيبتك يا أسمر علينا...". فضحك هو الآخر وأخبرني متفكهاً أن المهم فيها، هناك غيبة قد طالت...

"أنتَ الغائب، ولستُ أنا..." قلتُ له ذلك فقال بجدية: "سنلتقي قريباً"، ثم أخبرني بأن هناك من سيتصل بي بغرض الأمانة. وافقتُ وأبديت استعدادي التام لاستلامها وإيداعها البنك كما في المرات العديدة والمتكررة التي حدثت سابقاً، وقبل أن أنهي جملتي قاطعني متسائلاً: "كيف هي علاقتكِ بالأستاذ رياض، أما تزال رائقة؟". فهمتُ ما غمزَ إليه وقلتُ بجدية واضحة: "الأستاذ رياض رجل محترم وجدير بالثقة..." سمعتُ ضحكته المجلجلة على الجهة الأخرى، وأوصاني مودعاً بأن أهتم برياض فما زلنا بحاجة ماسة إليه، عبارة صادمة هزت كياني كدتُ أقسم بأن سهيل يعرف بكل لقاءاتي برياض وبكل تفاصيلها، لكن رنين الهاتف مرة أخرى أخرجني من تلك الدوامة...

"مرحباً صديقتي الشجاعة...". كان صوت بثينة لا ينقصه الفرح، وذلك ما كنتُ أنتظره. مكالمة تنهي قلقي... وما أن رددتُ التحية حتى أخبرتني بخصوصية "الشفرة" التي بيننا، بأن همام وصديقه الدكتور طاهر وزوجته رهن الاعتقال والتحقيق، والتهمة محاولة تهريب شخص خارج عن القانون، ثم طلبتْ مني العمل على أن يكون كل شيء في المركز

طبيعياً وأن أرصد كل سؤال يحاول الإشارة إلى اعتقال همام، فقد يتسرب الخبر في أي لحظة...

خمسة أيام مرت على غياب الدكتور همام، كانت أصعب فترة أمر بها طيلة عملي في مركز البحوث، لدرجة أني رفضت لقاء سهيل وتغيبت مرتين عن محاضرات الكلية. لكني لم أخلف موعدي مع رياض الذي صرتُ مدمنة رائحته اليابسة التي أفصحت عن كيان بشري بغاية التهذيب والرقة التي لا ينقصها الشعور برجولة متحضرة.

في اليوم السادس، وصل الدكتور "خلوق الناشي" بناية المركز، وكنتُ على البوابة بانتظاره. ألقى عليَّ التحية مصافحاً، ثم طلب مني اللحاق به حيث غرفة السيد المدير العام التي يعرفها جيداً، والتي طالما اجتمع تحت سقفها بالدكتور همام...

كنتُ قد تلقيت بعض المعلومات عن الدكتور "خلوق" في اليوم السابق من خلال مكالمة هاتفية مع "بثينة"، وكنتُ على معرفة ببعض تلك المعلومات من قبل، لكن المعلومة المهمة التي وصلتني، كانت صادمة، حيث تشير إلى أنه غير متزوج ويكره النساء، لدرجة أنه كثيراً ما كان يطرد إحدى الطالبات من قاعة المحاضرة لمجرد حركة أو ابتسامة عفوية، وأكثر الدرجات المتدنية كانت من نصيب الطالبات.

كان ذلك واضحاً من نظراته وتعامله الجاف معي، فقد منحني منذ اليوم الأول لوصوله إجازة مفتوحة، طالباً مني تسليم السيارة وإخلاء ذمتي عند مديرة الحسابات.

الغريب أنني شممت منه رائحة أنثوية ذكَّرتني بـ "سميّة" زوجة شفيق ابن عمي الذي دخل كلية العلوم "قسم الفيزياء" متمتعاً بقانون "معوقي الحرب" بعد أن اجتاز امتحان البكالوريا العلمي بجدارة.

تم تعيين شاب في الخامسة والعشرين من عمره "رفيقٍ لي في المديرية الرابعة" بدرجة سكرتير للدكتور "خلوق الناشي" مدير عام مركز البحوث والدراسات والوثائق حسب رغبته الملحة في تعيين سكرتير، بدلاً من أنثى... فتمَّ له ذلك، دون أن تفقد خلفية صورة "بطل الحرب" أهميتها...

***

الإجازة المفتوحة التي منحني إياها الدكتور "خلوق" والتي كانت بمثابة الإيقاف عن العمل بطريقة مهذبة، فتحت أمامي أبوابًا جديدة تجدر بي تقديم الشكر إليه... حيث منحني الوقت لشراء سيارة فولكسواكن "برازيلي" بيضاء تحت إشراف ومشورة سهيل الذي صارت لقاءاتي به شبه رسمية وحسب الحاجة، وتم خلال الفترة نفسها، تحويل دراستي الجامعية إلى القسم الصباحي، وتخلصت من ضغط العمل والدراسة والشد العصبي الذي كان يرهقني جداً، بالإضافة إلى أن راتبي من الوظيفة في مركز البحوث، ظلّ مستمراً، فلم أقطع معونة عائلة بشير، ولن أقطعها حتى وإن توقف الراتب... ثم إنني حظيت بالمزيد من الوقت للقراءة، وتكررت زياراتي إلى العم موسى الذي كان يغدق عليّ بكرمه، ويختار لي أهم الروايات والأكثر متعة وتشويقاً، حسب رأيه الذي طالما نال ثقتي وإعجابي...

للدراسة الجامعية الصباحية طعمها الخاص، يكفي أن الصباح عنوانٌ لها، وتلك القمصان البيضاء الناصعة التي ترفرف خافقةً عطرها، معلنةً عن قدسية الجامعة وألفة طلابها وهم ينتشرون بين ورود وشجيرات حدائقها... في الدراسة المسائية لا حضور للورود، والحدائق عتمة خافتة...

كنت على معرفة برئيس قسم "القانون الجنائي" الدكتور "نزار"، من خلال زياراته المتكررة لمركز البحوث، ومنذ اليوم الأول عمدتُ إلى زيارته، كانت زيارة مفاجأة. وقفَ مرحباً بابتسامة سمحت لغمازتية تسجيل حضورهما المحبب... خمس دقائق كانت كافية لأودعهُ بعد أن سكبَ كلماتٍ رقيقة على مسامعي: "مكتبي مفتوح لكِ على الدوام، شريطة أن تظهري اجتهادك وحرصكِ على الدراسة والمتابعة..."

أربعون طالبة وطالبًا كان عدد طلاب الفصل. الذكور يشكلون النسبة الغالبة، وتشكل الإناث مسحة الجمال الذي يجعل الصباحات أكثر فرحاً، على حدّ تعبير الدكتور نزار الذي صرتُ ألتقيه عند "الضرورة"، والذي صار هو من يحدد "الضرورة" غالباً، فيرسل بطلبي، من خلال قصاصة ورقية يبعثها مع ساعي مكتبه...

لأول مرة أشعر أن لي صديقات، أجالسهنّ وأسمع بعض أسرارهن، نضحك كثيراً، ونبكي أحياناً، كنتُ أكبرهنَّ بعامين... أربع صديقات مقرّبات، كانت "سَحَر" المخلوق الضئيل والصغير، بعينيها الخضراوين ورقة روحها وقوامها، الأكثر قرباً إلى روحي... صحيح أنني كنتُ أشعر ببعض السطحية وتدني المستوى الثقافي لدى بعضهن، لكن ذلك لم يشكل عائقاً، كانت الصحبة والحميمية هي الأهم، وكانت "ميسلون" السمراء بشعرها المجعّد الفاحم الطويل، وكتفيها النحيلين، والتي لم أعرفها حزينة أبداً، المنجم الحقيقي للضحك، فما من مخلوق يمر أمامها إلا وصنعتْ له مشهداً كوميدياً يدخلنا بموجة ضحك تستمر طويلاً... لكن "سحر" كانت الأكثر ثقافة، كانت قارئة رائعة مطلعة على العديد من زوايا الحياة خصوصاً الاجتماعية منها، كانت تؤمن أن الثقافة والموسوعية أهم ما يميز المختص بالقانون، ودونهما، يكون الفشل حليفه.

الأحلام والحب وزوج المستقبل، كان الحديث الأكثر تشوقاً بيننا... أعترف بأنني أقع أحياناً في قلق وإرباك، بسبب قلة خبرتي بصداقة الفتيات، صحيح كانت لي صداقات وقت الدراسة، وأثناء المعسكر التدريبي مع فتيات لا أسمع منهنَّ إلى أحاديث عامة ونكات وتفكهات متداولة ومعروفة، فقد كانت السرية وعدم التحدث بالخصوصيات من أشد التعليمات التي تلقيناها والتزمنا بها، وصحيح أيضاً أنني عملت مع العديد من الموظفات في مركز البحوث والدراسات، لكن علاقتي بهنّ كانت سطحية ولا تتعدى مجال العمل. وأعترف، أنهنّ كنّ يتحاشينني، لقربي من المدير العام... لكنني لم أخض تجربة الصديقة الحقة مع فتاة وأنا في سن النضج... فتاة ناضجة في العشرين من عمرها، يمكنها الحديث عن كل شيء، شريطة أن يكون الحب وزوج المستقبل من أولوياتها. ذلك قانون الصداقات الأنثوية في مجتمعي، حتى إنني بتُّ أرى فيمن عرفتهنَّ، شبهًا رهيبًا بأمي... التركيبة الشخصية لأغلبهنّ، كانت تتماهى مع شخصية أمي "الساذجة الشاكة في كل شيء" والخائفة على الدوام...

بعد فترة ليست بالطويلة زادت قناعتي برقي وأهمية العلاقة مع الرجل، صداقة الرجال تمنح الفتاة هالة من الاحترام والاسترخاء، هناك نوع من "الدلال" لا تحصل عليه الفتاة إلاّ مع صديقها الرجل... أشعر وأنا أتلمس اهتمام شفيق ابن عمي أو ماجد قبل اكتشاف لعبته "القذرة"، أو سهيل أو رياض، وكذلك حب بشير لي أو حتى اهتمام ونظرات باسل، بأنني أميرة تمتلك كرامتها بعنفوان، ومكانة ذات خصوصية مدهشة... لكنني أيقنتُ أيضاً بعد أن تعمقت علاقتي بزميلات الدراسة، أن لا غنى عن الصديقات، فلديهنّ مفاتيح الجانب الآخر من العالم، عالم الأحلام المنبثقة من هالة الضعف وصراع التخلص من هيمنة الرجل وإثبات الذات، رغم أني لم أفكر إطلاقاً بإثبات ذاتي، فقد كنتُ أمتلكها بثقة عالية جداً...

تمسكتُ بعلاقات الصداقة مع زميلاتي، وصرت أردد عن إيمان وقناعة، مقولة "سحر" التي طالما ردّدتها على مسامعي بوضوح:

"من الخطأ اختيار الصديقة على أساس الثقافة، الصديقة مصدر متعة فقط..."

ذهلتُ حين تلمستُ تأثير الحرب على الفتيات، فقد عرفتُ وللمرة الأولى، كيف تفكر الفتاة بالرجل العسكري، كيف تحب الضبّاط، تتغزل بهيبتهم، ومركزهم. وانتبهتُ أيضاً، إلى أن ضبّاط الجيش يرتدون أبهى بزة عسكرية لديهم وقت الإجازة "مكويّة بمبالغة فاضحة" ليخرج إلى الشارع والمتنزهات، وكأنه يتباهى ويفتخر أمام الفتيات ببطولته، وموته المؤجل. والمعلومة الأكثر إيلاماً، إن الضابط في ذهن الفتاة مشروع شهيد مؤكد، وذلك يعني غنى الفتاة إن كانت زوجة أو خطيبة، فحقوق الشهيد التي أعرفها جيداً كوني تسلمت حقوق ظافر ابن عمتي "غنوة" من شأنها رفع الفتاة من الفقر إلى مرحلة مستريحة، تكون فيها محط أنظار العزّاب...

لم يمضِ الوقت طويلاً، حتى وضعتْ كل فتاة فارس أحلامها نصب عينيها، ممرات الكلية وكراسي المقصف والمكتبة وقاعات المحاضرات تزدحم بالفرسان، وكنتُ أكاد أكون الوحيدة دون فارس، حتى ظهر "حسّان" بشكل مفاجئ... كنتُ أجالس سحر وميسلون داخل مقصف الكلية حين وقف شابٌّ طويل رشيق القوام أسمر السحنة بشاربين مهذبين بعناية، فاحم الشعر تنسدل غرته على جبهته دون عفوية... ألقى التحية على عجل ثم راح يحدث ميسلون بصوتٍ مرتبكٍ عن أمرٍ لم أفهمه، بسبب قهقهات ميسلون التي طلبت منه الجلوس إلى جانبها "قبالتي تماماً" وبمجرد جلوسه، راحتْ تعرّفه بي وبسحر، ثم أوضحت أن حسّان أحد طلبة المرحلة الثالثة في قسم القانون الجنائي... رحبنا به ثم التفتتْ سحر

صوبي لتحدثني بموضوع استحدَثَتْهُ للتو هرباً من إرباك اللحظة المفاجِئة...

حاولت ميسلون إشراكنا حديثها وحسّان، فدخلنا اللعبة تحت تأثير الحياء، عندها صار الشاب يوجه لنا أسئلة عامة عن الدراسة وتأقلمنا مع جو الكلية كوننا جددًا. كنتُ أنظر إلى عينيه مبتسمة، وأنا أجيب باقتضاب، ثم راح يتحدث عن نفسه، فعرفتُ أنه دخل الكلية منذ خمس سنوات، وعمد على الرسوب في المرحلتين الأولى والثانية هرباً من التخرج المبكّر الذي سيسوقه إلى الخدمة العسكرية حيث ماكينة الحرب التي تصهر كل شيء... في تلك الأثناء لمحتُ ساعي الدكتور نزار بعيداً وهو يلوّح لي أن أتبعه، فوقفتُ معتذرةً من الجميع وغادرت المقصف متوجهةً صوب مكتب رئيس القسم... بمجرد دخولي الغرفة وصلتني رائحة "قشرة الرمّان الطازج" التي أعرفها جيداً وهي تضوع من ذكورة نزار... رغم أنه افتعل الزعل وأظهر حنقه، إلا أن ابتسامته سجلت حضورها رغماً عنه...

"لماذا أبعث بطلبكِ ثلاث مرات وترفضين المجيء؟"

"لأنكَ تماديت في لقائنا الأخير!!" تجمد وجهه مندهشاً، وحاول قول بعض كلمات لكنه لم يفلح، فقد عاجلته بجملة أضفَتْ عليه بعض الاسترخاء: "لنكن أصدقاء، أنا بحاجة إلى صديق بقامتكَ وفكركَ وخبرتك..." تحوّلت ابتسامته إلى ضحكة مسموعة وهو يمد لي كفه اليمنى مصافحاً: "اتفقنا أيتها الجميلة، لنكن أصدقاء..." ثم أشار لي نحو الكرسي المجاور فجلست. حينها نظر عميقاً في عينيَّ وقال: "أنا من يحتاج صديقة بثقافتكِ وذهنكِ المتقد..." ثم ضغط على زر الجرس ليدخل الساعي ويطلب منه فنجاني شاي ودورق ماء، وما أن أغلق الساعي الباب، حتى أضاف: "أحتاج مساعدتكِ..." ثم أطلق ضحكة وقال مشدداً: "كصديقة...".

رسمتُ ابتسامة صادقة وأبديت بعض الاسترخاء المرح فانحرفت الأجواء نحو الحميمية: "أنت تأمر دكتور... سعادتي كبيرة إن كنت أستطيع المساعدة..." الموضوع يتعلق بالدكتور "خلوق الناشي" هناك طلب على مكتبه، كان قد رفضه مرتين، وهذه المرة الثالثة التي نتمنى أن يوافق عليه كونها المرة الأخيرة..." مد كفه الماسكة بقصاصة ورق مدون عليها بيانات الطلب، وبمجرد ما وقع نظري على ما مدون عليها، ابتسمتُ شارحةً له صعوبة التعامل مع الدكتور خلوق، لكنني أبديت استعدادي للمساعدة بأقصى ما أستطيع...

***

ما أن نظرتُ إلى وجه "بثينة" المبتسم وأنا أجالسها تحت سقف مكتبها حتى شعرت بفرح غامر داخلها، كانت بمزاج رائق لدرجة أنها أسمعتني "آخر نكتة" ضحكت لها كثيراً، ليس للنكتة، بل للمجون "وقلة الأدب" التي تضمنتها، فقد أضحكني الخجل، وتوردت وجنتاي كما أخبرتني وهي غارقة بضحكتها... كانت تلك المرة الأولى التي أسمع من بثينة كلمات مختلفة عمّا تعودتُ عليه.

حين منحتني الفرصة في التحدث، وكنتُ أعرف أن لقاءنا محدد بساعة واحدة لا أكثر، ناولتها الورقة التي تسلمتها من الدكتور نزار قائلةً: "هناك طلب على مكتب الدكتور "خلوق" كان قد رفضه مرتين، أتمنى أن يحاول سكرتيره إقناعه بالموافقة..." هزت "بثينة" رأسها وكأنها تقول "لماذا" فأضفت بشيء من التفصيل: "الدكتور نزار شخصياً قد طلب مني المساعدة في هذا الموضوع كوني السكرتيرة السابقة لمكتب المدير، وكما تعرفين، فإن "نزار" رئيس قسمنا في الكلية، وبيده مفاتيح كثيرة يمكننا استخدامها في أي وقت، وإن كسبتُ ودّه، فذلك سيسهل مهمتي التي من أجلها أتواجد في الكلية...".

"ممتاز، لكِ هذا... كلامكِ مقنع ودقيق..." قاطعتني بثينة وهي تدون بعض كلمات على ظهر الورقة ثم رفعت رأسها، وسألت:

"ماذا بشأن حسّان؟" لم يصدمني السؤال، فقد كانت تقاريري اليومية تتضمن أدق التفاصيل، ومنها محاولات حسّان في التقرب مني، فقلت على الفور: "أكرر ما سمعته من حضرتك قبل مدة... تواجدي في الكلية هو عملي الرسمي الذي عليَّ احترام كل تعليماته وقوانينه... لا حب، لا علاقات أو منافع شخصية...".

"ممتاز... وهل ما زال يحاول؟".

"كلا... لقد أفهمته أنني لم أخلق للحب، وهناك ابن عم أحبه وسأتزوجه حال تخرجي..." سحبت "بثينة" نفساً عميقاً، وقالت بشيء من السرور: "أريد أن أفضي لكِ سراً...". فتحتُ عينيّ وذهني لأستقبل السرّ، فقالت: "منذ أن بدأتِ العمل تحت إمرتي، تمنيت أن أمسك لكِ خطأً واحداً، لكنني للأسف لم أفلح حتى الساعة، لذا أتمنى أن لا تمنحيني هذه الفرصة..." ضحكتُ مسرورة وقابلتني بضحكة أجمل، فسألتها عن سرّ الفرح والتألق الروحي الذي تلمسته داخلها، وأضفتُ باقتضاب: "هل هناك ما يجعلني أشاركِ الفرح؟". فقالت بأنها حصلت على ترقية ستستلمها رسمياً شهر "تموز" القادم، فقمتُ واحتضنتها مهنِّئةً بفرح غامر، فدخلت بنوبة ضحك قالت أثناءَها: "ولكِ مثلها يا بطلة...". "لم أفهم"، قلتُ لها فأشارت إلى أنها رشحتني لترقية مستحقة سأستلمها أيضاً في "تموز" القادم... غمرني الفرح واحتضنتها مرة أخرى، فقالت: "ستكون مهمتكِ أصعب، وسيكون من هو تحت إمرتكِ...".

وأنا لها، سيدتي" قلتُ كلمتي الأخيرة وأنا أؤدي لها التحية العسكرية، فقالت إنّ هناك أمرًا في غاية الأهمية، فجلستُ وكلّي آذان صاغية.

"الأمر يتعلق بسحر زميلتك وخمسة آخرين، ثلاث طالبات وطالبين... وكما تعرفين فإنّ "سحر" تسكن الأقسام الداخلية الخاصة بالكلية، وهي قادمة من شمال البلاد، وقد وصلتنا معلومات وتعليمات خاصة بها وبالآخرين، تأمرنا بضرورة المراقبة واستحصال بعض المعلومات التي تفيدنا، وهذا ملف مدون فيه أغلب النقاط المطلوبة... ثم رفعتْ سبابة كفها اليمنى، وقالت محذرة: "عوائل هؤلاء، لهم صلات بمجاميع معارضة تسكن الجبال...".

***

لم تمض أيام ثلاثة، على لقائي الدوري بـ "بثينة" حتى جاءني ساعي الدكتور نزار يخبرني بضرورة زيارة مكتب السيد رئيس القسم. يبدو أن بعض الطلبة قد لاحظوا اقتراب الساعي مني والحديث معي عدة مرات، فحفز الفضول لديهم، وراحت أفكارهم تدور حول علاقة خاصة ربما تكون قرابة أو نوع آخر من العلاقات المجانية التي تحدث أحياناً بين طالبة وأستاذها، هي تلك التي بيني وبين الدكتور رئيس القسم، فالساعي كان معروفاً كونه يخص مكتب رئيس القسم فقط... ذلك ما وضحته لي شقيقة الروح "سحر" وبحضور ميسلون المشاكسة التي عرفتُ من خلالها الكثير من المعلومات المهمة عن الطلبة الخمسة التي تضمنت أسماؤهم ملف "بثينة"، لكن سحر قدمت لي أهم وأدق المعلومات بعد أن استدرجتها بطرق وأسئلة غير مباشرة، مستندةً على المعلومات التي قدمتها لي ميسلون.

بمجرد دخولي مكتب الدكتور نزار حتى وقف فارداً ذراعيه، متهلّلاً فرحاً وهو يطلق كلمات الشكر والامتنان: "وافق الدكتور خلوق على طلبنا... كم أنتِ عظيمة يا حياة، حبيبة القلب...".

"انتبه دكتور! يا حياة، صديقتي العزيزة، وليست حبيبة القلب، فهناك غيركَ من هو جدير بها..." قاطعته بكلماتي تلك والفرح يغمرني، فوافق على كلماتي وأوضح حاسداً من يحظى بقلبي وحبي، وتمنى أن يقابله ليعرف سرَّ تعلقي به... فقلت بسريرتي: "ليتني أعرفه أنا أيضاً.". ثم أعربتُ عن سعادتي لأنني استطعت أن أقدم له خدمة تفرحه، فقابلني بفيض من الشكر مبدياً استعداده لتقديم أي خدمة أطلبها... أوضحتُ له بأنني لست بحاجة إلى مساعدة، في الوقت الحالي على أقل تقدير، ولكن حالما أكون بحاجتها سأُقبِل على مكتبه بكل ثقة... نظر صوبي صامتاً بشكل مفاجئ، ثم لوى رقبته كطفلٍ مذنب وقال بصوتٍ منخفض لا ينقصه الحنين: "ماذا لو طلبتُ قبول دعوتي على العشاء في المطعم الإيطالي؟".

"شكراً لكرمك دكتور، أعدكَ بأنني سأفكر بالأمر، وأرد لكَ الجواب بوقت قريب...".

***

الأموال التي تخص سهيل، تتدفق عليَّ بشكل مكثّف.. لا يمر أسبوع إلا ويتصل بي أحدهم ليخبرني أن هناك "أمانة يجب توصيلها لوالدي"، كلمة السر التي تعني أنها تخص السيد اللواء، وبقدر ما كان ذلك يفرحني، كوني سأحظى بنسبة مجزية تتحول بشكل تلقائي إلى دولارات أستلمها في شقة رياض التي باتت كبيتي تماماً، كنت أتمنى لو أعرف ما نوع الخدمة التي يقدمها سهيل لهؤلاء، صحيح أني أستطيع تخمين تلك الخدمات بشكل عام، لكني كنتُ أروم الدقة في معرفتها، خصوصاً وأنّ اللقاء بسهيل صار صعباً كوني أصبحتُ من المحرمات حسب قانون وظيفته... كان يتصل بي على هاتف المنزل، لأخبره بمقدار المبلغ المستلم ويخبرني هو الآخر بما يستجد... أمس استلمت مبلغاً كبيراً من أحد الشخصيات المؤثرة، تسلمته من يد أحد أبنائه، وكان والده يحتل الحوض الخلفي لسيارة

المارسيدس الفارهة، نظر صوبي وحياني بإيماءة من رأسه فرددتُ عليه التحية، كان ولده يوزع نظراته بيني وبين أبيه حين كان يسلمني المبلغ، وما أن شرعتُ بمغادرته، حتى طلب مني التريث. اتجه صوب السيارة وانحنى قليلاً ليستمع كلمات والده، وبعد ثوانٍ معدودات، عاد وسلمني كارتًا صغيرًا، أخبرني بأنه الكارت الشخصي الخاص بوالده الشيخ، الذي يتمنى أن أتصل به إذا كنتُ بحاجة إلى مساعدة، شكرته، وحييتُ الشيخ بإشارة من كفي اليمنى، ثم أقفيتُ مودعةً...

حين أنهى رياض عدّ المبلغ واقتطاع نسبتي منه، طلب مني اللقاء في شقته بعد ظهر يوم غد، فوافقتُ شريطة أن يكون الأكل من صنع يديه وليس من مطعم "الرشاقة" المجاور، فقال: "حضري معدتكِ لاستقبال البيض المقلي بجدارة...". فضحكتُ قائلةً: "عندها سأقتلكَ خنقاً... بقبلاتٍ ساخنات...".

في مساء اليوم التالي، وبعد أن خرجتُ من الكلية، زرت رياض في شقته، كان مرتدياً بيجامته البيضاء بخطوطها الزرقاء الرفيعة التي اشتريتها له هدية لعيد ميلاده قبل ستة أشهر... كانت موسيقى "السمفونية الثالثة" لبيتهوفن، صادحةً، وكأنها تدعوني للدخول مرحبة، وما أن تبادلنا القبلات ودخلت، حتى قابلتني مائدة عامرة بـ "الفلافل" والباذنجان "المخلل" وصحن كبير يحتوي على الفول مغطى بزيت الزيتون، وآخر صغير يحتوي على حبات زيتون أسود... ضحكتُ كثيراً وأنا أنظر إلى المائدة، وحين قرأتُ دهشته جرّاء ضحكاتي، صحتُ بصوتٍ منخفض: "ألا تخجل من الشعب المصري يا رجل؟!... السمفونية الثالثة لبيتهوفن، الذي أراد أن يهديها إلى نابليون بونابارت مُحتل مصر، وبحضور محتفل بالفول والطعمية!! عاشت مصر حرة أبية." فأطلق ضحكة عارمة دعته إلى السعال المتواصل، ثم قال: "لكن بيتهوفن عدل عن قراره ولم يهدها إلى بونابارت..." ثم أضاف متسائلاً وهو يمسح دموع ضحكاته ووجهه

بمنديل ورقي... "ألم تخبريني بأنكِ مغرمة بالفول والطعمية المصرية؟... لقد جلبتها لكِ من أهم مطعم مصري في العاصمة...".

كأس النبيذ كان لذيذاً جداً وهو يختلط بنكهة الفلافل والفول، وكان كافياً ليشعرني بالانتشاء، فما أن انتهينا من تناول الطعام حتى ارتميتُ بأحضان رياض طالبة التحليق بعد مرارة يوم متعب...

حين خرجتُ من الحمام، مرتدية "البرنص" الأبيض قابلني رياض بجملته المعهودة: "أهل البيضاء ملائكة روحي السقيمة حباً". ارتميتُ عليه وعضضت وجنته اليمنى بدلال فائض.

سألني إن كنتُ راغبة بكأس نبيذ آخر فوافقتُ شريطة أن يسمعني سمفونية "الطائر المحترق" ليس لأنني أعشقها، بل أعشق ترجماته لحركاتها ومقاطعها. وما أن قرعنا كأسينا واحتسينا القليل على نغمات موسيقى سترافينسكي، حتى سألته عما كان يحيرني: "كيف تستطيع تصريف الدنانير إلى دولارات، دون كتاب رسمي.". فقد كنتُ أعرف أن القانون لا يسمح بالتصريف إلاّ بتصريح، فضحك وقال موضحاً أن هناك العديد من التجّار الذي يعملون في مجال الاستيراد والتصدير لهم تصريح دائم بالتصريف، وحين يأتي أحدهم بغرض التصريف، ويحدد المبلغ، أطلب منه أن يضيف عليه ما أريد تصريفه، فيكون المبلغ الكلي قد تحوّل على ذمة تصريح التاجر، وهذا مقابل خدمات أخرى بيننا... فهمتُ اللعبة ببساطة، رغم أنها ليست بالبسيطة... وما أن أعلنتُ عن نيتي في المغادرة حتى طلب مني التريث لأمر هام... جلستُ قبالته بعد أن استبدلتُ ملابسي، وأبديت استعدادي لسماعه، أخبرني بكلمات مرتبكة لا ينقصها التلعثم بأن العلاقة بينه وبين زوجته قد عادت إلى طبيعتها والمشكلة التي كانت بينهما قد تم حلّها بتدخل بعض الأصدقاء والأقارب منذ أسبوع تقريباً، وحين سألته عن عدم تواجدها في بيتها، وكنتُ أشير إلى الشقة التي

نحن داخلها، ضحكَ وأوضح أنها شقته الخاصة وأن زوجته لا تعرف عنها أي شيء. وقفتُ واحتضنتُه وأنا أطبع على وجنتيه القبلات مهنئة بعودة حياته الزوجية إلى سابق عهدها وحلّ مشكلته مع زوجته، وكنتُ صادقة بكل ما قلته... عند الباب منحته شفتي وخرجتُ مستمتعة بلذة انتشاء خاصة...

"عذرية الفتاة كنزها الوحيد.". عبارة ردَّدتْها أمي على مسامعي كثيراً، وكنتُ قرأتها في مكانٍ ما لا أتذكره... تذكرتها فأثارت ضحكي وأنا في طريقي إلى البيت... تمسكتُ بالمقود وصرخت بفرح:

"نعم يا أمي، ما زلتُ محتفظة بكنزي الوحيد..."

***

ونحن نخوض الامتحانات النهائية لسنتنا الدراسية الأولى، طلبتْ مني سحر الموافقة على زيارتها بضعة أيام عند أهلها شمال البلاد، وأوضحتْ أنّ والدتها ترغب في التعرف عليَّ لكثرة ما سمعت عني. أجبتها ضاحكة بأن الأمر يتعلق بعدة موافقات، أولها موافقة أبي وأمي، وأخرى موافقتكِ على زيارتي قبل السفر إلى الشمال الساحر، فوافقت وهي تطوق خصري بذراعها اليسرى.

حين فاتحتُ "بثينة" في اليوم نفسه بموضوع دعوة "سحر" لزيارة عائلتها، انفرجت أساريرها وارتفع حاجباها وكأنها التقطت حلاً لما كان يشغلها، وأفصحت عن موافقتها مبدئياً، بل وجدتها خطوة مهمة من شأنها اختصار الطريق لمعرفة المزيد، لكنها طلبتْ مني التريث لساعات، حتى تستشير رؤساءَها، وترتب بعض التدبيرات، ولم أنسَ أن أطلب موافقتها على زيارة "سحر" لبيتنا قبل ذلك.

"من النظرة الأولى، أحببتُ هذه البنت، دخلت قلبي دون استئذان." قالت والدتي ذلك وهي تهمسني حين صرتُ إلى جانبها أمام موقد الغاز وهي تعد غداء العائلة الخاص بيوم الجمعة... كانت "سحر" داخل صالة البيت تجالس عمتي "غنوة" التي كانت تلاعب "نايات" كعادتها، و"ليث" منشغل بقراءة أخبار الرياضة رافعاً الجريدة أعلى وجهه وجسده منسدحٌ على الأريكة، وحين عدتُ إلى الصالة حاملة صينية زجاجية عليها دورق العصير وبضعة أقداح، سألني "ليث" إن كنتُ أعرف أين تقع البرتغال، فقلت: "في البستان إلى جنب شجرة الرمان..." أطلق الجميع ضحكاته، لكن علامات الامتعاض بدأت بالظهور على ملامح أخي الصغير، وقبل أن يقول شيئاً، أجابته "سحر" الجواب الصحيح: "في أقصى الغرب من قارة أوربا، وتحدها دولة واحدة فقط، هي إسبانيا من الشرق والشمال، أما حدودها الغربية والجنوبية، تجدها مستسلمة لمياه المحيط الأطلسي...". وقفَ ليث ناظراً صوبي بغضب مسرحي وقال: "هكذا تكون الإجابات التي تحترم الناس ولا تستخف بعقولهم..." صفقنا لهُ ضاحكين، فارتسمت الابتسامة على وجهه وهو يعود إلى وضعه السابق لتحتضن الأريكة الصغيرة جسده الذي صار يطول بسرعة لافتة.

"أجدكَ تقرأ الجريدة، هل نسيت أن امتحانات السادس الابتدائي باتت قريبة؟" سألته بغرض الإغاظة لا أكثر، فأجاب دون أن يتحرك: "عمتي غنوة حشت كل المواد في عقلي، ولم يعد هناك أي فراغ..." ثم وقف مرة أخرى ووضع كفيه على خصريه وأضاف بجدية: "ثم هل تتصورين بأنني كنت ألعب طيلة السنة؟... كنتُ أدرس أيضاً..." صفقنا له مرة أخرى ليعود إلى وضعه السابق "مستظلاً" بالجريدة، لكنه سرعان ما التفتَ بشكل خاطف صوب "نايات" التي صارت هي الأخرى تصفق. ضحكَ ضحكة عميقة ثم أدار وجهه صوب الجريدة وقال كلمة

واحدة: "سخيفة". فدخلنا بنوبة ضحك كادت تدوم طويلاً لولا صوت أمي المنادي طلباً لحضور "ليث" إلى مطبخها.

اجتمعنا على مائدة الغداء بحضور أبي الحبيب الذي صار يحادث "سحر" بأريحية واسترخاء تترجمه ابتسامته التي لم تغب عن ملامحه طيلة الجلسة. صار يسألها أسئلة عامة وكانت تجيب باقتضاب، حتى تحول إلى السؤال عن عائلتها وإنْ كان هناك أقارب لها في العاصمة، ففهمنا من ردودها بأن لا أحد من أقاربها أو معارفها في العاصمة، فقال لها أبي بحنيّته المعهودة: "هذا بيتك ونحن كلنا عائلتك، فلا تستوحشي أبداً...".

***

الامتحان الأخير لم يكن صعباً، لكن الصعوبة كانت بإقناع "ميسلون" بعد خروجنا من القاعة الامتحانية، بأن لا مكان لها في سفرتنا إلى شمال البلاد صباح الغد، كانت مصرة على مرافقتنا الرحلة، حتى أضحى إصرارها مزعجاً، مما جعلني أنزوي بها وأفهمها بأن عائلة "سحر" فقيرة، وليس هناك متسع لضيفتين، وقد يسبب ذلك إحراجًا كبيرًا لسحر وعائلتها، فاقتنعت دون قناعة منها بالأسباب، لكن المهم استطعنا الإفلات من إلحاحها... أخذتُ سحر بسيارتي إلى بيتنا بعد أن جَلبتْ حقيبتها من "بيت الطالبات"... في الطريق أخبرتها بأنني سأوصلها غاية باب بيتنا، وأواصل طريقي حيث بيت أحد الأقارب لأستعير منه بعض اللوازم الضرورية للسفرة، فوافقت مجبرة...

كانت بثينة بانتظاري، تضع حقيبة جلدية سوداء على طاولة مكتبها، تحتوي على كلّ ما هو مطلوب لغرض الاستفادة من سفرتي بأكبر قدر ممكن... آلة تصوير، ودزينتي أفلام سعة "36"، وآلة تسجيل إلكترونية صغيرة بالإضافة إلى مبلغ مالي جيد لم أكن بحاجة إليه. حرصتُ على إعادته عند العودة...

الصباح، عنوان للفرح دائماً. نسائم الصباح الصيفية لها وقع خاص في النفس، ذلك ما شعرتُ واعترفتُ به لـ "سحر" حين كنا جالستين على المقعدين الأماميَّين للباص السياحي المتوجه شمالاً. لم تدم النسائم الصباحية طويلاً، كون بلدي قد أدمن السخونة. بلد الحرب، ساخن في كل شيء.

الأحاديث والضحكات وأسرار البنات، وقصص الأقرباء والأصدقاء والمعارف، كانت التسلية الأفضل لحرق الوقت... صحيح أنني عمدتُ على استغلال الفرصة لأعرف معلومات أكثر عن سحر وعائلتها وطبيعة عيشهم ومنطقة سكناهم، لكنني لم أحظ خلال الرحلة إلا بالقليل، حيث مالت سحر في أحاديثها صوب عالم الفتيات والنساء، ووجدتها قاسية تصب جام غضبها على بنات جلدتها... بدأت حديثها عن سطحية بعض الزميلات في الجامعة وهوسهنّ بالمظاهر، ثم انتهت برأي عام عن المرأة لا تنقصه القسوة:

"كثيراً ما كنت أجد المرأة في بلدنا، مخلوقاً كاريكاتيرياً. تحزن دون مناسبة، وتفرح دون مناسبة، وتتشاجر دون مناسبة، وفي خضم الفرح تبكي بمرارة وتتحجج بتسميتها دموع فرح. الغريب أن أغلب البدينات، يرتدين الملابس الضيقة فتظهر مصائب الله على جسدها، تقعرات، تكورات، تقاسيم على مقام البشاعة. نصف رواتب الموظفات أو أكثر يذهب على الأصباغ، أقصد المكياجات والموضة ومظاهر دون قيمة... صحيح أن عينَي الإنسان جزء من جسده، والجزء لا يستطيع رؤية الكل، ولكن هناك "المرآة" الصديقة الحميمة للمرأة، والتي يجب أن ترشدها إلى قباحة ما هو قبيح أو غير مقبول في شكلها أو ملبسها، لكنها لا ترى إلاّ ما تحب أن تراه ويقنعها حسب وجهة نظرها وتركيبة عقلها..." كنتُ أصغي لها وأحاول

معرفة الدوافع وراء وجهة نظرها تلك، لكنني لم أجد غير عسر الحال الذي تعانيه سبباً له، وحين أردتُ أن أقول رأيي، لم تمنحني الفرصة، قالت:

"أعتقد أن أكثر من يسيء إلى المرأة... المرأة نفسها.".

قدمتُ لها علبة عصير، في محاولة مني لتغيير دفة الحديث، وسألتها عن عدد بيوت القرية التي تسكنها...

سبع ساعات كانت كافية، مع محطة توقف واحدة في الطريق للتزود بالماء والذهاب إلى الحمام، حتى نصل إلى المحافظة الشمالية حيث الجبال والأشجار والوديان المرعبة... كان المرآب مزدحماً بشكلٍ لافت، لكن سحر سرعان ما أخذتني خارجاً وهي تحذرني من أعينٍ وتحركات الجنود الملتحقين إلى وحداتهم أو المغادرين إلى مناطقهم في إجازة قصيرة: "تحرشات الجنود وحشية ولا تنقصها قلة الأدب والكلمات البذيئة..." قالت ذلك، وهي تشير إلى بوابة المرآب الرئيسة... من هناك أخذنا سيارة تاكسي لنصل بعد ساعة تقريباً إلى قرية ساحرة الجمال، لكنها موحشة ببيوتها الحجرية المتناثرة وماعزها المشاكس رغم جماله ورقته...

بيت حجري واطئ السقف، كأنه انبثق من رحم الأرض للتو، كان ذلك بيت عائلة "سحر" بسطحه المغطى بمختلف الأغصان وجذوع الأشجار اليابسة، أكوام تعلن عن استعدادها لتكون ناراً مجيدة للتنور والموقد...

صالة كبيرة مفروشة بالعديد من السجاد، يدوي الصنع، ووسائد وأفرشة توحي بمضافة دائمة الاستعداد لاستقبال الضيوف، ظننتها البيت كله، لكن فتحاتٍ ثلاثًا توزعت على الجدار المقابل لباب الصالة، تفصح عن ثلاث غرف كبيرة في الداخل... ذلك بيت العائلة، بيت دون حمام أو مطبخ أو مرحاض، فتلك التوابع المنزلية كانت خارج البيت، ولا تبعد كثيراً...

والدة سحر وأختاها، ووالدها الطويل النحيل، الذي تميزه تجاعيد وجهه التي عجزت عن إخفاء ابتسامته الدائمة. بملابسهم الغريبة والجميلة، منحوني شعور السائح ابن المدينة الذي جاء لزيارة عالم قروي منبثق من زمن غابر لا يُعرف عنه شيء... كلمات الترحيب، والابتسامات والضحكات والأحضان والقبلات، كانت مراسيم الساعة الأولى التي افتُتحت بذبح تيس رائع الجمال والحيوية، ليكون طعامنا بعد رحلة متعبة دامت ساعات...

كانت كاميرتي معلقة برقبتي، وكنتُ بين برهة وأخرى ألتقط بعض الصور، وكنت حريصة لأرشفة الأشخاص، حتى مائدة الطعام بخبزها الساخن ولبنها "المدخّن" اللذيذ أخذت حصتها من التصوير... لم تفتني لقطة منذ جلوسي داخل التاكسي حتى خلودي للنوم، إلاّ ووثقتها...

حين قابلتُ والد سحر، عرفتُ أنها قد أخذت صغر جسدها وقصرها عن والدتها، ولم تأخذ من أبيها إلاّ عينيه ساحرتي الخضرة. رجلٌ طيب قوي، دائم التدخين... سيجارته مثبتة بمشرب خشبي رفيع، منقوش بنصل سكين...

لم تزعجني لغتهم التي لا أعرفها، بل كنتُ أستمتع بترجمات "سحر" المقتضبة، وتأكدت أن والدها يعرف العربية، لكنه مصرّ على أن لا يستخدمها لسبب أجهله. تأكدتُ من ذلك، كونه لا ينتظر ترجمة "سحر" لما أقول، بل كان يجيب بسرعة ودراية الفاهم لما سمع...

كنتُ أضغط على زر التسجيل الخاص بجهاز التسجيل الإلكتروني الرابض في جيبي عند الضرورة، خصوصاً حين يتكلمون فيما بينهم...

عند الصباح جلسنا على الأرض متحلقين حول طبق كبير مصنوع من أغصان الأشجار الناعمة يستخدم كصينية توضع عليها الأطباق، وآخر شبيهه ولكن أصغر حجماً احتوى على العديد من الأرغفة الرقيقة الساخنة.

كانت الأطباق الصغيرة داخل طبق الأغصان النباتية الجافة تحتوي على الزبدة واللبن الرائب حلو المذاق، والحليب الساخن والعسل وقد غاب البيض عن المائدة طيلة تواجدي هناك... بعد الفطار أخذتني "سحر" في جولة للحقول المجاورة وأول ما شد انتباهي إليه بناء من الطين والحجر تبين حالما اقتربنا منه، أنه زريبة الحيوانات تضم عددًا من الماعز، وقنًّا كبيرًا للدجاج أخبرتني "سحر" بأنه يضم العديد من الدجاجات الراقدات بحنان على بيضهنَّ "إنه موسم التحضين"...

حين عدنا إلى البيت الحجري، بعد قرابة ساعتين من التنزه، وقبل أن تشتد حرارة الشمس "حسب تعبير سحر"، وجدنا اللبن "الشَّنين" حاضراً، شربنا حتى ارتوينا، وجلسنا نتبادل الحديث حول سفرنا إلى العاصمة بعد ثلاثة أيام بغرض استلام النتائج، وكانت أم "سحر" من أدخلتنا بالحديث حين اقترحت على ابنتها عدم السفر وتكليفي باستلام النتيجة، وستقوم "سحر" بالاتصال هاتفياً حين تزور بيت خالتها في أحد أحياء المحافظة... مقترح مشاكس سيغير بعض التفاصيل من خطة الزيارة، فحاولت الاعتراض بحجة صعوبة العودة إلى العاصمة بمفردي، ورغم ذلك فقد شعرتُ ببعض الرضا الذي أبدته "سحر" على مقترح والدتها... ثم تحدثتا لغتهما طويلاً بصوت هامسٍ لم أفهم منه شيئاً سوى قول سحر في نهاية الحديث، بأن من الأفضل تأجيل مناقشة المقترح حتى وقت آخر...

على دكة طينية أمام باب الدار كنتُ أجالس "سحر"، أحدثها عن "حسّان" زميلنا الذي أبعدتهُ عن طريقي بأسلوب مهذب، وكنتُ قد أطلقتُ لموهبة الكذب العنان، وصرتُ أحدثها عن رغبتي وإعجابي به، ثم اختلقتُ بعض الأحلام والقصص بخصوصه. كل ذلك، كان بهدف التمهيد لإقناعها بالعودة معي إلى العاصمة وعدم الرضوخ لمقترح والدتها. وقبل أن أدخل صلب الموضوع، شاهدنا من بعيد ثلاثة رجال يتوجهون

صوبنا، ودون أن أقول شيئاً جهزتُ كاميرتي، وصرتُ ألتقط الصور دون تقريبها من عيني وكأنني أعبث بها... حذرتني سحر من التقاط الصور للقادمين، فهي لا تعرفهم وقد يكونون خطرين، فوافقتها كاذبة واستمريت بالعبث بالكاميرا، حتى تأكدتُ من التقاط صورة عند اقترابهم. ضغطتُ على زر التسجيل ورفعتُ رأسي مبتسمة بوجه القادمين لألاحظ ثلاث بنادق كلاشينكوف تتدلى من أكتافهم الثلاث...

وقفتْ "سحر" مرحبةً بهم، وبقيتُ على جلستي مكتفية بإيماءة من رأسي علامة التحية... دخلتْ صديقتي إلى البيت وهي تقول بعض كلمات، بينما وقف الرجال ناظرين صوبي بشيء من الغرابة دون أن تفارق أشداقهم الابتسامة. توحدت نظراتهم على الكاميرا بريبة واضحة وكأنهم ينظرون إلى وحش كاسر. اثنان منهم في سن الأربعين، وأطولهم كان في نهاية العشرينيات حسب ظني... خرجتْ صديقتي داعيةً الرجال إلى الدخول دون أن ينقطع سيل كلماتها غير المفهومة، وبمجرد دخولهم، دخلتُ أتبع خطاهم...

جلسوا إلى الزاوية القصية، حيث المكان المعتاد لوالد سحر الذي سرعان ما انشغل في صنع لفافات التبغ لضيوفه... دسوا بنادقهم بين ظهورهم والجدار، وكأنهم اعتادوا على تلك الحركة... جلستُ قبالتهم مانحة ظهري للجدار المقابل لحدقاتهم سريعة الحركة، همس أحدهم بعض كلمات بأذن والد سحر، فأجابه هو الآخر بهمس ونظراته تمسح وجهي بطمأنينة، وما هي إلاّ لحظات حتى نادى والد سحر على ابنته التي كانت في إحدى الغرف لغرض ما، وحين حضرتْ قال لها بعض كلمات، فابتسمت وهي تحوّل نظرها صوبي لتخبرني أن الضيوف يصرون على عدم التصوير، وبخلافه سيغادرون المكان ومعهم الكاميرا، فوافقتُ على الفور وقمتُ متوجهةً إلى داخل الغرفة برفقة "سحر" كي أخبئ الكاميرا. هناك سألت "سحر" عن قصة الضيوف الثلاثة، فقالت بجملة مقتضبة بأنهم أصدقاء

والدها، اعتادوا زيارته بين فترة وأخرى. وحين حاولتُ طرح سؤال آخر، أوقفتني عن الكلام مشيرة إلى أن الليل طويل وكريم في منح الوقت للحديث. طبعتُ قبلة على وجنتها، وخرجت من الغرفة لأجلس حيث مكاني السابق وإلى جانبي "سحر" التي أخبرت الضيوف بأن الأكل سيكون جاهزاً بعد قليل. ترجمتْ لي جملتها وهي تعلن عن بداية جوعٍ ورغبة في تناول وجبة الغداء: "ستتناولين أشهى مرقة فاصولية مع البرغلِ في هذه الدنيا، أمي أفضل من يطبخ هذه الأكلة...".

كان أصغرهم يتفحصني بعمق، شعرتُ بنظراته تخترق جسدي، فابتسمتُ له وأنا أمنحه نظرات الغواية التي أجيدها بشكل متكرر، فتغير لون وجهه، وصارت حركاته سريعة بارتباك، وصار يبتسم حتى بانت لي أسنان ناصعة البياض بشكل مبالغ فيه، تذكرتُ "ماجد" وكلية طب الأسنان وتلك الأنامل التي كانت تداعب شفتيّ تحت وطأة التهيج والرغبة، وبشكل مفاجئ وصلتني رائحة ذكورية تقترب من رائحة الخيل... وما أن حوّلت نظراتي صوب أصابع كفيَّ حيث حجري، بخجلٍ كاذب، حتى سمعتُ كلمات بصوتٍ مرتعش قليلاً، أجبرتني على النظر صوب شفتي الشاب وهو يسألني:

"هل صحيح أنكِ من سكنة العاصمة؟" أربكني سؤاله، فلم أتوقع منه استخدام اللغة العربية... هززتُ رأسي موافقة ونظراتي متسمرة وسط عينيه، فسألني عن المنطقة التي أسكن. اتسعت ابتسامتي، وسألته إن كان يعرف العاصمة جيداً، فنفى ذلك موضحاً أنه سمع عن مناطقها الكثير وراح يعدد لي أسماء بعض المناطق... كانت لهجته جنوبية صرفة، فتيقنتُ أنه أحد المقاتلين المنضوين تحت أحد ألوية المعارضة المسلحة للسلطة... قلت ممازحةً: "لم تزر العاصمة وتعرف كل هذه المناطق؟ يا رجل أنتَ تعرف العاصمة أفضل من أمينها أو المحافظ حتى..." ضحكَ الجميع فتيقنت أن جميعهم يجيد العربية... حاولتُ تغيير دفة الحديث فسألته عن

سر بياض أسنانه، فأشار إلى أهمية "الفحم الممزوج بالملح" حيث أشار إلى أنه اعتادَ دعك أسنانه بذلك المزيج كل صباح، ثم مازحني هو الآخر قائلاً: "لقد كشفتُ لكِ أحد أهم أسراري، فهل تتكرمين وتقولين لنا سراً يخصكِ. ضحكتُ وقلت بأنني أمتلك الشجاعة لأفصح عن سِر اللحظة. انتبه الجميع، فقلت عند ذاك: "عندي رغبة عظيمة بالتقاط صورة تذكارية معكَ، أتمنى أن تسمح لي بذلك...". ارتبك الشاب أكثر وصار يتفحص زملاءَه، إلا أنه تدارك الأمر ووعدني بذلك بعد الانتهاء من تناول الغداء فشكرته. لكزتُ "سحر" علامة الفرح، فتلبستها حالة من الاندهاش، وكأنها لم تصدق ما أقدمتُ عليه، فقلت لها هامسةً، بأن ملابسه الشمالية قد أعجبتني، وليست شخصيته من أثارت إعجابي، فدخلنا بنوبة ضحك، بينما دخل الرجال الأربعة بحديث خاص فيما بينهم معتمدين على لغتهم الخاصة التي لا أفقه منها شيئاً...

طلبَ الشاب، حين انتهينا من تناول طعامنا، الانزواء خارجاً بسحر، فقامتْ وخرجت معهُ. كنتُ أراقب والدها عسى أن أتلمس ردة فعل قد تترجم لي شيئاً ما... كان ساكناً وغير مكترث، وذلك يشير إلى أن الشاب، ربما، قد اتفق مع والد سحر مسبقاً وحصل على الموافقة بالانفراد بابنته خارجاً... كان الرجل يحتسي شايه ويدخن لفافته باسترخاء وهدوء، وبقي على حالته تلك وهو يحادث الرجلين إلى جانبه، بل، حتى حين عادت "سحر" من الخارج، لم ينظر إليها أو تسجل نظراته أي تساؤل يُذكر... انتبهتُ إلى ورقة مطوية كانت تقبض عليها بكفها اليمنى وهي تدخل مباشرة إلى الغرفة المجاورة، وحين عادت، طلبت مني جلب كاميرتي واللحاق بها خارجاً حيث ينتظرنا الشاب...

وضعتُ الكاميرا بين يدي "سحر" بعد أن شرحتُ لها بعض الحركات البسيطة، ثم ابتعدتُ عنها طالبةً منها أخذ أكثر من صورة، وبمجرد وقوفي إلى جانبه، طلبتُ منه أن يكون طبيعياً، فسألته عن اسمه، قال "نشوان"، قلتُ اسم جميل يدل على الكأس والسهر والتألق، فضحك، وقال: "يظل نشوان جزءاً من الحياة." ثم نظر إلى عينيّ وأضاف: "يا حياة.". ضحكنا بعمق بينما "سحر" منشغلة بالتقاط الصور، حتى أعلنتْ عن إتمام مهمتها، فأخذتُ الكاميرا من بين يديها، وطلبتُ منها أن تقنع الجميع بالتقاط صورة جماعية، ثم التفتُ إلى "نشوان" قائلة: "هل يمكنك إقناع رفيقيك لينضموا إلى الجماعة ونلتقط صورة جماعية؟". اتسعت عيناه وسألني باندهاش لا ينقصه الشك: "هل قلتِ رفيقيك؟... ماذا تعنين بكلمة الرفيق؟" ضحكتُ وافتعلت الممازحة قائلةً: "رفاق الرحلة أو نزهة الصيد، فقد أفهمتني "سحر" بأنكم في رحلة صيد، لذلك اصطحبتم بنادقكم معكم.". أبدى الشاب بعض الاسترخاء وهو ينظر إلى "سحر" بإعجاب وكأن هناك سرًّا قد موهتْ عنه...

التقطنا عدة صور جماعية، قبل أن يغادر الرجال الثلاثة، وبمجرد مغادرتهم، أعلنت لي "سحر" عن قرارها بمرافقتي طريق العودة إلى العاصمة واستلام نتيجتها الامتحانية، كان قرارها مفاجئاً، فقد تلمست عدم رغبتها ليلة أمس، وها هي الآن تعلن رغبتها السفر بكل قناعة، ترى هل للورقة التي لاحظتها داخل قبضتها علاقة بقرارها المفاجئ؟

أربعة أيام قضيتها مع عائلة "سحر"، كانت أيام سعادة لا يمكن وصفها إلا بأنها حالة استثنائية من الفرح المتواصل. حزمنا حاجياتنا واستعدينا للمغادرة وقد حمّلتني "أم سحر" العديد من الهدايا والأمتعة، أهمها الزي النسائي الشمالي الذي ألبستني إياه ليلة البارحة، والذي وجدتُ نفسي فيه عروساً شمالية في يوم زفافها...

صحيح أن انتظار التاكسي قد طال قليلاً، لكن وصوله قد منحنا الراحة... جلستُ وسحر في الحوض الخلفي بعد أن وضعنا أمتعتنا في حقيبة السيارة الخلفية، وكنتُ قد علّقت كاميرتي برقبتي، وصرتُ أصور بعض المناظر على الطريق... قبل أن نصل مركز المحافظة بعشرة كيلومترات، أوقفتنا سيطرة مؤقتة، مكونة من ثلاثة أشخاص يرتدون الزي الشمالي، وشخص آخر يجلس خلف مقود السيارة التي يقفون قربها، ما أن توقف السائق حتى طلبوا منا الترجل والابتعاد عن السيارة، وقبل أن أخطو مبتعدة عن السيارة، صاح بي أحدهم أن أترك الكاميرا داخل السيارة ففعلت... سحبتُ نفسي و"سحر" قرابة الخمسين متراً بعيداً عن السيارة وكان سائقنا يتبعنا، ثم وقفنا ننظر إلى ما يفعله الرجلان داخلها، بينما وقف الثالث منتصباً وهو يوجه فوّهة بندقيته نحونا.. وبعد قرابة العشر دقائق، نادى أحدهم على السائق أن يقترب، وما أن صار قربهم، حتى طلبوا منه قيادة السيارة إلى الأمام وأخذ الفتاتين ومواصلة الرحلة، وأن لا يلتفتُ أو يعود إلى الوراء، وإلا ستكون الرصاصة نصيب رأسه.

حين وصلنا مركز المحافظة، حيث موقف الباصات المتوجهة صوب العاصمة، تفحصنا أغراضنا جيداً، فاكتشفتُ اختفاء حقيبة أغراضي التي تسلمتها من "بثينة" بالإضافة إلى الكاميرا، وهذا يعني أنني سأدخل مكتب "بثينة" خالية اليدين، ضحكتُ للفكرة، فقد كنتُ على دراية بموضوع السيطرة وأخذ الأغراض التابعة لدائرتي الخاصة... جلستُ باكية أمام "سحر" مفصحة عن أن أكثر ما يبكيني هو الأغراض التي استلفتها من أحد أقاربي، وحين سألتها فيما إذا اختفت بعض أغراضها، فقالت ووجهها أسير الشحوب، بأن هناك مظرفًا ورقيًّا يحتوي على مبلغ مالي قد تمت سرقته، طمأنتها بأنني سأعوضها المبلغ المالي: "أبسط الخسائر، تلك التي نعوضها بالمال." لكنها بقيت قلقة شاحبة الوجه لا تعرف ما تفعله، حتى إنها فكرت بالعودة إلى أهلها وتأجيل سفرتها، لكنها عدلت

عن رأيها حين فكرتْ بإجراء مكالمة هاتفية من أحد التلفونات العمومية الخاصة بمرآب الحافلات، فتوجهنا إلى هناك... كان جهاز التسجيل الإلكتروني ما يزال في جيبي، فوقفتُ إلى جانبها وضغطتُ زر التشغيل... تحدثتْ بلغتها منفعلة، توردت وجنتاها واعرورق جبينها بينما اصفرت شفتاها وزادت رعشة أصابعها... لم أفهم أي كلمة مما قالته، لكني كنتُ طيلة الوقت أربت على كتفها وأمسح على شعرها علها تهدأ...

وصلنا البيت، بعد ما اقترحتُ على سحر أن تكون في بيتي تلك الليلة. لم تتناول "المنهكة القلقة" أي شيء، اكتفتْ بكأس ماء ونامت بعمق... صرتُ أتأملها وهي نائمة، لاحظتُ أن جسدها أضأل من جسد أخي "ليث" ذي الاثنَي عشرَ عاماً... هل سيأخذ أخي الصغير قامة جدي الفارعة، بعد أن أخذ لون عينيه وبشرته؟

***

"نجحنا، لكن معدلي الامتحاني أدنى بكثير من معدلكِ يا غشّاشة!" قلتُ لسحر وأنا أحتضنها بعد أن شاهدتُ قائمة النتائج المعلقة على اللوح...

"إنها نتائج المرحلة الأولى، المهم أن تكون نتائج المرحلة الثالثة والرابعة بالقدر الذي يؤهلنا للدراسات العليا..." قالت لي ذلك بقليل من الفرح وكأنها كانت على يقين من معدلها الامتحاني العالي، لكنها استدركت بشيء من التأنيب:

"أنا غشّاشة، يا ملعونة؟!!" ضحكنا ونحن نطوق كتفَي بعض بذراعينا، ثم دعوتها لأكل أكبر كمية ممكنة من الطعام في المقصف، فوافقت، وكنتُ أعرف مقدار جوعها وحاجتها للأكل فهي لم تذق الطعام منذ صبيحة أمس...

عند الواحدة ظهراً أوصلتُ "سحر" إلى بيت الطالبات، وانطلقتُ بسيارتي صوب مقرّ "المديرية الرابعة".

الحفاوة التي قابلتني بها "بثينة"، كانت مفاجأة لي، ولكن، حين أفصحتْ عن سببها، شعرتُ ببعض الفخر، فقد أفصحتْ عن سعادتها بتجاوزي المرحلة الأولى من دراستي الجامعية بيسر، وبعلامات تحسبها جيدة، ثم نظرتْ إلى عينيَّ وتأملتني باسمةً، وأفصحتْ عن السبب الثاني والأهم حسب رأيي: "ما أنجزتِهِ خلال سفرتكِ، كان مذهلاً، كيف اقتنع الرجال الثلاثة بأخذ الصور لهم، هل أنتِ ساحرة إلى هذا الحد؟". ثم استدركتْ باهتمام واضح لتسأل: "أين جهاز التسجيل؟ هل أخذتْهُ العصابة التي سرقتكم على الطريق..." أطلقنا ضحكاتنا بعمق لأننا نعرف أنّ أفراد "العصابة" هم رفاقنا من منتسبي المديرية. ناولتها الجهاز وأنا أخبرها بأن أفراد "العصابة" كانوا بغاية الأدب والتحضر... فقالت:

"أحدهم سيكون زميلك في الكلية عند بداية العام الدراسي القادم، سيباشر المرحلة الأولى وسيكون تحت إمرتكِ...".

"ممتاز". قلتُ لها وسألتها على الفور بما كان يقلقني: "ماذا وجدتم عند "سحر" أقصد أغراضها، فقد تلبسها الخوف والقلق حين لم تعثر على مظروف ورقي أخبرتني أن مبلغاً مالياً كان بداخله؟..." ضحكتْ "بثينة" وأخبرتني أنّ رسالة ومبلغًا نقديًّا صغيرًا كان داخل المظروف، والمهم أن الرسالة كانت من أحد "المتمردين" إلى عائلته التي تسكن أطراف العاصمة، فسألتها إن كانت تقصد "نشوان"، فقالت: "نعم، هو "نشوان" ولكن هذا اسمه الحركي، أما اسمه الحقيقي فستجدينه ضمن التقرير الذي يجب أن تصادقي عليه صباح الغد بعد أن يتم تفريغ شريحة جهاز التسجيل...".

قبل أن أغادر مكتبها، أشارت "بثينة" إلى احتمال كبير، في معرفة "سحر" عنوان أهل "المتمرد"، ومن المحتمل أيضاً، أنها قد زارت عائلته لأكثر من مرة، لذا علينا أن نتحقق من هذا، عن طريق مراقبتها المكثفة، فربما تقوم بزيارة عائلته قريباً. وحين سألتها إن كانت هناك بعض التعليمات الخاصة بي، أشارت إلى أنَّ هناك من سيقوم بمهمة المراقبة، وما عليَّ سوى المراقبة المعتادة والاتصال اليومي بسحر...

***

"كنتُ أنظرُ إلى عمق روحها، وأبتسمُ مسحورةً بمروج عينيها، حباً... بينما الحزن يبني حضارته حيث عمق روحي، صمتاً.".

(15)

تماماً كما ظنّت "بثينة" فقد زارتْ "سحر" بعد أن استلفتْ مني خمسمائة دينارٍ، عائلة فقيرة تسكن أفقر أحياء العاصمة. حيّ مهمش، جل سكانه من الفقراء تعود أصولهم إلى جنوب البلاد حيث كانوا يمتهنون الزراعة وتربية الأبقار وصيد الأسماك التي تعد الغذاء الرئيس لهم... كانت تلك، عائلة "نشوان" الذي عرفتُ أن اسمه الحقيقي "حمدي عزيز جازع" وهو مطلوب للسلطة كونه منتمياً لحزب سياسي معادٍ لحزب السلطة... كان وحيد عائلته التي تضم خمس بنات وأمًّا أميّة كل عالمها، حدود الزقاق الذي يحتضن بيتها المتهالك، وأبًا يعمل رغم ضعفه وكبر سنه، عتالاً في سوق الجملة...

كانت "سحر" الأقرب إليَّ، الصديقة التي أحب، والتي أدمنتُ لقاءاتها اليومية. في أيام العُطلة، حين لم يكن بمقدورها زيارتي، كنتُ أهاتفها على تلفون "سكن الطالبات" لأطمئن عليها. بعد زيارتها لبيت "نشوان" طلبتْ مني "بثينة" أنْ أوطد علاقتي بها أكثر، ولم أكن أعرف كيف تكون العلاقة أكثر قرباً من علاقتي بها. كنتُ أفكر بالأمر وأنا أجلس بين أفراد عائلتي نتابع فيلماً أجنبياً، يحكي قصة حبيبين، تعاهدا أن يكونا لبعضهما إلى الأبد، فعمدتِ الحبيبة إلى جرح إبهامها وناولت الموسى إلى حبيبها طالبةً منه جرح إبهامه، ففعل، عند ذاك ألصقت الحبيبة إبهامها على إبهام الحبيب فالتقى الجرحان وظلا متلاصقين لفترة من الزمن، فتمازجت دماؤهما وأصبحا جسدًا واحدًا يتغذى الدم نفسه، ذلك ما أوضحته الحبيبة لحبيبها.. سيطرت الفكرة عليّ وقررتُ فعلها مع "سحر"، فكان لي ذلك حين وافقت على مقترحي وجرحنا إبهامَيْنا وتلاصقنا، فأصبحت شقيقتي الروحية حسب تعبيرها... بعد تلك الفعلة أصبحت "سحر" مصدر

معلوماتي المهم، بل، المهم جداً... أصبحت كنز معلوماتي، فقد كانت تعرف خبايا التنظيمات المتمردة الرابضة بين صخور شمال البلاد الباردة.

***

حكتْ لي "سحر" ما لم تحكِهِ لأمها، حكتْ أغلب أسرارها، وأسرار قريتها والقرى المجاورة. حكتْ عن الجماعات المسلحة الذين يثقلون كاهل العوائل الفلاحية بسبب زياراتهم المتكررة وطلبهم للطعام وبعض ما يحتاجون إليه. حكتْ عن تجنيد الشباب الذين وقعوا بين نارين، نار السلطة ونار الجماعات المسلحة. عن الخوف من القصف المدفعي وقصف الطائرات كلما مرّت مفرزة أو دورية من دوريات المسلحين. وبحزن واضح حكتْ عن مضايقات زميلاتها وزملائها من أبناء جلدتها داخل الكلية وفي "بيت الطالبات" عن أشياء سخيفة لا تؤمن بها، وأخرى تحسبها ظلماً. عن مظهرها وملابسها المتواضعة، وسخريتهم المتكررة من حاجبيها غير المشذبين، وبشرة وجهها التي لم تعرف الأصباغ وألوان المكياج بعد... حكتْ في ساعة صفاء ليلية على سطح دارنا، سرَّ عشقها لـ "نشوان" الشاب الذي التجأ إلى الجبال، هرباً من جحيم الحرب والموت المجاني، فصار أحد المقاتلين مع أحد التنظيمات المسلحة التي تقاتل السلطة...

أما حكايتي لها، وكان لا بدّ من مقابلة كشف بعض أسرارها لي، بكشف أحد أسراري الشخصية على الأقل، فكانت من إبداع ماكينة الكذب، حيث اختلقتُ لها قصة حب عظيمة، مع "حبيبي" الطالب في السنة الثالثة لكلية الطب. كان معارضاً للنظام، وهرب خارج البلد ليكون هناك أحد النشطاء السياسيين... وأنني أتواصل معه بين حين وآخر بطرق غير مباشرة، وأن لا أحد في هذا العالم يعرف قصتي معه، حتى أهلي، وأنها

الوحيدة التي صارت تشاركني سرّي... صدّقتْ "سحر" كذبتي، وصارت أكثر قرباً مني حين تيقنتْ بأنها باتت بئر أسراري...

***

حين استلمتُ هويتي الجديدة، بصورة شخصية عسكرية جديدة هي الأخرى، برتبة "ملازم أول" كانت "بثينة" تعلّق هوية "المقدم" على الجهة اليسرى من صدرها، وحين سألتها إن كان زوجها "الرائد باسل" قد نال ترقيته أيضاً، أخبرتني بأنه نال ترقيتين، ثم ضحكت وأضافت: الرتبة العسكرية والانتقال إلى "المديرية الثانية"، حيث سيكون في إحدى الدول الأوربية بعد أسبوع من الآن...

"وهل سيغيب عنكِ طويلاً؟" قلتها بدهشة واضحة سمعتُ على إثرها قهقهة "بثينة" التي أشارت إلى ضرورة أخذ استراحة زوجية كي تشتاقه.

***

زرتُ قرية "سحر" ثلاث مرات، وقد التقطتُ هناك العديد من الصور والكثير من التسجيلات، وتمتعتُ بحرية أكبر بالمقارنة مع الزيارة الأولى...

في زيارتي الثانية، وبعد أن أوضحتْ سحر إلى "نشوان" موقفي من السلطة وأنني حبيبة شخص معارض معروف في الخارج، سألني "نشوان" بحضور رفاقه إن كان بمقدوري الحصول على بعض الوثائق التي تدين النظام بخصوص السجناء السياسيين أو سجناء الرأي أو حتى محاضر المحاكم الخاصة التي تدين وتعاقب المعارضين الهاربين. أبديتُ دهشتي، وأعلنتُ بشكل "غبي" عن استغرابي لوجود مثل تلك الوثائق التي يطلبها، مما حدا بأحد رفاقه، توضيح الأمر بصورة مبسطة أكثر، ثم قال جملة في غاية الأهمية: "حتى لو كلَّف ذلك بعض المال، فنحن على

استعداد لدفع أي مبلغ..." فأخبرته بأن المال ليس المشكلة، لكن طريقة الحصول على الوثائق هي المعضلة الأكبر. ثم وعدتهم بعد لحظة تفكير مفتعلة، بأنني سأبذل قصارى جهدي...

في زيارتي الأخيرة، زودتني "بثينة" بثلاث وثائق سرية في مظروف مغلق، تم غلقه بعد اطلاعي عليه. كانت إحدى تلك الوثائق عبارة عن قائمة بأسماء خمس عشرة شخصية "خارجين عن القانون" تم حكمهم بالإعدام غيابياً، كان اسم "حمدي عزيز جازع" وثلاثة أسماء لضباط زملاء لي في "المديرية الرابعة" تم دسّها ضمن الأسماء، بالإضافة إلى شريط فيديو يظهر تعذيب السجناء السياسيين بوحشية صارخة، وحين سألتُ "بثينة" عن الفكرة من وراء توصيل مثل هذا الفيديو إلى "أعداء الوطن" قالت: "علينا إرعابهم... يجب أن نهزَّ شجاعتهم إن كانوا يمتلكونها...".

"وهل ما تضمنه الفيديو حقيقي؟"

"لا، تمثيل... الهراوات المستخدمة في الضرب، اسفنجية، شبيهة بتلك التي تستخدم في المسلسلات التلفزيونية والأفلام، كوننا نخشى إن صورنا سجناء حقيقيّين، أن يتعرّف عليهم من يشاهد الفيلم، وبذلك نكون قد منحناهم دليل إدانتنا... ".

***

حين أنهيتُ السنة الدراسية الثالثة من دراسة القانون الجنائي بدرجة "جيد"، أخذتُ النتيجة الامتحانية وتوجهت صوب البنك حيث موعدي – أمام بوابة البنك –مع أحد الأشخاص لاستلام مبلغ مالي يخص "سهيل"... تفاجأتُ حين وقفتْ أمامي سيارة فارهة كنتُ قد رأيتها من قبل، فُتح باب الحوض الخلفي جهة اليمين – قبالتي تماماً – ليقابلني وجه الشيخ الذي أعطاني كارته الشخصي قبل قرابة العامين، مبتسماً، وهو

يطلبُ مني الدخول إلى السيارة والجلوس إلى جانبه، ففعلت بصلابة مفتعلة رغم ارتباكي...

"حي الله حياة الحلوة... الشابة التي تتكبر علينا..." ضحكتُ لكلمات الشيخ وقلتُ بشيء من الحيرة:

"أنا متكبرة؟... لماذا الظلم يا شيخ، أنا أبسط مما تتصور.".

"لماذا لم نسمع منكِ كلمة واحدة منذ ذلك الحين... أو اتصالاً تلفونيًّا صغيرًا... كلمة مرحباً على الأقل؟".

"لم أفهم حينها، أنكم تريدون مني الاتصال بكم، ولو كنتُ على علم لاتصلت بكل سرور!". ضحك الشيخ ضحكة مفتعلة بشكل فاضح، ثم قال:

"طيب، نحن بها... اسمحي لي أن أدعوكِ لمشاركتي الغداء...". ودون سماع رأيي، أشار إلى السائق أن ينطلق، فالتزمتُ الصمت.

دخلتِ السيارة من خلال بوابة ضخمة، إلى مساحة واسعة بهيجة الحدائق والأشجار، وما هي إلاّ أمتار قليلة حتى صار أمامنا بناء هائل الجمال والتصميم. وحين تحسست قدماي مرمر الأرضية، شعرتُ بأنني خارج المحيط الذي أعرفهُ وعشتُ في كنفه سنوات عمري "إنها قطعة معمارية لا تنتمي إلى المألوف في بلدي". قلتها في سريرتي قبل أن أصبح إلى جانب الشيخ ونحن نروم دخول القصر، فقال مرحباً: "أهلاً وسهلاً بكِ في بيتي المتواضع..." نظرتُ صوبه مبتسمةً وكأنني أبادله غمزهُ غير المتواضع.

يبدو أنّ الشيخ قد اعتاد الدقّة في مواعيده، فما أن دخلنا صالة فارهة يتدلى من سقفها الشاهق عدة ثريات باهرة الجمال، وتتوزع على زواياها أرائك وطاولات منخفضة بألوان متناسقة مع اللون الذهبي السائد على أغلب تفاصيل الصالة، حتى وجدنا عند الزاوية اليسرى من الصالة، طاولة

طعام عامرة: "إنه وقت الغداء أيتها العزيزة، أتمنى أن يعجبك... تفضلي.". قالها الشيخ وهو يشير بيده اليمنى إلى الكرسي الذي عليَّ اتخاذه مجلساً لي... رغم وجود أكثر من ستة عشرَ كرسياً متوزعة إلى حافات الطاولة الأربع، إلاّ أنني صرتُ إلى الجانب الأيسر الأقرب إلى كرسي الشيخ الذي جلس على رأس الطاولة... أمرَ بابتعاد الخادمتين عن الطاولة، مشيراً إلى ضرورة دخولهما المطبخ، ثم صار يناولني بنفسه قطع الطعام طالباً مني تذوقها وإبداء رأيي بها شارحاً طبيعة كل نوع، وكأنه من طبخ وأعد المائدة... وبعد لحظة صمت قصيرة، صار يسألني عن السيد سهيل ودرجة القربى بيني وبينه، وحين عرف بأنني أدير له بعض الأعمال البسيطة، اعترف بالحب والتقدير الذي يكنه له، وأن سهيل صاحب فضل كبير عليه، كونه أنقذ ابنه من موت أكيد. لم أسأله عن الحيثيات، ولكنني عرفتُ السبب وراء إبعاد الخادمتين عنا، كان حرصاً على عدم سماعهما ومعرفتهما بما يدور بيننا...

تحدثَ الشيخ عن حياته، وعدد أولاده من زوجاته الثلاث، ثم شكرَ ربه على النعم التي منَّ بها عليه، وفي لحظة سألته وأنا أنظر إلى وجههِ مبتسمةً، عن الخدمة التي يمكن أن أقدمها له، والسبب وراء دعوته لي بهذا الشكل المفاجئ، فقال ضاحكاً:

"لا شيء، إنه الإعجاب فقط... أنتِ فتاة جميلة ومحط أنظار كل متذوقٍ للجمال...". قاطعته وانا أردد كلمات الشكر، وقلت: "أنا فتاة بسيطة منشغلة بدراسة القانون، وأمامي سنة دراسية صعبة حتى أتخرج من الكلية عسى أن أجد وظيفة تناسبني، وهذا كل ما يشغلني، وهذه حياتي كلها..." ضحكَ الشيخ ووضع كفه اليسرى على كفي اليمنى بحنان واضح، وقال: "أعرفُ عنكِ كل شيء "تقريباً" ولا أبغي منكِ شيئًا، سوى بعض وقتٍ قصير أجدكِ فيه حين أكون بحاجة شخص رقيق شفاف أتحدث إليه وأنا أتناول طعامي... فهل هذا كثير؟". سألني وعيناه

تحاول قراءة سطور عينيَّ، لكن رائحته الذكورية التي تقترب من رائحة "اللحم المقدد" تفصحُ عن رغبة مغرورة متوارية خلف شخصية رجولية صعبة المراس، فقلت: "لنكن أصدقاء إذاً...".

"أصدقاء!، رائع... هذا كل ما فكرتُ به أيتها الجميلة..." قالها بفرح وكأنه قد عثرَ على ما كان ينقصه...

"لا أدري لماذا، كلما رأيت رجلاً ملتحياً، شعرتُ بالقلق، وظننتُ أنه يُخفي شيئاً قبيحاً من وجهه. لم أفكر يوماً بأن للّحية علاقة بالأديان، بل لها علاقة وثيقة بالتشويه، أو محاولة للاختباء أو مدارات حالة نفسية قد يكون الخوف سيدها... فمن غير المعقول أن يعمد شخص ما، إلى أن يكون مظهرهُ قذراً بهذه الدرجة المقرفة... اللحية قرف، كونها العدو الأول للقبلة."

قبل أن أودعه، طلب الشيخ عبر هاتف البيت الداخلي حضور شخص ما، وبعد قرابة الدقيقتين حضر شاب بملابس قروية ناصعة البياض، يحمل حقيبة جلدية بنيّة اللون، وضعها على الطاولة الواطئة أمامنا حيث دورق وفناجين الشاي، وعلبة التمر الكبيرة التي قال عنها الشيخ: "إنّه من التمور النادرة". ثم غادر الشاب بصمت... عندها أشار الشيخ إلى أن الحقيبة تحتوي على المبلغ الخاص بالسيد سهيل، وأوصاني بإبلاغه أحرّ تحية وعظيم الشكر والامتنان، ثم أخرج من جيبه مظروفًا أبيض اللون وضعه على الحقيبة وأشار إلى أنه هدية لي، بمناسبة عقد الصداقة الذي أبرمناه بيننا... الحقيقة كان الأمر صادماً، وصرتُ بحيرة بين قبول الهدية ورفضها، وحين طال صمتي وحيرتي التي تلمسها الشيخ، قال وبشكل صارم أن عدم قبول الهدية يعني رفض الصداقة التي بيننا، فابتسمتُ وشكرته، ثم أخذتُ المظروف والحقيبة وغادرت الصالة مودعة الشيخ بكل ود...

طلبتُ من السائق أن يوصلني حيث بوابة البنك، فهناك سيارتي التي تركتها... وبمجرد وصولي إلى هناك، دخلتُ البنك على عجل، فلم يتبق على نهاية الدوام إلاّ دقائق قليلة. وجدتُ رياض يتأهب للمغادرة، وحيث شاهدني أمامه وكان يعلم مسبقاً بأنني سأزوره بغرض وديعة المبلغ الخاص بسهيل، عاتبني على التأخير الذي يحدث للمرة الأولى، وسأل بقلق عن السبب، فشرحتُ له كاذبةً حيثيات قصة ألفتْها مخيلتي بحبكة متقنة، فصدقني وطلبَ تسليمه المبلغ بغرض عده وفصل النسبة الخاصة بي، وكان على عجلة من أمره فسألته ضاحكةً إن كان لزوجته دخل في العجلة التي أراه عليها، فضحكَ وأشار إلى أن الأذكياء ليسوا بحاجة إلى الأجوبة على أسئلتهم، بل بحاجة ليتأكدوا من قوة حدسهم...

"إذاً، لا لقاء بيننا عند المساء." قلتُ له، فابتسم مشيراً إلى مساء الغد حتى نحتفل بنجاحي في اجتياز مرحلتي الجامعية الثالثة، ثم أوضح ضرورة أخذ المبلغ الخاص بي "بالدولار" قبل مغادرتي مكتبه، كونه سيتوجه إلى بيته وليس "الصومعة" التي يقصد بها شقته حيث نلتقي.

حين عدتُ إلى البيت ودخلتُ غرفتي، لاحظتُ أن الغبار قد غزا مرآتي، وكأنها قد بكت مرارةَ هجراني لها...

***

حكيت لـ "بثينة" ما جرى معي في مقابلة الشيخ، فضحكت وقالت إنه شيخ يفهم بالجمال ويقدره، وحين سألتها إن كان هناك ضرورة في كتابته ضمن التقرير، فنفت ذلك ونصحتني بعدم كتابته كونه سيفضي إلى ذكر السبب الرئيس لمعرفته بي، وهذا يعني إدراج اسم السيد اللواء "سهيل" ضمن التقرير. وافقتها الرأي وسألتها سرّ الجملة التي قالها الشيخ بخصوص إنقاذ سهيل لولده من الموت الأكيد، فضحكت، ونصحتني بعدم البحث عن تلك التفاصيل كونها تحمل الكثير من المتاعب، لكنني

فهمت من تلميحاتها بأن عملية تبديل بين محكوم بالإعدام وشخص بريء تم اصطياده من الشارع ليعدم بدلاً من ابن الشيخ، وقد تمت العملية بنجاح وسرية تامة... الحقيقة لم تفصح بثينة بكل تلك التفاصيل، ولكني حين نقلتُ تلميحاتها بصورة غير مباشرة أثناء حديثي مع رياض في اليوم التالي حيث شقته، شرح لي حيثيات تلك العملية بشكل عام دون تحديد أشخاص، وأخبرني بأنها عملية باتت معروفة في سجون البلد المتعددة... أرعبتني الفكرة، وشعرت أن "بشير" قد تم إعدامه بدلاً عن مجرم يمتلك المال...

أخرجتْ بثينة من أحد الأدراج، ملفاً صغيراً وقالت وهي تناولني إياه: "أسبوعان في السجن، يا حلوة..." اتسعت عيناي وأنا أعلن دهشتي وعدم تصديقي لكلماتها التي صبَّتها على مسامعي: "لي أنا؟... أنا في السجن؟... لماذا؟..." قلتُ ذلك وكأنني أحاول تبرئة نفسي من جريمة كبرى اتهمتُ بها للتو... أطلقتْ بثينة ضحكة صاخبة، وقالت: "مهمة أمنية، عليكِ تنفيذها في سجن النساء اعتباراً من السبت القادم.". تناولتُ الملف الصغير الذي يحتوي على حيثيات المهمة الأمنية، وبعض التعليمات الأخرى، التي يجب الاطلاع عليها، ثم رميهِ في تنور أمي ساعة اتقاده، وأضافتْ: "سفرة مع زملاء الكلية إلى شمال البلاد... هذا ما ستقولينه لعائلتكِ...".

كانت مهمتي، تنحصر باستجواب ومراقبة ثلاث نساء تم اعتقالهنَّ في أوقات متفاوتة عند الحدود بهدف الهرب إلى دولة مجاورة... دفعتني السجّانة البدينة بقوة إلى داخل الزنزانة فأسقطتني أرضاً، شعرتُ بالإهانة وحقدتُ على المرأة البدينة السمراء برتبة عريف التي لم تكن تعرف شيئاً عني. سحبتُ جسدي كذئبة جريحة إلى الزاوية، وجلستُ باكيةً لوقت غير قصير، لقد بكيت بمرارة صادقة لا أعرف سبباً واضحاً لها، وحتى بعد أن

اقتربتْ إحدى السجينات مني بمحاولة التهدئة، استمر بكائي دون أن أنطق بكلمة.

في صبيحة اليوم التالي، وكنتُ قد نمت بقلق مقرف، أيقظتني إحداهن وسط ضجيج وضرب مفزع على باب السجن الحديدي، أحدث ضجة هائلة، وحين قرأت المرأة الفزع بعينيَّ، أخبرتني، بأنه الطقس الصباحي الذي يوقظنا بغية استقبال يوم جديد حافل بالإهانات... غسلتُ وجهي بكف ماء وجلستُ مفزوعة مما ينتظرني... تناولتْ إحدى السجينات إبريق شاي كبير وكيساً يحتوي على خمس "حبات" صمّون، وزعتها على عدد السجينات وكنتُ من ضمنهنَّ...

كان طعم الصمّون المغمس بالشاي شهيًّا جداً، إنها وجبة الإفطار...

حين انهمر عليَّ سيل الأسئلة من قبل السجينات اللواتي أبدين تعاطفاً وحميمية فائضة معي، أدرتُ ماكينة الكذب، بمخيلة معتمدة على قصة "بشير" صديقي الذي اختفى. أخبرتهم بأن أمي تبيع الخبز، وأن والدي قتل بظروف غامضة، وأنني أسكن منطقة شعبية بائسة – استعرتُ حينها أجواء المنطقة التي تسكنها عائلة بشير وتفاصيل بيتهم – وأن لي عددًا من الإخوة والأخوات أنا كبيرتهم... لكن السؤال الأصعب الذي واجهني "لماذا تم إلقاء القبض علي" لكنني تمكنتُ بعد تفكير سريع، أن أجيب بأنني لا أعلم. ثم سرعان ما اختلقتُ قصة أعجبتني، فأخبرتهنَّ بأنني كنتُ في الكلية بغرض استلام النتيجة الامتحانية، وما أن استلمتها وخرجتُ من الكلية لأبشّر أمي بالنتيجة، حتى اقتربَ مني شخص طويل ضخم الجثة، طلب مني الصعود إلى سيارة متوقفة إلى جانبه، وأخبرني، أنه من رجال الأمن ولديه الأوامر بإطلاق النار عليّ إن حاولت الهرب.

كان البكاء، الغطاء الأهم والملاذ الآمن لتهربي من أسئلة السجينات، وفي كل مرة تشاركني إحداهن البكاء وكأنني سأُعدم بعد قليل.

الكل يخشى الكل، ذلك هو قانون السجين السياسي، وهذا ما أفصحتْ عنه "إلهام" المرأة الأكبر سناً، التي بدأت تأمن لي بعد مضي أسبوع من الشك والريبة، والتي عرفتُ عنها، بأنها متزوجة من معلم ترك التدريس هارباً من ملاحقات الأجهزة الأمنية له بسبب انتمائه لحزب معادٍ لحزب السلطة، وبعد مرور قرابة الست سنوات، قررت "إلهام" ترك ابنها الوحيد لدى أمها والمجازفة بعبور الحدود كي تلحق بزوجها، فالسفر ممنوع كون البلد في حالة حرب: "أنا لا أنتمي إلى أي تنظيم سياسي ولم يكن في نيتي أي عمل يسيء إلى البلد، أردت اللحاق بزوجي فقط، وهذا حقي الشرعي..." قالت ذلك، وهي تعلن لي أن كل ما قالته، سبق وأن اعترفت به أمام المحققين الكُثر الذين وقفتْ أمامهم طيلة فترة اعتقالها التي تقارب العام...

من "إلهام" التي يصعب عليها السكوت، والتي تجد في الهذر متنفساً خصباً، يجعلها تشعر بوجودها ومنح يومها طعماً آخر، عرفتُ قصة الأخريات... "عواطف" أرادت الهرب بعدما سرقتْ مدخرات والدتها، التي كانت لا تطيقها، وتقول عنها متصابية "لا يبرد فراشها". بين فترة وأخرى ترتبط برجل تُدخله بيتها وتتخذه زوجاً حتى تفرغ جيوبه، عند ذاك تفتعل لها عذراً لتتشاجر معهُ وتصل في صراخها وتهديدها حدّ الفضيحة، فيضطر إلى ترك البيت. وهذا ما فعلته مع أكثر من رجل، وكان أغلبهم قد حاول التحرش بـ "عواطف" لكنها كانت تصدهم بعنف، فتحولت حياتها إلى جحيم بسبب "مراهقة" أمها، على حدّ تعبيرها...

أما "سلمى" ذات العشرين عاماً، فقد حاولت الهروب خوفاً من القتل، بعد أن اكتشف أهلها بأنها سلّمت نفسها وجسدها لحبيبها زميل دراستها في كلية الفنون الجميلة. كانت "سلمى" رسامة بارعة، شاهدتُ لها تخطيطاً على الجدار قالت أنه حبيبها الذي لا يعرف بقرار هروبها حتى الساعة...

أسبوعان وسط الجحيم. الجوع والعطش، والحرمان، والحشرات التي لا تهدأ، ورائحة المكان والأجساد النتنة التي تكاد تكتم الأنفاس خصوصاً وقت "الدورة الشهرية" التي زارت "عواطف" ثم زارتني خلال الأيام الأربعة الأخيرة... قطع قماش ممزقة كانت تستخدم بدل "الحفاضات النسائية" يتم غسلها باليدين حين تتسخ، ثم تستبدل حين تجف بدلاً من الملوثة. بؤس وامتهان وقذارة تصل حد الغثيان... ذلك ما حدثتُ به بثينة حين أتت بسيارتها لتأخذني من أمام باب المكان الموحش الذي يضم زنازين مظلمة بأرواح بشرية تدربت على أن تعيش خنوع العبيد وسكون الحشرات ... كانت تضحك في الوقت الذي كنتُ أذرف فيه الدموع، حتى طلبتُ منها بصوت عالٍ أن تكف عن الضحك، فضحكت أكثر... اعتذرتُ منها، وأخبرتها بأنني بحاجة إلى حفاضات نسائية، رغم أن دورتي الشهرية في أواخرها...

دخلتْ بسيارتها إلى مرآب فندق الشيراتون، ومن هناك أخذنا المصعد حتى الطابق العاشر. كانت بثينة تحمل حقيبة جلدية نسائية كبيرة بعض الشيء تتدلى من كتفها الأيسر. حين خرجنا من المصعد سألتها عن وجهتنا فأخبرتني بضرورة الحمام الساخن، فعرفتُ بأنها حجزت لي غرفة لليلة واحدة...

بمجرد دخولنا الغرفة رقم (1012)، عمدتْ بثينة إلى إقفال بابها، وتوجهت نحوي لتحتضنني طويلاً، وتغرس في مسمعي كلمات غاية في الحميمية: "افتقدتكِ يا ملعونة، كنتُ خائفةً عليكِ، لأول مرة يتلبسني الخوف عليكِ..." قبّلتها وذرفتُ دمعة فرِحَة لكلماتها. ابتعدتْ عني ووقفت آمرة بصرامة: "إلى الحمام، عليك الاغتسال جيداً، لقد جلبتُ لكِ ثياباً جديدة، خصوصاً هذه البيجامة التي اشتريتُ شبيهتها لي أيضاً...

ما أن خرجتُ من الحمام مرتدية "برنص" الفندق بشعاره الأزرق المطرّز على الجهة اليسرى من الصدر حيث الجيب الصغير، حتى وجدتُ مائدة طعام فاخرة، شعرتُ حينها بجوعِ سنوات يفتك بي. جلستُ إلى الطاولة وتناولت طعامي الذي شاركتني بثينة به، دون أن أمشط أو أجفف شعري، وبالأثناء أخرجتْ بثينة من الثلاجة الصغيرة قنينتي بيرة فئة النصف لتر، سكبتْ لي كأساً ولها أخرى، رفعتْ كأسها وقالت: "بصحة الشجاعة التي أتمت مهمتها بنجاحٍ باهر.". احتسيتُ نصف الكأس، وسألتها عن سرّ إعلانها نجاح المهمّة وأنا لم أقدّم تقريري بعد، فأرجأت جوابها لوقتٍ آخر، طالبةً مني مواصلة الأكل والاسترخاء...

حين انتهينا من تناول الطعام، سحبتْ بثينة "عربة الأكل" وأبعدتها إلى جوار باب الغرفة، ثم قامتْ بترتيب الطاولة المجاورة، بعد ذلك قامت باستبدال ملابسها ببجامة جديدة أخرجتها من علبتها. وقفتْ أمامي تستعرضها وكأنها عارضة أزياء متمرسة، طالبةً مني إبداء رأيي بها. كانت رائعة بحق، مما أغراني على ارتداء شبيهتها على الفور لندخل في نوبة ضحك استمرت بضع دقائق... ما أن جلستْ حتى استلتْ من حقيبتها دفتراً صغيراً وضعتْهُ على الطاولة، ثم لحقته بجهاز التسجيل الإلكتروني الصغير... جهّزتْ القلم وفتحتْ الدفتر وضغطت على زر تشغيل الجهاز، وطلبت مني سرد تجربة السجن منذ الدقيقة الأولى لدخولي حتى صعودي إلى سيارتها منذ بضع ساعات... ابتسمتُ لها ورجعتُ بظهري إلى الوراء حتى لامس قماشة الكرسي، وبدأت غاضبةً وأنا أسرد لها معاملة السجّانة البدينة السمراء لي، وكيف أدخلتني الزنزانة بعنف...

أربع ساعات لم تكن كافية لسرد كل التفاصيل، والرد على الكم الهائل من الأسئلة التي أمطرتني بها مسؤولتي... في لحظة، طلبتْ مني التوقف، وأغلقتْ دفترها الذي دُوّنَ على ورقهِ بعض ملاحظات ورموز كنتُ أعرف

دلالة أغلبها، ثم دست جهاز التسجيل داخل حقيبتها، وقرَّبتِ الهاتف مني مشيرةً إلى ضرورة مهاتفة عائلتي.

كان صوت أمي على الطرف الآخر، أخبرتها بأنني على ما يرام وأن سفرتي إلى شمال البلاد أكثر من رائعة، وأنني سأصل غداً بعد الظهر إلى البيت، وبعد أن طمأنتني على أبي الذي سألتُ عنه أولاً، وليث ونايات وعمتي، سألتني إن كانت "سحر" ضمن مجموعة الزملاء الذين يرافقونني الرحلة، فلم أجبها، بل سألتها عن السبب وراء سؤالها ذاك، فأخبرتني أن أحد أقاربها قد هاتفهم منذ خمسة أيام يسأل عن "سحر" بعد أن غابت لأسبوع تقريباً لا يعرف أحد عنها أي شيء... عمدتُ إلى إنهاء المكالمة بحجة رداءة الخطوط وتقطع الصوت، وما أن وضعتُ حاكية الهاتف حتى نظرتُ صوب بثينة متسائلة بتوجس: "أين سحر؟".

"تم اعتقالها.". أجابت بثينة على سؤالي بسرعة وكأنها على دراية تامة بأنني سأسألها عن "سحر". ثم أشارت بكفها اليمنى وهي ترفعه بوجهي علامة الإنصات، وأضافت: "أتت لنا الأوامر باعتقالها في نفس الليلة التي دخلتِ بها المعتقل، كان الأمر صارماً جداً..." أخذتني الدهشة وتلبسني الحزن رغم أني كنت أتوقع ذلك منذ زمن ليس بالقصير، وحين سألتها عن السبب، أبدتْ استغرابها ودهشتها من سؤالي، وقالت متسائلةً وكأن الحيرة قد سيطرت على عقلها: "هل تسألينني مثل هذا السؤال وأنتِ الأكثر معرفة ودراية بالأمر؟". ثم صمتتْ ناظرةً إليَّ بعتابٍ واضح، فصمتُ أنا الأخرى ومنحتُ نظراتي إلى الأرضية بلونها الغامق، التي استقبلت بضع قطرات أمطرتها عيناي.

ربتت بثينة على رأسي، ثم استلت من حقيبتها قنينة ويسكي. أخرجتْ قطع الثلج من رف الثلاجة العلوي، ووضعت قطعتين في كل كأس بعد أن سكبت السائل الذهبي داخلهما، ثم أوضحت وهي ترفع كأسها لتقرعها

بكأسي، بأن علينا أن نسترخي كامل الاسترخاء حتى ننام بعمق بعد يوم عمل شاق...

في صبيحة اليوم التالي، وبعد تناولنا الفطور "الفاخر" رنَّ هاتف الغرفة، فأجابت بثينة على المكالمة بكلمات مقتضبة، سمعتُ منها كلمتي "نصف ساعة" ثم أعادت السماعة إلى مكانها لتطلب مني استبدال بيجامتي بالملابس الجديدة التي اشترتها لي، ففعلتُ. ثم سرّحتُ شعري، ورتبت أنوثتي أمام المرآة، وما أن انتهيتُ من كل ذلك حتى سمعتُ طرقاً خفيفاً على الباب، فهرعت بثينة إليه... سمعتُ صوت سهيل وهو يلقي تحية الصباح، فجفلتُ غير مصدقة "السيد اللواء؟... غير معقول!!" قلتُ ذلك وتوجهتُ صوب الباب مرحبةً بـ "سيادة اللواء" فدخل ضاحكاً واتخذ من أحد كراسي الشرفة مجلساً له فتبعناه كتلميذتين نجيبتين.

"اطلبي لنا القهوة التركية يا بثينة..." ثم نظر صوبي مبتسماً وأضاف: "من الصعب الحصول على قهوة تضاهي قهوة الشيراتون...".

قبل أن ننتهي من شرب القهوة، نظر "سهيل" صوب "بثينة" وسألها إن كنا قد أتممنا عملنا البارحة، فأجابت بثينة بالإيجاب، بل أشارت إلى دقة العمل. ثم نظر صوبي وقال كأنه يصدر أمراً عسكرياً صارماً:

"أريد المختصر.". فقلتُ وأنا أستعد لشرح دقيق ومكثف:

"سلمى، في حالة تمّ الكشف عليها وتبين أنها ليست عذراء بالفعل، يمكن تجنيدها والاستفادة منها، بعد أن يتم نقلها وحبيبها من الأكاديمية هنا، إلى الأكاديمية في شمال البلاد، بعد تزويجهما ليكونا عوناً لنا هناك..." هزَّ سهيل رأسه بينما منحتني بثينة ابتسامة الرضى، ثم أضفت: "يمكن لعواطف أن تكون صادقة فيما ادعته، في حالة ضبط مدخرات والدتها معها حال القبض عليها... يمكنكم التأكد من ذلك حين الاطلاع على ملف قضيتها..." ابتسم لي سهيل ثمَّ نظرَ صوب بثينة التي طلبتْ مني

الاستمرار، فأضفت: "يمكن تجنيد "عواطف" أيضاً، ومن ثم مساعدتها للهرب بعِلمنا وتحت أنظارنا إلى إحدى الدول المجاورة... أمّا "إلهام" فأعتقد أنها لم تقل إلاّ نصف الحقيقة، فلو حلّلنا تصرفها في ترك ابنها، والهرب خارج البلد دون أن تعرف متى تعود لتراه مرة أخرى، سنكتشف بكل تأكيد أن سبباً قوياً وكبيراً وراء قرارها ذاك، أكبر بكثير من شوقها لزوجها..." ثم ضربتُ كفيَّ ببعضهما مرة واحدة وأعلنت انتهاء المختصر بابتسامة عريضة، وعيناي تتفحصان ملامحهما بحثاً عن علامات الرضى والاستحسان.

حين وصلتُ وبثينة مرآب الفندق بعد أن أنهينا أوراق تسليم الغرفة، أخبرتني بأن حقيبتي التي أخذَتْها مني يوم دخولي التوقيف، موجودة داخل السيارة، مضاف إليها بعض الهدايا على عدد أفراد عائلتي، وكنتُ قد اتفقتُ معها على نوع الهدايا قبل دخولي ذلك المكان القذر الذي قضيت فيه أصعب أسبوعين في حياتي كما كنتُ أظن.

ما أن دخلتُ البيت حتى استقبلني من كان هناك، كان ليث أول المرحبين المحتضنين لي والذي سلّمني إلى والدتي التي طبعتُ قبلة واحدة على خدها اليسرى، ثم دخلتُ الصالة لأحتضن عمتي ونايات دفعة واحدة فقد كانت صغيرتي تجلس بحجر عمتها التي لم تفارقها منذ ولادتها، وحين سألتُ عن والدي جاءني صوته الحنون من الخلف، وما أن التفتُ صوبه حتى غزتني رأفة ابتسامته التي سرعان ما تحولت إلى ضحكة نثرت دموعي على إثرها، دون إرادة مني...

دخلتُ غرفتي، فاستقبلتني رائحة جدي. نظرتُ صوب المرآة فوجدتها غريبة عني، كانت حزينة وكأنها فقدت عزيزاً، قبلتها، وأنرتُ الضوء علّها تستعيد نضارتها، ففعلتْ، لكن على حياء.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة بقليل حين جلست العائلة مجتمعة إلى مائدة العشاء، كان التلفاز يبث أناشيد "وطنية" تشيد بحنكة وذكاء "بطل الحرب" وكان من الواضح، كما تعودنا، أن هناك تمهيدًا لخطاب "رنان" أو بيان عسكري عن "انتصارات ساحقة" قد تحققت في اللامكان... لقد تعودنا خشيتنا وجزعنا، ونحن نتوقع سيل الجثث كلما تُليَ علينا بيانٌ "منتصرٌ".

عند الثامنة مساءً، بدأت نشرة الأخبار، وفي بيان سريع مقتضب، أُعلنَ عن انتهاء الحرب. شهقتْ عمتي "غنوة" مرتين متتاليتين، ثم احتقن وجهها وسقطتْ أرضاً فاقدة الوعي، انحنى عليها أبي ذاهلاً مرتجفاً... تحسّسها ثم هرع للهاتف طالباً منّا تدليك أطرافها. رفع سماعة الهاتف وطلب الإسعاف...

"ماتت عمتي "غنوة"... مات غناء الصوت الجميل تحت سقف بيتنا إلى الأبد... ماتت الموسيقى...".

(16)

أبي الصامت، إلاّ من ابتسامته، كان الأكثر حزناً على موت شقيقته رغم مرور أكثر من ستة أشهر على رحيلها.

كانت "غنوة" آخر الأشقاء بعد وفاة عمي "أبو شفيق" منذ سنوات طوال. صار يشعر بوحدة مؤلمة، بل، بغربة مرّة، لا تخفت مرارتها إلاّ حين يمعن النظر بوجه "نايات" ذات الأربعة أعوام، يحتضنها، يشمّها، ثم يطلب منها أن تغنيه أغنية شقيقته التي حفظتها عنها، والتي كانت تسمعها بشكل يومي منذ ولادتها، ولا تغفو إلاّ على إيقاعها، فتغني له بصوتها الطفولي وببعض أحرف مكسورة:

الشمس طائرة ورقية

والورق من ذهب

لكنكِ شقيقة الضوء

تختبئين شرائطَ،

بين وريقات العنب

الشمس طائرة ورقية

والقمر عنوان سعادة

كلما يقترب أكثر

تداعبنا الوسادة

تنثر الـ "النايات" شعرها،

فتغفو،

دون تعب

\-----

الشمس طائرة ورقية

والورق من ذهب.

***

بعد التخرج مباشرةً، كان علينا أن نباشر ساعات عملية في إحدى المحاكم، وحسب تنسيب رئاسة القسم لكل طالب، فقد نسبني الدكتور "نزار" رئيس قسمنا إلى "محكمة الجنايات الكبرى"، كان ذاك امتيازاً كبيراً، فلم يحصل عليه إلا الطلبة الأوائل، أو ممن لديهم عصا "المحسوبية" السحرية. ومنذ اليوم الأول صرتُ ظلاً لقاضي التحقيق، الأستاذ "مازن بحري"، الذي كان سعيداً بمرافقتي له. أجلسُ إلى جانب مكتبه وهو يباشر عمله، كنتُ أدون ملاحظاتي دون أن أنبس بكلمة، وحين ينتهي من التحقيق ويُقاد المتهم خارج الغرفة، يسألني رأيي، ويسمع ملاحظاتي، فيدوّن شيئاً مقتضباً على ورقته الخاصة، ثم يشرح لي بعض التعليمات التي كان يعتبرها "أسرار مهنة". حين توطدت علاقتي به، اكتشفتُ داخله طفلاً جميلاً مهذباً يعشق النكتة والمزاح الرائق... كان يناديني "بابا حياة" حين نكون لوحدنا. تلمستُ به حرصاً محبباً على تعليمي أصول علم التحقيق، الذي كان يسميه "فلسفة علم التحقيق" وكثيراً ما يحثني على مواصلة دراستي العليا والتخرج من معهد القضاء العالي، كي أصبح أهم قاضي تحقيق في البلاد، حسب رأيه المجامل...

في أحد المساءات، وحين عدتُ يملأني الفرح بعد لقاء حميمي مع رياض دام لأكثر من ثلاث ساعات مطعَّمة بموسيقى شتراوس، داخل شقته التي أطلقنا عليها "صومعة العشق". وبمجرد دخولي مطبخ بيتنا،

أخبرتني والدتي بأن لدينا ضيوفًا، امرأتان وطفلة تكبر "نايات" بعامين، لم تلتق بهما أمي من قبل، ولا تعرفهما، قالت أمي بشيء من الفرح: "ربما هي زيارة خطوبة، لقد أكملتِ دراستكِ وصار الزواج لا بدّ منه، فلا عذر لديكِ الآن..." ضحكتُ، وأخذني الفضول لمقابلة الضيوف، فدخلتُ الصالة مرحبةً بالمرأتين، جلستُ أمامهما وجلستْ أمي إلى جانبي بعد أن قدمت الشاي وقطع الكعك البيتي للضيفتين، اللتَيْن صارتا تتفرساني بنظراتهما، وبعد برهة تكلمتِ الكبيرة عمراً، كانت أربعينية، سمراء متوسطة السمنة، بعينين سوداوين واسعتين، شعرها كثيف فاحم ولها غمازتان منحت ملامحها مسحة محببة للناظر، قالت بأن لها أخًا مقيمًا في أوربا منذ سنوات، وقد قرر الزواج بفتاة من بنات بلده، كونه غير راغب بالزواج من أجنبية، فكلّف أخته الكبرى بالبحث عن زوجة، فلم تجد أفضل من عائلتنا، سمعة وتربية، على حدّ قولها، لذلك وقع اختيارها عليَّ... الحقيقة، لقد اعتراني الخجل رغم أنها ليست المرة الأولى التي أُطلب فيها للزواج، لكنّ ثمة هاجسًا مقلقًا، جعلني أتردد في إعطاء الجواب القاطع، فحاولت المراوغة، وأوضحتُ بأنني أنوي إكمال دراستي العليا، ولم أفكر بالزواج، لكن والدتي لكزتني طالبةً مني السكوت فسكتُّ وصار الحديث بين والدتي والمرأة... عرفتُ من خلال حديثهما، أن المرأة هي الأخت غير الشقيقة للشاب "زوج المستقبل" فهو أخوها من أمها التي تزوجت بعد ستة أشهر من وفاة زوجها، تاركةً أولادها وبناتها في بيت عمهم، قالت: "رمتنا كالقطط الصغيرة في بيت عمي وهي تقول بغضب لا مبرر له: "خذوا أولادكم، ودعوني أعشْ حياتي كما أرغب، بعد أن عشت سنوات القهر والعوز مع "المرحوم" الذي قتل زهرة شبابي.". ثم غادرت ولم نرها بعد ذلك، فقد توفيت أثناء ولادتها أخي "أميري" اليتيم الذي جئتُ أخطب له المحروسة "حياة"..." ثم تناولت كأس الماء وشربت، لتواصل حديثها، فأضافت: "لم يصبر أبوه عليه، فقبل أن يتمّ عامه الأول، طرق

بابنا في مساء شديد البرودة، وأعطانا الولد وهرب... ليعيش الطفل يتيم الأم والأب، حيث تولت أختنا التي ماتت منذ عامين، تربيته ورعايته وجعلته يتربى بين أولادها، وكان يناديها "أمي" لأنها كانت بالفعل أماً له، فلم يعرف غيرها في حياته...". ذرفتْ والدتي دمعتَيْن ساخنتَيْن، وسألتْ عن عمر الخطيب اليتيم، فقالت أخته:

"هو في الخامسة والثلاثين من عمره الآن، أي أنه يصغرني بعشرة أعوام تقريباً...". كنتُ أستمع لها والدهشة تأسرني، وصرتُ أتساءل في سريرتي: "أي عائلة هذه التي ترمي أبناءَها كالقطط السائبة؟". وسؤال آخر بات يثير الاستغراب، فالاسم غريب ولم أسمع به من قبل، ترى هل للعائلة أصول تنتمي إلى دولة مجاورة؟ فسألتُ المرأة عن سرّ اسم "أميري"، أجابت، بأن ذلك هو اسمه، الذي اختاره والده، فهو الابن الوحيد له، حيث ولدتْ زوجته الأولى سبع بنات. لذا صار "أمير والده" الذي كان يحلم بولادة صبي يحمل اسمه، والذي مات وعمر ابنه عشرة أعوام، دون أن يراه، فصار يتيم الأم والأب.

اتفقتْ والدتي مع الضيفتين على مهلة لتناقش الأمر مع والدي، ثم ضربتْ معهم موعداً للزيارة خلال الأسبوع القادم، لكنني سألتُ عن اسم الرجل الكامل وتحصيله العلمي وطبيعة شغله في أوربا، فعرفتُ أنه أكمل تعليمه هناك وصار مهندساً مختصاً في ميكانيك السيارات، ولديه ورشة كبيرة هناك.

في صباح اليوم التالي، وقبل ساعتين من مباشرة دوامي لدى قاضي التحقيق، دخلتُ مكتب "بثينة" فغزتني رائحة القرفة... وضعتُ أمامها تقريري اليومي، وورقة صغيرة مدون عليها بعض المعلومات قائلةً: "عريس، يسكن أوربا... أخته الكبرى خطبتني له مساء أمس..." أطلقت "بثينة" ضحكة عميقة بصوت مسموع، وباركتْ لي بشيء من

التهكم، ثم سألتني عن رأيي، فأخبرتها أن لا رأي لي، الرأي في ما تراه هي والجهات العليا، فأثنت على كلماتي ثم سألتني إن كانت هناك فترة زمنية محددة للرد، فأخبرتها أن والدتي قد ضربتْ معهم موعداً خلال الأسبوع القادم...

"ممتاز" قالت بثينة ونظرها يتفرّسني دون أن تتخلى عن ابتسامتها، وحين سألتها عن سبب جمال ابتسامتها، قالت بشيء من الفرح نطقت به عيناها: "أعتقد أن أمراً إدارياً سيصدر قريباً بتعيينك بدرجة محقق، في مديريتنا..." كنتُ أنظر إلى عينيها وأنا أسمع الخبر، لكنني سألتها دون سابق تفكير: "ما أخبار سحر؟" ضحكتْ وهي تدس أصابع كفها اليمنى بفروة شعرها، وقالت:

"ما تزال تتنفس...".

حين أخبرتني بثينة بفكرة تعييني "محقق". قفزت صورة "سحر" أمامي، في وضع يرثى له، وأنا أقوم بالتحقيق معها، فارتعبتُ وانبثق السؤال وكأنه ثورة احتجاج.

في المساء، وقبل أن أخلد للنوم، رنَّ هاتف البيت، وما أن رفعتُ السمّاعة حتى جاءني صوت "بثينة" معتذرة لاتصالها في مثل ذلك الوقت، ثم طلبت مني أن أكون في مكتبها غداً عند الواحدة بعد الظهر، فأخبرتها أن ذلك يقتضي أخذ إجازة زمنية من القاضي "مازن بحري" الذي لم أطلب منه سابقاً مثل هذا الطلب... "حاولي يا حلوة... لن يصعب الأمر عليكِ..." قالتها ضاحكة، وهي تتمنى لي ليلة هانئة...

في صبيحة اليوم التالي، وبعد مرور ساعة واحدة على بدء الدوام الرسمي للمحكمة، أخبرني الأستاذ مازن، أنه مضطر إلى مغادرة بناية المحكمة ليكون بعد نصف ساعة في عمادة المعهد القضائي لأمر هام، وبذلك سمح لي بالمغادرة على أمل اللقاء صبيحة الغد... أمر غريب، أن

يمنحني القاضي إجازة دون أن أطلبها وأنا بأمس الحاجة إليها، ربما هي المصادفة!!

خرجتُ من بناية المحكمة، وقدتُ سيارتي صوب الكافيتريا القريبة من المديرية، طلبتُ عصير البرتقال وكعكة بالشوكلاتة، جلستُ بمحاذات زجاج الواجهة فصار باب المديرية أمامي. أعرف أن أغلب رواد الكافيتيريا من منتسبي المديرية، وأنَّ صاحبها متعاون بدرجة "وكيل". سحبتُ الجريدة اليومية من الطاولة المجاورة التي غادرها زبائنها منذ قليل، وكعادتي فتحتُ الصفحة الثامنة دون الاكتراث لبقية الصفحات. قرأتُ مقالاً عن فيلم حاز جائزة الأوسكار مؤخراً، يتحدث عن فتاة متعثرة دراسياً أصبحت أشهر عارضة أزياء عالمياً، وصارت من أصحاب الملايين. ضحكتُ كثيراً للفكرة: "خشيتي أن تصبح "المتعثرة دراسياً" شخصية ثقافية تطرحها قنوات التلفزة وصحف ومجلات العالم، وتسألها عن مستقبل العالم ومستوى الشعوب الثقافي والعلمي..." قلتُ لنفسي ذلك، وأنا أعيد إلى ذهني ما يزعجني دائماً، حين يعدّ لاعب كرة القدم والمغني والراقصة وحتى بعض الموسيقيين، وجوهاً ثقافية يتم استضافتهم على وسائل الإعلام ليدلوا برأيهم حول أهم القضايا وأكثرها حساسية، دون أن يعترض أحد. أذكر أنني شاهدتُ منذ قرابة الشهرين، لقاءً متلفزاً مع أحد الرياضيين، سألتْه مقدمة البرنامج إن كان في نيته كتابة سيرة حياته الحافلة، فقال بأنه قد فكر بالفعل في كتابتها، وقد اتفق مع أحد أصدقائه من الكتاب على كتابتها، كونه لا يجيد القراءة والكتابة، فلم تتفاجأ مقدمة البرنامج، وتابعت مجريات اللقاء بكل زهوها... أما موضوع المغني الذي صار يتحدث عن أهمية علم النفس، ودراسته بالنسبة للمغني حتى يستطيع السيطرة على جمهوره في الحفلات، فقد صار حديث الناس ومرتع سخريتهم... تذكرتُ ظافر ابن عمتي "غنوة" الذي انطفأت أحلامه واختلطت بتراب الأرض، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وكيف

كان يأخذني إلى السينما ويشرح لي ما يعرفه عن المشهد السينمائي، وحياة بعض الممثلين وأسرارهم، فقد كان مغرماً بالسينما والموسيقى، وتذكرت تفكهه حين نشاهد لقاءً تلفزيونياً لنجوم الشاشة ممن لم يكملوا دراستهم الابتدائية وهم يتحدثون عن أمجادهم مُسدِين النصح للجمهور الذي يشاهدهم على اختلاف مستوياته... يبدو أن موجة التفكير تلك قد حدثت وأنا أتطلعُ صوب بوابة المديرية، ففي لحظة خاطفة شاهدتُ الدكتور نزار، رئيس قسم القانون الجنائي، يقف عند شباك الاستعلامات، وهو يسلّم شيئاً ما إلى أحد موظفي الاستعلامات، ربما يسلّم هويته وكتابًا رسميًّا، وما هي إلاّ لحظات حتى دخل يرافقه الموظف، فغاب عن ناظري... "لا مجال للتوقعات، سأسأل "بثينة" حين أكون في مكتبها... يجب أن أسألها..." قلتُ ذلك بإصرار وقناعة...

"أهلاً بالعروس... وحياتك لا أعرف كيف تزغرد النساء، ولو كنتُ أعرف، لفعلتها..." قابلتني "بثينة مرحبةً وضحكتها تهيمن على ملامحها...

جلستْ إلى جانبي حيث الأريكة الجلدية، وسألتني إن كنتُ راغبةً بفنجان شاي بالقرفة، فشكرتها معتذرةً... حيث قالت وهي تداعب أصابع كفي اليمنى: "لم نتعرف على الشخص المدون اسمه على الورقة، فلا توجد معلومات عنه إطلاقاً، يبدو أنه إنسان مسالم لا يمتهن السياسة، ولكن فكرة سفركِ إلى الخارج قد نالت استحسان المسؤولين...".

"هل يمكنني السفر بالفعل؟" سألتها مندهشةً، فقالت:

"نعم، ولكن ليس بالطريقة العادية، يجب أن تسافري وأنتِ معارضة للسلطة..." اهتزّ بدني، وتلعثمتُ وصعبَ عليَّ ابتلاع ريقي، فقلتُ بجدية واضحة: "لن ولم أكن معارضة للسلطة يوماً ما..." ضحكتْ مقاطعةً، وقالت بأنها على ثقة من ذلك، ولكن ذلك من أساسيات المهمة التي

سأتكفل بها، وشرحتْ لي باستفاضة، الفكرة التي لم يتخذ بها القرار بعد، والحقيقة، لقد راقت لي الفكرة وصرتُ أتخيل نفسي وأنا أسير في شوارع أوربا نصف عارية، فلا شمس حارقة هناك...

"هل يعني هذا، أنَّ عليَّ الموافقة على الخطبة؟"

"نعم." قالت بثينة بثقة واضحة ثم أضافت: "ولكن علينا الانتظار قليلاً حتى تصدر التعليمات".

***

شاهدتُ صورة "عريس المستقبل" قبل أن أعلن موافقتي، أهم ما كنتُ أبحثُ عنه، طوله، فاتضح أنه طويل نسبياً، أسمر فاحم الشعر بعينين سوداوين واسعتين، وأنف متوسط الحجم، أصغر قليلاً من الحجم الشائع، كان مقبولاً بحجمه المتوسط نسبياً. جبهته عريضة وكذلك كتفاه. الحقيقة لم أجد فيه ما يعيب، لكنني وجدتُ في بعض الحقائق التي من شأنها إعاقة إتمام الزواج، ضرورة، في مناقشتها مع أهل العريس...

سألتُ "باهرة" أخت العريس، الأرملة التي أكلت الحرب زوجها معدوماً، بعد أن رفضَ أن يكون زيتاً لإدامة ماكينة الحرب، فترك لها خمسة أيتام لا تعرف كيف تسد رمقهم لولا مساعدات أخيها التي تأتيها من الخارج: "كيف ستتم مراسيم الزواج، والعريس كما علمت، لا يستطيع أو لا يرغب بالعودة إلى بلده؟" ثم أضفت بعد أن تلمستُ الحيرة في عينَي المرأة: "وكما تعرفين فإنّ السفر ممنوع بقرار رئاسي، فبأي حجةٍ أسافر؟" قالتْ "باهرة" بعد لحظات صمت، وكأنّها تحاول أن تداري حيرتها، بأن عليها مناقشة الأمر مع أخيها حتى تعرف أي فكرة لديه، فأخبرتُها بأنني قادرة على التواجد في شمال البلاد، حيث لديَّ أصدقاء هناك يمكنهم مساعدتي في العبور إلى الدولة المجاورة شمالاً، ثم طلبتُ من "باهرة" أن تخبر أخاها بذلك، عسى أن تروق له الفكرة. ابتسمتْ المرأة، وشعرتُ

بعلامات فرح قد ارتسمت على ملامحها، وقالتْ متسائلة: "هل أفهم بأنكِ موافقة؟"

حين أشرتُ بالموافقة انطلقت الزغاريد...

لكن شرطي كان واضحاً.

"لا عرس، ولا زفاف، إلاّ حين أكون في ستوكهولم.".

***

حدائق المديرية تمنح النسائم الصباحية عبقاً خاصاً، ينعش الحواس وينشط الدورة الدموية، ذلك ما قلته لـ "بثينة" وأنا أجلس أمامها داخل غرفتها، فضحكتْ معلنةً معرفتها السابقة بشعوري ذاك، فقد أفصحتُ عنه أكثر من مرة، ثم نظرت إليَّ بتمعن وقالت:

"مبروك" اتسعت عيناي والدهشة تتلبسني. "هل تمت الموافقة؟" سألتها بلهفة، فردّتْ مبتسمة دون أن تفارقني نظرتها المتفحصة:

"نعم... تمت الموافقة، ووضعتْ الخطة بشكل متكامل..." غزت جسدي رعدة خوف، واقشعر بدني، شعرتُ بشعر رأسي وقد ارتفع نتيجة شحنة كهربائية، فرفعتُ كفيَّ بحركة لا إرادية علامة الاستسلام... حالة من التيه سيطرت عليَّ، فقد أصبح الأمر واقعاً، وازدحمتِ العديد من الأسئلة في رأسي وكلها تتجه صوب المصير المجهول الذي سأتجه نحوه...

يبدو أن "بثينة" كانت تقرأ إيحاءات جسدي وحركة عينيَّ، فاقتربتْ مني ماسكة كتفي وهي تشيد بشجاعتي وتفصح عن يقينها بقدرتي على إتمام المهمة بنجاحٍ باهر، ثم جلستْ إلى جانبي طالبةً مني الإصغاء، فاستمعتُ لها صامتةً...

شرحتْ لي الخطة بكامل تفاصيلها، وأخبرتني بأهمية ما سأحمله معي، وراحت تسمي لي المناطق التي سأمكث بها ليلة أو أكثر، وأشارت بشكل

واضح، إلى أن المهم، هو قناعتي وإيماني بأنني هاربة، معارضة للسلطة، وأن لا مجال عندي للتراجع أو العودة، وكنتُ قد أخبرتها من قبل بما أخبرتني به "باهرة"، بأن لزوج المستقبل، صديقًا يثق به اسمه "زينل"، سيكون عند النقطة الحدودية ليستقبلني هناك، حتى أصل معه إلى أهلهِ الساكنين في "ديار الكرز" على ضفاف البحر الأسود والتي زارها "زوج المستقبل" عدة مرات كما أخبرتني أخته، وما علينا سوى إخبار "أميري" بالتاريخ المحدد لوصولي هناك... وبعد أن أكملتْ "بثينة" شرحها التفصيلي سألتني:

"هل لديكِ أي مقترحات أو طلبات ضمن الخطة؟". الحقيقة كان سؤالها صادماً، فأصابني بنوبة صمت مرَّ خلالها شريط سينمائي منتجَتْهُ ذاكرتي على عجالة، فقلت كلمة واحدة وصمتُّ: "سحر".

انتفضت "بثينة" وارتعدَ جسدها، وأرادت أن تقول شيئاً، إلاّ أنها تراجعت ولاذت بالصمت دقائق قليلة. دارت حول نفسها، ثم اتجهت صوب طاولة مكتبها، مسكت ظهر الكرسي ناظرةً صوب الأرض، لفّتهُ مرتين بأصابعها، وأعادته إلى وضعه السابق. تحركت قليلاً، ثم اتجهت نحوي بعينين متسعتين لا ينقصهما الغضب. كل ذاك، ونظري لم يُفلتها لحظة. كنتُ أنظر إليها بتوجس، وأعترف أن الخوف قد اعتراني، لكنها حين زفرتْ وهي تشرع بالجلوس قبالتي تماماً، شعرتُ ببعض التغيير في مزاجها. نظرتْ بعمق عينيّ وسألتْ: "هل ما زلتِ تفكرين بها؟ ألهذه الدرجة تحبينها؟" شعرتُ بانفراج وشيك فأجبت على الفور: "أبداً، ولكنها الأجدر في تقديمي إلى المسلحين كهاربة من السلطة..." قلتها وأنا أُوزّع نظراتي بين الأرض وعينَيْ مسؤولتي، ثم استدركتُ قائلةً: "إذا رسمنا خطة توحي لها بأنني أقوم بتهريبها من العاصمة إلى قريتها، فذلك سيبرر قرار هروبي خارج البلد وعدم القدرة على العودة...".

نهضت "بثينة" من أمامي واتجهتْ صوب كرسيها لتجلس وهي ترفع سماعة الهاتف. ضغطت على ثلاثة أزرار ثم أعادت السماعة إلى مكانها بعد بضع ثوانٍ دون أن تنبس بكلمة... نظرتْ صوبي ومنحتني ابتسامة حائرة، وسألتني إن كنت أرغب بالشاي مع القرفة، فهززتُ رأسي موافقة، فأشارت لي حيث الزاوية علامة إلى "اخدم نفسك بنفسك"، فتوجهتُ إلى هناك حيث ينتصب الترموس، فسكبت فنجانين، قدمتُ أحدهما لها ووضعتُ الآخر أمامي لأعود إلى جلستي، وبعد الرشفة الثانية فُتح باب الغرفة ليدخل "السيد سهيل" حاملاً بعض الملفات بين يديه. وقفتُ وبثينة احتراماً عسكرياً، ثم عدنا إلى مكاننا بعد أن أشار لنا بذلك. سألته إن كان راغباً بفنجان شاي فوافق وهو يشرع بمحادثة "بثينة"، لكنه التفتَ إليَّ فجأة وكأنه تذكر شيئاً مهماً، ابتسمَ وطلبَ مني المغادرة واعداً إياي بمكالمة هاتفية مساء اليوم...

"لا أدري ما سيترتب على اقتراحي إطلاق سراح "سحر" واصطحابها إلى قريتها الشمالية لتكون المزكي والشفيع الأهم لي أمام الجماعات المسلحة، لكنني قرأت بعينَيْ "سهيل" بعض الحميمية التي منحتني الهدوء والاطمئنان..."

عند التاسعة مساءً، رنَّ هاتف بيتنا، ليعلن نهاية الانتظار القلق. رفعتُ السماعة واستقبلتْ حواسي صوت "سهيل" الضاحك، وهو يضرب معي موعداً صباح الغد في مكتب رياض، فهناك "أمانة عليَّ تسليمها لوالدي". فهمتُ الرسالة، وأغلقتُ الهاتف مودعة سهيل على أمل اللقاء قريباً. لم تدم المكالمة أكثر من دقيقة ونصف على أكثر تقدير.

***

ارتبكَ رياض حين دخلتُ بصحبة سهيل إلى مكتبه، فقد كان على دراية بأن سهيل سيزوره ذلك الصباح، أما أن أكون بصحبته، فذلك لم يكن

ضمن حساباته، سهيل الثعلب، تلمَّس ارتباك رياض، وحاول إضفاء بعض المرح من خلال مزحة جعلت رياض أقل تشنجاً، وذلك ما لاحظته عليه حين استلم مني المبلغ الذي أخذته من شاب في الثلاثين من عمره أمام بوابة البنك في الوقت الذي كان سهيل داخل سيارته يراقب الموقف...

طلبتُ من سهيل أن نغادر مكتب السيد مدير البنك، ونترك الحسابات له... وحالما خرجنا، عدتُ إلى رياض لأدس في أذنه اليسرى بضع كلمات: "نلتقي في صومعة العشاق عند السادسة...". ثم خرجتُ ملتحقة بسهيل الذي صار قريباً من سيارته... فتحتُ الباب وجلستُ إلى جانبه، وقبل أن يضغط على دواسة البنزين، غزوته بقبلة تحت أذنه اليمنى كانت كفيلة في إطلاق ضحكة اهتزّ لها كرشه...

نظر سهيل صوبي، وسألني: "إلى أين؟" فقلتُ بثقة:

"إلى النهر حيث السمك المشوي... هل تذكر لقاءنا الأول؟".

"نعم، لكن الببغاء مات.".

هناك عرفتُ سهيل آخر، كان صارماً، آمراً، يزن قوله وهو يشرح لي تعليمات الخطة التي سأتبعها دون خطأ، وكانت فرحتي كبيرة حين أخبرني بالموافقة على إطلاق سراح "سحر" وأثنى على فكرتي التي اقترحتها على بثينة سابقاً...

سلّمني رزمة من الوثائق "المهمة" وسلّمته هويتي والمسدس الذي كان بذمتي...

"وداعاً جنّات عبد الرحمن". كانت آخر عبارة أسمعها بصوت سهيل، أقصد السيد اللواء.

عشرة أيام فقط تفصلني بين عالمي الذي اعتدت عليه والعالم المجهول الذي عليَّ الخوض بأتونه المخيف...

***

عند السادسة مساءً، فتحتُ باب الشقة بمفتاحي الخاص، وما أن دخلتُ، حتى وجدتُ رياض مسترخياً على الأريكة، غارقاً بموسيقى "متتالية إسبانية" لإيزاك ألبينيث، التي يعشق، والتي أعرف قصصها نظراً لقصص المدن التي حملت أسماء المقطوعات، وعلاقة بعضها باقتباسات "فريد الأطرش" الشهيرة منها، حيث سبق وأن حكى لي رياض قصصها بأسلوبه المشوق الجميل... الشموع تحتل أغلب زوايا الشقة، ووسط الصالة مسدلة الستائر، يحتفل بمشهد ضوئي مبتهج يقترب من مشهد مسرحي استهلالي متقن التكوين... خلعتُ فستاني الخمري، وارتميتُ على جسده المنتظر منذ وقت... التقطتُ شفتيه فعرفتُ أنه قد حظى بكأس أو أكثر من قنينة النبيذ التي تنتصب على الطاولة الواطئة العامرة بأنواع عديدة من المقبلات.

أخذني بين ذراعيه، ومنحني حنانه مخلصاً، حتى توردت روحي شاهقةً أكثر من مرّة، عند ذاك أغمضَ عينيه مسترخياً، وشفتاه ترسم أرقّ ابتسامة...

حين خرجتُ من الحمام صرتُ أسمع شخيراً خفيفاً متناغماً مع موسيقى "ألبينيث"... ارتديتُ ملابسي، ورميتُ الغطاء على جسده الطفولي. أخذتُ قميصه الذي كان قد خلعه حالما ارتميت على جسده، طويته ودسسته داخل حقيبتي، ثم غادرتُ الشقة وأنا بكامل انتشاء عذريتي.

غالبًا ما تُشكل الغربة،

نغمة مؤلمة، داخل إيقاع الروح...

سِفر الغربة

(17)

بمشورة من "بثينة"، حررتُ في مكتب كاتب العدل، وكالة عامة لوالدي، كي تمكنه صرف رواتبي من البنك شهرياً، ويتمكن أيضاً من التصرف بما أدخرهُ من مال في حسابي البنكي... وما أن عدتُ إلى البيت، وسلّمتُ أبي أوراق الوكالة، حتى اتفقتُ معه وبحضور والدتي على كل شيء، خصوصاً مهاتفة "أميري" زوج المستقبل، وإخباره بسفري إلى شمال البلاد، بعد أن حددتُ معهما موعد سفري إلى الشمال بسيارتي، وحين أصل هناك، سيأخذ أحد الأشخاص السيارة مني حتى يعيدها إلى بيتنا خلال أيام قليلة، ثم انزويتُ بوالدي حيث غرفتي، وهناك، فتحتُ أمامه خزنتي، وأطلعته على مدخراتي، وشرحتُ له بالتفصيل ما عليه فعله بعد غيابي، حتى واجهني بأصعب سؤال كنتُ أتوقعهُ:

"من أين لكِ كل هذه الأموال؟". صحيح أني ارتبكتُ قليلاً إلا أنني كنتُ مستعدة للإجابة على سؤاله مسبقاً:

"أكثر من ست سنوات، كانت كافية لجمع هذا المبلغ من عملي، ولا تنسَ يا أبا حياة، المبالغ التي أودعتْها بحسابي عمتي "غنوة" رحمها الله من مستحقات ابنها الشهيد ورواتبه، بالإضافة إلى بعض الأموال التي أتتني نتيجة تمشية معاملات بعض الأشخاص اعتماداً على خبرتي القانونية...".

انهمرت دمعتان من عيني أبي بصمت قاتل... لم تكن المرة الأولى التي أرى فيها دمعة أبي، لكنها هذه المرة كانت الأكثر قساوة... احتضنته ودخلتُ بنوبة بكاء بَذل على إثرها "أبو حياة" جهده المرير لأكفَّ عنه.

"دمعتهُ، لغةٌ، لا تجيدها، إلاّ الآثمة مثلي.".

***

جهّزتُ حقيبتي، وقبل ذلك كنتُ قد جهزت سيارتي. الزيت والوقود والماء، والملابس التي اشتريتها قبل يومين على قياس "سحر" ضئيلة الجسد، وملابسي ومجموعة الدفاتر الصديقة بصورها الملصقة، ولم أنسَ قميص رياض، وجلستُ منتظرة رنين جرس البيت قبل السادسة صباحاً تقريباً...

كانت الخطة التي وضعتْها لجنة من "المديرية الرابعة" برئاسة اللواء سهيل، تتلخص في أن يتم إطلاق سراح "سحر" بعد اعتقال دام قرابة السنتين، حيث يتم إنزالها من السيارة عند بداية زقاقنا في الساعة الخامسة والنصف صباحاً، وكونها تعرف بيتنا جيداً فإنّها حتماً ستتجه صوبه... أما إذا قررتْ غير ذلك، فسيتكفل مَنْ في السيارة – على الأغلب ضابط وشرطي بمهمة سائق -بإجبارها على دخول زقاقنا، فالتعليمات الصادرة لهما تقتضي بأن لا يفارقاها حتى تدخل دارنا... رغم برودة الليل الربيعي، صعدتُ حيث سطح الدار أراقب زقاقنا من خلال سياج الطابق الأول الحديدي. كنتُ متلحفة بشال صوفيّ أهداني إياه رياض دون مناسبة...

عند الخامسة وأربعين دقيقة، توقفت سيارة داكنة اللون في بداية الزقاق، ثم رمت كتلة سوداء تدحرجت على الأرض. ابتعدت السيارة قليلًا ثم توقفتْ. نهضت الكتلة. التفت حول نفسها. ثم تحركت مبتعدة عن السيارة باتجاه عمق الزقاق حيث دارنا، لكنها حين وصلت باب دارنا وقفت قليلاً ثم واصلت هرولتها المتعثرة، لتعود بعد بضع خطوات وتقف أمام الباب، وفي لحظة خاطفة اختفت الكتلة ولم أعد قادرة على رؤيتها، صار الباب يحجب الرؤية، مما يعني أنها سقطت على الأرض، هرعتُ نازلةً، وقبل أن أفتح باب المطبخ المؤدي إلى مرآب السيارات ومدخل البيت سمعت رنة واحدة لجرس الباب بالكاد تُسمع، فتحتُ الباب الرئيسي لأجد الكتلة

السوداء متكومة على الأرض، اقتربتُ منها تفحصتها ونظرتُ إلى وجهها فلم أتعرّف عليها، لكنها، يجب أن تكون "سحر" زميلتي وصديقتي الأقرب إلى الروح. شبكتُ ذراعيَّ على بطنها ليلاصق ظهرها بطني، وسحبتها في حركة تدربت عليها سابقاً عند محاولة إخلاء جريح. كنتُ حريصة على أن لا أحدث جلبة توقظ النيام، سحبتها إلى غرفتي ومددتها على الأرض، ثم خرجتُ لأقفل الباب الرئيسي وباب المطبخ. تناولتُ دورق ماء من المطبخ ودخلتُ "غرفة جدي" مسرعة. اقتربتُ من الجسد الملتف بعباءة نسائية كالحة السواد، جثوتُ على الأرض وأزلتُ العباءة، غزتني رائحة جسد بشري لم يغتسل منذ فترة طويلة، فتذكرتُ تلك الرائحة المقرفة التي كنتُ أشمها وأنا داخل المعتقل أثناء مهمتي التجسسية. أخذتُ الرأس بكفي اليسرى ليواجهني وجه مصفر بهالتين سوداوين حول العينين المغمضتين. حاولت أنْ أسقيها شربة ماء ولكنها لا تستجيب. بللتُ كفي اليمنى بقليل من الماء ومسحتُ وجهها فسمعتُ شهقة مفاجئة. طبطبتُ على خدها وناديتها باسمها ففتحت عينيها ليشع الأخضر بوجهي مختلطاً باحمرار مخيف، فابتسمتُ لها رغم هلعي من احمرار بياض عينيها. طلبتُ منها أن تشرب القليل من الماء، فحاولتْ، ونجحتْ محاولتها بترطيب فمها، ثم استطاعت ابتلاع ريقها...

"ليس أمامي إلاّ الحمام" قلتُ لنفسي. سحبتها بالطريقة نفسها وأدخلتها الحمام. وما أن جرّدتها من ملابسها حتى راعني ما شاهدته على جسدها من كدمات، ونحول واصفرار... أدخلتها "البانيو" وشرعتُ برش جسدها بماء فاتر فبدأت تستعيد الوعي تدريجياً، وأثناء ذلك، فُتح باب الحمام لأرى أمي واقفة دون أن يفارق النعاس عينيها المندهشتين. على الفور طلبتُ منها المساعدة فاقتربت ذاهلة وهي تسأل، أجبتها باقتضاب: "إنها سحر يا أمي... سحر صديقتي..." وحين سألتني عن خطبها، نفيتُ معرفتي بالأمر وأرجأت الحديث إلى وقت لاحق.. خلعتْ أمي ثوبها

ودخلت "البانيو" وشرعت تغسل الجسد الضئيل بالليفة والصابون وهي تردد كلمات عاجزة تندب تعاسة الحظ...

لم تفقْ "سحر" من نومها بعد الاغتسال حتى الرابعة عصراً، بعد محاولاتي المتكررة لإيقاظها، وما أن فاقتْ مستعيدةً وعيها حتى احتضنتني وأجهشت بالبكاء... كانت أمي قد أعدت لها وجبة خاصة حسب تعبيرها، حساء العدس مع كمية كبيرة من البصل وصدر الفروج، قالت إنها ستغذيها وتسند روحها...

عاد أبي من الجامعة وهو يسأل بلهفة عن وضع "سحر" الذي أحزنه صباح اليوم وهو يتفحصها ويسمع ما حدث. حيث حكيتُ له كيف وجدتُها متكومة أمام باب دارنا. جلس إلى جانبها وهي تحتسي الشوربة ببطء شديد. مسحَ على رأسها وطمأنها بكلماته الحنينة وفيض حميميته، فأذرفت دموعها مرة أخرى. طلبَ منها عدم الكلام، موضحاً أن كل شيء فيها يوحي إلى شيء واحد لا يحتاج الشرح، لكنه قال بكلمات واضحة وبطء أفصح عن حنين صوت أبوي دافئ: "لا أحد سيطلب منكِ الكلام... ولكن حين تجدين الرغبة فيه سنكون سعداء لسماعكِ بكل تأكيد.".

رنَّ الهاتف، وحين رفعتُ السماعة وصلني صوت "بثينة" وهي تسأل عن استلام "الهدية" فأخبرتها أن كل شيء على ما يرام، ثم قالت آمرة: "عند الخامسة صباحاً تنطلقين بسيارتك ومعك الهدية.". ثم أغلقتْ هاتفها.

أخذتُ "سحر" إلى غرفتي أو "غرفة جدي" أخرجتُ لها الملابس الجديدة وأخبرتها أنني خرجت عندما كانت نائمة واشتريت لها ما تحتاجه، ثم أخبرتها بأنني سأوصلها إلى أهلها بسيارتي، فارتعدت ورفضت خوفاً عليَّ، حينها أخبرتها بضرورة ما سأقدم عليه لأنني قررتُ الهرب للقاء

حبيبي الذي خطبني بشكل رسمي من أهلي وتمت الموافقة، فوافقتْ بتردد، ثم طلبتُ منها أن تنام جيداً لأننا سننطلق عند الخامسة صباحاً...

***

كانت الطريق سالكة، خصوصاً حين تجاوزنا حدود العاصمة. الطريق الخارجي الذي أعرفه جيداً غالباً ما يكون عند الصباح خالياً إلا من بعض شاحنات بضائع... عند تمام العاشرة أو بعدها بدقائق قليلة، توقفنا عند استراحة تضم مطعماً ومقهى وجامعًا صغيرًا، إلى جانب بابه دكان عامر بالبضائع، اشتريت من هناك بعض العصائر والبسكويت ومناديل ورقية للجيب، ثم انطلقتُ مواصلة طريقي نحو المحافظة الشمالية الأولى التي وصلتها عند الواحدة بعد الظهر، وكنا قبل أن ندخل المحافظة بعشرة كيلومترات تقريباً قد مررنا بسيطرة عسكرية لم نقف عندها تنفيذاً لأمر أحد عساكرها الذي أشار لي بالمواصلة... توقفتُ عند مطعم "كباب آزاد" حسب التعليمات، ودخلتُ بصحبة سحر لتناول وجبة الغداء. أخبرتُ "سحر" بأننا سنستأجر تاكسي ليأخذنا إلى قريتها، ونترك السيارة في مكانها حتى لا تجلب الشبهة من قبل بعض الفصائل المسلحة، فقيادة المرأة للسيارة في تلك المناطق يعد أمراً غير مألوف، ولكننا حين نصل البيت، سنطلب من أحد الرجال جلب السيارة لنا، فوافقت بهزة من رأسها، وكنتُ أعلم تماماً بأن هناك من سيأخذ سيارتي حالما نغادر المكان، وربما هو يراقبنا الآن... بعد أن أنهينا وجبتنا ودفعتُ الحساب، توجهنا إلى السيارة وأخذت حقيبتي الكبيرة وكذلك اليدوية التي اخترتها كبيرة الحجم نوعاً ما لأخبئ المبلغ المالي الذي أخذته معي والذي سأستعين به إن حدث أمر طارئ... قفلتُ السيارة، وأشرتُ إلى تاكسي تحدثت "سحر" معه، فطلب منها أجرة مضاعفة حسب رأيها، لكنني وافقتُ لينطلق بنا صوب القرية وصوت جهاز التسجيل يصدح بأغنية سريعة الإيقاع لا أفهم من كلماتها شيئاً...

لم يصدّق أحد من أفراد العائلة أن "سحر" أمست بينهم، استقبلوها بالبكاء والصراخ والاحتضان خصوصاً والدتها التي شارفت على الانهيار وهي تستقبل ابنتها الغائبة لفترة طويلة. ذبح والدها خروفاً ضخماً عند قدميها وهو يردد كلمات الشكر لربه الذي استجاب لدعواته وتضرعه...

يبدو أن الخبر قد انتشر في القرية وربما القرى المجاورة، فقد توافد العديد من النساء والرجال يتبعهم الأطفال إلى بيت "العم مشكور" ليتأكدوا من الخبر ويهنئوا العائلة بسلامة ابنتهم...

في صبيحة اليوم التالي طلبتْ "سحر" من أبيها أن يبعث وراء نشوان لأمر هام، على إثر حديثي معها ليلة أمس قبل أن نستسلم للنوم، حيث أخبرتها بأن تطلب من نشوان أن يجلب سيارتي، أو ربما يكلّف أحد رفاقه بذلك، فابتسمت لي، وقالت بأنها انتظرت رؤيته طويلاً، وكانت قد "نذرت" وهي داخل الزنزانة، أن تتزوجه إن خرجت على قيد الحياة، وأنها ستفعل ذلك قريباً بعد أن تفاتح والدها بذلك...

عند الثامنة مساءً، أتى نشوان بصحبة ثلاثة مسلحين، دخل الثلاثة البيت وظلّ نشوان خارجه، فخرجت "سحر" لتلتقي بحبيبها بعد فراق دام طويلاً، وبعد نصف ساعة تقريباً نادت والدتها على "سحر" لتدخل هي ونشوان ليتناولوا عشاءهم. حين ذاك فقط، رأيتُ نشوان وهو يدخل مبتسماً بقامته الفارعة ممسكاً بحزام بندقيته المعلّقة على كتفه اليسرى، ألقى التحية وتوجه نحوي مصافحاً وهو يهيل على مسامعي كلمات الشكر والامتنان كوني ساهمتُ بإنقاذ حبيبته وجازفتُ بحياتي لأوصلها إلى أهلها سالمة...

قبل أن يغادر "نشوان" ورفاقه بيت "العم مشكور" بساعة واحدة، دخلتُ إلى الغرفة واستللت مظروفًا متوسط الحجم، وخرجتُ إلى صالة

"المضيف" لأطلب من "نشوان" كلمة على انفراد، فنهضَ وأخذني إلى الزاوية القصية القريبة من الباب، وما أن جلسنا هناك، حتى شرعتُ أقص عليه قصتي وقراري اللقاء بحبيبي الهارب من سلطة "بطل الحرب" وإن ذلك يتطلب تجاوز الحدود لأكون بعد يومين أو ثلاثة على أكثر تقدير في مدينة "سيلوبي" حيث ينتظرني صديق حبيبي، ثم سلمته المظروف وأنا أشرح له أهميته: "هذا المظروف يحتوي إلى وثائق حكومية مهمة جداً، تخص العديد من رفاقك والتنظيمات المناهضة لنظام "بطل الحرب" أعتقد أنها مهمة لكَ ولتنظيمك، وإذا سألتني كيف حصلتُ عليها، سأعترف لكَ بأنني اشتريتها من أحد الضباط بمبلغ كبير كوني أردت معرفة سبب اعتقالي لأكثر من أسبوعين في إحدى المديريات الأمنية، ولم يخطر ببالي أن ذلك الضابط سيزودني بما وقعتْ عليه يده من وثائق ومراسلات مخابراتية بضمنها الكتاب الذي يتضمن اسمي وتاريخ اعتقالي..." كان "نشوان" ينظر إليَّ صامتاً وهو يستمع لكلماتي بتركيز تام، وما أن انتهيت حتى أخذ المظروف مني واعداً إياي بأن يرد لي جوابه حول سفري، بعد ظهر الغد...

"هناك موضوع آخر..." قلتُ له، فعاد مصغياً، حيث أضفت: "سيارتي متوقفة أمام مطعم "كباب آزاد" هذا مفتاحها، إذا كان بالإمكان جلبها إلى هنا أكون ممتنة لكم..." استلم المفتاح مني بالإضافة إلى ورقة صغيرة مدون عليها رقمها ولونها وماركتها...

تعافت "سحر" على حليب الماعز وخبز الشعير الذي تناولته لثلاثة أيام متتالية، وغاب تشنج خديها عند الابتسامة، بل توردت وجنتاها وهي تسمع موافقة والدها على زواجها من "نشوان" الذي أخبرني آسفاً بأنهم لم يجدوا سيارتي أمام المطعم، وكان قبلها قد أخبرني بجهوزية الدليل الذي سيعبر بي وثلاثة غيري الحدود صوب الخلاص...

ودعتُ الجميع، بعد توسلاتي المريرة بأن تقبل "سحر" مبلغاً من المال هدية لزواجها. رفضته بشكل قاطع مشيرةً إلى أن وصولها لأهلها بمساعدتي كان الهدية الكبرى... احتضنتها طويلاً وذرفتُ دمعة صادقة لفراقها...

انطلقت سيارة "التويوتا بيك آب" عند العاشرة صباحاً. كانت الطرق القروية صعبة وغير معبدة، فقد سلك السائق طرقاً يعرفها خالية من السيطرات والمراقبة، وعند أول مدينة وصلها توقف عند محل لبيع الفواكه والخضار نزولاً عند طلبي، حيث كنتُ أروم مهاتفة "أميري" لأخبره بموعد وصولي إلى مدينة "سيلوبي" حسب ما أخبرني به السائق. لم يرد على مكالمتي فتركتُ له رسالة صوتية على جهاز التسجيل الملحق بالهاتف، واعدةً إياه بمعاودة الاتصال بأقرب فرصة ممكنة...

عند الثانية بعد الظهر وصلنا بيتاً حجرياً لا يختلف كثيراً عن بيت "العم مشكور" والد سحر. هناك وجدنا الدليل الذي سيعبر بي الحدود سيراً على الأقدام... كان البيت الحجري يبعد عن النقطة الحدودية الحكومية قرابة الخمسة كيلومترات غرباً، ذلك ما أخبرني به الدليل، وعندما سألته عن موعد الانطلاق، قال وأصابعه مشغولة بتجهيز لفافة تبغ: "حين يصل بقية الأشخاص الذين سيرافقوننا الرحلة." ثم صمت. نظرتُ صوبه متفحصة هيئته، وسألته بعد لحظة صمت: "هل الرحلة آمنة؟". رمقني بنظرة خاطفة وقال وهو يعيد نظره إلى كيس التبغ: "ليس هناك شيء آمن في هذه الحياة، المخاطر تحيط بنا كحيوانات مفترسة...".

الدليل الذي لم نعرف له اسماً، رفض التحرّك خطوة واحدة دون أن يستلم أجوره بالكامل، وكان له ما أراد رغم أنه طلب ضعف ما قدرهُ "نشوان"...

انطلقت الرحلة عند التاسعة ليلاً، ثلاثة بغال، أربعة رجال وامرأتان، أنا و"أم رائد"، امرأة في منتصف الثلاثين، تبدو أصغر من عمرها، قوية البنية، نشطة بمزاج رائق، عاشقة للنكتة، سمراء بلكنة جنوبية...

كانت الطريق شاقة، خصوصاً حين الصعود، لكننا وبعد خمس ساعات، كنا قد قطعنا ثلثي المسافة، حسب ما أخبرنا به الدليل. نزلنا إلى وادٍ كثيف الأشجار مما زاد من العتمة. جلسنا هناك قرابة النصف ساعة حسب أوامر دليلنا، ثم واصلنا السير صعوداً. كانت تلك الاستراحة ضرورية لتجميع قوانا، عند الخامسة فجراً أشار لنا الدليل إلى عمود اتصالات بعيد، قال إنّه مركز مدينة صغيرة تبعد عنا قرابة الثلاثة كيلومترات، هناك يمكننا أخذ سيارة تاكسي والتوجه إلى أي مكان نريد، فقد تجاوزنا الحدود منذ ساعة تقريباً، دُهشنا لذلك الخبر، كيف نتجاوز حدود بلد وندخل بلدًا آخر دون أن نشعر بأي علامة أو نقابل أي عسكري أو حرس حدود؟

ودعنا الدليل وعاد يقود بغاله، فتوجهنا صوب عمود الاتصالات والخوف يتلبسنا.

تمسكتُ بـ "أم رائد" التي صارت تحكي لي قصصًا ممتعة أجاد بها خيالها الخصب حسب ظني، وكانت إحدى القصص، تتحدث عن فتاة جنوبية عشقت أحد الجنود في السنة الأولى للحرب، كان شاباً في العشرينيات من عمره وكان مصراً على الفرار إلى دولة مجاورة، فأخذها إلى العاصمة حيث أهله وتركها هناك "أمانة" عندهم، وسافر بغية الخلاص من الموت الذليل. انتظرت الفتاة فترة طويلة لكن حبيبها قد غاب طويلاً دون أن تعرف له مصيرًا، فقررت هي الأخرى الهروب إلى تلك الدولة للبحث عن حبيبها عسى أن تجد له أي أثر. ثم صمتت "أم رائد" وكأن غصة في صدرها صارت تمنعها عن الكلام. قدمتُ لها شربة ماء، فشربت

ثم سألتني إن كنتُ متزوجة أم لا، فأخبرتها بأنني ذاهبة صوب الزواج، فضحكتْ وهي تشير إلى جنون العشق الذي يتطلب عبور أكثر المناطق وعورة...

وصلنا مدينة صغيرة تعج بالكلاب السائبة، ودعتُ "أم رائد" وأخذتُ سيارة تاكسي إلى فندق "سيلوبي غراند" حسب الاتفاق، حيث عليّ مهاتفة "أميري" من هناك، والمكوث في الفندق حتى يأتي صديقه "زينل" ويأخذني إلى مدينته...

في بهو الفندق، تفحصتُ حقيبتي اليدوية بحثاً عن جواز سفري الذي استلمته من "بثينة" مختوماً بتأشيرة الدخول إلى البلد. أخرجتُ الجواز، وبضعة دولارات وتوجهتُ إلى الاستعلامات وطلبتُ غرفة لشخصٍ واحد...

لا أعرف كم من الوقت مضى وأنا نائمة بعد وجبة طعام خفيفة تناولتها في مطعم الفندق، وكنتُ قبلها قد هاتفتُ "أميري" وأعطيته بيانات غرفتي... صحوتُ على رنين الهاتف، ليخبرني موظف الاستعلامات بأن هناك شخصًا ينتظرني في بهو الفندق، فطلبتُ منه أن يخبر الضيف بأنني سأقابله بعد نصف ساعة.

كان "زينل" من ينتظر مقابلتي في بهو الفندق، شاب في منتصف الثلاثين من عمره، متوسط الطول، ممتلئ الجسم قليلاً، بشرته وردية محمرة، أشقر الشعر والشاربين، وقد أخذت عيناه لون العسل، يتكلم العربية الفصحى. رحبتُ به ودعوته إلى مشاركتي في تناول وجبة طعام، معلنة شكوى جوعٍ بحاجة إلى وأدٍ مؤقت، فضحك موافقاً...

درس "زينل" الأدب العربي في الجامعة، واشتغل في التدريس الثانوي لمدة عام دراسي كامل، انتقل بعد ذلك إلى ستوكهولم بعد أن تزوجته امرأة تكبره بعشر سنوات تعيش في السويد منذ صغرها، اشتغل هناك مدرساً

للغة العربية، ولكن لتلاميذ صغار من أبناء الجالية العربية، وهناك في العاصمة ستوكهولم تعرّف على "أميري" وصار صديقه المقرّب، لكنه وبعد خلاف مستعصٍ مع زوجته أدى إلى طلاقهما، قرر العودة إلى وطنه ليشتغل بالزراعة وتربية الحيوانات، بعد أن اشترى قطعة أرض ملاصقة لأرض عائلته... عرفتُ كل هذا، نتيجة سؤالي الوحيد له: "أين تعلمت اللغة العربية؟". يبدو أن "زينل" حكّاء من الطراز الممتع.

***

أخذني "زينل" بباص سياحي مكيّف إلى مدينة رائعة الجمال بساحل بحري معتنى به بشكل لافت. يبدو أن حركة السياحة تعد شرياناً مهماً للمنطقة، وحين سألته عن المنطقة، أخبرني بأننا في محافظة "غيرسون" ثم أشار جهة البحر وقال بأنه "البحر الأسود"، حينها، أفصحتُ عن رغبتي في أن أغرف قليلاً من ما البحر وأتذوقهُ، فأخذني حيث الميناء القريب... هناك تذوقتُ ماء البحر فتفاجأتُ بملوحته، وحين بصقتُ الماء من فمي، لاحظ "زينل" علامة الاشمئزاز على ملامحي، فضحكَ عميقاً وقال متأكداً بأنها المرة الأولى التي ألامس بها بحرًا، فوافقته ضاحكةً...

"نتمشى قليلاً حتى نصل موقف سيارات الأجرة لتأخذنا إلى القرية" قال "زينل" صاحب الاسم الغريب الذي أسمعه للمرة الأولى، والذي أثار فضولي منذ سمعته على لسان "أميري" عبر الهاتف. قبل أن نصل موقف السيارات سألته عن اسمه ومعناه فضحك، وقال بأنه اسم عربي من المؤكد أنني سمعته كثيراً. ابتسمتُ باستغراب وأنا أنظر إلى عينيه الواسعتين، نافيةً ما رمى إليه، فسألني إن كنت قد سمعت باسم "زين العابدين" فقلت: "كثيراً... إنه اسم شائع في بلدي.." فضحك مرة أخرى وقال بأن اسمه مختصر لاسم "زين العابدين"... ضحكتُ بصوت

مسموع وأنا أردد "زين وأل التعريف، دون عابدين... إنها فكرة رائعة...".

صارت السيارة ترتقي ارتفاعات، ثم تهبط متهادية وكأنها ترقص على إيقاع موسيقى المذياع، شعرتُ حينها، أن للمناطق الجبيلة عالمها الخاص، عالم أكثر حميمية من المناطق والأراضي المستوية...

عند طريق ريفي فاصل بين بساتين، تظلّله أشجار الكرز والفستق وبعض أشجار قصيرة كثيفة تشكل سياجاً طبيعياً، طلب "زينل" من السائق التوقف، وما أن خطونا بضع خطوات حتى سمعتُ تغريداً رائعاً لطير ظننته الكروان، كان هناك أكثر من طائر يبث سحر صوته بفضاء شاسع. يبدو أنه موسم التزاوج لطيور نادرة... في لحظة وأنا مأخوذة بسحر الطبيعة، سمعتُ تغريدة طائر، وكأنها خرجت من فوق رأسي، شعرتُ كأن الطائر يحلّق فوق رأسي تماماً، فالتفتُّ مذهولة صوب "زينل" الذي انتبه لاستنفار جسدي، وحركتي التي تقترب من التعثّر، فأطلق ضحكة لم يكن أمامي سوى أن أقابلها بضحكة أداري بها ارتباكي... توقفَ طالباً مني التوقف أيضاً، ففعلت، حينها طلبَ مني الإصغاء إلى تغريدة بعيدة. سمعتها، كانت ساحرة، وحين انقطعت التغريدة، زمَّ شفته السفلى وأدخلها إلى فمه قليلاً، وأطلق تغريدة جميلة، تصورتُ أنها خرجت من بين منقار طائر محتفل الألوان. حين أعلنتُ دهشتي وإعجابي بقدرة "زينل" على تقليد تغريدة الطيور، ازدادت قهقهات رفيق دربي وكأنني قلتُ نكتة الموسم، وحين لاحظ دهشتي جراء عمق وصدق ضحكته، قال: "إنه ليس تقليداً لتغريدة طائر جميل الصوت، بل لغة نتبادلها بيننا نحن سكان هذه القرية الشاسعة المساحة والمتناثرة البيوت..." فسألته غير مصدقة، إن كان يُصدِق ما يقول، فأجابني ضاحكاً بأنه سيشرح لي الأمر فيما بعد، وطلبَ مني أن أدعه ليكمل رسالته إلى أهله، فهناك مسافة كيلومترين تفصلنا عنهم، فأطلق تغريدته بنغمات لا ينقصها الجمال...

لاحَ من بعيد بيت حجري من طابقين حديث البناء، محاط بخضرة داكنة جعلت من طلائه الأبيض أكثر إشعاعاً، ومن قرميده الأحمر الذي يشكل السقف أكثر توهجاً. أشار "زينل" نحو البيت وأخبرني بأنه بيت العائلة. وكان علينا تسلق مرتفع "مشاكس" حتى نصله.

قبل وصولنا البيت، بخمسين متراً تقريباً، واجهنا بيت خشبي سقفه من الزينكو، قال إنّه مستودع الآلات الزراعية، وورشة التصليح، بناه والده منذ كان "زينل" طفلاً. أما شجرة الكرز العملاقة التي تظلله فقد زرعها له والده ساعة ولادته ... الغريب أن كلابهم لا تعرف النباح، بل وجدتها كسولة مستلقية وإلى جانبها بضعة أنصاف غالونات بلاستيكية للماء والخبز وما يجود به المطبخ من بقايا... "كلابنا تأكل البرغل، لذا تجدينها مستلقية على الدوام..." قالها وأطلق ضحكة بصوت مسموع، جاريته بمثلها والدهشة ترتسم على ملامحي...

استقبلتنا فتاتان في العشرينيات من عمرهما، قال "زينل" بأنهما "أوزدان" و "نازان" وأن الأولى تكبر "نازان" بعامين، وليس له أخوات غيرهما... حين انفلتَ جسدي من إطار الباب، اكتشفتُ بأنني قد دخلت المطبخ، كانت هناك امرأة بملابس فلاحية تعتمر شالاً محتفل الألوان على رأسها أخذ شكل العمامة، تجمع تحتها شعر رأسها بتقنية عالية، فتذكرت أمي وهوسها المبالغ في ربط شعرها حين تعد الطعام خوفاً من فرار شعرة منه قد يعثر عليها أحدنا في طعامه. ألقيتُ عليها التحية، فأجابتني بكلمات لا أفهمها وهي تطبع على وجنتي قبلاتها المتلاحقة...

أخذتني "أم زينل" كما عرَّفني عليها ابنها الوحيد، إلى صالة البيت وهي تطوق بذراعها اليمنى كتفيَّ، وتدس في أذني سيل كلمات لم أفهم منها كلمة واحدة، لكنها بكل تأكيد كانت كلمات ترحيب، وحين دخلنا

الصالة، قامت المرأة بفتح درفة الشباك، ثم وضعت الوسطى والإبهام من كفها اليمنى في فمها وأطلقتْ صفيراً عذباً كما تغريدة الطيور، ثم صمتت تسترق السمع، فجاءها صفير بعيد فابتسمتْ. لقد أذهلني الأمر. امرأة تصفّر؟ أمر عجيب! وحين لحق "زينل" بنا ودخل الصالة سألته دون التخلي عن دهشتي عما فعلته والدته، فأخبرني بأنها تنادي زوجها كي يأتي ويتناول طعامه. ثم سألته عدة أسئلة متلاحقة، ابتسم حتى تحولت ابتسامته إلى ضحكة مسموعة، وقال بأنه سيشرح لي ذلك فيما بعد...

بعد نصف ساعة تقريباً دخل رجل متورد الوجنات ممتلئ الجسم بكرش صغيرة، وقد فقد رأسه معظم شعره. يرتدي قميصاً بلون ورقة الزيتون، وبنطالاً بلون التراب، ويحمل بيمناه آلة موسيقية لم أرَ مثيلتها من قبل. ألقى التحية مبتسماً، وتوجه ببعض كلمات صوبي، ترجمها لي "زينل" على أنها كلمات ترحيب. ثم جلس على الأرض حيث مائدة الطعام التي أُعدت قبل وصوله بدقائق.

كان "سماور" الشاي منتصباً على طاولة صغيرة في الزاوية القصية من الصالة. قبل أن ننهي طعامنا توجهتْ "أوزدان" شقيقة "زينل" وأعدتْ "استكان" شاي قدمتْهُ إلى والدها. حركة جلبت انتباهي، فالوقت ليس وقت فطور، بل غداء متأخر حسب علمي. توقف الرجل عن الأكل، وشرب شايه، على دفعتين متلاحقتين، ثم عاد ليأكل مرة أخرى. ادخرتُ السؤال كي أطرحه على "زينل" في وقت لاحق، وعدتُ أتناول طعامي بشهية واضحة...

بعد الانتهاء من الطعام، وحين صارت "استكانات" الشاي أمامنا، احتضن والد "زينل" آلته الموسيقية التي تشبه العود ولكنها أصغر قليلاً بزند طويل، وصار يعزف لنا مقطوعة ساحرة، وفي لحظة توردت فيها وجنتاه، صدح صوته بكلمات منغمة لا ينقصها الحنين والجمال، وصارت

"أوزدان" تجاريه بالغناء كاشفةً عن أعذب صوت نسائي سمعته، رغم انبثاق الأسف داخلي كوني لا أفهم كلمات الأغنية، وحين سألت "زينل" عن الأغنية، أخبرني أنها تتحدث عن فتاة أحبّت راعيًا من قريتها وتمنّت أن تكون إحدى نعاجه لترافقه يومه، وهو يغني لها أغنية الراعي العاشق الذي ضاعت خرافه منه حين كان منشغلاً بتقبيل حبيبه منذ شروق الشمس حتى المغيب.

***

شرح لي "زينل" قصة الصفير، وفهمتُ أنها لغة القرية التي تمارسها منذ أكثر من أربعة قرون، توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد، وصارت كما الهاتف بالضبط "ولكن دون أسلاك". إنها الوسيلة الوحيدة للتخاطب عن بعد، نظراً لبُعد الحقول عن المنازل، وبُعد المسافات التي تفرضها الأرض بمرتفعاتها ووديانها. وعرفتُ أن ما من شخص يعيش في القرية إلا ويتقن لغة الصفير. فطلبتُ منه أن يعلمني. أوكل تعليمي لغة الصفير أولاً إلى "نازان" أخته الصغرى، عندما عرفَ بأنني لا أجيد فنّ الصفير. كون أخته تعرف بعض الكلمات العربية، فتعلمتُ الصفير أولاً خلال يومين، ثم علمتني "نازان" بعض النغمات ومعناها، لكنها كانت تطلب مني الإصغاء بتركيز عال إلى الصفير الذي نسمعه بين فترة وأخرى منطلقاً من البعيد، وتترجمه لي. الغريب أنها تتعرف على الشخص من نغمة صفيره، كنبرة الصوت تماماً... صرتُ خلال الأسبوع الأول أجيد إطلاق بعض الكلمات. لقد وجدتُ متعة هائلة بلغة الصفير وخيِّلَ إليَّ بأنني سأفهم تغريدات الطيور في المستقبل ومن الممكن ترجمتها، ثم شطحَ خيالي بعيداً حيث سليمان النبي، وكيف سيصبح بمقدوري "فكّ" شيفرة لغزه، وأصير مثله، أكلم الطيور بلغتها.

في أحد الصباحات، خرج "زينل" قبل أن يتناول فطوره صوب المدينة، لكنه حين عاد قبل أن يحلّ المساء بقليل، وكنتُ أجالس "نازان" على دكة صخرية أمام البيت، ظهر "زينل" برفقته رجل في نهاية الثلاثين من عمره، أسمر البشرة فاحم الشعر طويل القامة بعينين واسعتين يحرسمها حاجبين كثيفين، يرتدي ملابس أنيقة ويحمل على كتفه حقيبة متوسطة الحجم توحي أنه على سفر... وحين اقتربَ شعرتُ بأنني أعرفه، وما أن ألقى التحية حتى عرفتُ أنه "أميري" زوج المستقبل...

عاتبتُ "زينل" لأنه لم يخبرني بأمر مجيء "أميري"، فأشار إلى أنها رغبة زوج المستقبل، أراد أن تكون مفاجأة لي... رحبتُ به ودخلنا الصالة. جلستُ قبالتهُ أتفحص ملامحه، فانتبهت أنه لم يبتسم! سألته إن كان يشعر ببعض التعب نتيجة السفر، فنفى، مشيراً إلى أنه وصل صباحاً، وراح يتجول في المدينة حتى وصل "زينل" ليعود به إلى القرية...

شارك "أميري" "زينل" غرفته، وشاركتُ -كما تعودتُ -الأختين غرفتهما. كان علينا التوجه صباحاً إلى المدينة بمصاحبة "زينل" لإتمام عقد القران في المحكمة... وكان لنا ذلك، دون أي متاعب، فقد هيأ "زينل" كل الترتيبات، حتى المترجم الذي ترجم لنا العقد إلى الإنكليزية، كان صديقاً له وقد أولمَ لنا وليمة غداء في أحد المطاعم القريبة من مكتبه، تناولنا أكلة شهية يكون اللحم أساس تكوينها، تسمى "اسكندر كباب" بالإضافة إلى أكلة أخرى تدعى الـ "كومبير" عبارة عن بطاطا كبيرة الحجم مشوية، وبداخلها الزبدة وجبنة الموتزاريلا مع العديد من الخضار والمخللات.

حين عدنا إلى القرية قبل أن تودعها الشمس بدقائق معدودة، وجدنا العائلة وقد استعدت لإحياء حفل مصغّر لنا بالمناسبة. كان هناك بعض

الأشخاص ممن أقابلهم للمرة الأولى، وهناك من تعرفتُ عليهم طيلة إقامتي في القرية ساحرة الجمال...

نُصبت طاولة خشبية طويلة وكبيرة توزعت عليها مختلف الأطباق بمختلف الألوان، كان الزيتون والجبن سيدها، ثم عدد كبير من الكؤوس الصغيرة التي لم أكن أعرف الغرض من وجودها موزعةً على الطاولة، فلم أجدها صالحة إلاّ لشرب الشاي، ولكن، بمجرد جلوسنا إلى الطاولة، ووقوف والد "زينل" على رأسها، يحتضن آلته الموسيقية التي عرفتُ أنها آلة "البزق" واضعاً قدمه اليمنى على أحد الكراسي وإلى جانبه وقف شاب نحيف طويل القامة بأنف معقوف وبيده دف كبير، حتى ارتفعت الموسيقى لتصاحبها أصوات الحاضرين، عند ذلك ارتفعت الكؤوس الصغيرة وقد امتلأت بسائل أبيض يقترب بلونه من الحليب، عرفتُ على الفور أنه العرق، فقد غلّفت الفضاء رائحة اليانسون المحببة التي ذكرتني بأبي الذي يكاد شوقي إلى احتضانه أن يفتك بي. شربتُ الكأس الذي قدمه لي "أميري" بصحة والدي "فعلتُ ذلك سراً، كما الصلاة وأنا أتمتم اسمه"، وكانت كأس العرق الوحيدة التي تناولها طيلة الحفل...

لا أدري ما الذي دفعني صوب "زينل" لأدس في أذنه جملة أثارت دهشته، لكنه وافق عليها بهزة من رأسه: "أتمنى أن يشاركك "أميري" غرفتكَ هذه الليلة أيضاً.". ثم أخبرت "نازان" بأنني سأشاركها وأختها غرفتهما الليلة أيضاً، كوني اشترطتُ على أهل "أميري" أن يكون الزفاف في ستوكهولم، ووافقوا، وأنني ما زلتُ متمسكة بشرطي. فتفهمت إشارتي وأخبرت أمها بذلك.

تودّدَ لي "أميري" كثيراً، خصوصاً قبل أن يشارف الحفل على الانتهاء. كان قد أكل كثيراً وشرب أكثر. كنتُ أقرأ في عينيه وحركات جسده إثارة جنسية، واشتهاءً فاضحًا، لكن دون أن تصلني أي رائحة ذكورية، رغم أني

شممتُ العديد من الروائح الرجولية طيلة الحفل، باستثناء "زوج المستقبل" الذي كان يجالسني أغلب الوقت، حتى أني عمدتُ لعدة مرات إلى تقريب أنفي من رقبته وكتفه ولكن دون جدوى، حتى رائحة جسده العادية لم تصلني...

صباح اليوم التالي، لم يفق "أميري" إلاّ بعد أن تجاوزتِ الساعة الحادية عشرة ببضع دقائق. جلس إلى صينية الفطور حيث الأرض وهو يشكو من صداع شرس يكاد يفتك به، مما تسبب بموجة ضحك أشارت على إثرها أم زينل" إلى أنها ليست المرة الأولى، واستمرت بضحكها وهي تقدم له شراب الكرز طالبةً منه شربه دفعة واحدة... قرر "أميري" بسبب الصداع تأجيل سفرنا إلى العاصمة حتى صبيحة الغد، عسى أن تتحسن حالة رأسه اللعين على حد قوله...

في لحظة، تذكرتُ بأنني لم أرَ "زوج المستقبل" مبتسماً، وكنتُ قد لاحظتُ ذلك منذ الساعات الأولى لوصوله، لكنني تناسيت الأمر بعض الوقت، وحين عدتُ إلى مراقبة ابتسامته المختفية، لم ألحظها حتى وإن ظهرت سهواً، لم أفلح في اصطياد أي ابتسامة، جادت علينا بها ملامح وجهه، حتى وأنا أفتعل بعض الحركات والكلمات المازحة...

بعد أن فرغَ من شرب عصير الكرز وأكل قطعة "السميت" المدافة بالسكر والسمسم، استأذنَ، من الحاضرين، وطلبَ مني مرافقته بنزهة قصيرة إلى النهر الذي لا يبتعد عن البيت أكثر من عشرين متراً، فرافقته.

ماء النهر رقراق عظيم البرودة رغم حرارة الجو، عذب المذاق يغريك بغسل وجهك بين لحظة وأخرى ليمنحك الانتعاش. وذلك ما فعله "أميري" حيث غسل وجهه أكثر من مرة... بعد لحظة صمت سألني عن سبب امتناعي مشاركته السرير، رغم الحفل الجميل الذي أُقيم لنا بمناسبة عقد القران. فذكّرته بشرطي الوحيد الذي نقلتهُ له أخته "باهرة"، ووافق

عليه. وكانت "باهرة" قد وافقت عليه هي الأخرى... فقال بضع كلمات لم أعر لها أهمية، وبقيتُ صامتة، حتى سألني: "هل تملكين بعض المال؟... الحقيقة أحتاج مبلغًا معيّنًا كي أرتب أموري هنا، فلم يتسنَّ لي جلب المال الكافي بسبب سرعة سفري...". سألته عن المبلغ المطلوب فحدده بألفي دولار سيعيدهُ لي، حين أصل ستوكهولم. وافقتُ وسلمته المبلغ حالما وصلنا البيت، حيث وجدنا القهوة وابتسامات "أم زينل" وابنتيها في انتظارنا...

***

وصلنا العاصمة بعد الظهر، وكان علينا الانتظار حتى صباح الغد لمراجعة السفارة، فاستأجرنا غرفة في فندق متواضع بخدمة ونظافة جيدتين... طلبَ مني "أميري" دفع مقدمة بما يساوي أجرة ليلتين لموظف الاستقبال، ففعلتُ واستلمت وصل المبلغ المدفوع ومفتاح الغرفة حيث الطابق الثاني.

"لماذا طلب مني دفع أجرة الفندق؟... ألم يأخذ مني ألفي دولار أمس حين عدنا من نزهة النهر؟... لماذا دفعنا ليلتين وليس ليلة واحدة؟..." أسئلة صارت تتلاطم داخل ذهني بمحاولة التفسير.

بمجرد دخولنا الغرفة، راعني منظر السرير العريض المخصص لشخصين. توجهتُ إليه مباشرة، وصرتُ أتفحصه، حتى تنفستُ الراحة حين اكتشفتُ، أنه عبارة عن سريرين متلاصقين. ودون أن أقول شيئاً أو أطلب مساعدة، باعدتُ السريرين، ووضعتُ "الكوميدينو" الصغيرة بينهما... انتبه "عريس المستقبل" لما فعلته، وقبل أن يقول شيئاً، بادرته قائلة: "ليس من السهل على شخص اعتاد النوم بمفرده طيلة سنوات عمره أن يتقبل النوم المشترك فجأةً... أحتاج بعض الوقت للتعود.". هزَّ رأسه موافقاً على مضض والتزم الصمت.

وضعنا أمتعتنا في الغرفة وأستبدلَ "زوج المستقبل" ملابسه فاكتشفتُ محفظة بحجم الكف تتدلى من رقبته لتستقر على جلدة صدره كثيفة الشعر، عمد على تغطيتها جيداً بثيابه: "يبدو أنه حريص أكثر مما ينبغي!" قلتُ لنفسي.

نزلنا إلى الشارع بغية تناول وجبة نسد بها جوعنا، وفي الطريق، مررنا بمكتب صرف العملة، فخطرتْ لي فكرة من شأنها اختبار ظنوني التي باتت تفترسني، سألت "أميري" إن كان يمتلك عملة البلد، فقال القليل فقط، فاقترحتُ عليه تصريف ورقة أو ورقتين من المبلغ الذي معه كي تسهّل لنا أمرنا، خصوصاً وأننا سنحتاج بعض المال لدفعها في السفارة كما عرفتُ... نظر بوجهي مندهشاً ثم قال بجدية: "ستدفعين أنتِ، وسأحاسبكِ على كل فلس عندما تأتين إلى ستوكهولم.". ثم أقفى وابتعد عني بضع خطوات، عندها توجهتُ إلى مكتب الصيرفة وأخرجت من حقيبتي نصف المبلغ الذي أخذته معي صبيحة اليوم تاركةً معظم ما أمتلكه من مال أمانة عند والدة "زينل"... سألتُ موظف الصيرفة عن سعر التصريف، فناولته عشر أوراق خضراء، كنتُ أعرف قيمة تصريفها بحسبة بسيطة أجريتها ذهنياً، فاستلمتُ المبلغ بالتمام... دسستُ المبلغ في حقيبتي، وتوجهتُ صوب "العريس". مرّرتُ كفي اليمنى بين أضلاعه وزنده جهة اليسار ومسكتُ زنده مبتسمة، مشيرة إلى ضرورة العثور على مطعم فاخر، كوني قررت دعوته إلى وجبة فاخرة. لززتُ نهدي إلى زنده. شعرتُ بارتعاشة جسده، لكن، لا رائحة...

دفعتُ الحساب، وخرجنا من المطعم منتشيَيْن بعد أن وأدنا جوعنا... أكل "أميري" وجبة ونصفً من "الشيش طاووق" وهو يصدر همهمات التلذذ التي توقفتْ بانتهاء اللقمة الأخيرة... لاحظتُ أنه لا يمضغ الأكل كثيراً بل يزدرده بمهارة عالية بعد القليل من المضغ... ضحكتُ بسري كثيراً وأنا أردد سراً: "عريس لقطة، وعلى القياس، بخيل من الدرجة

الممتازة، وذلك ما يُسهل السيطرة عليه إن لوحتُ له بالمال..." سررتُ للفكرة وتعززت ظنوني السابقة التي كانت تتجه صوب بخل "العريس التحفة".

في طريقنا إلى الفندق، دخل "أميري" أحد الدكاكين وأشترى قنينتي بيرة فئة النصف لتر. حين أراد الخروج وكنتُ خلفه، طلبتُ منه التريث، فطلبتُ من البائع قنينتي بيرة من النوع نفسه وكيس فستق، ودفعتُ الحساب. جحظت عينا "العريس" وهو يتساءل إن كنتُ معتادة على شرب الكحول، مشيراً إلى أن الكأس التي شربتُها في ليلة الاحتفال كانت لها مناسبة... لم أقل شيئاً، ومشيتُ صامتة إلى جانبه، ولكن حين أعاد سؤاله، قلت: "من اللياقة أن تسألني إن كنت راغبة بمشاركتك جلستك الليلية وأنتَ تحتسي البيرة، وبما أنكَ لم تفعل، عمدتُ إلى الإفصاح عن رغبتي في مشاركتكَ عن طريق شراء القنينتين..." أطلقتُ ضحكة لثوان معدودات وصمتُّ...

في غرفة الفندق اكتشفتُ شغف "أميري" بالراديو، بعد أن أخرج راديو ترانزستر صغيرًا حديث الصنع، أعتقدُ أنه آخر صيحات الراديو قصير الموجة: "عجيب!! بخيل ويشتري أغلى الأجهزة؟" جلسَ يبحث عن محطة معينة، فوجدها، ثم حاول التقاط إشارتها بوضوح أكثر، حتى استقر. وضع الراديو على الطاولة ونظر صوبي متجهماً وقال: "لا أستطيع النوم دون سماع إذاعة الـ "بي بي سي"...".

في تلك الأثناء كنتُ منشغلة بإعداد سطح "الكومدينو" الصغير بين السريرين كطاولة مشتركة بيننا، فتحت كيس الفستق ووزعته في صحنين صغيرين، ثم وضعتُ كأسين وقنينتَي البيرة. جلستُ حيث سريري طالبةً من "زوج المستقبل" الجلوس على سريره ومحاولة فتح القنينتين بأي وسيلة يعرفها، كوني لم أعثر على فتّاحة القناني...

نجح بإزالة غطاءَي القنينتين بحافة السرير المعدنية، وهو ينظر صوبي منتصراً. كان من المفروض أن يبتسم عند ذاك، لكن ابتسامته ظلت عصية...

قرعنا كأسينا وارتشفتُ رشفة صغيرة، ثم أعدتُ الكأس إلى مكانها حيث الطاولة الملفّقة، بينما كرع "أميري" كأسه دفعة واحدة، مشيراً إلى أنه يعشق الكأس الأولى وشُربِها بتلك الطريقة...

شرع "أميري" يتحدث عن نفسه متفاخراً، وهو يطقطق حبات الفستق، ويحتسي البيرة ويتلمظ متلذذاً...

كنتُ أستمع طيلة الوقت إلى قصص "العريس" عن عمله وأصدقائه والحياة في ستوكهولم، حين سيطر عليَّ النعاس. رغم أني لم أرتشف من كأسي غير الرشفة الأولى، بينما شربَ "نديمي" ثلاث قناني وبدأ بشرب ما تبقى في القنينة الرابعة دون أن يسألني... تمددتُ على سريري وسحبتُ الشرشف إلى جسدي متمنية لـ "أميري" صباحاً كله خير وسعادة. كان صوت المذياع ما يزال صادحاً حين غفوتُ...

وجدتُ رياض يحتضنني، ويداعب شعري، ثم صار يمرر يدهُ إلى نهديَّ، ثم فخذي ولسانه يداعب أسفل أذني اليسرى، وفي لحظة اعتلاني فشعرتُ بثقل جسده... أفقتُ مفزوعة من نومتي لأرى وجه "أميري" أمامي بعينين حمراوين، وهو يرغي ويهمهم... صرختُ بوجهه ورفسته بقوة تكوّمَ على إثرها حيث الأرض. دخلتُ في نوبة بكاء شديدة، فأتى محتضناً معتذراً. نهرتهُ بشدة وطلبتُ منه بعصبية أن يعود إلى فراشه ويتركني، ففعل...

***

في صباح اليوم التالي، تناولنا فطورنا صامتين، كان "أميري" متجهمًا كعادته، فلم أعرف ردة فعلة عما حدث ليلة أمس. يبدو لي أنه رجل دون

ملامح، دون إيحاءات يمكن تفسيرها. رجل يعيش حالة واحدة في كل الظروف...

في الطريق إلى السفارة السويدية، حاول أن يقول شيئاً، لكنه تنحنحَ وصمت، يبدو أنه فضَّل تأجيل ما أراد قوله. بادرتُ بسؤاله إن كان قد جلب كافة الأوراق الرسمية اللازمة لإتمام معاملة "لم الشمل" كما يسميها، فهزَّ رأسه موافقاً دون أن يتخلى عن صمته، حينها ضحكتُ وأشرتُ إلى أنه قد أجهز على كل المشروب ليلة أمس، حتى كأسي، وجدتها فارغة حين استيقظت. نظر صوبي شزراً وقال: "أفضل من سكبه في المغسلة.". ثم عاد إلى صمته.

عند الواحدة ظهراً أتممنا كل ما هو مطلوب، وحصلتُ على رقم وتاريخ المعاملة ووَصل ورقي سيساعدني إن أردت الاستفسار عن سير القضية في قادم الأيام. لكن المزعج في الأمر، أن الموظفة أخبرتني بأن الانتظار قد يطول ستة أشهر أو أكثر، حينها نظرتُ إلى "أميري" نظرة متسائلة فرفع كتفيه ومطَّ شفته السفلى علامة على قلة الحيلة...

في الطريق إلى الفندق سألته إن كان بالإمكان العودة إلى القرية قبل حلول الظلام، فرفض الفكرة متحججاً بضرورة البحث عن مكتب سفريات ليحجز تذكرة عودته إلى ستوكهولم. طلبتُ منه أن يعيدني إلى الفندق ثم يذهب بمفرده ليحجز التذكرة فوافق...

ودعني عند باب الفندق وغادر. دخلتُ متوجهة إلى موظف الاستقبال واستفسرتُ منه عن إمكانية الاتصال الهاتفي خارج البلد، فأشار إلى سهولة ذلك دون أن ينسى تذكيري بغلاء سعر الدقيقة. اتفقتُ معه على أن أدفع تكلفة المكالمة حالما أنتهي منها، وصعدتُ إلى الغرفة متوجهة صوب الهاتف وطلبتُ رقم هاتف بيتنا. جاءني بعد خربشات صوتية مزعجة، صوت أخي ليث، فهطلت دموعي على الفور، وحين سمعتُ صوت أمي

المتلهف، شعرتُ بحنين جارف ورغبة في احتضانها، لكنني تراجعتُ عن إظهار مشاعري لها، مكتفية بكلمات مقتضبة. طمأنتها عني وعبّرت لها عن سعادتي وأنا ألتقي بـ "زوج المستقبل" الذي وجدتَهُ "لطيفاً مهذباً ومثقفاً أيضاً" لكنني لم أرغب بالاستمرار في الكذب فسألتُ عن أبي وأفصحتُ عن شوقي له ورغبتي العارمة بسماع صوته فأخبرتني أنه في الجامعة. أغلقتُ المكالمة دون وداع، فلم أعد قادرة على المواصلة.

ضغطتُ أرقام هاتف مكتب بثينة، وما أن جاءني صوتها، حتى قلتُ ما متفقٌ عليه: "جنّات تبلغكم تحياتها، كل شيء كما يجب، التقت بعريسها، وأتمتْ معاملة "لم الشمل" في السفارة... ربما ينتهي بناء البيت خلال الستة أشهر القادمة... تحياتي". ثم صمتُ قليلاً ليأتي صوت بثينة موحياً بابتسامة فرحة: "اشتقتُ لكِ يا ملعونة." ثم أنهتِ المكالمة.

نزلتُ مسرعة إلى موظف الاستقبال، لأدفع أجور المكالمتين قبل مجيء "العريس المبجَّل". وما أن استلمتُ وصل الدفع حتى صعدتُ إلى الغرفة منتظرة فنجان القهوة الذي طلبته من الموظف.

عاد "أميري" متأخراً. أخبرني بأنه حجز تذكرة لم يستلمها بعد، وأن عليه السفر مساء الغد، وهذا يعني بأنني سأسافر إلى القرية بمفردي.

"لا مشكلة، أعرف الطريق جيداً.". قلتُ له ذلك وشعور فرح يغمرني بدون معرفة سببٍ له، فقال بأنه سيتصل بـ "زينل" حالما أكون داخل الباص السياحي، كي يستقبلني في كراج الباصات، ويأخذني من هناك إلى القرية، فلم أعترض...

عندما حان موعد العشاء، خرجنا باحثين عن مطعم، لكن رغبة في المشي المتهادي ربما كانت تسيطر على كلينا، فأخذنا الشارع الطويل المحفوف بالأشجار. هناك لاحظنا مطعماً يقدّم أنواعًا مختلفة من السمك. جلسنا إلى طاولة على الرصيف العريض أمام المطعم وطلبنا سمكة مشوية

لكل منا، وأضاف "أميري" قنينة نبيذ أبيض شارحاً لي أهميته مع السمك. "ما دمتَ بعيداً عن الدفع، فكل شيء مهم، وكل طعام لذيذ.". قلتها في سريرتي وابتسامتي تزرع الرضا بروح "العريس"... أتت قنينة النبيذ باردة، تذوقتها فوجدتُ مذاقها لطيفاً...

أنهيتُ وجبتي مع آخر رشفة نبيذ من كأسي، وأنهى "أميري" وجبته مع آخر قطرة من القنينة. سألته إن كان يرغب في وجبة "حلوة" بعد الأكل. ففضل "القهوة التركية"، لكنه عدل عن رأيه وقرر العودة إلى الفندق بدلاً من التبذير، فضحكتُ ووافقته الرأي...

في طريقنا إلى الفندق، وكنتُ أتمسك بساعده الأيسر، تحدثتُ معه عن كيفية تحسين وضعنا المعيشي حين نجتمع معاً في ستوكهولم. أنا أعرف أنه يشتغل في ميكانيك السيارات، وحين سألته إن كانت الورشة ملكاً صرفاً له كما أخبرتني "باهرة" أخته، قال بأن هناك شريكًا معه، وأنهما على وفاق إلى حدٍ ما، فأخبرته بأنني أمتلك المال الذي يمكننا شراء حصة الشريك لتصبح الورشة ملكنا. التفتَ إليَّ وتوقف متسائلاً: "هل المال معكِ الآن؟.". قرأتُ لهفة فرحة بعينيه، وكأنه ينتظر أن أزفَّ له أكثر خبر يسرّه، فنفيت ذلك وأخبرته بأن المبلغ مع والدي، ويمكنني الحصول عليه حين نكون بحاجته. سحبَ شهيقاً عميقاً، زفرهُ على وجه السرعة وواصل سيره. شعرتُ بخيبته، فعاجلته بما يسره: "حالما أكون في ستوكهولم سأطلب المبلغ من والدي لتكون الورشة لنا، وأكون أنا شريكتكَ بدلاً من الغريب... "إن شاء الله" قالها متمنياً وسكت.

حين وصلنا إلى الدكان القريب من الفندق، دخل "أميري" واشترى أربع قناني بيرة "أفيس" وكيس فستق. دفع الحساب ونظر صوبي بزهو المنتصر، دون أن يبتسم. قادني ممسكاً بكفي اليمنى وسار بصمت القائد القلق على سلطته وشعبه في آن.

في الوقت الذي أفلحَ "العريس" بالتقاط إشارة إذاعته المفضلة، كنتُ قد رتبتُ سطح "الكومدينو" كما في الأمس. جلسنا متقابلين كل على سريره، قرعنا كأسينا، وارتشفتُ الرشفة الأولى من كأسي، وما أن وضعتُ الكأس على الطاولة "المفترضة" حتى صار "زوج المستقبل" يتكلم عن طفولته التعيسة، وكيف أنه عاش يتيم الأم التي ماتت أثناء ولادته، وأن والده "احتضنه" ستة أشهر أو أكثر بقليل، ثم رماه في حضن أخته الكبرى "غير الشقيقة" وتركه هناك حتى كبرَ بين أولادها يتيماً غريباً... "صحيح أنه كان يدفع لـها مبلغاً زهيداً كل شهر بدلاً عن تربيتي، إلاّ أنه لم يكن حريصاً على رؤيتي والتقرّب مني...". قالها بألم واضح، تعاطفتُ معه...

"سيطر عليَّ النعاس... يبدو أن كأس النبيذ قد فعل فعلته... تصبح على خير.". قلتها له وأنا أتمدّد على سريري متلحفةً بالشرشف الأبيض. لم يرد التحية وظلَّ صامتاً خِلتهُ يستمع إلى المذياع الذي صار يهدهدني حتى غفوت...

استيقظتُ فزعة. شاهدتُ "العريس" جاثماً فوق جسدي ونصفي الأسفل عارياً تماماً. لم أستطع الحركة، كانت كفاه مطبقتَيْن على رسغيَّ وذراعاي منفردتان جانباً. أنفاسه تزفر رائحة البيرة على وجهي بسخونة مقرفة. توسلتهُ أن لا يفعلها، فهناك اتفاق بيننا، ووعدته أن أسلمه نفسي حالما أصل بيته في العاصمة السويدية، فقال كلمتين فقط: "أنتِ حلالي.".

كان الراديو يبث موسيقى صاخبة ظننتها مارشاً عسكرياً، حين صار "الوحش" برائحة البيرة يقبّل جيدي ويمصّ حلمة أذني اليمنى، وفي لحظة شعرتُ بحرارة حارقة مصحوبة بلذة لم أعرفها من قبل انطلقت كالبرق من بين فخذي لتصل قمة رأسي. صرختُ دون إرادتي، ثم همدت

أنفاسي، لأسمع صوت المذيع معلناً احتلال حرس "بطل الحرب" الجمهوري، دولة صغيرة تحدّ بلدي جنوباً.

انسحب "الوحش" من فوق جسدي، وتحررت أنفاسي من ثقل جسده وتلك الرائحة المقرفة. لململتُ نفسي وجلستُ باكيةً من شدة الخذلان. نظرتُ صوب قدمي فرأيتُ بقعة دم صغيرة تلوث شرشف السرير، عرفتُ حينها، أن "العريس" قد تزوج... نظرتُ صوبه فوجدته ضاحكاً بصمت، صحيح أنها المرة الأولى التي أشاهده فيها ضاحكاً، لكنها، كانت أقبح ضحكة أراها في حياتي...

"هل الإيلاج بهذه البشاعة؟... كم كان رياض عظيماً حين كان يرفض إيلاجي جهة عذريتي، رغم توسلاتي المستميتة وأنا في ذروة انتشائي!!!".

(18)

استقبلني "زينل" عند الثالثة ظهراً، كانت الرحلة شاقة، بكيت خلالها كثيراً، لم أشعر بالانكسار بالقدر الذي كنتُ عليه طيلة حياتي. لقد كسرني "الوحش" وغادرَ منتصراً...

طلبتُ من "زينل" مساعدتي في شراء جهاز راديو صغير قبل مغادرتنا المدينة، فأخذني إلى محل كبير بعض الشيء لبيع الأدوات الكهربائية. اشتريتُ جهازاً إلكترونياً حديثاً ماركة "سوني" قال البائع أنه أحدث جهاز راديو وصل الأسواق...

في الطريق، حدثني "زينل" عن كارثة الاحتلال التي قام بها "بطل الحرب" فحدثته عن الخطر الكبير الذي ينتظر أبناء جلدتي وعائلتي على وجه الخصوص. كان خبراً مزلزلاً، وعملاً لا يمكن لعقل تصوره، أو يتوقع حدوثه...

بكيتُ وأنا أحتضن "نازان" حين أخبرتها بما حدث لي ليلة أمس، فبكت هي الأخرى وواستني بكلمات مقتضبة، فهمتُ منها أن ذلك لا بدّ أن يحدث، وإنه حقّ مشروع ليس فيه أي خطأ. ويبدو أنها أخبرت والدتها و"أوزدان" أيضاً.

***

صار الراديو سلوتي، رغم أني وجدتُ في مكتبة "زينل" بعض الكتب العربية التي تختص بالدراسات، ومجموعتين قصصيتين، وثلاث روايات وجدتها بين كتبه، فصرتُ أقرأها واحدة تلو الأخرى، لكن رواية "طريق الليمون" أخذت الاهتمام الأكبر، كوني وجدتُ شيئاً مني بين سطورها،

تماماً كما حدث مع رواية "البحث السعيد" التي قادتني إلى لقاء كاتبها الأستاذ صديق العم موسى... قرأتها أكثر من مرة، وفي كل مرة أجد صورة الأستاذ ماثلة أمامي وهو يحاول استمالتي نحوه، طالباً مني زيارة خاصة، في بيته...

بتُّ ألحظ تغيراً حميمياً بمعاملة "زينل" لي. صار أكثر قرباً مني، وكثيراً ما يأخذني في نزهات حيث النهر، وأحياناً نتجاوزه إلى أبعد من ذلك، حيث تلة العاشقة "هونادا" كثيفة الأشجار وأعشاش الطيور عذبة التغريد. تلك التلة التي صارت محمية طبيعية للطيور، دون اتفاق معلن بين سكان القرى، لكن قصة العاشقة "هونادا" وقدسيتها عندهم، جعلتها محمية ذات خصوصية، لاعتقادهم كما تروي القصة، بأن روح العاشقة "هونادا" التي جلست طويلاً على قمة التلة تنتظر حبيبها الذي أُخذَ للحرب، حتى تيبّس جسدها وتفتت ليمتزج مع تراب التلة، بعد أن توزعت روحها على طيور خرساء، وحين امتزجت بأرواحهم، صارت الطيور تغني أغنية العاشقة التي تفتت جسدها عشقاً بألحان عذبة تسحر السامع...

هناك يحدثني "زينل" عن شغفه بالأدب، وعن الحياة في القرى، وأحياناً عن الحب، ومرة واحدة تطرق إلى علاقته بزوجته التي انفصلَ عنها وترك السويد عائداً إلى قريته... في كل مرة، أكون في نزهة بصحبته، وحالما أتمسك بزنده أو أحتك به، كانت تصلني "رائحة الكرز" الذكورية، التي صارت تثيرني، فأشعر بدوار طفيف، يجعلني ملتصقةً به أكثر...

لا أعرف سبب تغيير "زينل" نحوي بعد عودتي من العاصمة مؤخراً، ولم أهتدِ إلى فكرة مقنعة، سوى أنه قد عرفَ ما حصل بيني وبين "أميري" في آخر ليلة بيننا، فوجدني مشروع متعة مباحًا. تلك الفكرة ظلت تسيطر على تفكيري لزمنٍ طويل ولم تغادره...

خمسة أسابيع قضيتها في بيت "زينل" وبين عائلته، منذ مغادرة "أميري"، تعلمتُ خلالها الكثير، أتقنت لغة الصفير وتعلمتُ الكثير من الكلمات وبعض الجمل من لغتهم، وصرتُ أخرج أحياناً مع "زينل" حين يرعى ماعزه وخرافه... واكتشفتُ أيضاً، أن أم زينل، تكره الصمت، مثل أمي تماماً...

في أحد الصباحات، وكنتُ أرافق "زينل" فترة الرعي، جلستُ إلى جانبه حيث النهر الساحر بصفائه، ورائحة الكرز المحببة التي تفيض من جسده الرجولي. اقترحتُ عليه فكرة سيطرت على مخيلتي الليلة الماضية. أخبرته بأنني أروم شراء بعض النعاج لأضمّها إلى قطيعه، فربما تطول فترة إقامتي بينهم. أطلق زينل ضحكة صاخبة وأشار بأنه لا يستطيع منعي من تحقيق أي رغبة تراودني، ولكن: "ماذا لو أتت الموافقة على "لم الشمل" غداً... هل ستأخذين خرافك معكِ إلى ستوكهولم؟" ضحكتُ وقلتُ: "لا، سأتركها لكَ هدية.". ازدادت قهقهاته، ومرر كفه اليسرى على رأسي بلمسة حانية ملتُ على إثرها برأسي ونصفي العلوي صوبه، حتى التصقتُ به، فاستنشقتُ رائحة الكرز بعنفوانها. صمتَ "سيد الكرز" قليلاً ثم أعلن موافقته، وأشار إلى جاره الذي ينوي بيع بعض من خرافه، فاتفقنا على زيارته بعد الظهر.

استقبلنا العم "هيفار" بابتسامة ساحرة وكلمات ترحيب حميمة. كان على علم بزيارتنا، ولم أكن أعرف كيف عرف بذلك، ألقينا عليه التحية، وسألني ضاحكاً إن كنتُ قد عزمت على العيش بينهم طيلة حياتي، فضحكتُ وأفصحتُ عن أمنية البقاء لولا قانون الحياة الزوجية... طلبتُ منه تسع نعاج وخروفًا، على أن لا يتجاوز أعمارهم السنة بكثير، ضحكَ الرجل العجوز وسألني إن كنت قد مارست الرعي من قبل، فنفيت، عند

ذاك أشار إلى "زينل" بالحرص وتوخي الحذر مني لأنني راعية أغنام بالفطرة، الحقيقة لم أفهم جوهر إشارته إلا بعد أن ترجم لي "زينل" ما قاله، فدخلتُ بنوبة ضحك، أخرجني منها سؤال "زينل": "لماذا الخروف؟... اجعليهم عشر نعاج، ذلك سيسهّل عليَّ رعايتهم... وسوف أشرح لكِ الأمر فيما بعد..." وافقته على الفور وراح "زينل" ينتقي النعاج الفتية من الحظيرة، وصار يُخرج الواحدة تلو الأخرى حتى اكتمل العدد. دفعتُ للعم "هيفار" ما يعادل الخمس مئة دولار، ليسوق صديقي "سيد الكرز" النعاج حتى حظيرته.

كانت خراف "زينل" موسومة بصبغة وردية حول الرقبة، لذا عمد إلى صباغة النعاج الجديدة باللون الوردي كما نعاجه وأضاف إلى جانبه اللون الأزرق للتمييز بينهم...

سألته وأنا أجالسه حيث الدكة أمام البيت عن رفضه شراء الخروف مع النعجات، فقال إن ذلك سيسبب مشاكل بين الخروف الجديد و"المرياع" الذي يقود خرافه. استوقفتني كلمة "المرياع" وسألته عن معناها فقال ضاحكاً: "المرياع كبش، نأخذه ونعزله عن أمه منذ يوم ولادته، ثم نضعه تحت "أتان" أقصد أنثى الحمار، يرضع منها ليعتقد أنها أمّه، وحين يكبر المرياع نقوم بخصيه ولا نُجزّ صوفه، فيمنحه مع نمو قرنيه هيبة كبيرة بين الأغنام، عند ذاك نعلّق على رقبته الأجراس الرنانة، يسمعها القطيع حين يمشي المرياع فيسير خلفه الجميع لأنه القائد الفذ والزعيم الحكيم في نظر الخراف طبعاً..." أطلقتُ ضحكة وأشرتُ إلى "بطل الحرب" قائلةً أن "مرياعنا" تخشاه حتى الذئاب... أخذني "زينل" من يدي ودخل بي الحظيرة، أوقفني أمامه وأشار إلى الكبش الضخم وقال: "هذا هو زعيم خرافي..." شعرتُ بجسده يكاد يلامس ظهري، ووصلتني رائحة الكرز المنعشة، فرجعتُ قليلاً إلى الوراء حتى التصقتُ به، قرّبَ شفتيه من رقبتي وطبع عليها قبلة ساخنة، أدخلتني في سَكْرةِ نشوةٍ تشبه الإغماءة، وحين

أفقتُ، هربتُ مسرعة صوب البيت، وظلَّ "زينل" هناك، ولم ألتقِه إلاّ صباح اليوم التالي حين دخل الصالة مبتسماً وفي يده قرص "سميد".

في تلك الليلة، وحين أويتُ إلى فراشي وأنا أتلمس أثرَ قبلة "زينل" على رقبتي، غفوتُ مبتسمة كما أعتقد، ورغم نشوتي وسعادتي إلا أنني رأيتُ في منامي، طيوراً بشعة الهيئة يزداد حجمها وعددها بسرعة غريبة حتى صارت تغطي السماء، وفي لحظة توحش، صارت تطارد الناس وتفترس الأطفال... كنتُ أركض وقدماي تخذلانني، صرتُ أبكي وأنا أشمّ رائحة خوف الأطفال، كانت رائحة خوفهم ثقيلة كما الشحم... حين أفقتُ صباحاً برأسٍ تزدحم داخله صور ورائحة الحلم المرعب، تذكرت أنني قرأتُ ما يشبه ذلك المشهد منذ يومين في مجموعة صنع الله إبراهيم القصصية "تلك الرائحة" التي عشت بأجوائها، ليلتين محتفلتين بضوء القمر...

***

صبيحة الاثنين، هاتفتُ السفارة السويدية للمرة الثامنة، حيث اعتدتُ الاتصال صبيحة كل أثنين، بغرض الاستفسار عن سير معاملة الالتحاق بـ "زوجي". أخبرتني موظفة الاستعلامات بعد أن أخذتْ بياناتي، أن الموافقة قد وصلت منذ أربعة أيام، وذلك يتطلب حضوري إلى السفارة من أجل أخذ "الفيزا" والسفر بالوقت الذي أحدّده... لا أدري لماذا لم أشعر بالفرح، بل نوع من الاحباط تلبّسني، ورحتُ أدورُ حول نفسي وأنا أراقب كل شيء حولي، وكأنني أخشى الفقدان... لم أخبر أحداً، ورحتُ أتجول بين المزارع كطائر فقد عشّه، ودون قصد وصلتُ النهر وخراف "زينل" الذي كان جالساً على الصخرة الكبيرة يقرأ بكتاب... ألقيتُ عليه التحية وجلستُ إلى جانبه، وحين انتبه إلى صمتي، سألني بحرص واضح عن حالتي، فقلت: "لا أريد فقدان هذا السِحر وهذا المكان والأرواح النقية

التي عشتُ معها.". ثم تركته وتوجهتُ صوب الخراف لأتحسس فروات نعاجي، حينها صفَّرَ لي "زينل" بنغمة فهمت منها أنّ خمسًا من نعاجي ستلد بداية الصيف القادم. ازداد حزني لأنني لن أشهد حالة الوضع التي تمنيتها وتصورتها بصورة لا تخلُو من الرومانسية.

في الصباح، كنا نجلس إلى صينية الفطور "شاي وسميط مطعّم بالسمسم وقشدة وعسل" وقد تأخر "زينل"، كنت أنتظر قدومه حتى يكتمل عددنا لأخبرهم الخبر السار، وحين تأخر أكثر، طلبتُ من "أوزدان" أن تستعجله كوني أريد إخبارهم بخبرٍ مهم، وحين حضرَ، وقفَ قبالتي وسألَ عن الخبر. كانت عيناه جامدتَيْن، وكأنه قد توقع ما سأخبرهم به، فقلتُ بحزن صادق الوضوح: "لقد حصلت الموافقة، وعليَّ السفر إلى العاصمة كي أحصل على التأشيرة..." ثم انهمرت دموعي دون إرادة مني، وصرتُ أسمع شهقات وهمهمات من حولي...

على الفور عاد "زينل" إلى غرفته، وخرجتُ بصحبة "نازان" ملتصقتين حيث النهر بعد أن رمينا عباءة الصوف على كتفينا، كان الطقس بارداً، والضباب كثيف الحضور...

***

مع بداية صباح اليوم التالي، كنتُ أجالس زينل" على مقعدين متلاصقين داخل الباص السياحي المتوجه إلى العاصمة، وكنتُ قد ودعتُ العائلة بفيضٍ من الدموع على أمل العودة في أقرب فرصة ممكنة... قبل توديع العائلة التي أحببت، كنت قد أودعتُ مبلغاً من المال أمانة عند والدة "زينل" وبحضوره، فقد عرفتُ أن المال الذي بحوزتي يفوق ما مسموح به بكثير، وأخذتُ بقدر المسموح به... نظرتُ إلى وجه "زينل" الذي كان يهتزّ مستسلماً لهزهزات الحافلة، ثم تصيدتُ عينيه حين التفتَ صوبي منتبهاً، سألته سبب الوجوم والحزن الذي ارتسم على ملامحه، فلم يجب، بل اكتفى

بابتسامة متشنجة وكأنه على وشك البكاء... التصقتُ به، ثم طوقتُ بساعدي الأيمن كتفيه ولززته إليَّ عدة مرات وصار جسده يتأرجح مطاوعاً لحركة ساعدي، ثم همستُ في أذنه اليسرى بعد أن غزتني رائحة الكرز المحببة: "أعرف أنكَ تحبني، وأنكَ تعرف مقدار إعجابي بكَ، لكن، للظروف حكمها...". ثم طبعتُ قبلة على خده الأيسر، فاغرورقت عيناه بدمعتين كانتا عصيتَيْن...

"زينل" يعرف العاصمة تماماً، وحين مررنا بالفندق الذي استأجرنا غرفة منه أنا و"أميري" أشار إليه واقترح أن نستأجر غرفة هناك، ارتعدتُ وشعرتُ بالعار والخذلان، فرفضت متحججة بأنه بعيد بعض الشيء عن السفارة، مقترحة عليه البحث عن فندق قريب منها، فقال إنّ الفنادق هناك غالية الثمن، فقلتُ له وأنا أقرّب شفتي من أذنه: "أنا صاحبة الدعوة، فلا تفكر بالتكاليف.". توقف غاضباً ورفض الفكرة، فقلتُ له بصرامة واضحة لا تقبل الجدال: "إمّا أن تقبل دعوتي، أو تتركني أدبر أمري بمفردي.". فما كان منه إلا الموافقة.

"فندق النوارس" كان الأفضل والأكثر انسجاماً، استأجرنا غرفتين متقابلتين. دفعتُ مقدمة ليومين بعد محاولات "زينل" اليائسة لدفع الحساب، وأخذ كلّ منا مفتاح غرفته. استقلينا المصعد الكهربائي حيث الطابق الرابع، ثم دخلتُ الغرفة رقم (406) ودخل "زينل" الغرفة رقم (407)، وما أن تفحصتُ الغرفة ووضعتُ حقيبتي، حتى توجهتُ نحو غرفته. وقفتُ عند الباب طالبةً منه الإسراع في الخروج كون الجوع كافرًا...

مطعم "النافورة" كما ترجمها "زينل"، الأكثر اعتناءً وحرصاً على راحة الزبائن على حدّ تعبيره. جلستُ قبالة "سيد الكرز" وطلبتُ قنينة نبيذ أحمر بعدما طلبَ "زينل" وجبة مشاوٍ لكلينا. تذكرتُ "رياض"

وشغفه بالنبيذ، وضوء الشموع والموسيقى بمثل جلسة كالتي أعيشها، فطلبتُ من أجله "شمعتين" جلبهما النادل ووضعهما وسط الطاولة تماماً. كنتُ أنظر إلى وجنتي "زينل" المتوردتين مبتسمةً، حتى انتبهتُ إلى النادل وهو يسكب لكلينا قليلاً من النبيذ لنتذوقه وهو يعرف بأننا سنقبله، فقد اختاره "زينل" بالاسم لمعرفته الجيدة بعالم النبيذ الواسع. كان لذيذاً بالفعل... قرعتُ كأسي بكأس "زينل" وشربتُ الرشفة الأولى بصحة "رياض" سراً...

حين أنهى "زينل" كأس النبيذ، انتظرني حتى أفرغ من كأسي. تذكرتُ "أميري" عديم الرائحة، الذي كان يشرب بجشع دون ذائقة، دون أن يحس بطعم، أو نكهة. كان يزدرد الطعام دون منح الوقت لأسنانه أن تمارس دورها الطبيعي... ما أن أنهيتُ كأسي حتى سكبَ "سيد الكرز" النبيذ في كأسينا بكل أناقة وتهذيب...

حين انتهينا من تناول الطعام، وقررنا العودة إلى الفندق، احتضنتُ ساعد "زينل" الأيمن ولززته إلى صدري، طمعاً بتأجيج رائحة الكرز، وكان لي ما أردت... سألته إن كان مفعول النبيذ الأحمر أقوى من الأبيض، فأطلق ضحكة صاخبة وقال بأن السؤال إعلان مجاني عن حالة السكر، فضحكتُ وأخبرته برغبتي في تناول المزيد. اقترح شراء البيرة، فوافقت دون أن أتخلى عن ضحكتي التي لازمتني طويلاً...

حين وصلنا قرب البابين المتقابلين، كان "زينل" يحمل الكيس البلاستيكي حيث قناني البيرة الست، وكيسي الفستق ورقائق البطاطا المحمصة، مددتُ كفي واختطفتُ الكيس، ثم قلتُ وأنا أهم بالدخول إلى غرفتي: "بينما تَستبدل ملابسكَ، أكون قد أعددت طاولة سهرتنا..." ضحك "صديقي" ودخل غرفته...

في غرفتي طاولة وكرسيان قبالة السرير الواسع، وذلك ما سهّلَ عليَّ إعداد طاولة تليق بمزاجي ورغبتي، رتبتُ الطاولة بعد "حمام سريع" ثم ارتديتُ قميص نوم بلون سماء الليل حين يغادرها القمر على أمل لقاء قريب. أدرتُ الراديو والتقطتُ موجة موسيقية لا أعرف منبعها. تذكرتُ رياض وأسطواناته الموسيقية وتلك الشُرُوح الساحرة لكل مقطوعة أو حركة موسيقية كما كان يسميها...

ما أن دخلَ "زينل" حتى وصلتني "رائحة الكرز"، فابتسمتُ بفرح دون إعلان السبب. جلسَ على الكرسي القريب، وصرتُ أتفحصه دون أن أسأله سبب تأخيره. "لقد أخذ حماماً مبالغاً به..." قلت لنفسي وأنا أتفحصه مستمتعةً برائحته، حتى وددتُ دسَّ أنفي بإبطه كي أغترف من رائحته، تماماً كما كنتُ أفعل مع رياض حين أجنُّ برائحة "الحطب اليابس".

ملأتُ كأسه، ثم كأسي. قرعنا كأسينا وارتشفنا القليل، ثم أعدنا الكأسين حيث الطاولة، حينها نظر "زينل" بعمق عينيَّ وسألني مبتسماً: "قريباً تسافرين حيث بلاد البرد والثلج والثقافة والصناعة، هل تعرفين أهم ما ينتظركِ؟".

"لا.". قلتُ.

"الملل، والسماء الرمادية الواطئة.".

"الملل أعرفهُ، لكنني لا أعرف أن هناك سماء واطئة وأخرى شاهقة!!".

"حين تكون الغيوم، كل ما تشاهدينه من السماء طيلة أيام السنة، باستثناء بضعة أيام، يكون سماؤكِ الغيوم فقط، لذلك تكون السماء واطئة.". ابتسمتُ له كأنني أعلن دهشتي لما وصلني من فلسفة تخص

مكانًا سيحتضنني بعد فترة قصيرة... قلتُ متسائلة دون التخلي عن ابتسامتي: "هل البرد هناك، عدواني؟".

"نعم" قالها ثم أضاف: "البرد عدو الفقراء". حينها ارتعد جسدي وشعرتُ بالبرد، فقمتُ متوجهةً صوبه، معلنةً شعوري بالبرد، طالبةً منهُ أن يحتضنني. جلستُ في حجره وتمتمتُ كلماتٍ بالكاد تُسمع: "ضمني، أشعر بالبرد.".

فاضت رائحة الكرز وعبّأتِ فضاء الغرفة، وصار "رفيقي" يداعب شعري نزولاً إلى رقبتي بأصابعه التي تكاد تنطق بأرق عبارات الحنين والدفء، وفي لحظة، حملني إلى فراشي. أفرد جسدي وردَّ عليَّ الغطاء، لكنني سحبتهُ من أصابعهِ وطلبتُ منه الاستلقاء إلى جانبي واحتضاني بشدة ففعل، حين ذاك شعرتُ بنوبة سُكرٍ شبقة اعترتني، فقربتُ شفتي من رقبته وصرتُ أُقبلها، أو بصراحة أكثر، صرتُ أمصّها...

اعتلاني "زينل" وكنتُ تحته "المبتسمة" المطيعة، صار يتحرك بحنان فائض، وكلما تحرَّك طلبتُ منه المزيد حتى ولجني حيث كنزي الصغير الذي لم يلجه سابقاً غير "عديم الرائحة" الذي غادر حيثُ بلاد الثلج، والذي سألتقيه بعد أيام قليلة. كنتُ خائفة من أن تقتحمني موجة مؤلمة كما حدث مع "أميري" لكنني شعرتُ تحت هيمنة "زينل" بلذة ساحرة كانت ترفع روحي إلى السماء ثم تعود بها حيث السرير برفق ورشاقة. كنتُ أناجي إله الشهوة أن يطيل اللحظة، ويغمرني بالرضا أكثر وأكثر، ولكن حين شهقَ "زينل" كجواد منتصر، وارتمى على صدري نافثاً سخونة صدره بين ثدييَّ، همدت حركتي وأنا أطبقُ على ظهره بساقيَّ طالبةً منه عدم المغادرة، فامتثل.

بعد أقل من نصف ساعة، اعتليت "زينل" كما كنتُ أعتلي "سهيل" و"رياض"، حتى ارتجفتْ روحي وجسدي مرتين، ثم استلقيتُ على

ظهري وصار "زينل" فوق الجسد المرمري كما صار يسميه، وكما في المرة السابقة، صارت حركته أكثر هيجاناً وصارت كلماتي أكثر توسلاً، حتى همدت أنفاسنا ونحنُ نحلّق بعيداً في دهاليز الروح والجسد....

"جميلٌ أن تعبق غرفة نومك برائحة الكرز... جميلٌ أن يكون الكرز عنواناً لأحلامك..."

***

كان زينل يعرف طريق السفارة جيداً، تماماً كما يعرف موظفة الاستقبال التي تهللت أساريرها حالما رأته، فقد راجع السفارة مرات عديدة لأسباب كثيرة... استقبلتنا الموظفة بترحاب مهذَّب، وعرضتْ علينا القهوة لكن "زينل" طلب تأجيلها لوقتٍ آخر. أخذتْ جواز سفري، والورقة الخاصة بمراجعة السفارة التي تسلمتُها منها حين كنتُ مع "أميري" آخر مرة، وتركتنا بعد أن طلبت منّا الانتظار قليلاً... حدثني "زينل" عن الموظفة التي تعرّفَ عليها منذ سنوات خلت، وكيف قدّمَت له المساعدة في أمور مهمة كان أهمها حقه في الاحتفاظ بالجنسية السويدية، حيث تعامله كمواطن سويدي، وذلك – حسب رأيه – قد منحه الكثير من المميزات في بلده...

عادت الموظفة وأشارت لنا بالتقرب إلى مكتبها. حررت لي وصلاً باستلام مبلغ بسيط، قالت إنّه رسوم لا بدّ منها، ثم سلّمتني جواز سفري وهي تشير إلى "الفيزا" التي تم إلصاقها عليه دون أن تنسى مباركتها لي وتمنياتها بسفرة مريحة...

لم يكن الوقت متأخراً، قال "زينل" مشيراً إلى أن مكاتب السفر لم تُغلق بعد، وأن أمامنا الكثير من الوقت، ثم اقترح تناول وجبة الغداء بعد الحجز، فوافقته.

لم تستغرق عملية الحجز أكثر من ساعة. كانت هناك رحلة على الخطوط الاسكندنافية بعد ظهر الغد، عند الواحدة بعد الظهر، ورحلة أخرى بعد ثلاثة أيام، اقترح "زينل" أن نحجزها حتى نكون معاً أطول فترة ممكنة، لكنني فضلتُ رحلة الغد فوافق دون رضا ودون أن يتخلى عن ابتسامته...

حال خروجنا من مكتب السفريات، استأذنتُ "زينل" لأقوم بمكالمة هاتفية ضرورية، فأرشدني إلى كابينة هاتف عمومي. دخلتُها وألقمتُ حصالة الهاتف بعض "الليرات" المعدنية، وأدرتُ الرقم حتى جاءني صوت "بثينة" الهادئ. ألقيت التحية ثم سمعتُ منها بعض كلمات مرحبة، حتى قلتُ رسالتي: "اكتمل بناء البيت، وستدخل العائلة بيتها الجديد غداً عند الخامسة مساءً.". وانتظرتُ حتى سمعتُ عبارة "مبارك لهم ولنا" ثم أُقفل الخط.

جلسنا متقابلين إلى طاولة في شرفة مطعم أنيق التصميم، أُنشِئ على سطح بناية من خمسة طوابق. طلبَ "زينل" الطعام ولم ينسَ قنينة النبيذ... بعد أقل من خمس دقائق أتى النادل بصحنَي حساء قال إنّه "حساء العدس" لكنني لم أرَ غير سائل كثيف أصفر اللون وإلى جانبه قطعتي ليمون من اللون نفسه، كان مذاقه رائعاً، وددتُ حينها لو كانت هناك قطعة خبز لأكلتها معه. كتمتُ رغبتي بالخبز وأنهيتُ صحني بتلذذ، حينها مسكَ "زينل" كفي اليمنى، ونظر عميقاً إلى عينيَّ وقال بصوتٍ خافت: "لو عرضتُ عليكِ الزواج، فهل تلغين فكرة السفر؟". ضحكتُ بعمق وأنا أنظر إليه بدهشة مذكّرةً إياه بأنني امرأة متزوجة، فضحكَ هو الآخر ولكن بارتباك واضح، ثم دعكَ جبينه بحدة وأعلن عدم نسيانه أمر زواجي، مشيراً إلى إمكانية طلاق زوجي عند الجهة التي عقدت لنا. ضحكتُ أكثر حتى كدتُ أشرقُ بسائل فمي، فكيف لي إفهام "المتيم" بي، بأن الزواج ليس الهدف من سفري، بل هو الوسيلة لغاية أكبر منه بكثير،

وهل كان يستوعب لو قلت له بأنَّ كل الذي حصل كان مجرد حركة من شأنِها إضفاء مصداقية "كاذبة" أمام المنظمات والأحزاب "المعارضة" لحكومة "بطل الحروب" بأنني معارضة أيضاً وضحية الاعتقال والسجون الخاصة بحكومة الـ "الديكتاتور"؟.

"دعنا نعش اللحظة، واترك أحلامك للمستقبل، وتذكر أن كبار الفلاسفة قد أشاروا إلى أن الزواج يقتل الحب..." قلتُ له ذلك وأنا أتابع سيل دمعة ساخنة صارت تتدحرج بصمت على وجنته اليسرى....

في غرفتي حيث الفندق، منحتهُ نفسي بكل سعادة، لم أبخل عليه بشيء، ولم يدّخر هو الآخر ما يعرفه من ألاعيب ومداعبات المتعة. لا أدري عدد المرات التي شهقتْ فيها روحي فوق قمة النشوة، ولم أحص عدد كؤوس الويسكي التي شربها "زينل" وعدد الرشفات التي رشفتها من كأسي الوحيد... لا أعرفُ كيف نمتُ ومتى...

***

"شيء ممل أن تكون إنساناً عادياً".

"أن تعيش السعادة، عش وفق الدوافع النابعة من داخلك... وليس دواخل الآخرين.".

(19)

تجربة الطيران الأولى كانت مرعبة، رغم توقي لخوضها. يبدو أن المضيّفة الشقراء ذات البشرة الوردية والطول المثالي، قد تشمّمت رائحة خوفي، فاقتربت مبتسمة وانحنت حتى كاد أنفها يلامس وجنتي. سألتني إن كنتُ على ما يرام، فهززتُ لها رأسي موافقة، لكن ابتسامتها اتسعت وقالت أن لا داعي للخوف وإننا سنصل بسلام حتماً، ثم جلستْ القرفصاء واضعة كفها اليمنى على فخذي اليسرى وقالت بهدوء وبكلمات واضحة: "سأدلكِ على طريقة أكيدة تبعد عنك الخوف أثناء الطيران... عليكِ مراقبة ملامح وحركة المضيّفات، إن كانت عادية وغير مضطربة، والابتسامة مرسومة على وجوههنَّ، فلا داعي للخوف..." ابتسمتُ لها شاكرة، وطلبتُ منها كأسًا من البيرة عسى أن يضفي عليَّ بعض الاسترخاء.

بعد أربع ساعات طيران، هبطتِ الطائرة في مطار ستوكهولم. ارتديتُ سترتي فغزتني رائحة الكرز. ابتسمتُ، وعمدتُ على دسّ أنفي في ياقة السترة بضع ثوان طمعاً بالمزيد...

ما أن تجاوزتُ نهاية "الخرطوم" الممتد بين بوابة الطائرة وصالة الوصول، حتى شاهدتُ أسمي مكتوباً بالحروف اللاتينية على لوحة كارتونية، محمولة بين كفيّ امرأة شقراء طويلة ضخمة الجسد بعض الشيء، في أواسط الأربعينيات من عمرها. توجهتُ نحوها مبتسمة وأشرتُ إلى أن اللوحة تحمل اسمي... رحبتْ بي المرأة التي عرفتُ بأن اسمها "بيرتا"، وسألتني إن كنتُ بحاجة إلى شيء معين، فشكرتها نافيةً دون أن تفارقني ابتسامتي... مشيتُ إلى جانبها مسافة ليست بالقصيرة،

حتى وصلنا سلّمًا كهربائيًّا يفضي إلى صالة فارهة زجاجية الجدران محتشدة بالبشر المنتظرين وصول من سيعانقونهم شوقاً... صار "أميري" أمامي. أعتقد أني لاحظتُ بوادر ابتسامة تكاد ترتسم على شدقيه. اقتربَ مني واحتضنني وهو يردد كلمات التهنئة بسلامة الوصول، ثم التفتَ صوب المرأة ليشكرها، كما فهمت، ونطق بعد ذلك، كلمات لم أفهم منها شيئاً. قدمتْ المرأة له بعض الأوراق، قام بتوقيعها، واستلم إحداها، سرعان ما طواها ودسها في جيب بنطاله الخلفي.

ما أن غادرتنا "بيرتا"، حتى استعجلني "أميري" كي نصل السيارة بأسرع وقت ممكن. لم أسأله السبب، وسرتُ خلفه مسرعة رغم الإرهاق... دخلنا مرآب السيارات ووصلنا سيارة حديثة نوع "فولفو" داكنة الزرقة. فتح لي بابها الأمامي لأجلس إلى جانبه...

الظلام مهيمن، والساعة تقترب من السادسة مساءً... شعرتُ بضياع الوقت، أو ضياعي وسط دوامة الوقت. سألتُ "أميري" عن الظلام فأخبرني بأنه يبدأ عند الرابعة بعد الظهر تقريباً أو قبل ذلك بقليل... دهشتُ كأنني غير مصدقة...

في الطريق، حين كنتُ أبحثُ عبثاً عن رائحة "أميري" الذكورية، أبديت إعجابي بسيارته، فأخبرني بأنها ليست ملكه، وإنه قد استعارها من شريكه، فالمسافة بين المطار ومنطقة "أوبسالة" حيث يسكن بعيدة بعض الشيء، مشيراً إلى أن المواصلات العامة باهظة الثمن...

الشوارع بخطوط بيضاء تحدد للمركبات مساراتها. الأشجار سوداء الخضرة، تحف الشارع على امتداده دون انقطاع، ذلك ما أجاد عليَّ به ليل السويد المبكّر. أنزلتُ زجاج النافذة قليلاً رغم برودة الطقس، طمعاً باستنشاق رائحة المزارع، فكانت رائحة المطر المختلط بالتيه...

***

وسط شارع عريض، تحفه بنايات سكنية من أربعة طوابق، أوقف "أميري" السيارة بعد إعلانه الوصول. دخلنا البناية رقم 45، وما أن اعتلينا ست درجات من السلم، حتى طلبَ مني التوقف أمام باب معدني قال إنه المصعد الكهربائي. كبسَ "أميري" على الزر رقم أربعة فتحرك المصعد ليعلن عن توقفه بعد أقل من الدقيقة. فُتح الباب أوتوماتيكياً وخرجنا لنواجه بابًا أبيض موصداً. كان هناك باب مشابه على بعد مترين تقريباً إلى اليمين، وآخر بنفس المسافة إلى اليسار. أدارَ المفتاح في ثقب قفل الباب ودخل مرحباً بي طالباً مني الدخول بعد أن أنار الضوء الذي بان خافتاً مصفرًا.

لفتَ انتباهي سقف البيت المائل إلى اليسار. سقفٌ واطئ يساراً ومرتفع يميناً... صالة طويلة بنصف سقف مائل. طاولة صغيرة وثلاثة كراسي، وشيء للنوم يشبه سريرًا دون أرجل يحتل الزاوية القصية جهة اليسار تقابله خزانة خشبية بيضاء ببابين لصقت مرآة طويلة على أحدهما...

طلب "زوجي" مني الجلوس إلى الطاولة كي يسكب لنا الطعام الذي أعدَّه مسبقاً، فسألته: "أين المطبخ؟" أشار بأصبعه جهة اليمين عند بداية الصالة، كانت هناك درفتا خزانة موصدة قام بفتحهما إلى الجانبين ليظهر حوض غسل الصحون وإلى جانبه موقد كهربائي صغير بقاعدتين معدنيتين يرتكز عليهما قدران صغيران، يعتليهما رفّ خشبي رُصّتْ عليه بعض الكؤوس والصحون... كنتُ قد رأيت ذلك في "منزل الطالبات" حين كنتُ أزور "سحر" في غرفتها التي تشبه بيت "أميري" هذا، ولكنها أصغر بقليل. ودون أن أسأله عرفتُ موقع الحمام حين تصورتُ غرفة "سحر" فتوجهتُ إلى باب الشقة وفتحتُ الباب الصغير المقابل، فكان الحمام أمامي لأغسل وجهي وأقضي حاجتي...

حين عدتُ من الحمام، وحاولتُ الجلوس على الكرسي، نهرني "أميري" عن الجلوس على ذلك الكرسي تحديداً، مشيراً إلى أنه مكسور، فأشار إلى الكرسي المجاور، ابتسمتُ له وجلستُ حيث أشار... كانت مائدة الطعام تتكون من صحنين فارغين وقدرين صغيرين، الأول يحتوي على الرز والثاني على مرقة البامية... كنتُ جائعة، فأكلت حتى شبعت...

انتبه لي "العريس" حين كنتُ أجول بنظري بين زوايا "بيته" الفارغة، فقال دون مقدمات: "لم أقم بتأثيث البيت... انتظرتكِ حتى تأتي وتؤثثي بيتكِ بنفسك...".

"تقصد بفلوسي!!؟". قلتُ له مبتسمة دون أن أخفي امتعاضي، فقال:

"لا... لم أقصد هذا... غداً صباحاً لدينا موعد في دائرة مساعدة اللاجئين، أعتقد أنهم سيمنحوننا مبلغاً من المال لتأثيث البيت حسب القانون...". هززتُ رأسي ورحتُ أشغل نفسي بفتح حقيبتي وترتيب ما أمكن داخل الخزانة اليتيمة... في تلك الأثناء رفع "أميري" ما كان على الطاولة ليضعهم داخل حوض غسل الصحون، ونظفَ الطاولة. كنتُ أراقبه "شزراً"، رأيته حين وضع كأسين نظيفين، وتوجه صوب الثلاجة الصغيرة ليخرج منها قنينتي بيرة، ثم جاء بكيس بطاطا محمصة،أفرغة في "زبدية" كبيرة بعض الشيء... الغريب أنه أوقد شمعتين ثم ثبَّتهما على الطاولة مباشرة. ترى هل يعرف هذا المخلوق الذي لم أرهُ مبتسماً، شيئًا عن الرومانسية؟

سألته إن كان هناك هاتف في البيت، فقال: "نعم، لكن استلام فقط، لا يمكننا مهاتفة أحد، فأرقامه عاطلة منذ أن اشتريته". فصمتُ.

اتجه صوبي، كنتُ جالسة على الفراش المطروح على الأرض، والذي يفترض أن يكون سرير الزوجية، اقترب مني ومد يده ليسحبني. وقفتُ فألتصق بي، طوقني بذراعيه الغليظتين وأخذَ شفتي بشفتيه، تملصتُ منه

بعد بضع ثوان، فأخذني حيث الطاولة لنجلس متقابلين... "حان وقت الاحتفال بسلامة وصولك إلى مملكة السويد سالمة...". رفع كأسه ورفعتُ كأسي، ثم قرعنا الكأسين وارتشفتُ قليلاً، لكنه أفرغ كأسه في جوفه دفعة واحدة... للحظة شعرتُ أنه ينظر إليَّ بإعجاب، أو ربما بشيء من الفرح أو الزهو الذي لا أعرف سرهُ. قلت، إنه تأثير كؤوس البيرة التي شربها وهو يحدثني عن حياته المريرة التي عاشها يتيماً، وكيف أن أخته غير الشقيقة قد ربته وجعلته ابناً لها... حين أفرغتُ كأسي اليتيمة أعلنتُ تعبي وحاجتي للنوم، فتبعني إلى الفراش وهو يلعب دور الدليل شارحاً أهمية الفراش والراحة التي يمنحها للجسد... تمدد إلى جانبي وشعرتُ برغبته، ولكن، دون رائحة.

استأذنته وقمتُ عن الفراش متوجهةً صوب الحقيبة، أخرجتُ قميص رياض، وعدتُ إلى الفراش لأغطي به وسادتي، وحين أعلن "عديم الرائحة" عدم رضاه من تلك الحركة مشيراً إلى نظافة فراشه، أخبرته بأنه قميص والدي الذي اعتدتُ وضعه على الوسادة منذ خروجي من بلدي، فوافق ممتعضاً... تسربت رائحة "الحطب اليابس" إلى خلايا روحي فشعرتُ بالاسترخاء...

"لا بدّ من منحه جسدي..." ففعلت... لقد أنقذت رائحة رياض الذكورية الموقف.

"أن يتورّد جسدي صباحاً تحت تأثير رائحة الكرز المُسكِرة، تلك قصة سعادة قصيرة الأمد... وأن ينطفئ مساءً تحت جسد عديم الرائحة، فتلك قصة مريرة يراد عيشها بقية العمر!!!".

***

كان مكتب مساعدة اللاجئين مكتظاً. دخلتُ و"أميري" ماسكاً يدي. جلسنا في صالة الانتظار على كرسيين وثيرين، حتى أتت المرأة التي

استقبلتني في المطار مساء أمس. كانت ابتسامتها ساحرة، رحبت بي، واصطحبتنا حيث مكتبها. كان هناك رجل ستيني أشيب الشعر طويل القامة، عيناه منتفختان وشفته السفلى متهدلة بعض الشيء، وكأنه قد استيقظ من النوم منذ دقائق. وقفَ مرحباً حالما دخلنا عليه، "طلال، فلسطيني. أنا المترجم.". قال ذلك وعاد حيث كرسيه، لأجلس قبالته واتخذ "أميري" الكرسي الذي يتوسطنا مجلساً له.

"لقد أخرجنا لكِ رقمًا شخصيًّا، يتضمن تاريخ ميلادك وأربعة أرقام أخرى لتميز رقمك عن الآخرين، عليكِ حفظه، فهو بمثابة الهوية الشخصية لكِ في البلد، ولكِ راتب شهري، طلبَ منا زوجكِ أن يُرسل إلى حسابه البنكي كلّ شهر، ولكننا نفضل أن يكون لكِ حساب بنكي خاص بكِ اعتباراً من الشهر القادم..." قالت المشرفة ذلك والمترجم ينقل لنا كلمة بكلمة وجملة بجملة، ثم أضافتْ وهي تخرج مظروفًا صغيرًا أبيضَ حاولت أن تناولني إياه: "هذا مبلغ مخصص لكِ من أجل تأثيث البيت وشراء حاجاتكِ الضرورية..." مددتُ يدي لاستلامه، لكن يد "أميري" كانت الأسرع، فأخذَ المظروف ودسّه في جيبه. شعرتُ بالقرَف، وقرأتُ الاستهجان بعيني المترجم والمشرفة في آن. "هذا الرجل لا يُطاق". قلتُ في سريرتي مبتسمة للرجل والمرأة المبتسمة على الدوام.

حين خرجنا صار "أميري" أمامي. تعمدتُ أن أتخلّف عنه ببضع خطوات حتى ابتعدَ. عدتُ مسرعة إلى غرفة المشرفة، فتحتُ الباب وأطليت برأسي ناظرة صوب السيد طلال، وقلت: "أريد موعداً مع المشرفة بمفردي.". ترجم لها ما قلتُ، فطلبتْ المشرفة مني الانتظار بالصالة حتى تأتي لي. رجعتُ إلى الوراء وأغلقتُ الباب، وما أن التفتُ حتى شاهدتُ "زوجي" غاضباً وهو يتجه نحوي: "ماذا تفعلين، هل نسيتِ شيئاً؟" ابتسمتُ له وقلت: "لا أبداً، ناداني المترجم وأخبرني أن

أنتظر المشرفة في الصالة لأمر لا أعرفه، وكنتَ تسبقني بعِدة خطوات، لذلك لم تسمع شيئاً..."".

لم يمرّ الكثير من الوقت ونحن ننتظر في صالة الانتظار حتى أتتِ المشرفة طالبةً مني اللحاق بها حيث غرفتها، وحين همَّ "أميري" بالوقوف، أمرته بالعودة إلى مكانه فهو غير معني...

دخلتُ الغرفة، وقابلتني ابتسامة السيد طلال، الذي طلبَ مني الحديث بكل حرية، حينها، سحبتُ نفساً عميقاً وسألت: "هل يحق لي طلب اللجوء؟" تحولت ابتسامة المشرفة إلى ضحكة فائضة السعادة، وقالت: "نعم، بكل تأكيد... هل أوراقك الرسمية معكِ" هززتُ رأسي موافقة وأخرجتُها من حقيبتي اليدوية. تفحصتها المشرفة جيداً، وقامت لتأتي من رفّ خلفها برزمة أوراق مطبوعة راحت تمليها وتطرح عليَّ بعض الأسئلة، كان أهمها "لماذا تطلبين اللجوء؟" قلتُ لها بأنني كنتُ معتقلة، وأن هناك من يلاحقني، وشرحتُ لها كيف خرجتُ من بلادي والتجأت إلى بلد آخر، والدليل أن عقد زواجي لم يحدث في بلدي بل، في بلد مجاور كوني هاربة، ثم سلمتها الوثيقة التي مدرج فيها اسمي ضمن أسماء عديدة تعتبرها حكومة بلدي معادية لها... نصف ساعة مضت، طُرِقَ خلالها باب مكتب المشرفة مرتين، وفي كل مرة يخرج السيد طلال يحدث فيها "أميري" ثم يعود ضاحكاً... عند الانتهاء أخبرتني المشرفة والسيد طلال أيضاً أنّ أمر طلب اللجوء سيظل سراً، ولن يعلم به زوجي حتى تأتي إجابة دائرة الهجرة. شكرتهم وخرجتُ مستقبلة تجهّم وغضب "زوجي" عديم الرائحة، الذي سرعان ما نسي غضبه حين وضعتُ في يده خمسمئة دولار طالبةً منه تصريفها حتى أتمكن من مهاتفة عائلتي وأشتري لي معطفاً...

داخل المصرف، ناول "زوجي" ثلاث ورقات إلى الموظفة وأبقى اثنتين في جيبه، وحين استلم الأوراق النقدية السويدية، حاول دسهم في جيبه

لكنني نهرته، وطلبتُ منه وضعهم في يدي، ففعلَ بعد أن أعلن تذمرهُ شارحاً أن المبلغ كبير جداً وقد يضيع مني... عدتُ إلى موظفة المصرف وأخبرتها بلغتي الإنكليزية المتواضعة أن تغير لي بعض الأوراق إلى عملات معدنية كوني أروم استخدام الهاتف العمومي في عدة مكالمات خارجية. أخذت مني ورقة نقدية واحدة وأعطتني أربع علب اسطوانية صغيرة مصنوعة من البلاستك بداخلها قطع نقدية معدنية قالت بأنها كافية لمكالمة قد تمتد لأكثر من ساعة... شكرتها وخرجتُ أجرُّ "زوجي" ورائي كالكلب. منذُ تلك اللحظة قررتُ أن أشتري هذا الكائن الذي يُدعى خطأً بـ "أميري" بما لدي من مال ليكون خادماً مطيعاً، وكان لي ذلك.

هاتفتُ أهلي من تلفون عمومي بعد أن أجلستُ "كلبي" في مقهى مجاور وطلبتُ له القهوة وقطعة كيك مصنوعة من الشوكلاتة... أخبرتُ أمي بعد أن اطمأنيت على أفراد أسرتي فرداً فرداً، بأن "زوجي لا يُطاق يا أمي" فبكتْ، لكنني ذكّرتها بقوتي ووعدتها بالسيطرة عليه، وما أن أغلقتُ الهاتف حتى اتصلتُ بالهاتف الخاص بمكتب "بثينة"، جاءني صوت رجولي عرفتُ أنه الرائد الذي تحت إمرتها، أخبرته بوصولي وأن مهمتي تسير على أكمل وجه، ثم أمليت عليه رقم هاتف منزل "أميري" لتتصل بي "بثينة" غداً صباحاً...

قال أميري حين عدتُ له بعد أن أتممت مكالمتي الهاتفية، أنه يعرف محلاً محترماً لبيع الملابس النسائية قريب من منزله، حينها قررتُ التبضع ببعض المأكولات والتوجه إلى المحل الذي ذكره... اشتريت الخبز واللحم وبعض الخضار وثلاث دجاجات مجمدة، وقنينتي نبيذ حسب رغبة "الكلب" الذي أصرَّ أيضاً على شراء ست قناني بيرة فئة النصف لتر. ادعيتُ ألماً مفاجئًا في ظهري، فحمل "زوجي" الأكياس كلّها...

"اكذبْ! إن كان في الكذبِ مذلة للشيطان"

حين اقتربنا من البناية التي نسكن، سألته عن المحل الذي يبيع الملابس النسائية، فأشار إلى زاوية جهة اليسار. نظرتُ صوب الجهة فشاهدتُ علامة الصليب الأحمر تعتلي واجهة المحل. "ماذا تعني إشارة الصليب الأحمر على واجهة المحل؟" سألته، وأجاب متذمراً: "ادخلي وتفحصي! العلامة لا تعني شيئاً"... ما أن دخلتُ حتى غزتني رائحة كريهة تقترب من رائحة الشحم الحيواني، خرجتُ مسرعةً وكدتُ أفرغ جوفي قرفاً... نظرتُ في وجهه الباهت عديم الإيحاء، ثم استدرتُ متجهة صوب باب البناية. سار ورائي حاملاً أكياس التسوق، بوجوم فاضح...

بعد نصف ساعة من خروج "زوجي" إلى عمله صباحاً، رنَّ هاتف البيت. كانت "بثينة" على الطرف الآخر... أخبرتها بكل ما قمتُ به، وبكل التفاصيل، وقد أثنت على قرار طلبي اللجوء دون علم زوجي، وأمرتني أن أشتغل على استقلاليتي وأن لا أكون مرتبطة بزوجي كلياً، فأوضحتُ لها قراري باستعباده تحت سلطة المال، فالرجل يعبد "الخردة" ورنين الدراهم وخشخشة الأوراق النقدية. ضحكت "بثينة" كثيراً، ثم حدثتني عن قلقها وقلق السلطة من تبعات احتلال الدولة الصغيرة جنوباً، وأن الأحداث المتغيرة سريعاً ربما ستؤدي إلى تعليمات سريعة ومتغيرة حسب الحاجة لها، طالبةً مني أن أكون مستعدة لكل شيء جديد وطارئ، وقبل أن تنهي مكالمتها، طلبتْ مني الاتصال بالأحزاب والتنظيمات المعارضة كي أوصل لهم الوثائق وفيلم الفيديو الذي بحوزتي.

كرهتُ اسمه... لا يمكن لهذا الكائن أن يكون "أميري"، يمكنه أن يكون أميراً على البخلاء أو للنصب والاحتيال، أما أن يكون أميري أنا، فذلك ما كان يشعرني بالقرف كلما نطقتُ اسمه، فصرتُ أناديه "أمير"... في المرة الأولى انتبه إليَّ وأنا أناديه "أمير"، ارتسمت علامات الدهشة على ملامحه الباهتة وسألني عن السبب، فأجبته كاذبةً بأن "أمير" أسهل بكثير من "أميري" الذي أجده ملفّقاً، فاعترف بأن "أمير" هو اسمه الحقيقي،

وأن اسمه بالكامل كان "أمير فخري جابر" لكنه لأسباب خاصة سيشرحها لي فيما بعد، غير اسمه كما هو مسموح في "السويد" حيث يمكن تغيير اسمك متى شئت، إلى "أميري جبران فاخر". وحين سالته عن أخته التي أصرت على أن اسمه "أميري" منذ الصغر، قال بامتعاض مزيف، بأنه قد طلب من "باهرة" ذلك بإصرار وهدّدها بعدم مسامحته لها إن أخطأت بحرف... ثم قال بكلمات هادئة: "قريباً ستعرفين كل شيء... كوني مطمئنة."... أصريتُ بيني وبين نفسي على معرفة السبب الحقيقي لذلك التغيير، فقد انتابني شعور قلق جراء ذلك...

في المساء، كنتُ قد أعددتُ وجبة العشاء على أكمل وجه، ثم أعددت طاولة الطعام بعد أن أبعدتُ الكرسي المكسور إلى جانب خزانة الملابس حيث الزاوية... جلستُ قبالة "عديم الرائحة" بعد أن طلبتُ منه فتح قنينة النبيذ... وقبل أن أنهي كأسي الأولى، سألته عن السبب الذي دعاه إلى تغيير اسمه، وكيف أن "باهرة" والتي جاءت لخطبتي، قالت إنَّ اسمه "أميري"، ولم تقل "أمير"... فأجاب بشيء من الزهو بأنه كان معتقلاً في بلده قرابة العام، وفي أقذر المعتقلات سمعةً، دون تهمة أو محاكمة ودون معرفة السبب، ورغم ذلك تعرض إلى أقسى أنواع التعذيب... حين ذاك أقسم على مغادرة بلده دون التفكير بالعودة، ومن أجل التخلص من ماضيه وحياة الحرمان التي عاشها، قرر بدء حياة جديدة باسم جديد، وإنه شدد على أخته الكبرى أن لا تذكر اسمه السابق مطلقاً، حتى أمام أولادها... رواية سخيفة سمعتها منه قبل النوم ولم أصدقها، أو لم أقتنع بها...

***

انقطعت عني الدورة الشهرية، للشهر الثاني، فطلبتُ من "أمير" أن يأخذ موعداً من طبيب العائلة. تحجج بالعمل، واصطحبني حيث الشباك

ثم أشار إلى البناية المقابلة وأخبرني أن عيادة الدكتورة تقع في الطابق الأرضي. نظرتُ إليه بانزعاج واضح وتركتهُ لأدسَّ جسدي في الفراش، وأستنشق رائحة "الحطب اليابس" التي صارت الملاذ للتخلص من الشعور المقرف حين يكون "عديم الرائحة" إلى جانبي...

ظهرت نتيجة الفحص إيجابية، إذاً، أنا حامل، هناك إنسان يتكون داخل أحشائي. ربتتِ الطبيبة على كتفي وطلبتْ مني الشجاعة والصبر كونه الحمل الأول، بعد أن باركت لي مبتسمة... خرجتُ من عيادة الطبيبة لا أعرف وجهتي، مشيتُ على امتداد الرصيف رغم برودة الطقس، بتفكير مشوش. صادفتُ مقهى صغيرًا، شعرتُ لحظتها بحاجة إلى الدفء، فدخلت. طلبتُ فنجان قهوة وجلستُ إلى زجاج الواجهة أراقب المارة دون تركيز، شاهدتُ شابة في العشرين تعتلي دراجة هوائية وأمامها مقعد يضم طفلاً. فكرتُ بشراء دراجة، لكن سرعان ما أجلتُ الفكرة حين تذكرت أنني حامل.

واصلتُ السير بعد خروجي من المقهى، شاهدتُ امرأة عجوزًا تقود كلباً صغيراً جداً، تأملته مشفقةً عليه، كان أصغر حجماً من قطة بالغة وكان يرتجف، وحين انتبهتُ إلى العجوز وهي تحدّق بي بفضول، ابتسمتُ لها وسألتها إن كان كلبها يشكو من البرد، فضحكت ونفتْ. "الكلاب لا تشعر بالبرد بالقدر الذي يشعر به الإنسان." قالت ذلك وواصلت سيرها بالاتجاه المعاكس...

وجدتُ نفسي أمام مركز للتسوق فدخلت، واجهني محل كبير لبيع الأدوات الكهربائية، فخطر لي فكرة شراء جهاز تلفون بدلاً من الذي يقبع في بيت "زوجي" الذي عمد إلى تغيير أماكن أزرار الأرقام ويدعي عطله... حين صار الموظف الشاب يشرح لي مميزات الهواتف تباعاً، أشار

إلى جهاز أكبر حجماً قال إنّه هاتف وفاكس بنفس الوقت. دارت في رأسي العديد من الأفكار لثوانٍ، فقررتُ شراء الجهاز...

عاد "المُتجهّم" من عمله أكثر تجهماً. قابلته بابتسامة وطلبتُ منه الاغتسال ريثما أعد مائدة الطعام، ففعل... سألني ونحن نجلس إلى طاولة الطعام إن كنتُ قد ذهبتُ إلى الطبيبة، فهززتُ رأسي بالإيجاب ونظري منسكب على الطبق الذي أمامي... رفعتُ رأسي مبتسمة، وقلتُ: "أنا حامل". نطَّ الرجل واقفاً وعيناه متسعتان، ثم هوى عليَّ محتضناً وهو يردد كلمات فرحه وعمق سعادته.. أعتقد أنني شاهدتُ بين شدقيه نصف ابتسامة سرعان ما اختفت... عاد إلى كرسيه وهو يردد: "سأكون أباً... سيكون لي ابنٌ..." ثم نظر صوبي وقال كمذيع يقرأ نشرة أخبار: "يجب أن نحتفل بهذه المناسبة...". فقلتُ موافقة على الفكرة: "غداً الخميس، عندي موعد مع المشرفة في مركز رعاية اللاجئين، سأشتري بعض لوازم الاحتفال حال خروجي من المركز..." ثم نظرتُ إلى وجههِ علّني أقرأ تعبيراً مفرحاً، وأضفتُ بعد الخيبة: "لا تقلق، سيكون الاحتفال على حسابي..." منح نظره إلى طبقهِ وعاد يلتهم الطعام ازدراداً...

استيقظتُ على إثر كابوس مرعب. حلقي جاف وجسدي متضمخ بعرقه... شاهدتُ في منامي، طيورًا سوداء ضخمة تطير دون صوت فوق أرض محترقة، وكنتُ أركض صوب بيت حسبته بيتنا، كنتُ أروم الاختباء في غرفة جدي، لكن البيت اختفى فجأة فوجدتني أمام نهر ضحل المياه. قررت الاختباء وسط النهر محتمية ببرودة الماء، فوجدته مزدحماً بالتماسيح. قدماي مغروزتان في طين النهر ولا أستطيع الهرب، فاستيقظت فزعة لأسمع شخير "المريض بخلاً"، ليته يكون بخيلاً في شخيره أيضاً...

"في تلك الأثناء كانت الطائرات تقصف بلدي بوحشية لم يشهدها وطن من قبل، معلنة بدء عملية تحرير البلد الصغير المحتل من قبل حرس "بطل الحرب" الجمهوري الخاص.

"تُرى، ماذا كانت مواضيع كوابيس أبناء جلدتي قبل ظهور "بطل الحرب"؟".

نهضتُ بتثاقل، بعد أن غادر "عديم الرائحة" إلى عمله. أعددتُ إبريق الشاي ووضعته على القاعدة حيث الشمعة، ودخلتُ الحمام. ما أن خرجتُ من الحمام حتى رنَّ الهاتف، جاءني من الطرف الآخر صوت رجولي كنتُ قد سمعته من قبل، وبعد أن نطق بالشيفرة، تأكدتُ بأنه يتصل من مكتب بثينة، أخبرته بتوفر جهاز فاكس لديّ، فأعطاني الرقم الخاص بفاكس المكتب، ثم قال بشيء من الصرامة: "الأوضاع لا تبشّر بخير، علينا العمل بجدية. عليكِ الاتصال بالمنظمات والأحزاب المعارضة، ومن المهم تأمين اتصال مع منظمة المغتربين لتنظيم تظاهرات احتجاجية مستمرة أمام السفارة الأمريكية في ستوكهولم... التقارير اليومية مهمة جداً..." ما أن صمتَ حتى أخبرته بأنني سأبعث برسالة له عبر الفاكس بعد قرابة الساعة.

حررتُ تقريراً من صفحتين، كتبتُ به كل ما استجد وعلى رأسها موضوع الحمل، والأهم موضوع الحصار الذي يفرضه "زوجي" عليَّ مما يعيق حركتي، فهو منعزل وليس لديه أصدقاء أو أقارب يمكنني التحرك من خلالهم... حين أنهيت التقرير، ونجحتُ في إرساله عبر الفاكس الذي فصلتهُ وأعدته إلى العلبة ثم الخزانة، جلستُ وسط هالة من الإحباط أفكر بجدوى ما أنا فيه، فلم أجد أي بارقة أمل... انتفضتُ تاركة إحباطي وقررت الخروج حيث موعدي مع المشرفة في مركز رعاية اللاجئين...

استقبلتني "بيرتا" بابتسامتها المعهودة، وعلامات الفرح واضحة على ملامحها، وما أن دخلتُ غرفتها حتى قابلتني ابتسامة السيد "طلال" مرحباً، وبمجرد جلوسي، ناولتني المشرفة ورقة طالبة مني توقيعها، حينها قال السيد المترجم: "مبارك لكِ سيدة حياة، لقد حصلتِ على حق اللجوء السياسي..." اختلطت مشاعر الفرح بالذهول، ورحتُ أجول بنظري بين المشرفة والمترجم. قادتني رغبة باحتضانهما شاكرة، ففعلت تحت قهقهاتهما المفعمة بالسعادة...

عدتُ إلى الكرسي، وقلتُ دون سابق تفكير: "أنا حامل... أخبرتني الطبيبة أمس". استقبلتُ التهاني بفيض من مشاعر محبة منحتني شحنة إنسانية عالية... مسكتْ "بيرتا" كفي اليمنى وطلبتْ مني الاستماع لها جيداً: "غداً، عند العاشرة صباحاً تكونين هنا في مكتبي، لنذهب معاً إلى بناية البنك المجاور لنفتح حساباً بنكياً خاصاً بكِ، ثم نعود إلى المكتب لإكمال بعض الأوراق الضرورية..." ثم نظرت بعيني عميقاً وأضافت: "هل يحق لي أن أطلب منكِ عدم إخبار زوجك بأمر حصولكِ على حق اللجوء؟".

في طريق عودتي إلى البيت تبضعتُ ما أحتاجه لـ"حفلة" الليلة حسب رغبة "عديم الرائحة" ولم أنسَ النبيذ والشموع... اشتريتُ طعاماً مشوياً مع السلطة والمخللات من مطعم قريب وتوجهتُ صوب البيت... في الطريق غزتني فكرة التخلص من "أمير" تحت إغراء ونشوة حصولي على حق اللجوء، الذي يعني تمتعي باستقلالية تامة... تصورتُ نفسي داخل شقة أكثر احتراماً واتساعاً من "قنّ" عديم الرائحة. تخيلت طفلي أو طفلتي وهي تحبو على أرضية نظيفة لامعة، وتُراقص جسدها الصغير على موسيقى التلفاز الذي يفتقده بيت "زوجي"... فجأة، توقفتُ عن السير مندهشة "من أين أتت هذه الفكرة لتسيطر على عقلي؟... لماذا لم تخطر على

بالي طيلة الشهرين الماضيين؟". ابتسمتُ لنفسي وحاولتُ تشجيعها خوفاً من التهاون أو التراجع عن القرار...

عاد "أمير" مساءً، "لقد تأخرتُ بسبب سيارة كان لا بد من تصليحها... صاحبها الألماني دفعَ بسخاء". قال ذلك وهو يتجه صوب الحمام، وكنتُ أسمعه وأنا أعدّ طاولة العشاء...

جلسَ "المتحمم حديثاً" إلى الطاولة، وكرع كأس النبيذ على دفعات متعاقبة، كدتُ أختنق وأنا أنظر إليه. حين أعاد كأسه الفارغة إلى الطاولة أعلن مبرراً طريقة شربه الجشعة بالاشتياق: "كنتُ أتحرق شوقاً لكأس من النبيذ الفاخر الذي تشترينه... من أين أتتكِ الخبرة في اختيار النوعيات الفاخرة من النبيذ؟.".

"من بُخلكَ.". قلتُ ذلك في سريرتي، ثم قلت بصوت مسموع: "من مجلات الدعاية، أتصفحها وأختار ما يروق لي..." قلتُ ذلك وأنا مشغولة بتناول طعامي... "كيف حال الجنين؟" سألني، وكأنه يسأل عن أهم ممتلكاته، فأجبته بأنني لا أدري، فالوقت ما زال مبكراً.

بعد أن شرب كأسه الثالثة، طلبَ فتح قنينة نبيذ أخرى متحججاً بالاحتفال، ففعلت... وأثناء ما كان يسكب النبيذ في كأسه قال بهدوء مفتعل: "أودّ أنْ أخبرك بشيء مهم جداً، سرّ، حملته في داخلي سنوات طوالاً...". لم أعرْ للأمر أهمية، ظننتُ أنه سيسرد عليَّ كذبة من أكاذيبه، فقال بأنه سبق وأخبرني أنه كان معتقلاً، وأن فترة الاعتقال كانت السبب المباشر وراء منحه اللجوء السياسي في السويد، ثم أضاف: "لكنني لم أقل لكِ سبب اعتقالي.". ابتسمتُ له وأخبرته بأنني أنتظر سماع قصته بلهفة، فقال: "فتاة جميلة، كل شيء فيها جميل ساحر. أحببتها بجنون، وكانت السبب في اعتقالي...".

"كيف؟" قاطعته متسائلة، فأضاف: "كنتُ أشتغل أجير ورشة تصليح سيارات في منطقة راقية من مناطق العاصمة، وكانت الفتاة الساحرة تأتي صباحاً لتنتظر باص نقل الركاب في الموقف الذي أمام الورشة تماماً، سحرتني، وشغفتُ بها. صرتُ أتصورها على مدى ساعات اليوم، والليل على وجه الخصوص، صارت سلوتي، حين ألتقيها، وألتحم بها جسدياً داخل فسحة مخيلتي. لكنها لم تعر لي أي اهتمام، كونها لا تعرف شغفي بها، لذا صرتُ أُسمعُها كلمات الغزل عن بعد كلما مرتْ أمام الورشة. وفي أحد الصباحات سمعني أحد الأشخاص الذي كان واقفاً بسيارته أمام الورشة بغرض تبديل زيت محرك سيارته، فما أن مرت حبيبتي ونطقتُ بكلمات الغزل لأُسمعُها إياها، علّها تنتبه لي، هجمَ عليَّ ذلك الشخص ورفيقه، وأدخلوني سيارتهما واقتادوني إلى المعتقل، لأقضي هناك قرابة العام دون توجيه تهمة لي أو أُساق إلى محاكمة، لقد ذُقتُ مرارة ووحشية التعذيب..." ارتعدَ جسدي، ولاحظتُ جلياً ارتعاشة أصابعي، وتأكدتُ من تيبّس شفتَي ونشفان ريقي، فقد صعبَ عليّ ابتلاع سائل فمي... كان "الماكر" ينظر إليَّ بعيني ذئب، فسألني إن كنتُ أعرف من هي الفتاة، فهززتُ له رأسي نافية، فقال: "منذ تلك اللحظة، أقصد لحظة اعتقالي قررتُ الزواج بحبيبتي، فقد كنتُ متأكداً من خروجي من المعتقل عاجلاً أم آجلاً..." هرعتُ إلى الحمام وأنا أضع يدي على فمي، وهناك أفرغتُ معدتي دون إرادة مني، لحقني "الماكر" إلى الحمام وصار يداعب فروة رأسي أثناء التقيؤ، ثم عمدَ إلى غسل وجهي بالماء البارد، وهو يشير إلى تأثير الحمل على المرأة في الأشهر الأولى...

توجهتُ إلى الفراش مباشرة بعد خروجي من الحمام. طلبتُ منه جلب حبة "بانودول" وكأس ماء ففعل. ابتعلتُ الحبة، وما هي إلاّ ثوان حتى تظاهرتُ بالنوم العميق، بعد أن طلبتُ منه عدم إزعاجي لسوء حالتي الصحية...

لم أنم، بل بقيت يقظة بجسد مرتجف حتى سمعتُ شخيره... كنت أبكي بصمت. دموعي تنساب كدموع شمعة، حارقة دون صوت...

لم أقم، بل بقيت متظاهرة بالنوم، حتى استبدلَ "الماكر" ثيابه صباحاً وخرج إلى عملهِ... نهضتُ من الفراش، وصرختُ بأعلى صوتي ناثرة ألمي وخيبتي على جدران الصالة، لململمتُ أغراضي وجمعتهم في حقيبتي، بعد أن احتسيت فنجانين من القهوة، وخرجتُ متوجهة صوب مركز مساعدة اللاجئين رغم أن الوقت كان مبكراً...

(20)

استقبلتني "بيرتا" بابتسامتها المعهودة بعد انتظار دام أكثر من ساعة، شربتُ خلالها ثلاثة فناجين قهوة، وحين انتبهتْ إلى حقيبتي اتسعت ابتسامتها. دخلتُ غرفة مكتبها وكان هناك السيد "طلال" الذي وقف مرحباً.

"أريد الطلاق، لقد جمعتُ أغراضي ولا عودة لبيت "المخادع البخيل" الذي اسمه "زوجي"...". قلتُ ذلك حين سقطتْ دمعة ساخنة على وجنتي اليسرى... مسكتْ "بيرتا" كفي وصارت تداعبه طالبةً مني الهدوء... اتصلتْ هاتفياً، ثم اتصلت مرة أخرى. كان السيد "طلال" يحادثني عن سهولة التفريق بيني وبين "زوجي" ويطلبُ مني عدم القلق أو إزعاج نفسي، فكل الأمور ستسير على ما يرام وحسب ما أريد...

أخرجتْ "بيرتا" الملف الخاص بي، وقامت بإرسال بعض الأوراق عبر جهاز الفاكس إلى جهة لا أعرفها، وبمجرد جلوسها ابتسمتْ وهي تنظر لي بعينين فرحتين وقالت: "أعرف أنكِ لم تفطرِي بعد، وأنا كذلك... لذا أدعوكِ لتناول الفطور في مكانٍ أعرفه جيداً... أودعتُ حقيبتي داخل حقيبة سيارتها الخلفية، قبل أن تنطلق بي صوب مركز ضخم للتسوق. دخلنا مقهى أنيقة الديكور، تهيمن الموسيقى على جوها العابق برائحة القهوة والخبز المحمّص... ونحنُ نتناول الفطائر الاسكندنافية الصباحية الشهيرة مع فنجان كبير من القهوة، حدثتني "بيرتا" عن سهولة التفريق بيني وبين زوجي، وأن طلب الانفصال قد وصلَ القسم القانوني في دائرة اللاجئين. ربما يأخذ البت في القرار أسبوعين أو أكثر، ثم أضافت دون أن تتخلى عن ابتسامتها المحببة: "حجزتُ لكِ غرفة ممتازة في بيت "النساء

المعنّفات" التابع لبلدية ستوكهولم، ستمكثين هناك حتى يبت في طلبكِ، ومن ثم الحصول على سكن دائم هناك..." شكرتها بعينين مغرورقتين، طالبةً منها عدم التخلي عني وأنا أعيش ظرفي الصعب خصوصاً بسبب الحمل...

***

حصلتُ على حق الانفصال بعد مضي ثلاثة أسابيع، وكنتُ قد حصلتُ على جواز السفر الخاص باللاجئين السياسيين قبل ذلك بخمسة أيام... عرفتُ من "بيرتا" أن "عديم الرائحة" قد جنّ جنونه وهو يبحث عني، وأفضل جواب كان يحصل عليه، التهديد بالحبس إن تعرضَ لي، فكفَّ عن ذلك ورضي بالأمر الواقع حسب تعبير "بيرتا".

"اشتريت مرآة بطول 180 سنتمتراً، وضعتها على باب الغرفة من الداخل بمساعدة عامل المبنى الطويل جداً، وصرتُ أمارس لعبة التحليق التي طالما اشتقتُ لها، لكن التحليق صار مختلفاً، أكثر إيلاماً ومللاً. فكّرتُ، ربما الحمل من يقف وراء ذلك التغيير المزعج...".

خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، تعرفتُ على المدينة أكثر، تجولتُ في شوارعها وبمحاذاة بحيراتها وقنواتها الكثيرة، ودخلتُ بعض المقاهي، والأهم من ذلك اتصالي وزيارتي لمنظمة المغتربين... شقة واسعة ضمن بناية وسط العاصمة، اتخذتها المنظمة مقراً لها. وكنتُ قد اهتديتُ لها بمساعدة رجل صيدلاني من أبناء جلدتي التقيته صدفة أثناء تواجدي في الصيدلية القريبة من "بيت المعنّفات" لغرض شراء ما كتبتْهُ لي الطبيبة من فيتامينات ومقويات خاصة بالحمل، كانت سحنته فاضحة الانتماء لبلده خصوصاً حين نظرتُ إلى شاربيه، سألتهُ إن كان يتحدث العربية، كوني مبتدئة في اللغة السويدية فعرفتُ أنه من أبناء بلدي من الكلمة الأولى...

دخلتُ الشقة التي كان بابها مواربًا، وألقيتُ التحية على أول شخص قابلته، ثم سألتهُ إن كان يعرف متى تقام التظاهرة أمام السفارة الأمريكية احتجاجاً على تدميرها لبلدي، فرحبَ بي، وأبدى استعداده للمساعدة حين عرفَ أنني قادمة جديدة على بلد الثلج، ودعاني إلى غرفة المكتب لأتعرّف على المكان أفضل، حسب قوله...

على فنجان قهوة صار الرجل -الذي عرفتُ أن اسمه "مروان الزهيري" -يحدثني بكل لطف، ويشرح لي طبيعة عمل المنظمة وارتباطها الوثيق بالوطن، وحرص أعضائها على سلامة وطنهم. لاحظتُ بعض الانزعاج على ملامح الرجل حين سألته إن كانت للمنظمة علاقات تعاون مع منظمات أو جمعيات معارضة للسلطة، فابتسمتُ له معتذرة، دون أن أنسى الإعلان عن طبيعتي الفضولية التي تدفعني إلى التعرّف على أبناء جلدتي بغض النظر عن أفكارهم وانتماءاتهم... في تلك الجلسة أخبرني الرجل أن أمسية ثقافية ستُقام بعد ساعتين في الصالة الكبيرة، فوعدته بالحضور وأنا أودعه متحججة بموعد لا يمكن تأجيله. خرجتُ من الشقة يملأني الفرح، فقد شعرتُ بحرية وثقة عالية أعادت لي شيئاً من شخصية "حياة" التي أعرفها...

ساعتان كانتا كافيتَيْن، لأعود إلى غرفتي، أنعم بحمام سريع، وأستبدل ملابسي، بل، تناولت سندويتشة جبنة بيضاء وبضع قطع من الخيار ووريقات بقدونس. فكرتُ وأنا أتناول السندويتشة أن أحرر رسالة إلى "بثينة" أشرح فيها تحركات ومستجدات اليوم، لكني أجلتها إلى المساء لضيق الوقت.

وصلتُ صالة مقرّ "منظمة المغتربين" عند بداية الأمسية، دخلتُ على رؤوس أصابعي تجنباً لإزعاج الحاضرين، واتخذتُ من أقرب كرسي مجلساً لي. بنظرة خاطفة نظرتُ صوب اليمين لأتفحص من يجلس جواري.

كانت امرأة خمسينية أنيقة الملابس وتسريحة الشعر، نظرتْ صوبي مبتسمة وحيّتني بلطف ولياقة محببة... رجلان يجلسان متجاورين أمام طاولة خشبية وضعتْ أمام الحضور الذي لا يتجاوز عدده العشرين رجلاً وامرأة. تحدث الأكبر سناً عن أهمية الوحدة الوطنية وتكاتف الجهود ونسيان الخلافات والعمل بكل إخلاص على خروج الوطن من محنته، ثم قدمَ ضيفه الذي قال عنه، أنه دكتور مختص بالقانون الدولي، والذي سيتحدث عن الجذور التاريخية بين بلدنا ودول الجوار... كان واضحاً أنه يريد تبرير احتلال جيش "بطل الحروب" للدولة الصغيرة المجاورة، ولكنه وبعد حديث عام استمر لعشر دقائق تقريباً، أخذ حديثه منحى آخر، حين راح يعدّ لنا مميزات "بطل الحرب" وعلمه وثقافته والحنكة السياسية والعسكرية التي يتمتع بها "ممتاز، سيكون تقريري حافلاً" قلتُ لنفسي... مِلتُ برأسي صوب جارتي وهمستُ متسائلة عن إمكانية شراء شيء أشربه، فابتسمتْ وقالت بأنها أيضاً تشعر بحاجة إلى شيء تشربه فطلبت مني مرافقتها خارج الصالة ففعلت.

ماكينة مشروبات كهربائية، تعمل بقطع النقود، قطعة من العشر كرونات كافية لأحظى بقنينة مشروب غازي صغير الحجم. ألقمتُ الماكينة بقطعتين نقديتين وسألتُ رفيقتي عن رغبتها، فابتسمت وقالت إنّها تفضل الشراب باللون الأحمر، ثم ضحكت وقالت بتهكم: "أحمر أبو المشاكل" وكانت تغمز إلى حزب معارض، فضحكتُ وقلتُ: "المشكلة ليست بالألوان، بل بالإنسان.". اخترتُ مشروب "الفانتا" وابتعدنا بضع خطوات عن الماكينة لنقترب من الباب الرئيس للشقة التي كانت مواربة. سألتني إن كانت زيارتي للمكان لأول مرة، فوافقتها، ثم قالت وكأنها تفصحُ عن بعض خصوصياتها: "نادرًا ما أزور هذا المكان، فالأحاديث السياسية ترهقني، الثقافة هوايتي وشغفي...".

"هل هناك بيت ثقافي خاص بجاليتنا؟" سألتها، فأجابت بشيء من الزهو: "طبعاً، نادينا الثقافي عريق ومعروف لدى الجالية، تأسس منذ أواسط الثمانينيات..." ثم صمتتْ ثوانيَ وأضافتْ مستدركة: "لديهم أمسية مهمة هذا المساء... هل ترغبين بالذهاب؟" قالت مبتسمة وكأنها أحد مؤسسي النادي، فرجوتها الموافقة على اصطحابي إلى هناك. أطلقتْ المرأة ضحكة مسترخية وقالت بتحبب: "يبدو أنكِ جديدة هنا، دعينا نذهب...".

في الطريق قدّمت المرأة نفسها، قالت أن اسمها "نادية زيدان" حاصلة على بكالوريوس اللغة العربية، وعملت عدة سنوات في الوطن مدرسة للغة العربية، وأنها غادرت بلدها منذ سبع سنوات. قدّمتُ لها نفسي، فأشارت إلى أننا متوافقتا الميول، فكلانا ينتمي إلى القسم الأدبي، ثم أطلقت ضحكة مسموعة وقالت ساخرة: "يعني عاطلين عن العمل في هذا البلد، فلا لغة عربية ولا قانون بلغة عربية...".

تبادلنا أرقام هواتفنا، فقد أبدت المرأة ارتياحها لي، والحقيقة وجدتُني بحاجةٍ إليها، رغم فارق العمر بيننا، امرأة متعلمة تضحك على أبسط الأشياء، حنطية البشرة، ممتلئة الجسم نسبياً، بسيطة، والأهم أنها تجيد فنّ الإصغاء، وتتكلم بوضوح مريح.

لم يكن المكان بعيداً، فقد تمشينا قرابة الربع الساعة حتى وصلنا إلى بناء من طابق واحد، يبدو كأنه ورشة كبيرة لتصليح السيارات، أو أن المنطقة صناعية كثيرة الورش... دخلنا من خلال باب حديديّ واسع رماديّ اللون، لنكون أمام قاعة واسعة منخفضة عن مستوى الشارع قليلاً، تتوسطها أعمدة كونكريتية، وتتوزع على أرضها طاولات خشبية تطوقها كراسٍ غير متشابهة في الغالب، ربما تتسع إلى مئتَيْ شخص... كان هناك بعض الرجال، شباب وكهول وامرأة واحدة كانت تقف خلف "كاونتر"

وُضعَ أمام باب غرفة في عمق الصالة، عرفتُ من نادية أنها المسؤولة عن المطبخ. اختارت نادية مكاناً لي قالت إنّه "استراتيجي"، ثم غادرتني صوب المطبخ. عادت بعد دقائق حاملة صينية دائرية تحتوي على كأسين وصحنَيْ فول مسلوق وعلبتي كوكاكولا، وما أن جلستْ حتى همستني متسائلة: "هل ترغبين بالبيرة أو أي نوع كحول؟". ابتسمتُ لها وقلت متفكهة: "ليس من الزيارة ألأولى...".

أخبرتني بأن كاتب وروائي ستقام له أمسية بعد قليل. قالت إنّه مقيم في ستوكهولم لكنه قليل الحضور في المناسبات رغم أنه يمتاز بروح مرحة ويحب الجميع، والمهم، أنه غير معقد، ولا يتصرف على أنه مختلف عن الآخرين، ثم سألتني: "اسمه "كريم ميرزا"، هل تعرفينه؟". فهززتُ رأسي نافيةً، وسألتها إن كانت قد قرأت له، فأخرجت كتابين من حقيبتها وقالت: "استعرتُ منه هذه الرواية "سماء واطئة" إنها رائعة، ما أن تباشرِي قراءة صفحتها الأولى حتى يصعب عليكِ تركها، وهذا ما حدث معي. قرأتها مرتين. وهذه مجموعة قصصية "سيدة الفراشات" قصصها قصيرة وممتعة جداً، جلبتهم معي لأعيدها له بعد نهاية الأمسية...".

سألتُ نادية عن كيفية الحصول على عضوية النادي، فأشارت على الفور إلى شخص كان يواجهنا، قالت إنَّ الأمر عند الأستاذ "راغب" فهو رئيس الهيئة الإدارية، وحين اقترب الرجل منا، طلبتْ منه الجلوس إلى طاولتنا، وما أن فعل، حتى أخبرته برغبتي. استأذننا بعض الوقت ليعود بعد بضع دقائق وفي يده استمارة الانتساب التي قدمها لي طالباً مني أن أدون البيانات والمعلومات المطلوبة، فما كان من نادية إلاّ أن تعنّفه بتهذيب عالٍ، طالبةً منه ملْء الاستمارة عوضاً عني مشيرة إلى أن "سيدة مثل المدام "حياة" جديرة بالاهتمام أيها الرجل المتحضر.". فما كان من الرجل إلاّ الاعتذار ضاحكاً، واعداً إياناً بصحن مكسرات تكفيراً عن "الذنب" الذي اقترفه دون قصد، لكنه طلب مني كتابة الاسم والعنوان ورقم الهاتف

فقط... دخلنا بموجة ضحك تتخللها بعض تعليقات السيدة نادية التي زادت اللقاء حميمية أكثر. حين أكمل السيد رئيس إدارة النادي ملْء الاستمارة بعد أن أجبت على كل أسئلته الضرورية، وعدني بجهوزية هوية العضوية الجمعة القادمة.

أثناء ذلك، وقع نظري على جريدة كانت على الطاولة المجاورة، سحبتها ورحتُ أتصفحها. كانت جريدة ناطقة باسم حزب معارض للسلطة، أفصحتُ إلى نادية عن شغفي في قراءة الصحف، وأنا أتصفح الجريدة، فأخبرتني بأن هناك العديد من النشرات والأدبيات، يمكن أن نحصل عليها بأسعار زهيدة من خلال النادي... تجمدَ نظري على صورة أعلى الصفحة الثامنة، إنّها إحدى الوثائق التي سلمتها إلى نشوان، قرأت الخبر المنشور، فوجدته يشير إلى أهمية الوثيقة التي حصل عليها الحزب من مصدر موثوق. كانت الوثيقة تتضمن العديد من الأسماء التي اعترف الحزب بأنها أسماء رفاقه، لكنني لاحظتُ أن هناك أسماء مضافة ذكرها المقال في إشارة إلى أن هناك وثائق عديدة... سألتُ نادية إن كان بإمكاني الاحتفاظ بالجريدة، فأكدتْ لي ذلك وقالت، بأن هناك أعدادًا أخرى ستطلبها من الأستاذ "راغب" عند نهاية الأمسية.

توافد العديد من الأشخاص إلى القاعة، رجال ونساء وشباب، كانوا يأتون إلينا ليلقوا التحية على السيدة نادية، وبكل تهذيب يحيونني مصافحين... شعرتُ بفضول التعرّف على ضيف الأمسية، لكنه تأخر قليلاً حسب ما قالته نادية، وحين حضر، توجهَ مباشرة نحو طاولة المحاضرة وهو يحيي الجميع بإشارة من يده وعلامات الخجل واضحة على ملامحه. كان هناك رجل في الخمسين من عمره بانتظاره خلف الطاولة، لكنه سرعان ما وقف مرحباً بالكاتب، ثم جلس بقربه، ما أن أخذ الكاتب مكانه. فتح الرجل المايكروفون. وبعد أن رحَّبَ بالحضور، أوضح أن الأمسية تقام بمناسبة صدور الرواية الثالثة للكاتب الضيف، وبعد أن

عرَّف الجمهور بضيفه الذي يعرفه غالبية من في الصالة، تركَ له المايكروفون ليتحدث.

كان حديثه شيقاً، ممتعاً، ينمّ عن عقل مثقف يمتاز بالتنظيم والدقة، كلماته واضحة ومختصرة، عميقة المعنى... كنتُ مستمتعة جداً بحديثه، حتى حين همستْ نادية بعض الكلمات في أذني، وخرجت من القاعة على عجالة، تاركةً كتابي المؤلف الضيف على الطاولة، لم أفهم جيداً ما قالته لي. ترى هل قالت سأعود بعد قليل؟ الحقيقة لا أدري.

بقيتُ أستمع للمحاضر والحضور الذين انهالوا عليه بالأسئلة. كنتُ بحاجة كبيرة إلى مثل هذه الجلسة، وتلك الأفكار التي تناقش بجدية وحيادية وسط فضاء من الألفة... تذكّرتُ الأستاذ الروائي الذي زرته في بيته وأنا بنت السابعة عشرة، وقارنته مع ضيف الأمسية، فوجدتُ الفرق شاسعاً... حين أُعلن عن انتهاء وقت الأمسية، قمتُ وتوجهت صوب الكاتب، صافحته وشكرته على الأمسية الرائعة التي كنتُ بالفعل بحاجة إليها. كنتُ أحتضن كتابيه، وكان قد لاحظ ذلك، لكنني غادرتُ القاعة والكتابان ملتصقان بصدري...

عند الباب قابلني الأستاذ "راغب" الذي صافحني وشكر لي حضوري الأمسية، واعداً بجهوزية هوية العضوية الجمعة القادمة. عند ذاك وجدت الفرصة مؤاتية لطرح ما كنتُ أفكر به منذ قراءتي خبر الوثيقة في الجريدة، فقلتُ: "أستاذ راغب، أتمنى أن تجد لي نصف ساعة من وقتكَ في يوم قريب، فهناك موضوع في غاية الأهمية أريد مناقشته مع حضرتك.". ارتسمت علامات الفرح على ملامحه وقال على الفور: "غداً الساعة الثانية بعد الظهر، هنا، في هذا المكان." شكرته وودعته، على أمل اللقاء بعد ظهر الغد.

بمجرد وصولي إلى غرفتي، هاتفتُ نادية علّني أجد لديها تفسيراً لخروجها المفاجئ. كنتُ أخشى أن أكون قد كتبت رقم هاتفها بشكل خاطئ، لكني سمعت رنينه مرتين، ثم جاءني صوت نادية لاهثاً، وحين سألتها، قالتْ أنها تجهّز حقيبتها للسفر، على إثر طلب من ابنتها التي تسكن جنوب السويد، والتي تمر بأزمة مع زوجها. تمنيتُ لها رحلة موفقة وأن تجد الحل الناجع والسريع لمشكلة ابنتها، وحين سألتها عن سبب خروجها المفاجئ وعدم عودتها، قالت أن طليقها قد حضر الأمسية متأخراً، لذا خرجت تجنباً لاستقبال شحنة الاشتياق و"حق العودة" حسب تعبيرها الذي ألحقته بضحكة مسموعة، مما أثار نوبة ضحك بيني وبينها... سألتها عن كتابَي السيد "كريم ميرزا" فطلبتْ مني راجيةً أن أوصلهما له، ثم أملتْ عليَّ رقم هاتفه، وأخبرتني بأنها ستتصل به بعد إنهاء مكالمتي لها كي تخبره بذلك... تمنيتُ لها سفرة مريحة، وعلى أمل اللقاء قريباً...

أعددتُ تقريري، وبعثته بالفاكس مرفقاً بصورة خبر الوثيقة المنشور بجريدة الحزب المعارض، ثم أخذت حماماً سريعاً، بعد كأس ويسكي مطعّم بالثلج، وحال خروجي من الحمام، أعددتُ كأساً أخرى، ودخلتُ فراشي لأقرأ الصفحة الأولى من رواية "سماء واطئة"... حين غفوتُ كنتُ قد تجاوزتُ الخمسين صفحة، ولولا تأثير الكأسين لرفضتُ النوم حتى إكمالها...

في الصباح وجدتُ ورقة كان جهاز الفاكس قد لفظها منذ قرابة الساعة، كانت رسالة من الرائد "صلاح" مسؤولي الجديد بدلاً من "بثينة" يشيد فيها بما فعلته خصوصاً دخولي إلى العالمين المتناقضين "المغتربين" و"المعارضين" في يوم واحد طالباً مني تعزيز العلاقة بين الطرفين وبالسرعة القصوى شريطةَ أن يكون لي دورٌ هامشيّ. "المراقبة عن بعد وتحريك بعض الأشخاص لتنفيذ المخطط بصورة غير مباشرة. تلك صورة العمل المثلى...".

"الكتّاب لا يستيقظون مبكراً" قلتُ لنفسي حين قررتُ مهاتفة السيد "كريم ميرزا" وأنا أتناول فطوري... انشغلتُ بتنظيف وترتيب غرفتي، وكأنني على وشك استقبال ضيف مهم، كان صوت الراديو ينذر بوقوع كارثة في بلدي، القنابل تتهاوى على منشآته الحيوية، والناس لا تعرف وجهتها وهم ينتظرون معجزة عودة أولادهم من ساحة الحرب. فكّرتُ أكثر من مرة أن أغير قناة الراديو لكنني لم أستطع، كنتُ منجذبة لشحنة المصيبة كالمدمن...

قبل الثانية بعد الظهر بنصف ساعة، أغلقتُ باب غرفتي وخرجتُ حيث موعدي مع الأستاذ "راغب"، الرجل الذي يميل قليلاً إلى الوسامة، الطويل بنظارتيه السميكتين، وصلعته اللامعة، وضحكته التي لا تفارقه. حاولتُ وأنا أجلس داخل "الباص" أن أتصوره في عمر الشباب، فوجدته شاباً جميلاً مثيرًا للاشتهاء..

"على الموعد تماماً...". قال الأستاذ "راغب" حالما شاهدني عند مدخل الصالة، اقترب مني وصافحني ثم أخذني إلى طاولة كان قد أعدّها من قبل... ثيرموس القهوة وفنجانين، وصحن كبير يحتوي على المكسرات، وآخرين صغيرين احتوى كل منهما على قطعة من "الكيك" سوداء اللون يعلوها مبروش "جوز الهند" قال إنَّ السويديّين يسمونها "كيكة الأحلام"...

جلسنا متقابلين بعد أن شكرتُ له اهتمامه، ثم أخرجتُ الصحيفة التي أخذتها أمس، وفردتها على الصفحة التي تحمل خبر الوثيقة، وأنا أقول: "سأدخل بالموضوع بشكل مباشر... هل قرأت خبر هذه الوثيقة؟" سألته وأنا أشير إلى صورة الوثيقة بسبابتي. سحب الرجل الجريدة إليه وقرّبها من نظارتيه وراح يقرأ، فأعلن مبتسماً بأنها وثيقة مهمة وأنه قرأ المقال الخاص بها، فقلت:

"إن كانت جريدة الحزب، قد زكتْ المصدر الذي زودهم بالوثيقة، وقالت بصريح العبارة بأنه حصل عليها من مصدر موثوق، فأنا وبكل فخر، ذلك المصدر المشار إليه..." رجع الرجل بظهره إلى الوراء وهو ينظر صوبي مندهشاً، وقبل أن يقول شيئاً، أضفت:

"نعم، أنا ذلك المصدر الذي سلَّمَ الحزب عن طريق رفاقه الأنصار في شمال البلاد، وما هذه الوثيقة إلاّ واحدة من مجموع وثائق...".

"إنها مفاجأة عظيمة... كم أشعر بالفخر وأنا أجالس مناضلة عظيمة من بنات بلدي..." قاطعته شاكرةً وطلبتُ منه التريث حتى أكمل الفكرة التي أقابله بسببها، فأضفت وأنا أحرر كيساً بلاستيكياً من ضيق حقيبتي اليدوية، لأضعه بيننا حيث الطاولة: "هذا الكيس يحتوي على تسجيلات فيديو لممارسات التعذيب في السجون، ستجد فيه مشاهد مروعة، وربما تجد بعض الأشخاص الذين قد تعرفهم أو يعرفهم أحد رفاقنا هنا في المنفى..." وما أن قلتُ كلمتي الأخيرة حتى قال الرجل بشيء من السعادة وكأنه توصل إلى اكتشاف عظيم:

"ما رأيكِ أن نقيم لكِ أمسية يحضرها كل أعضاء النادي، نعرض خلالها شريط الفيديو، ثم تكون لكِ كلمة في نهاية الأمسية؟". لم أتفاجأ من كلامه وحماسه، فقد كان متوقعاً، لكنني مانعتُ كاذبةً، فزاد الرجل من إصراره على تنفيذ الفكرة، فوافقتُ على أن يكون هناك من يقدم للفيلم بكلمة وإن كانت مقتضبة. ثم استدركتُ وأضفت: "أعتقد أن من المهم أن تشاهد الفيلم أولاً ثم تعرضه على الهيئة الإدارية حتى تسمع رأيهم، وبعد ذلك يمكننا الاتفاق على تفاصيل الأمسية.". وافق الرجل وأثنى على كلامي، فاتفقنا على مكالمة تلفونية أسمع فيها الرأي النهائي.

عدتُ إلى غرفتي يملأني الفرح، بعد أن نجحتُ في مهمة استمالة أهم جهة معارضة لسلطة "بطل الحرب" على حد تعبير "بثينة" ومسؤوليها...

عند السادسة مساءً، ضغطتُ رقم السيد "كريم ميرزا" على أزرار هاتفي، وانتظرتُ عدة رنات قلقة، حتى جاءني صوتٌ رجولي: "كريم معكم، تفضلوا" عبارة قالها معرّفاً بنفسه أسمعها للمرة الأولى، عرفتُ فيما بعد، أنها طريقة أوربية خالصة يستخدمها من يستلم الاتصال كنوع من التهذيب و"الإتكيت" المجتمعي... ألقيتُ عليه التحية، ودون مقدمات أخبرته أن السيدة نادية قد تركت عندي كتابين يجب عليَّ تسليمهما له، نظراً لسفرها المفاجئ إلى مدينة "مالمو" الجنوبية، ثم قلتُ له بغواية مفتعلة: "كيف تحب القهوة؟ أرجو أن تخبرني لأعدها لك كما تحب..." شعرتُ أن محادثي على الطرف الآخر قد دخل فترة تفكير صامت لثوان، ثم سمعتُ ضحكته المندهشة، وهو يطلب مني إملاء عنوان بيتي ليكون في ضيافتي بعد قرابة الساعة...

سرّحتُ شعري وتركته حراً. لبستُ فستانًا بسيطًا دون كمين، كان أسود اللون بنقاط دائرية بيضاء صغيرة، يلامس طرفه ركبتَي. تعطرتُ قبل أن أضع شريط موسيقى يوهانس برامز في آلة التسجيل، ثم ارتديت معطفي ونزلتُ حيث الطابق الأرضي...

أعرف أن دخول رجل إلى "بيت المطلقات" كما يُطلق عليه أبناء جلدتنا تفكهاً، يعد أمراً صعباً بعض الشيء، لذا عمدتُ إلى الوقوف عند باب البناية منتظرة. قبل أن يحل موعدهُ بخمس دقائق، كان السيد كريم عند الباب. يبدو أنه عرفني، أو تذكرني حيث ليلة أمس، فأقبل عليَّ مبتسماً، صافحني متسائلاً إن كنتُ السيدة "حياة"، فأشرتُ له بأنني الحياة الوحيدة في هذه البناية. أطلق ضحكة بصوت مسموع ودخل صوب الممر

المؤدي إلى سلَّم البناية. "الطابق الثاني ليس متعباً لشابٍ مثلكَ" ما أن قلتُ ذلك حتى أطلق ضحكة واسعة الفرح وقال: "شكراً على المجاملة".

أدرتُ جهاز التسجيل فانطلقت الموسيقى منخفضة الصوت. وما أن جلس ضيفي حتى قدمتُ له القهوة مع بعض المعجنات القليلة في طبق صغير، ثم جلستُ على الطرف الآخر من الأريكة الوحيدة في غرفتي. نظرتُ إليه مبتسمة، فاكتشفتُ أن لون عينيه ليس بالأسود، بل بني فاتح، ذكّرني بـ "بشير"، وحين انشغل تفكيري بالمقارنة، وجدته قريب الشبه منه، كثيف الشعر أسودهُ رغم بعض الخصل البيضاء، أربعيني، يميل سمار بشرته إلى الحمرة. اتسعت ابتسامتي وأنا أقدم شكري وامتناني للسيدة نادية التي أتاحت لي فرصة اللقاء به، ثم أخبرته بمباشرتي قراءة روايته. اتسعت عيناه فرحاً وأظهر نوعاً من السعادة وهو يقدم شكره لنادية أيضاً، كونها أهدته قارئة جديدة، ثم اقترح عليّ الاحتفاظ بالرواية والمجموعة القصصية حتى أنتهي من قراءتها، وبتهذيب عال قال: "حتى لا يكون هذا اللقاء يتيماً." ضحكتُ دون صوت وقلتُ: "يشرفني اللقاء بشخص مثقف مثلك.". شكرني، ثم سألني انطباعي عن أمسية الأمس، لكنه قبل أن يسمع إجابتي أشار نحو آلة التسجيل، وسألني إن كانت الموسيقى منبثقة من راديو أو آلة تسجيل. "إنه شريط كاسيت، اشتريته من محل للموسيقى في شارع المشي" قلتُ له ذلك فقال: "كثيراً ما نالت موسيقى "برامز" إعجابي، وهذه الموسيقى تدعى "21 رقصة مجرية" من أشهر ما ألفه برامز، تصوري أن أغلب الناس قد استمعوا إلى هذه الموسيقى دون أن يعرفوا اسم مؤلفها...".

"كيف؟" سألته مقاطعة، فقال موضحاً دون أن يتخلى عن ابتسامته: "هذه الموسيقى استخدمت في أغلب نتاجات "والت دزني" في الأفلام المتحركة، واستخدمت أيضاً في أغلب أفلام تشارلي شابلن...". كنتُ

أستمع له مبتسمة، ربما كانت الابتسامة تعبيراً عن الارتياح والمتعة التي شعرتُ بها أثناء حديثه الذي راح يفصّل لي حياة برامز وبعض أعماله...

"كم أنا محظوظة، لقد أهدتني الحياة "رياض" جديدًا... يسكن بلاد الثلج.".

ثم ازداد ارتياحي وعظمت متعتي، حين وجدتُ أصابع كفّيه خالية من أي خاتم أو علامة ارتباط، لكنني في لحظة، قاطعته وقلتُ منقادة برغبة مشاكسة: "في أمسية الأمس وددتُ أن أطرح عليكَ سؤالاً، لكنني تردّدتُ..."

"لماذا التردّد؟ كان جو الأمسية حميميًّا وأكثر من رائع... ومع ذلك، نحنُ بها... يمكن طرح سؤالكِ وسأجيب عليه بإسهاب إن أحببتِ.".

"تردّدتُ أمس كوني أدخل المكان للمرة الأولى، ولا أعرف طبيعة الجمهور المتواجد هناك..."

"وماذا عن السؤال؟" قالها ضاحكاً، فقلتُ:

"هل للرجل رائحة تميزه عن بقية الرجال، تماماً مثل دمغة الأصابع؟" أطلق كريم ضحكة مسموعة ثم أطرقَ برأسه ناظراً صوب الأرض، مستمراً بضحكته وهو يهزّ رأسه يميناً وشمالاً... رفعَ رأسه ونظرَ بعمق عينيَّ، وأشار إلى أن الوحيد الذي يمكنه الإجابة عن السؤال هو المرأة... في تلك اللحظة وصلتني رائحة ذكورته "رائحة كعكة عيد الميلاد" تصورتها كبيرة تغطيها القشدة وتتوسطها شمعة واحدة...

اتسعتِ الأحاديث، وجدّدنا قهوتينا مرة أخرى، وبعد قرابة الساعتين حيث زمن اللقاء الذي مرَّ سريعاً، وقفَ كريم معلناً نهاية زيارته.

عند الباب سألته: "هل يمكنني احتضانك؟" فاحتضنني وربتَ على ظهري وكأنه اعتاد التوديع الحميمي الأوروبي...

"ملأتُ رئتيَّ برائحة الاحتفال... رائحة كعكة عيد الميلاد".

***

لم ينتظر" كريم ميرزا" حتى أنتهي من قراءة كتابيه، هاتفني ظهر اليوم التالي يدعوني إلى فنجان شوكولا في مقهى "كوب الشوكولا" بقرب من "متحف نوبل" حيث المدينة القديمة. راقت لي الفكرة على الفور، لكنني لا أعرف المكان تحديداً، وحين أخبرته بذلك قال بمجرد أن أقف أمام المتحف سأشاهد المقهى، وعلى العموم سيكون هناك ينتظرني... أخرجتُ كتاب الخرائط الخاص بمدينة ستوكهولم واهتديتُ طريقي إلى المدينة القديمة...

كان جسده دافئاً حين احتضنني رغم برودة الطقس. استقبلتُ عطره الرجولي ومنحني شحنة انتشاء. طوَّق بذراعه اليسرى كتفيَّ، وانسدلت كفه قرب الإبط الأيمن كأنها تبحث عن شيء مختبئ تحت المعطف. سار بي بضعة مترات حتى وصلنا باباً خشبيًّا بزجاج منقوش. دفعَ الباب وسمح لي بالدخول أولاً. يا إلهي كم هو رائع وحميمي هذا المكان! رائحة الشوكولا عابقة والدفء سيد الصالة المزدحمة. نظرتُ صوب الوجوه، كانت جميعها مبتسمة. ترى هل تبعث الشوكولا كل هذه السعادة؟

لم نختر مكان جلوسنا، فالذي وجدناه كان خيارنا الوحيد. بمجرد جلوسي شاهدتُ العديد من الصور واللوحات متوزعة على الجدران والأعمدة، وكلها ترتبط بموضوع الشوكولا... "أعتقد أن الاكتفاء بالشكر، قليل في حقكَ على فكرتكَ ومبادرتكَ العظيمة هذه؟" قلتُ له صادقة، فضحك وقال: "اشكريني أكثر حين تقبلين دعوتي على العشاء...".

"ما الذي يحدث؟... يبدو أن هذا الصحفي والروائي لا يريد خسران الوقت!..". قلتُ في سريرتي ورعشة زهو وفرح تعتريني. ثم قلتُ بفرح واضح: "لو كنتُ كاتبة، لكتبتُ قصة أو قصيدة عن هذا المكان.. إنه ساحر يا صديقي". أطلقَ ضحكته وأثنى على كلمة صديقي، فقلتُ بخبثٍ أنثوي: "إن شئتَ نغيرها، شريطة أن تختار أنتَ الكلمة المناسبة". ضحكَ أكثر وطلبَ تأجيل الأمر حتى يحين موعد العشاء، ثم قال وعيناه تتراقصان على موسيقى خفقان أجنحة فراشات ملونة داخل قفصي الصدري: "في مجموعتي القصصية ستجدين قصة عن هذا المكان، عنوانها "وردة الشوكولا" أنظري صوب هذه الوردة..." أشار إلى الدورق الصغير الذي يحتوي وردة بيضاء يغمر نصفها الماء، ثم سألني: "ما رأيكِ إن كانت هذه الوردة تسمع وتفكّر وهي بيننا... تستمع لأحاديثنا وتستقبل مشاعرنا وتستنشق رائحة الشوكولا لكنها لا تستطيع إبداء رأيها أو وجهة نظرها بما تسمع وتشاهد أقصد بما تعيشه؟ ... تلك قصة "وردة الشوكولا التي أتمنى أن تقرأيها بعد أن زرتِ المكان وتعرفتِ عليه".

"أنتَ تُربكني هكذا!... عليَّ الانتهاء من الرواية أولاً، ثم أباشر بالمجموعة القصصية... لكن لا ضير إن قرأتُ القصة لأعود ثانية إلى الرواية...". كان كريم يضحك حين كنتُ أتحدث، وحين صمتُّ أشار إلى أنه أوضح لي أن لـ "مقهى الشوكولا" حضورًا في نتاجه الأدبي فقط، ولم يكن الإرباك هدفاً ضمن كلامه... يبدو أنه مرح وممازح أغلب الأحيان، فقد ضحك ملْء رئتيه..

حدثني عن نفسه. عن حياته السابقة وزواجه الذي استمر عشر سنوات أنجب خلالها بنتاً وصبياً، قال أنه في مرحلة ما، من علاقته بزوجته، وصل إلى شعور مؤلم، بات يشعر بأن روح زوجته ليست معه، صارت روحًا شاردة، تعيش عالمها الخاص ضمن فضاء خيالها... تلك الحالة حسب تعبيره تشير بوضوح إلى استحداث عالم بديل عن عالمها المعتاد. في تلك

اللحظة قرر منحها حريتها، فاتفقَ معها على أن تعيش كما تريد، وإن رغبت بشيء يخصه عليها أن تقوله له ولا تنتظر أن يكتشفه هو... في الحقيقة لم أفهم تلك النقطة فطلبتُ منه التوضيح أكثر، فقال: "في الصباح ونحن نتناول الفطور، تسألني، لماذا لم تقتربْ مني ليلة أمس، فأقول لها، لم أشعر برغبتكِ، لذا تركتكِ على ما أنتِ عليه. ثم أسألها، هل كنتِ راغبة بملامستي؟ فتقول: "نعم" لكنني أعرف أنها كاذبة.. في إحدى الليالي وكنتُ قد عدتُ متأخراً، دخلتُ على رؤوس أصابعي خشية أن أوقظها من نومها، واحتراماً لخصوصيتها. بقيتُ في الصالة. خلعتُ ملابسي وتمددتُ على الأريكة القريبة من باب غرفة نومنا، سمعتُ همهمات، ثم صار الصوت يعلو تدريجياً، فصرتُ أسمع اسم رجل بين الكلمات... "نصير... نصير..."، فتحتُ عليها باب الغرفة وكنتُ أعتقد أنها في حلم أو كابوس، ولكنني ذُهلتُ حين رأيتها تستمني على أثر رائحة "نصير" التي تتشبع بها فانيلته البيضاء التي كانت تغطي رأسها ووجهها وهي تداعب بأصابعها ما بين فخذيها... كان "نصير" زميلها في مدرسة اللغة...

"وهل ارتبطتْ به رسمياً بعد الطلاق؟". سألته ودموع عينيَّ تحاكي التماع عينيه، فقال:

"لا... تركَتْهُ حتى لا تثبت التهمة عليها... أمامي على أقل تقدير، لكنها ارتبطت بثلاثة غيره...".

وضعَ كريم كفيه على وجهه، ربما كي يخفي خيبته، وقال ذاهلاً متسائلاً: "لماذا تحدثتُ بكل هذا؟... كيف بحتُ بما لم أبح به لشخصٍ من قبل؟... أي ساحرة أنتِ؟". مسحتُ على فروة رأسه وأشرتُ إلى أن سرّه في قرارة بئر، قلتُ له ذلك مبتسمة وعيناي مغرورقتان...

أخذ الخدر يتسرب إلى أطرافنا فلقد جلسنا كثيراً وتحدثنا أكثر، وحين سألته عن خطوتنا التالية، قال: "العشاء حيث المطعم العربي". وافقته لكنني قلت بجدية واضحة: "شريطة أن يكون على حسابي". هزَّ رأسه مستفهماً، فقلتُ بأنني من سيدفع الحساب، وبعكسه لا عشاء بيننا وليذهب كل إلى بيته... وحين سألني عن السبب، أوضحتُ له بأنني منذ زمن بعيد قد رصدتُ ظاهرة معيبة، ظاهرة السيدات اللواتي يظهرنَ ببرجوازية زائفة في حضورهن المطاعم والمراقص وحتى البارات، ولكن حين دفع الحساب، تصمت "السيدة" ويظهر الرجل كمدير حسابات ساذج... ثم سألته: "هل تتذكر مرة واحدة، أنكَ، كنتَ مع سيدة وعمدتْ على دفع الحساب؟" هزَّ رأسه نافياً...

في طريقنا إلى المطعم، حدثته عن طليقي "المتجهّم البخيل" فضحكَ كريم بشكل هستيري عما كان يفعله "الكلب التابع" معي بدافع بخله المزمن، وكنتُ قبلها قد حدثته عن طريق خروجي من بلدي، عن رحلة الجبال وانتقالي إلى مدينة "زينل" التي تسمى "بلدة الصفير" وحين سألني إن كنتُ قد أتقنتُ لغة الصفير بحق، أجبته مصفِّرةً "كريم، بدأتُ أحبك.". ضحكَ وسألني عن معنى الجملة التي قلتها صفيراً، فقلت: "في الشهر القادم، وحين يحل مثل هذا اليوم سأقول لك معناها، شريطة أن لا تنسى، فلم أجب حتى تسألني.".

"كم أنتِ معقدة أيتها الحياة". قالها، فأطلقنا ضحكاتنا ونحن نقترب من المطعم، ثم همستُ بأذنه: "أنا حياة واحدة ولستُ الحياة كلها.".

في المطعم الذي بانَ مطعماً هندياً وليس عربياً، أكلنا وجبتنا وخرجنا خلال ساعة ونصف تقريباً، ليس بسبب جو المطعم أو عدم نظافته، فقد كان مطعماً رائعاً، ولكن تملّكتنا رغبة عظيمة في الحصول على كأس نبيذ، كانت السبب وراء تركنا المطعم، حيث سألنا النادل عن إمكانية الحصول

على قنينة نبيذ، فأخبرنا أن الكحول ممنوع في المطعم. حينها همسَ "كريم" بأذني: "إنه مطعم للعلف فقط، لنعلف معدتينا ونخرج باحثين عن كأس نبيذ يحرّك فينا إنسانيتنا..."

في الطريق، مسكتُ ذراعه، ولززتها إلى صدري، في تلك اللحظة كرهتُ الملابس الثقيلة التي تَحُول دون وصول "فلسفة السوتيان" إلى الرجل لتُؤجج رائحته... فقلتُ لكريم ونحن نتجه صوب السوبرماركت: "لم يعهد جسدي ثقل الملابس من قبل، القفازات والقبعة الصوفية والمعطف الثقيل الذي يحول بيني وبينكَ... أكره الشتاء الاسكندنافي يا صديقي..." نظر صوبي مبتسماً وقال أن مشكلته تكمن في فصل الصيف، فلا جيوب كثيرة يدس فيها أشياءَه التي اعتاد على دسّها في ملابس ثقيلة طيلة الأشهر التسعة الباردة...

اشترى كريم قنينتي نبيذ فرنسي، واشتريتُ علبة كارتونية تحتوي على ست قناني نبيذ "تشيلي" الذي أفضله على باقي أنواع النبيذ الأحمر. لم يعترض، فقد أخبرته قبل أن يقول شيئاً، بأنني اشتريتهم ليكون في بيتي بعض النبيذ، علني أحتاجه في وقت ما، فابتسم، وكانت ابتسامته كافية ليضيف الرضا على روحي... تمشينا دون الاتفاق على وجهتنا، بادر إلى حمل علبة النبيذ، وحملتُ الكيس المحتوي على القنينتين... عشر دقائق كانت كافية لنصل إلى بناية حديثة البناء بواجهة زجاجية كبيرة. وقف كريم أمامها وأدار المفتاح لينفتح الباب وندخل البناية، سألته إن كان يسكن هنا فأشار بالإيجاب، فقلتُ مازحة: "ولكنك لم تقل لي بأنك ستأخذني إلى شقتك!!" فوقف وواجهني بنظراته وقال متقمصاً دور المعلم الحنون: "لا أحب المشاكسات، وليس عندي الوقت الكافي للدخول في نقاشات الغرض منها الدلال وتعزيز السلطة، حين تكونين معي تستسلمين إلى إنسانيتك فقط، جربي هذا لتخبريني فيما بعد عن عمق السعادة ونشوتها...".

"ملعون... كاتب...". قلتُ له وأنا أدخل المصعد الكهربائي...

شقة حميمة، جدران الصالة تحمل لوحات شهيرة لفنانين كبار، قال إنّها مطبوعات اختارها لمواضيعها، قصصها أو قصص الفنان الذي رسمها. ثلاث أرائك متوزعة على شكل مستطيلٍ ناقصٍ ضلعًا عند بداية الصالة، وفي الزاوية القصية مكتبة اسطوانات وأشرطة تحيط جهاز تسجيل بأربع طبقات... حافة الشباك تتوزع عليها ثمانية أصص لنبات "الأوركيدا" بزهورها مختلفة الألوان، ميزتُ ذلك رغم خفوت الإضاءة... الغريب أنني لم ألحظ وجود مكتبة أو مجموعة كتب في صالته، كان كتاب واحد على الطاولة الواطئة بين الأرائك يتضح من غلافه أنه رواية، وحين سألته عن مكتبته أشار إلى أن منظر الكتب أمام عينيه بشكل مستمر يرهقه، ويسلبه فرصة الاسترخاء وسماع الموسيقى: "الكتب تتحدث، تنادي، وتشاكس". قال ذلك ثم أشار صوب اليمين ليوضح لي، أنه خصص الغرفة الصغيرة من شقته لتكون مكتبته ومكتبهُ أيضاً. "هذا يعني أن شقتك تحتوي على غرفتين وصالة؟" قلت له بصيغة السؤال، فوافق مشيراً إلى باب مقفلٍ يتوسط ضلع الصالة الطويل، وقال أنها غرفة نومه: "إذا كنتِ متشوقةً لرؤية الكتب يمكنكِ زيارة الغرفة الصغيرة، أخذني ماسكاً كفي اليسرى وقادني صوب الباب الملصق جنب باب مطبخه الصغير، فتح الباب وأشار لي بالدخول. "يا إلهي! ما هذا الكم الهائل من الكتب!؟". قلتُ وأنا أنظر سريعاً إلى الرفوف الملتصقة بالسقف حتى الأرض التي احتضنت الكتب والمجلات والنشرات الدورية وحتى الصحف التي احتلت الرفوف السفلى. "سأترككِ مع الكتب لأعد الطاولة.". قال ذلك ودخل المطبخ. "هذا الرجل منظّم جداً، بيته نظيف جداً، وكتبته مبوبة حسب تصنيفها". قلتُ لنفسي وأنا أتابع عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها. رفوف خاصة بالرواية العربية، وأخرى للأجنبية، ومثلها مخصصة للشعر والمسرح والدراسات وغيرها الكثير، وأكثر ما شدَّ انتباهي "المكتبة

الموسيقية" عشرات الكتب عن الموسيقى لم أكن أفكر بأنني سأعثر على هذا الكم من الكتب الموسيقية في مكتبة بيتية... "كريم!... كيف حصلتَ على هذا الكم من الكتب وأنت تعيش أقصى الشمال الأوربي؟". قلتها بصوت عالٍ وكأنني أنادي عليه، فأجابني بكلمة واحدة: "السفر".

دخلَ الغرفة بهدوء، ثم وقفَ ورائي لتصلني رائحة "الكعكة المحتفلة" مدَّ عنقه جهة وجهي اليسرى وهمس: "الطاولة جاهزة". رجعتُ إلى الخلف لألصق ظهري بصدره... "احتضني!". قلتُ له، ففعل.

كان قد فتحَ قنينة النبيذ الفرنسي، فطلبتُ منه فتح قنينة النبيذ التشيلي. قنينتا نبيذ على طاولة تحفهما صحون صغيرة تحتوي على الجبن الأبيض والزيتون الأسود والأخضر ومكعبات البطيخ الأحمر الذي قال إنّها تطيل السهر وتطيّب النفوس، ثم سألني إن كنتُ أحبّ موسيقى الآلات المنفردة، فأجبت موافقة، حينها اتجه صوب جهاز التسجيل "العملاق" وأدار أسطوانة لتنطلق بعد ثوان أنغام البيانو... قال: "منذ زمنٍ بعيد وأنا عاشق موسيقى الآلات المنفردة، والآن ستسمعين أرق وأعذب نغمات على آلة البيانو لعازف فرنسي غير معروف في العالم العربي. ضحكتُ وقلتُ له بأنَّ ما من عازف معروف في عالمنا العربي، فالمعروف المؤلف الموسيقي فقط، فضحك هو الآخر وأشاد بالملاحظة وقال: "ألفريد كورتوت، هو العازف الفرنسي الذي تستمعين لموسيقاه الآن، هذا العازف رغم أنّه عزف العديد من المقطوعات الموسيقية لكبار المؤلفين إلا أنه متخصص بموسيقى شوبان... هذه القطعة التي تستمعين إليها الآن هي السوناتا الثانية لشوبان، وبعدها تلي مقطوعات أخرى سأحدثكِ عنها في حينها..." ابتسمتُ له بفرح غامر وقلتُ له: "دعنا نستمع فقط، ولندع الشرح إلى وقتٍ آخر.". ثم تحولت ابتسامتي إلى ضحكة غير مسموعة وسألته: "هل عندك دشداشة؟". صدمهُ السؤال، ووقف غير مستوعب لثوان ثم أطلق ضحكة

مسموعة وتوجه صوب باب غرفة نومه الموصد. فتحه وطلب مني الدخول... الجدار المقابل للباب تحتله خزانة ملابس بستة أبواب، وإلى اليسار ينتصب سرير عريض لشخصين، أنيق الفرش زاهي الألوان، نظرتُ إلى "كريم" متسائلة : "من يرتب لكَ بيتكَ، غرفة نومك على وجه الخصوص؟" ضحكَ وقادني صوبَ خزانة الملابس، فتح الباب الأخير جهة اليسار وأشار إلى الرفّ العلوي وقال: "دزينة دشاديش يمكنكِ اختيار واحدة منها.". لكنني التصقتُ به وأعدتُ عليه السؤال الذي لم يجب عليه، فقال: "لا أعتقد أن هناك امرأة يمكنها ترتيب بيتي وتنظيفه أفضل مني... يمكنني المراهنة على ذلك...".

"لم يعجبني جوابكَ، بل لم يقنعني...". قلتُ له مشاكسةً، فقال بهدوء محبب: "لأنكِ امرأة طبيعية... أقصد لأنكِ تفكرين كامرأة...".

طلبتُ منه الخروج كي أستبدل ملابسي، فأخذ واحدة من "الدشاديش" وخرج رادّاً باب الغرفة وراءَه.

خرجتُ من الغرفة، وأطراف دشداشتي تلامس الأرض، نظرتُ إلى كريم فوجدتُهُ مرتدياً دشداشة بيضاء بكمين قصيرين وتطريز بخيوط مذهبة عند الرقبة، جلستُ جواره وكان قد ملأ كأسينا، قرعنا كأسينا، وبدلاً من أن يحتسي شيئاً من كأسه، مال برأسه صوبي وأخذ شفتيّ بشفتيه. عاد إلى الوراء قائلاً: "رحيق القبلة، خمرة الحب ونشوته... ".

ابتسمتُ له وأخذتُ جرعة قليلة، تكاد تبلّ فمي من كأسي، ثم دسستُ وجهي في صدره طمعاً باستنشاق عطر رجولته...

صارت أصابعهُ تعزف سمفونية اشتهائي، وصار صدري مفاتيح آلته الموسيقية التي فاق سحرها أنغام ذلك العازف الفرنسي عاشق شوبان...

حملني إلى السرير، وحين نضوتُ "الدشداشة" عن جسدي اكتشفَ أنني لا ألبس شيئاً تحتها. نظرَ إلى جسدي متفحصاً على ضوء المصباح

الخافت وتمتم: "عشتار... إنانا..." وحين سألته عما قاله، أعاد عليَّ كلماته السابقة، ولكن بصوت واضح: "أنتِ عشتار، إنانا... جسدكِ باهرٌ مغرٍ ومستفز مثل جسد إينانا تماماً...".

"أنا حياة، ولستُ إنانا...".

"بل إنانا...".

"قلتُ لكَ إنّني حياة!"

"لتكوني إذاً... حينانا...". ثم صامتاً مسحَ جسدي بنظراتٍ متمعنة فاحصة، أخبرني بعدها مبتسماً، بأن هناك صورة لـ "إنانا" سوف يريني إيّاها، وقال ضاحكاً: "لستُ مسؤولاً إن أصابكِ الذهول نتيجة التشابه الكبير بين جسديكما...".

ابتسمتُ له، وقرّبتُ شفتي من شفتيه، فابتسم مستلقياً على ظهره، وكأنه يطلب الاعتلاء، فاعتليته باشتياقٍ لم أخبر لذته من قبل... في لحظة، أراد تبادل موقعينا، فرفضتُ بلطف، طالبةً تركي واستمتاعي بجسده وذكورته، فاستسلم كالملاك.

حين احتضنتهُ بجسدي الرطب إثر حمام ساخن سريع، وكنتُ قد ناشدتُ النوم، همستُ بأذنه: "أنا حامل...". اهتز جسده دون أن يقول شيئاً، فأضفتُ: "في بداية شهري الرابع..." احتضنني فغفوت...

***

عند العاشرة صباحاً، رنَّ الهاتف، فصحوتُ من أرقّ وأجمل ساعات نوم، على رنينٍ مزعج. لم أجد كريم إلى جانبي، لكنني سمعتُ صوته محدثاً شخصًا آخر عبر الهاتف، كانت كلماته متسائلة لا ينقصها الذهول والفرح، وحين انتهت المكالمة وأعاد الحاكية إلى مكانها، عاد واقفاً بباب الغرفة ناظراً صوبي بابتسامة مرتبكة:

"حينانا... حينانتي الجميلة، صباح الخير.".

"صباحكَ حب... لماذا شعرتُ بأن المكالمة التي أتتكَ منذ قليل كانت مزعجة؟... ما الأمر؟ تبدو مُربكاً!!".

"اندلعت انتفاضة شعبية عارمة... قليلاً من الانتظار ويسقط الديكتاتور...".

ارتعد جسدي وأصابني الدوار كأنني ما استوعبت ما سمعت. نهضتُ من الفراش لا أدري إلى أين، كان جسدي عارياً تماماً، بحثتُ عن ملابسي حتى اهتديت لها، وحين صار جسدي مكسواً، كان كريم في المطبخ يعدّ الفطور وهو يتمتم بكلمات لا أفهمها، لكنها كانت تشي بالفرح...

طلبتُ منه تشغيل التلفاز علّنا نسمع خبراً من هناك، ففعل، لكن لا أخبار ولا حتى إشارة على اندلاع ثورة أو انتفاضة. كانت أخبار الحرب ونهاية عمليات تحرير البلد الصغير الذي أباحه حرس "بطل الحرب" وابتلعه لقمة دسمة سائغة... فهدأت روحي قليلاً...

حال خروجي من بيت كريم، تلمستْ روحي المُربَكة بداية الربيع... بعض ورود صغيرة صفراء، ظهرت بين عشب الحدائق والساحات... تغريد الطائر الأسود "**Koltrast**"، الذي يتماهى مع صفير أبناء قرية "زينل" كان فرِحاً بانبثاق الزهور، حينها صفّرتُ له... "أنا عاشقة الربيع".

إنها المرة الأولى التي أخلف بها موعدي في إرسال تقريري اليومي منذ صار جهاز الفاكس في بيتي، عدتُ إلى غرفتي مسرعة... أدرتُ الراديو، فأخبرني مقدم نشرة أخبار إذاعة الـ **BBC** بأن الانتفاضة قد اندلعت بالفعل...

بعثتُ التقرير مصحوباً بالسؤال عن حقيقة الوضع داخل البلد والعاصمة على وجه الخصوص، ثم ضربتُ رقم هاتف بيتنا، فلم يفلح الاتصال. حاولت أكثر من مرة، حتى جاءني صوت والدي ضعيفاً مشوشاً فانهمرت دموعي: "نحن بخير، كلنا بخير، لا تقلقي..." سألتُ عن نايات دون غيرها، فأخبرني بأنها بخير... انقطع الاتصال...

اتصلتُ بنادية علّها تكون قد عادت من مالمو، ولكن لا صوت بشري على الطرف الآخر. لم يكن أمامي إلا الحل السحري الذي يمنحني بعض الهدوء. الحمام الساخن هو الحل... لا أدري كم مضى من الوقت وأنا تحت رحمة الماء المنساب بكثافة مريحة من القرص الرشاش فوق رأسي، كنتُ على يقين بأن دموعي كانت تختلط بالماء المنساب... سمعتُ رنين الهاتف، فخرجتُ مسرعة، لكن الهاتف كان قد صمت...

تمدّدتُ على السرير وأخذتُ رواية كريم بين يديّ، صرتُ أقرأ بخيالٍ غائب... صحوتُ من غفوتي على رنين الهاتف، كان كريم على الطرف الآخر. قال ضاحكاً في محاولة لإضفاء الهدوء على روحي القلقة: "حينانا... حينانتي... تأكدي أن مهما حدث، ومهما تكون النتائج، سلباً أو إيجاباً، فالقلق أسوأ الحالات الإنسانية وأتعسها... أنتظركِ عند السابعة مساءً في ساحة البلدية، ستكون وجهتنا المطعم الإيطالي..."

أخرجني هذا الملعون بصورة كاتب، من دوامة القلق، حين صرتُ على موعد مع من أحب، رغم عدم بوحي به... أعتقد أن لديّ الوقت الكافي لإتمام الرواية قبل أن يحين موعدنا. اضطجعتُ على السرير وقرأتُ بذهن متقد...

***

شعرتُ بحميمية جو المطعم حالما دخلتُ ممسكةً ذراع كريم، شعرتُ أنني سيدة تمتلك أقصى درجات الأنوثة وهي تجالس شخصية رقيقة مثقفة

جديرة بالحب. "هل انتهائي من قراءة الرواية يقف وراء إحساسي هذا؟" سألتُ نفسي وأنا أستمع إلى حديث كريم عن خصوصية الشخصية النسائية في العمل الروائي... ثم حدثني عن "عشتار" إنانا التي منحني اسمها بتحريفٍ بسيط، والتي يعتقد أن جسدي يتطابق مع جسدها حسب ما قرأه، ثم راح يقص عليَّ ملحمة كلكامش، ليتضح لي بأن جليسي متخصص بتلك الملحمة، يعرف تفاصيلها كما يعرف تفاصيل راحة كفه، واستمر يناديني "حينانا" حتى اقتنعتُ بجمالية الاسم ودلالته... سألته:

"هل تعتقد بأنكَ سومري الأصل؟". ضحكَ بصوت خافت، وقال بقناعة عالية:

"لا أبداً، ليس هناك ما يدل على الأصول السومرية في شكلي أو ملامحي أو ممارساتي اليومية أو تفكيري... يا عزيزتي "حينانا" أنا أعشق الأسطورة، تفاصيل الأسطورة، فكرتها وخيال شخوصها... العالم السومري فكرة أحببتها..." ثم راح يحدثني عن المرأة وحياتها وحقوقها المدنية والزوجية وحقها في الحب ضمن ذلك العالم الأسطوري كما كان يسميه...".

"منه تعلمتُ خفايا المرأة، ما يعرفه الرجل عن المرأة نتيجة تجاربه، عن عالمها وأفكارها وحتى قلقها واهتماماتها البسيطة. صحيح أنه يتذكر العديد من الشخصيات النسائية اللواتي لعبن دور البطولة في الروايات التي قرأها، واللواتي يتخذ منهن نماذج في أحاديثه، إلا أن تجاربه الحياتية مع النساء ليست قليلة... الحقيقة وجدتهُ واقعياً جداً، دون أن يتخلى عن طبعه الممازح أو المشاكس أحياناً...".

"تعرّفتُ على عالم المرأة من وجهة نظر الرجل المثقف".

***

"الفرهود والسلب والقتل وأخذ الثأر بات سيد الموقف، ذلك، مختصر الوصف الواقعي لحال وطني..."

"بطل الحرب" صار بطل الملجأ النووي..."

(21)

اتصل بي السيد "راغب" تلفونياً، مبدياً اعتذاره بسبب التأخير عن مكالمتي، نظراً لتطور الأحداث داخل البلد، ولكنه أخبرني بضرورة الحضور مساء الغد "الجمعة" بغية عرض الفيلم أمام أعضاء "النادي"، فوعدتُهُ بالحضور قبل الموعد المحدد بنصف ساعة.

اتصلتُ بكريم وأخبرته بما قرَّرَتْه الهيئة الإدارية للنادي، تردَّدَ في إبداء رأيه في البداية، لكنه تركَ القرار لي، دون أن يعارض، وحين سألته إن كانت لديه الرغبة في الحضور، قال إنَّ من واجبه الحضور كون حبيبته مشاركة في الأمسية. شكرتُهُ، وأخبرته بأنني لن أدخل الصالة إلاّ ويدي بيدِهِ، فضحك ووافق على "القرار المتجبّر" حسب قوله.

كانت الصالة مكتظة بالحضور. توجهتْ بعض الأنظار صوبنا ونحن ندخل "يداً بيد" كما اتفقنا. استقبلنا الأستاذ "راغب" بكلمات ترحيب حميمة. طلبَ منا الجلوس أولاً في مكتب الإدارة لنتفق على بعض الخطوات العملية، فسِرتُ إلى جانبه، بينما تخلّفَ كريم لانشغاله بتحيات الأصدقاء والمعارف، في طريقي، تفاجأتُ بحضور "نادية" تبادلنا القبلات، وطلبتُ منها انتظاري حتى أعود.

ما أن جلستُ حتى سألني راغب عما أرغب بتناوله، فطلبتُ القهوة، ولكنه انتبه إلى تأخر السيد كريم، فخرجَ منادياً...

عرفتُ من "راغب"، أن اجتماعاً ضمَّ أغلب أعضاء النادي، قد انتهى منذ قليل، بعد أن استمر لأكثر من ساعتين، وذلك ما يبرر الحضور اللافت للأعضاء... وحين حاول أن يناقش معي برنامج الأمسية، طلبتُ منه أن يذكر لي النقاط المهمة التي اتفقت عليها اللجنة بخصوص سيرها، فشرح

لي البرنامج بتفصيل ووضوح تامين، بعد أن أبدى إعجابه بالفيلم وأهميته كوثيقة دامغة تدين سلطة "بطل الحروب". وجدتُ أن دوري يأتي بعد انتهاء الفيلم، فوافقتُ على الفور، حينها طلبَ مني كريم الخروج إلى الصالة والجلوس بين الحضور...

كنتُ خائفة من التجربة، خصوصاً وأن مادة الأمسية تتطلب إدانة واضحة للسلطة أمام الحضور، وذلك ما لم أتفق عليه مع "رؤسائي" مسبقاً... همستُ بأذن كريم مفصحةً عن خوفي، فضحك، وقال إنه "الخوف المشروع"، وأضاف: "أقمت العديد من الأمسيات، وشاركتُ بالعديد، وفي كلّ مرّة أكون فيها قبالة الحضور أشعر برهبة وارتعاشة بالأطراف، لكن ذلك لا يأخذ إلاّ ثوانيَ...". ثم ربّتَ على كفي وابتسم... ملتُ إلى "نادية التي تجلس إلى يميني، وعبّرتُ عن اشتياقي لها، فهمست: "تركتُ لكِ الكتابين، لتعيديهما إلى كريم، وليس الاستحواذ على قلبه يا ملعونة..." انتبه كريم لضحكاتنا، ونظر إلى نادية قائلاً: "كم أنتِ عظيمة يا "أم مهيمن"، أطلقتْ نادية ضحكة بصوت مسموع وقالتْ: "يجب أن تشكرني، فقد أهديتُكَ جوهرة نقية لا تقدر بثمن.".

كان الفيلم مرعباً، هزَّ مشاعر الحضور، وصارت همهماتهم مسموعة بوضوح. وما أن انتهى، حتى شاهدتُ بعض السيدات يكفكفن دموعهنَّ... عند ذاك وقفَ السيد راغب أمام الحضور حاملاً نسخة الجريدة بين يديه، وقال بأن هناك العديد من الوثائق والأفلام قد حصلت عليها المعارضة و"حزبنا" على وجه الخصوص، من مصدرٍ موثوق، وراح يقرأ من الجريدة، العبارة التي تؤكد نزاهة المصدر، وحين انتهى، قال: "رحبوا معي، بالمصدر الموثوق الذي أوصل الوثائق إلينا بما فيه الفيلم الذي شاهدناه منذ قليل...". وكان يشير نحوي بذراعه الطويلة... لكزني كريم بحنيّتهِ المعهودة، لينبهني إلى ضرورة الالتحاق بالسيد راغب، ففعلت.

وقفتُ إلى جانبه ناظرةً صوب كريم، غرستُ نظري داخل عينيه وقلت: "صحيح أنني أوصلتُ الوثائق إلى المعارضة، ولكنني لا أدعي البطولة، فقد كان الدافع الأساس من حصولي عليها، هو إثبات جريمة اعتقالي التي تمت بأبشع صورة... كنتُ أحلم بالحصول على الوثيقة التي تثبت ذلك الاعتقال المرير، لأضعها داخل برواز أعلّقه على جدارٍ يمنحني الشعور بالظلم كلما رأيته، حتى لا يتسرب النسيان إلى ذاكرتي، ولكن المفاجأة قد حصلت، حين استلمتُ مجموعة من الوثائق تفوق ما كنتُ أحلم به...". في تلك اللحظة شعرتُ أن الكلمات تيبست بحلقي، وغابت قدرتي على الكلام، فلم يكن أمامي إلاّ التظاهر بالبكاء والهرب سريعاً صوب كريم الذي وقفَ مستقبلاً تحت ضجيج التصفيق وكلمات الاستحسان والتشجيع. احتضنتني نادية وأذرفت... سمعتُ كلمة "رفيقة" من زوايا عديدة، ولم أكن أعي بأنها جواز المرور إلى قلب المعارضة.

ما أن جلستُ حتى عاد الأستاذ راغب إلى مكانه أمام الجمهور، وأعلن أنَّ الهيئة الإدارية للنادي قد قررت منح السيدة "حياة" عضوية الشرف ضمن الهيئة الإدارية، فَعَلا التصفيق مرة أخرى...

بعد نصف ساعة أعلنت نادية عن ضرورة عودتها إلى البيت، فانتهزتها فرصة، وهمستُ بأذن كريم، بأنني سأخرج برفقة نادية لأعود إلى غرفتي لأمر ضروري، وطلبتُ منه مهاتفتي حين يكون في شقته كي ألتحق به، ثم قلتُ مهدّدة إياه: "إن لم تتصل، أقتلك...".

ما أن وصلتُ غرفتي، حتى شرعتُ بتحرير التقرير الخاص بالأمسية. حين انتهيتُ من إرساله، رنَّ الهاتف معلناً وصول حبيب القلب إلى شقته، فأخذتُ حقيبتي اليدوية بعد أن دسستُ قميص النوم السماوي داخلها.

***

لم يصل من الطرف الآخر أي رسالة أو حتى إشارة خلال الشهر المنصرم، رغم عدم تأخري في كتابة وإرسال التقارير اليومية. كنتُ على يقين بأنهم قد استلموا كل التقارير التي كتبتها، كون الجهاز الذي لديهم يعمل بشكل جيد، وإلاّ لما استطعت الإرسال... أمس كتبتُ إلى "المديرية الرابعة" رسالة أخيرة: "لم أستلم منكم أي إشارة تؤكد استلامكم رسائلي. سأتوقف عن الإرسال خوفاً وحرصاً مني على سلامة العمل... قد يكون جهاز الاستلام الخاص بكم تحت رقابة أيادي غير أمينة... "جنّات عبد الرحمن".".

بعد مرور نصف ساعة من إرسالي الرسالة الأخيرة، اتصلتْ بي "بيرتا" لتخبرني بأن هناك خمس شقق حصل عليها مكتب اللاجئين لتكون سكناً للعوائل المنتظرة على القائمة، وقد رشحتني لإحدى تلك الشقق، كونها تقع ضمن حدود العاصمة ستوكهولم كما هي رغبتي، ثم ضربت معي موعداً في صباح الغد.

وأنا في طريقي إلى مقابلة "بيرتا" مستمتعةً بنسائم الصباح الربيعي، صرتُ أحلم بشقتي الجديدة، بمملكتي التي سأؤثثها على ذوقي، وليس حسب ذوق الآخرين كما كانت تفعل أمي...

حالما التقيت "بيرتا" أخبرتُها بأنني أفضل شقة صغيرة لا تزيد عن غرفة وصالة، حتى لا تتعبني بأشغال البيت، لكنها فضلتْ شقة من غرفتين وصالة تقع في الطابق الأول من البناية، لتكون هناك غرفة خاصة بالمولود الجديد... "هل يمكن ترك ابني وحيداً في غرفته بعيداً عني؟" سألت نفسي غير مصدقة...

كانت الشقة أكثر من رائعة، وأجمل جزء فيها، الشرفة الواسعة التي تأخذ عرض الشقة والتي تطلّ على بحيرة رائعة الجمال. وافقتُ على الفور ووقعتُ العقد لأستلمها بداية الأسبوع القادم... هاتفتُ كريم وأخبرته

بأمر الشقة، تلمستُ فرحه ورغبته في إقامة احتفال مصغّر بيني وبينه في اليوم الأول، أو الليلة الأولى بعد استلامها. وافقتُ على مقترحه شريطة أن أدعو نادية و"بيرتا" من طرفي، ويمكنه أن يدعو من يحب لتكون أمسية احتفالية بالفعل... "أدعو من أحب؟" سألني بتهكم فقلت: "نعم". قال: "الشخص الوحيد الذي أحبه في عالمي هو حينانا، حياتي...".

"ملعون... كاتب". قلتها ضاحكة.

***

ساعدني كريم في ترتيب شقتي، أسبوع بأيامه السبعة كان يعيش معي داخل الشقة، أعلنتُ عليه إدمان الحب، وأعلن عليَّ الهيام والاهتمام والرعاية بكل رقة وحميمية... حفظتُ تفاصيل جسده، وصار أكثر شغفاً بتفاصيل جسدي: "جسدكِ الوردي المحمر لا بدّ أن يكون سليل الفكرة التي قرأتها بين سطور ملحمة جلجامش... حينانتي العذبة، رفقاً بي فأنا لست دوموزي..." وصار يتلو عليَّ بعض أبياتٍ من الملحمة كلّما ظهر جسدي أمامه نقياً...

"سيدة النواميس الكونية،

أيها النور المشع،

يا واهبة الحياة وحبيبة البشر،

أنتِ أعظم من كبير الآلهة "آن"

وأعظم من الأم التي ولدتكِ..."

***

كان من المهم جداً، أن أكسر صمت الرسائل المبعوثة إلى "المديرية الرابعة" بسبب تغيير عنواني ورقم هاتفي، فبعثتُ رسالة عبر الفاكس لأخبرهم بما استجد، وكنتُ قد استخدمتُ الشيفرة تحسباً، كما المعتاد،

وكنتُ قبل ذلك قد اتصلت هاتفياً لمرة واحدة، ولكن الهاتف ظلّ يرنُّ وحيداً. صرتُ أشعر بوحدتي، وكأنني قد فقدتُ السند والأمان... "ترى هل ارتباطي بـ "المديرية الرابعة" كان سرّ قوتي؟" سألتُ نفسي وأنا أنظرُ إلى صورة "أمي" التي عمدتُ على تعليقها حيث جدار الصالة المقابل لبابها، بهدف إغاظتها، حين تكون شاهدة على ممارستي الحرية مع كريم، أو حتى حين أمارس حرية الطيران أمام المرآة أحياناً... كنتُ قد أخذتُ صورتها التي كانت مُلصقةً على إحدى صفحات "الدفتر الصديق" وذهبتُ بها إلى استوديو للتصوير طالبةً من المصوّر تكبيرها وتأطيرها، ففعل، وكان لي ما أردت.

***

بعد ثمانية أشهر من الحمل، وبعد موجة من الآلام القاتلة، خرج الطفل ميتاً دون سبب... وضعَهُ الطبيب السويدي بين يدي، طالباً مني توديعه بعد أن أفقتُ من مخدر العملية بشكل تام. صرتُ أتأمله. طفلٌ هادئ بلون الزبدة السويدية، وردي محمر، شعر رأسه المحمر وخدّاه وأنفه، يشير بوضوح إلى "زينل" والده الحقيقي الذي كنتُ متأكدةً من أنه سيخرج نسخة عنه، وما أن دخلتُ بنوبة بكاء مريرة، حتى أخذه الطبيب مني وغادر، بعد أن قال لكريم، بعض كلمات لم أَعِها... كان كريم إلى جانبي، يمسّد شعري باليمنى، وفي اليسرى يداعب أصابع يدي برقته المعهودة. لم يقل كلمة، وكانت عيناه اللامعتان تعلنان عن حزن العالم بأسره. "كريم ميرزا" الصحفي والروائي الذي عشقت، والذي اكتشفتُ بأنه الحبيب الأول... بين يديه وعلى صدره، وأنا أستنشقُ أنفاسه ورائحته "المحتفلة" بأعياد ميلاد جميع البشر، تيقنتُ بأنني لم أدخل عالم الحب، ولم أذق حلاوته من قبل، إلّا معه. "ربما تكون تجاربي السابقة مجرد نزوات، أو لهاثاً بسبب مرض الإدمان على رائحة الذكورة". قلت لنفسي بقناعة واضحة.

بكى كثيراً، بل بكى بمرارة وهو يودّع أصغر وأجمل جثة بشرية: "كنتُ أريده ابناً لي، أهتمُ بتربيته كما أتمنى...". احتضنته وأنا أنظرُ إلى كومة التراب الصغيرة وسط المقبرة المحتفلة بالخضرة والزهور والأشجار العملاقة. بكينا طويلاً، ثم همستُ بأذنه، ربما كي أواسي نفسي أكثر من مؤاساته: "ستزرع في رحمي طفلاً آخر بأقرب وقت ممكن... هل تعدني بذلك؟" ازداد نحيبه، ثم رفع رأسه ناظراً بوجهي، حينها شاهدتُ حزن العالم بأجمل وجه رجولي... طبعَ قبلة على شفتيَّ وهو يطلبُ مني التفكير بالجزء المتبقي من حياتنا وكيف نجعلهُ أجمل، "تماماً كما نشتهي...". قال ذلك وهو يحتضنني سائراً بخطواتٍ وئيدة.

***

ثلاثة أشهر مرت على الرسالة الأخيرة التي بعثتها إلى "المديرية الرابعة"، والتي أخبرتهم فيها بأنني انتقلتُ إلى سكن جديد دائم، وحصلتُ على رقم هاتف جديد، دون أن يصلني منهم كلمة واحدة... كنتُ منكسرة، ولم أخرج بعد من أزمة ابني الذي ولد ميتاً دون سبب. صرتُ أتصوره طيلة الفترة المنصرمة كيف يتحرك، يبتسم، يناغي ويحركُ أطرافه راكلاً هواءَ الصالة أو غرفة النوم. كدتُ أجنّ لولا وجود كريم إلى جانبي، الملاك الذي خفّفَ عنّي محنتي...

زارتني "نادية" أمس، حملتْ معها طبختها المفضلة، وجاءت تطلب شريكاً يقاسمها متعة الطعام وأحاديث نسائية لا بدّ منها، فقد سئمتْ وحدتها خصوصاً عند اعتدال الطقس الذي يرغم البشر على الخروج حيث الأماكن العامة والتمتع بمناظر الطبيعة الساحرة... "نتناول طعامنا ونخرج لنقابل وجه الله في وجوه أجمل من خَلق.". قالت نادية، فضحكتُ لكلماتها وخيالها الجميل، كوني أعرف إعجابها بأصحاب البشرة الشقراء وقاماتهم الفارعة... فقلت: "نحمل الأكل ونخرج. نجد مكاناً يتيح لنا

رؤية الجمال ونحن نتناول طعامنا..."‏. وافقتْ صديقتي على الفور وهي تطلق ضحكتها المحببة التي لا تخلو من سفاهة امرأة بدينة جميلة.

جلسنا على مصطبة بمقعدين طويلين متقابلين تتوسطهما طاولة على امتدادهما وملتصقة بهما من الأسفل. فردتْ نادية أكلها، واستليت قنينة النبيذ من الكيس وكأسين بلاستيكيين. ما أن باشرنا الأكل حتى وقفتْ نادية وهي تشير إلى البعيد، التفتُّ إلى الوراء، شاهدتُ شاباً مبتسماً يتجه نحونا ومن كتفه اليمنى تتدلى حقيبة جلدية سوداء. وحين اقترب، ألقى التحية علينا ثم احتضن نادية بشوق: "هذا فراس، صديق ابني مهيمن". رحبتُ به ودعوته للجلوس ومشاركتنا الطعام. فجلس مبتسماً. شاب أسمر في أواسط العشرينيات، طويل الوجه جميله، بأنف دقيق وعينين سوداوَيْن واسعتَيْن. سألته مازحة: "هل رموش عينيكَ طبيعية؟" ضحكَ واقتربَ بوجهه مني وطلبَ أن أتأكد بنفسي من خلال سحب الشعرات، فضحكتُ وراحت "نادية" تشرح مشاكسات البنات له بسبب رموشه... "لم أرَ رموشاً بهذا الطول والجمال على رجل من قبل!" قلتُ لها ذلك، لكن الملعون قال جملة هزَّت كياني: "إياكِ أن تحبيني، فلدي الكثير!" فقلتُ له بمزحة ثقيلة بعض الشيء: "أنا لا أحب الأطفال." نظر صوبي مندهشاً ثم أطلقَ ضحكة صاخبة أدمعت عينيه... فتحَ حقيبته الجلدية وأخرج كاميرا حديثة بعض الشيء، وطلب منا السماح بالتقاط بعض الصور فوافقنا.

في الصورة الرابعة طلبتُ منه أن يجد شخصاً ماراً ليلتقط لنا صورة جماعية. نظر حوله، واتجه نحو فتاة وكأنه يستغل الفرصة ليقترب منها، كانت جميلة بالفعل، وضعَ الكاميرا بين يديها، وأشار لها بما عليها فعله، ثم توسطنا ووضع ذراعيه على كتفينا مبتسماً...

أعاد الكاميرا إلى حقيبته، وعاد يلتهم الطعام متلذذاً شاكراً. سألتْهُ نادية عن وجهته، فقال إنه متوجه إلى شخص ربما يستطيع مساعدته في إرسال مبلغ مالي إلى عائلته داخل الوطن، ثم راح يشرح مندهشاً هبوط عملة بلدنا بشكل جنوني. في تلك اللحظة فكرتُ بمساعدته. طلبتُ منه رقم هاتفه على أمل الاتصال به ليلاً لأخبره إن كنتُ قد استطعتُ تأمين الطريقة المثلى لوصول المبلغ إلى أهله، فوافق على الفور، وقرر إلغاء موعده من الرجل المتوجه إليه، كونه لا يعرفه جيداً.

حال وصولي إلى شقتي، اتصلتُ بكريم المشغول بكتابة رواية جديدة، كي أطمئن عليه، ثم هاتفتُ والدي الذي أشتاق إليه كل دقيقة: "الوضع يزداد سوءاً يا حبيبتي". قال أبي بألم مرير ثم أضاف بمرارة أكبر: "راتبي الشهري صار يعادل ثمن ثلاثين بيضة فقط، أحمدُ ربي أن لنا بيتاً...". لم أرد له الاسترسال فقاطعته: "يا حبيبي لديكَ ثروة الآن، يمكنكَ الاعتماد عليها. لا تهتم لأحد!". ضحكَ وقال بأنه يعلم ذلك، وأنه قد قرر منذُ فترة، استخدام ثلاثمئة دولارٍ شهرياً من مدخراتي، وهو ما يعادل راتبه لشهرين، كي يدبّر المعيشة ومصروف البيت... ثم أعطيته رقم هاتف شقيق "فراس" وأخبرته أن يجعل ليث من يتصل بهم، ويوصل لهم "ألف دولار". فاتفقنا على صباح يوم غد ليكون موعد الاتصال والتسليم... فجأة، سمعتُ صوت أخي ليث وهو يرحب بي وينثر شوقه صوتاً حنوناً في فضاء شقتي، أخبرني بأنه دخل كلية طب الأسنان برغبة من والدته، ثم سألني عن شخص كان يزورنا بعض الأحيان ويتذكره جيداً "الدكتور ماجد" وقال بأنه بحث عنه في الكلية فلم يهتدِ إليه. نصحتهُ أن يكفّ عن السؤال عنه، كونه شخصًا لا يستحق الاهتمام. يبدو أن كلماتي قد أثارت بعض الريبة أو الفضول في روحه، فقال: "سأعثر عليه حتماً".

"نايات" التي أضحت طالبة في الصف الثاني الابتدائي، حرَّم عليها والديَّ أخذ الفواكه إلى المدرسة، والاكتفاء بـ "الساندويتشة" احتراماً لمشاعر الأطفال الذين لا يجدون حبة فاكهة واحدة طيلة الشهر...

كانت مكالمة طويلة، استنزفت قواي، وجعلتني أتهالك على الأريكة، جسد غادره اتزانه... وفي حالة الوسن، تذكرتُ مرآتي هناك، فغفوت...

"مرآتي تعيش الحصار وملل الغرفة... حين غاب جسدي عنها طويلاً... ذلك ما عرفته أثناء حلمٍ كابوسي في ليلة ماطرة".

***

قبل منتصف النهار ببضع دقائق، اتصلتُ بـ "فراس"، وأخبرته بأن المبلغ ربما يكون بين يدَيْ شقيقه الآن، شكرني وضرب معي موعداً ليسلمني المبلغ بالعملة السويدية. فضّلتُ أن يكون اللقاء غداً في شقتي. أمليتُ عليه العنوان، وأغلقتُ الهاتف مودعةً.

عند العاشرة ليلاً، كنتُ أستمع إلى كارثية الأخبار على غير عادتي، فقد تعودتُ سماع موسيقى الآلة المنفردة ليلاً، وحين توسط السائل الأرجواني الغامق نصف قنينة النبيذ، رنَّ الهاتف رنّة واحدة، ثم باشر الجهاز بسحب الورقة، قفزتُ من مكاني... "إنها رسالة فاكس بكل تأكيد، لقد مضى وقتٌ طويلٌ لم أستلم فيه أي رسالة". قلتُ لنفسي وأنا أراقب الكلمات الأولى التي صارت تخرج ببطء من الجهاز...

"إلى جنّات... عادت الأمور إلى طبيعتها... كان الانقطاع قسرياً... علاقتكِ بالصحفي كريم ميرزا خطوة ممتازة، يجب أن تتوطد... وسام الشيخ، من منظمة المغتربين، يجب أن تكون هناك أواصر صداقة بينكما بأسرع وقت... بانتظار تقريركِ اليومي اعتباراً من يوم غد... انتهى".

قرأتُ الرسالة، بعد فكِّ شفرتها، أكثر من مرة، كانت يداي ترتجفان، لم يكن أمامي وأنا أعيد قراءة الرسالة، إلاّ صورة كريم ماثلة... "ما الذي ينتظرني من وراء هذه الرسالة؟... أي كارثة ستحل على رأسي؟...".

حرقتُ الرسالة وترجمتها، بعد حفظها في ذاكرتي، وصرتُ أفكر في حرق الماضي كله، من أجل كريم، الشخص الوحيد الذي عرفتُ الحب في فضاء رائحته وحلاوة أصابعه وعسل رضابه.

***

لم يكن وسام الشيخ بالشخص الغريب عني، فقد التقيته أكثر من مرة في ندوات وأمسيات منظمة المغتربين، التي حضرتها دون علم كريم الذي يكنّ لهم البغض والعداء، كونه يعدّهم من أزلام "بطل الحروب" وجلاوزته. ولم يكن العثور عليه صعباً، زرتُ منظمة المغتربين فوجدته حاضراً يناقش بعض "أصدقائه" كارثية العقوبات الاقتصادية على السلطة والشعب معاً... ألقيتُ عليهم التحية، فقام مرحباً بي. شكرته للطفه وطلبتُ منه العودة إلى أصدقائه، مشيرة إلى ضرورة الحديث معه حين يكون لديه الوقت... الحقيقة لم يعجبني هذا الرجل الخمسيني منذ اللقاء الأول، فقد وجدته سمجاً مستفزاً نتيجة تربيته العسكرية، فوالده كان ضابطاً في الشرطة، وهو كان ضابطاً أيضاً، ولكن في الجيش، وقد عرفتُ عنه، أنه قد ادعى هروبه من نظام "بطل الحروب" وطلبَ حق اللجوء السياسي لدى مملكة السويد وحصل عليه بوقت قصير، أو "قياسي" كما يتفكه البعض من أصدقائه...

جلسنا حيث الزاوية القصية، وتبادلنا بعض كلمات الترحيب والمجاملة، ثم اخترعتُ فكرة لحظوية وكأنني أتيتُ من أجلها: "اليس من واجبنا أن ننظم تظاهرة حاشدة أمام السفارة الأمريكية احتجاجاً على موت الأطفال نتيجة الحصار وانعدام الدواء وقلة الغذاء؟". صفّقَ "وسام" لمرة

واحدة ودعكً كفّيه وكأنه وجد ما سيشغل به نفسه خلال الأيام القادمة: "فكرة رائعة مدام "حياة"، سنقوم بإعدادها وأخذ الموافقة من السلطات... أحييك صديقتي..." مدخل مكشوف من رجل متخصص بالعلاقات المؤقتة مع النساء. "هل أنا صديقتهُ حقاً؟ أو من الممكن أن أكون؟... مستحيل...". قلتُ لنفسي جازمةً، ثم وقفتُ معلنةً ضرورة انصرافي. حاول إبقائي بحجة العشاء والأصدقاء فقلتُ وأنا أصافحه: "حين يكون هناك، نشاط لعشاء عائلي، أكون أول الحضور ومعي أطيب وأشهى الأكلات...". صاح "وسام الشيخ" فرحاً، وكنتُ أعرف أنه ممثل فاشل بامتياز: "يا إلهي ما هذه الأفكار الرائعة؟ سنقيمها بأقرب وقت، كوني متأكدة.". ثم اصرَّ على توديعي حتى الباب الخارجي احتراماً... "مضحك هذا الرجل!".

"العودة إلى البيت، نوع من الخلاص" كما يقول عمنا هيرمان هيسة.

منذ أن أودَعتُ طفلي رحم الأرض، صرتُ أشتاق كأس النبيذ حالما يحل المساء... طعم النبيذ الأحمر الداكن أو الأرجواني الداكن كما يروق لي تسميته، يتماهى مع ظلمة الليل وسكونه، بل يتماهى مع الحب ويؤججه.

عند باب البناية وجدتُ كريم واقفاً، أخبرني بأنه ضغطَ زرّ الجرس قبل ثوانٍ من وصولي: "لكنكَ تمتلك المفتاح أيها الحبيب المشاكس!!". قلتُ له بشيء من التأنيب دون أن أفقد ابتسامتي، فقال: "وأنتِ تعرفين بأنني لم أستخدم المفتاح من قبل... استقبالكِ لي فرح حقيقي لا أريد فقدانه...".

"ملعون... كاتب!!". قلتُ له ثم أضفت بتهكم: "هل الليلة لي أم لـ "ضَرَّتي" الكتابة؟" ضحكَ مطوقاً كتفيَّ بذراعه اليسرى: "لكِ وللنبيذ والحب...". ثم تمتم بكلمات مسموعة لكنني لم أفهمها: "أنتِ الحياة، والكتابة الآخرة". فسألته عما قاله وماذا يعني بقوله، فقال:

"الدُنيا والآخرَةُ ضَرَّتَان، متى أَرْضَيتَ إِحداهُما، أَسْخَطْتَ الأُخْرَى". هذه مقولة للتوحيدي، حرفتُها قليلاً وتمتمتُ بها حرّفتُ، هل أعجبتكِ؟".

"لا أحب الحديث عن الموت والآخرة... لكن المقولة باتت مفهومة الآن...". قبّلتهُ واتجهنا نحو الشقة متلازمين.

بعد أن أنهينا كأس النبيذ الأولى، بمرافقة موسيقى باخ في "كونشيرت الفيولين" وكنتُ بثوب النوم الليموني الشفاف، فاردة جسدي على الأريكة، وحين أعلنت رائحة "كعكة عيد الميلاد" المحتفلة عن حضورها، وقف كريم ماسحاً جسدي بنظراته الساحرة التي اعتدتُ قراءتها، وبعد صمت محبب، قال:

"حينانا... حينانتي... ما أجمل جسدكِ..". فقلتُ وكأنني وَسِنَة:

"دوموزي حبيبي... تعال واعتليني... اعتليني حبيبي...".

"لا يعتليكِ إلا الملوك والآلهة..."

"وأنتَ الملك، ونصف الإله... تعال وأروني أيها الحبيب...".

"تعتليني أنتِ أولاً...".

بعد أن مارسنا الحب بكل تفاصيله الساحرة، حتى امتلأت الصالة برائحة "كعكة عيد الميلاد" المحتفلة. وحين شرعتُ بفتح قنينة النبيذ الثانية، بعد أن أفرغنا كأسينا. أستلَّ كريم مظروفاً من حقيبته، أعطاني إياه، مشيراً إلى أنه انشغلَ خلال اليومين المنصرمين بقراءة رواية وصلتهُ بالبريد من الوطن، ثم طلبَ مني قراءتها ليسمع رأيي بها لاحقاً... أخرجتُ الحزمة الورقية من مظروفها وراعني ما قرأت:

"ماء العشق الساخن ... رواية... جنّات عبد الرحمن".

ارتجفَ جسدي وصار عصياً عليَّ ابتلاع ريقي، وتلعثمتِ الكلمات في حلقي... نظرتُ صوبه مستفهمةً دون أن أنبس بكلمة، فضحكَ وسألني

خطبي، مشيراً باستغراب إلى أنني بالكاد قرأت العنوان فقط... هززتُ له رأسي مشيرة له بالاستمرار بالكلام، فقال، أن صديقة أخته "ثبات"، تعرف بأنه روائي، وقد كتبتْ روايتها الأولى وطلبتْ من أخته إرسالها له كي يبدي رأيه فيها قبل أن تقرر نشرها...

"وهل اسمها الحقيقي جنّات عبد الرحمن؟" سألته وكادت الكلمات التي خرجت بصعوبة أن تخنقني، فقال "نعم".

"هل قرأتَ الرواية؟". أشارَ برأسه علامة الإيجاب وقد بدت علامات الحيرة على ملامحه.

"اسكبْ لنا النبيذ لأقص عليكَ ما يمتعك". قلتُ له ذلك بعد أن لمعت فكرة في رأسي. قلتُ بعد أن قرعنا كأسينا وارتشفنا القليل:

"فتاة عشقت ابن الجيران، اكتشف والدها سرّ عشقها، فقرر قتلها. سكبَ على جسدها الماء المغلي فدخلت إثر ذلك المستشفى بين الحياة والموت، لكنها لم تمت، عاشت مشوهة الجسد طيلة عمرها... هل هذه الخلاصة؟" سألته وأنا أقرأ دهشته المرتسمة على كل أجزاء جسده...

"بالضبط... كيف عرفتِ هذا دون قراءة الرواية."

"لأنني قابلتها في المستشفى، وحدثتها، وزرتها عدة مرات".

"انتِ حياة إذاً، التي جسدتها بصورة "الملاك" الذي كان يزورها وكانت كلماتها السبب في تغلبها على الموت!!!"... دهشتُ لِما سمعت، فقد صارت توقعاتي حقيقة. لم تمت "جنّات" لقد عاشت وصارت كاتبة! التفتُّ إلى كريم متسائلة: "هل أسلوبها ولغتها مقنعان؟".

"جداً... لغتها سليمة وأسلوبها شعري أكثر مما هو نثري... أعتقد أنها ستكون روائية ممتازة". قال كريم تحت سيطرة الدهشة، فقلت:

"منذ أن قابلتها أحببتُ اسم "جنّات" وتمنيتُ أن يكون بمقدوري تغيير اسمي إلى "جنّات" لذا حين أكون في لقاء عابر مع أشخاص عابرين ويسألوني عن اسمي أقول لهم "جنّات" فلا تستغرب إن ناداني أحدهم بـ "جنات" يوماً ما...".

قرّرتُ قراءة رواية "ماء العشق الساخن" منذ صباح الغد... احتضنتُ كريم ورحتُ أقص عليه قصتي مع "جنّات" منذ اليوم الأول لولادة أختي الصغرى "نايات" أي قبل قرابة التسع سنوات...

***

كتبتُ رسالة مطولة لـ "جنّات"، رسالة لا ينقصها الفرح والسعادة الغامرة لما وصلت إليه من مستوى أدبي وثقافي، وذكّرتها بي، وكيف كنتُ أحدثها وهي في غيبوبة الألم، ثم أخبرتها بأنني خطيبة الروائي "كريم ميرزا" الذي بعثتْ له روايتها... كنتُ كلما أكتب عبارة أو جملة أو أكمل سطراً، أتخيلها وهي تقرأ رسالتي بفرحها الذي أتصوره كبيراً، ثم ختمتُ رسالتي بقبلات واشتياق كبير للقائها بأقرب فرصة...

عرضتُ الرسالة على كريم لأسمع رأيه. قرأها بتمعن، ثم نظر صوبي وسألني عن الملاك في رواية "جنّات": "هل تجدين نفسك أجمل من ملاك الرواية، أم أن الملاك صورة رائعة الخيال تمنيتِ أن تكونيها؟".

"صورة الملاك في الرواية أكثر من رائعة" قلتُ له، فابتسمَ ومسحَ على رأسي ثم احتضنني وقال:

"أن يحتفظ من تُحبينَ بصورتكِ على شكل ملاك في ذاكرته، ذلك يعني، ثمة ملاك يعيش داخلك بالفعل".

قبّلني ثم أضاف راجياً: "أُتركي موضوع الرسالة ودعي "جنّات" تعيش حلمها حتى النهاية". قبّلتهُ وقرّرتُ الاحتفاظ بالرسالة.

"تأسرني الرواية حين أجد ثمة اسمًا أنثويًّا على غلافها...". قال كريم ثم أضاف محاولاً إيضاح فكرته بتأنٍّ:

"مجتمعنا بقساوته وقوانينه، لم يؤهل المرأة لتكون روائية... تأكدي حين تكون هناك روائية منبثقة من أتون مجتمعنا القاسي على بناته، بأنها تمتلك روحاً جريئة متحدية تستحق منا كل الاحترام والمؤازرة...".

"رأي مهم أسمعه للمرة الأولى... لكنه بحاجة إلى توضيح أكثر...". قلتُ له ذلك وأنا أبحر بعينيه الجميلتين، فقال:

"المجتمع لم يؤهل المرأة لتكون روائية، كون الروائي بحاجة إلى الموسوعية، والثقافة المجتمعية الشاملة بعض الشيء، وهذا ما لم يمنحه المجتمع للمرأة، قياساً بما يمنحه للرجل... فهي لا ترتاد المقاهي والبارات، ولا تخالط الرجال بحرية خارج حدود العائلة. لم تكتشف الشارع ليلاً بمفردها، ولم تخض تجربة الجندي في السلم والحرب، وليس مسموحًا لها المبيت في فندق، أو الحدائق كما يفعل الرجال..." أعجبتني الفكرة، فقاطعته قائلةً:

"لا تركب الدراجة الهوائية في معظم مدن بلدنا... تخشى المجاهرة بحلول الدورة الشهرية... لا تجاهر بحبها، ولا تستطيع الاعتراف به حتى لمن تحب... غير مسموح لها الحديث عن الجنس، حتى بالمواربة، فما بالك بالكتابة عنه؟...".

"لهذه الأسباب، وغيرها، تأخذني الرواية المخطوطة بأنامل أنثوية، لأنني، حتماً، سأجد داخلها ما يثير فضولي...".

شرعتُ بفتح قنينة نبيذ ثالثة، حين لم أجد ما أشربه. انتبه لي كريم، واقتربَ مني قبلَ أن أفتح القنينة. احتضنني من الخلف، وهمس شوقه في مسامات جسدي، ثم حملني إلى الفراش حيث غرفة نومنا...

في الصباح، كنت تحت قرص الماء الرشاش، حين شعرتُ بألم بسيط في ثدييَ الأيسر، تحسسته، وصحتُ: "أيها اللعين لقد آلمتني ليلة أمس، لم أعرف عنك القسوة أيها الكاتب المتوحش...". دخل كريم الحمام بعد مرور أكثر من دقيقة على سكب لعنتي عليه. كان عارياً ضاحكاً، شامتاً "بإنانا" الشهية التي استيقظت ثملة: "حينانا، حبيبتي، أين هذا اللعين الذي يؤلمكِ؟..." مدّ كفه وتحسس مكان الألم، ثم قرر ضاحكاً إيقاف ممارسة الحب لشهر كامل، صرختُ به:

"أقتلكَ... قرارك سخيف، جداً... جداً". دخلَ تحت الماء وصار يدعك جسدي برغوة الصابون السائل.

***

صار "فراس" يتصل بي ويزورني مرتين في الأسبوع على الأقل، وكان السبب المباشر لزياراته تحويل بعض المبالغ الصغيرة له ولأصدقائه ومعارفه، وكنتُ قد اتفقتُ معه على احتساب ثمن المكالمات الهاتفية من المبلغ فوافق، وذلك قد منحني فرصة الحديث مع أبي الجميل الحنون، الذي أوصيته بعائلة عمي "أبو شفيق" حيث خصصتُ لهم مئة دولار شهرياً، ولا أدري إن كان دافع الانتقام أو الشماتة بـ "سمية" من كان وراء إصراري على إخبارهم بأن المبلغ مني شخصياً...

حتى الساعة لا يعرف كريم بعملية تحويل المبالغ الصغيرة، ولا يعرف من هو "فراس"، ولكن المصادفة شاءت أن يعرف. حين أتى لزيارتي دون موعد، وحين نثر السعادة في فضاء مسكني بدخوله. احتضنته لأعبَّ من عطره الرجولي... نظر في عيني عميقاً وسألني بحيرة: "هل أنتِ السيدة

حياة التي ساعدت البعض بتحويل بعض المبالغ إلى الداخل؟" ضحكتُ عميقاً وسألته إن كانت هناك مشكلة. ظننته سيثور أو يعلن امتعاضه، لكنه قال: "أريد تحويل خمسمئة دولارٍ إلى أهلي...". ضحكتُ وقبّلته كثيراً حتى تأججت رائحة "كعكة عيد الميلاد".

"كن رحيماً بالثدي الأيسر، كفكَ اليمنى متوحشة همجية". قبَّلني أكثر، وهمسَ بأنه سيقطع كفه إن سببت لي الأذى مرة أخرى...

في الحمام تلمستُ مكان الألم، فكان مؤلماً حقاً... يجب مراجعة الطبيبة. ذلك ما قررته حينها...

النبيذ سيد الأمسية، والشموع عشق حبيبي وسلوته. يجد متعتهُ وهو يقرأ لي شيئاً على ضوء الشموع، وكلما فرغت قنينة نبيذ صارت الكلمات أكثر حلاوة ومتعة...

"حيناتي!... هل تتزوجينني؟". قالها هامساً ورأسي يتوسد صدره العاري.

"لا تكن سخيفاً...". قلتُ له وغفوت بسعادة...

***

خرجَ كريم صباحاً أثناء ما كنتُ نائمة، لكنني شعرتُ بخروجه... بعد مضي قرابة الساعة، نهضتُ من فراشي، وهاتفتُ مكتب الطبيبة قبل أن أدخل الحمام... شرحتُ لها السبب وراء طلبي الموعد، فأشارت بأن الأمر مهم. منحتني ربع الساعة الأخيرة من زمن عملها... "الرابعة إلاّ ربعًا" قالتْ وأقفلت الخط...

ما أن وضعتُ الحاكية على جسد الهاتف، حتى رنَّ، فجفلتُ... كان "وسام الشيخ" متهلّل الصوت، فرح المزاج. دعاني إلى وجبة غداء في بيته، أخبرته بأنني على موعد مع الطبيبة قبل الرابعة بربع ساعة، لذا فضلتُ

المطعم على أن يختاره هو ويكون قدر تحمّل المسؤولية إن كان المطعم دون المستوى، ضحكَ وتعهد بأن يكون الغداء ملكياً... "نحنُ لاجئين يا صديقي... تذكر هذا دائماً ولا تعش شحاتاً بأفكار ملك"... قلتُ له ذلك على أمل اللقاء عند الواحدة ظهراً حيث ساحة بلدية ستوكهولم...

كلما رأيت "وسام الشيخ" تذكرتُ "ديكارت" ليس لأفكاره، بل، شكله شديد الشبه بتلك الصورة التي شاهدتها ضمن كتاب "مقالة الطريق" الذي وجدته في مكتبة كريم، ذلك الكتاب الذي استعرته ولم أعدهُ إليه... أعجبتني الصورة وصرتُ أتمعّنها، لم يكن الشكل جميلاً بل على العكس، لكن البورتريه مرسوم بشكل متقن لافت وكأنها صورة فوتوغرافية ناطقة... حين قابلتُ "وسام الشيخ" أول مرة، تذكرتُ صورة "ديكارت"، وتذكرتُ أني قرأتُ وصفاً لشخصية وهيئة "ديكارت" في إحدى الصفحات، فعدتُ إليها وقرأت: "كان ديكارت معتدل القامة، كبير الرأس، عريض الجبهة بارزها، أسود الشعر، وكان له عينان منفرجتان، وأنف طويل، وفم عريض، تحته شفة بارزة، ووجه بيضاوي ذو لون زيتوني شاحب..." دخلتُ في موجة ضحك مفرط حين قرأتُ لون الوجه، فقد كان لون وجه "وسام" باللون ذاته... زيتوني!!

ساعتان كانتا كافيتين، لأفهم من وسام الشيخ "الظريف" على الدوام، بأنه يريد علاقة عابرة، علاقة اشتهاء فقط. متى ما اشتهاني أو اشتهيتُه، نهاتف بعضنا ونتفق على موعد قصير نطفئ بها شوقنا الحيواني... الحقيقة، زاد احتقاري له "لماذا هذا الرجل رخيص إلى هذا الحد؟"... المطعم كان رخيصاً أيضاً...

دخلتُ عيادة الطبيبة عند تمام الموعد، وبعد دقيقتين صار ثديي الأيسر بين يدي الطبيبة التي راحت تمسدُه وتعصرُه وتضغطُه، ثم عملتْ الشيء نفسه مع الثدي الأيمن... حررتْ كفّيها من القفازين المطاطيين، وطلبتْ

مني ارتداء ملابسي، ثم طلبت مني تقليل زمن ارتداء السوتيان، خصوصاً أثناء النوم: "صدركِ جميل ولافت، زوجكِ مغرم به بالتأكيد!..." تمتمتْ بصوتٍ مسموع وضحكتْ.

"أحوّلكِ إلى طبيبة مختصة. هناك يكون الفحص بالأجهزة. لا شيء مخيف، كل شيء طبيعي، ولكن علينا التأكد من سلامتكِ..." أعطتني ورقة خاصة وأشارت إلى عنوان أسفل الورقة، وطلبتْ مني الذهاب إليهم غداً صباحاً وتسليمهم الورقة، التي سيمنحونني وقتاً محدداً للفحص على إثرها...

"هل يحق لي أن أقلق؟" سؤال صرتُ أردّدهُ بسبب تضارب الأفكار في ذهني وأنا في طريقي إلى البيت. لكنني ما أن دخلتُ شقتي، وشاهدتُ قنينة النبيذ منتصبة على الطاولة، حتى قررت نسيان أمر الفحص ونتيجته المرتقبة... ارتشفتُ قليلاً منه لأغسل طعم الأكل السخيف الذي تناولته مع "الظريف" وسام الشيخ، ثم دخلتُ المطبخ لأعد الصحون الصغيرة قبل أن أهاتف كريم وأسأله عن رغبته في مشاركتي سهرتي... جاءني صوته من بعيد وهو يبعث قبلاته عبر الهاتف، سألته مشاركتي السهرة فطلب مني الإنصات:

"الماضي نقطة ضوء تنير المخيلة،

حتماً...

الضوء الممتزج هناك، أوصلني لعينيكِ،

مبتسماً.

دعينا إذاً... نصنع تمثالاً للماضي

ونرقص كل ليلة، حول الضوء،

رقصة الحب، بأكمله.

وليبقَ التمثال منتصباً،

حيث الغابرات

مستفهماً، عن لحظات،

كانت بالأمس،

مشتعلة.

حبكِ، نقطة ضوء تنير المخيلة.

ثم قال، وقد سلَّمني صوته ابتسامة محببة: "سأُقَبلكِ طويلاً عند بداية الصباح... انتظريني!".

"ستجدني ثملة أيها العاشق اللعين...".

حين جاء العاشق، كنتُ نائمة بعمق، لكن صوت الباب منحني إشارة وصوله... اندسّ تحت الغطاء والتصق بي. احتضنني، ونام كالطفل...

تركته نائماً حين خرجتُ من الشقة صباحاً، بعد أن أخذت حمامي السريع، وفصلتُ جهاز الفاكس، وعملتُ فنجان قهوة سريعة، حملته معي وأنا خارجة بعد أن سكبته في كأس بلاستيكية، رميتها في سلة المهملات، بعد أن أفرغتها في جوفي وأنا في الطريق المحتفل بأشجاره المورقة حديثاً على ضفتيه...

كم أحببتُ مشهد الشارع الجانبي المكتظ بالدراجات الهوائية صباحاً. شارع بعرض المتر والنصف تقريباً، مخصص للدراجات، لكن العالم الواسع والجديّة وحب الحياة الذي أقرأهُ في وجوه من يعتلي تلك الدراجات، كثيراً ما يثير السعادة داخلي، ويرسم العديد من المشاهد والقصص التي يمكنني صياغتها كما أشاء. المشهد الأكثر إعجاباً وحيوية، حين تمر إلى جانبي امرأة تعتلي دراجتها وخلفها طفلها على كرسي مخصص له. من المؤكد أنها في الطريق لتوصيل طفلها إلى الحضانة أو الروضة، لتتجه

إلى عملها فيها بعد. مشهدٌ صباحي ساحر، أتلمسه روحياً فيمنحني شحنة إيجابية، غالباً ما أكون بأمس الحاجة لها...

وصلتُ العيادة، وسلمتُ الورقة إلى المرأة الجالسة خلف طاولة مكتب عريضة. أخذتْها وطلبتْ مني الانتظار. غابت لبضع دقائق ثم أتت مبتسمة وهي تشيد بطالعي: "أنتِ محظوظة، فقد اعتذرت إحدى المراجعات عن موعدها، ستقابلين الطبيبة بعد عشر دقائق، يمكنني خلالها أخذ بياناتكِ وطرح بعض الأسئلة الطبية..." صرتُ أجيب على أسئلتها التي كانت روتينية بأغلبها، لكن الغريب، أنها سألتني بعد أنْ دونت رقم هاتفي، عن رقم هاتف بديل في الحالات الطارئة. أرعبني السؤال، وللحظة شعرتُ بغربتي، لكنني تداركت ارتباكي ولملمتُ مشاعري المبعثرة وأعطيتها رقم هاتف كريم موضحة لها بأنه أحد أفراد العائلة...

أدخلتني السكرتيرة إلى غرفة صغيرة مخصصة لخلع الملابس، شرحتْ لي ما عليَّ فعله ثم أشارت إلى زر كهربائي عليَّ الضغط عليه حالما أكون جاهزة. خلعتُ كل ما ألبسه على الجزء العلوي من جسدي، وضغطتُ الجرس. انفتح باب صغير مقابل، فدخلتُ غرفة الفحص. استقبلتني الطبيبة مبتسمة، طلبتْ مني الوقوف بقامة منتصبة وأخذتْ تتفحص الثديين بعناية، ثم نظرت إليَّ مبتسمة وسألت: "هل أنتِ متزوجة؟"

"لا... مُطلَّقة" قلتُ لها، فأشارت إلى جمال صدري، وأن من غير المنصف أن لا تكون أصابع حنونة تداعبها بين الحين والآخر. ضحكتُ وأشرتُ كاذبةً إلى أنني أنتظر فارس أحلامي منذ وقت ليس بالقصير... عند ذاك، قالتْ الطبيبة كلاماً أثار عندي الفضول والدهشة: "الأصابع الرجولية، ومداعبة الثديين، أو حتى اعتصارهما، وكافة الحركات المعروفة عند الممارسة، كفيلة أن تبقي على نضارة الثديين وصحتهما... الأثداء المهجورة عرضة لمخالب الذبول والمرض يا عزيزتي...".

"هل أُخبرِكِ عن أصابع كريم وشفتيه ولسانه... هل أُخبركِ كيف يزور المقدس من جسدي؟..." قلتُ في سريرتي مبتسمة وأنا أنظر إلى عينَي الطبيبة صافيتَي الزرقة.

جهاز عمودي عليَّ الوقوف إلى جانبه عارية الصدر. ذراع جانبي بحامل بلاستيكي وضعتُ عليه ثديي الأيسر، وامتنعتُ عن الحركة حسب أوامر الطبيبة... وكأنني إحدى نجمات "فن التعرّي" خضعتُ لعدة وضعيات بما فيها رفع الذراعين وتصوير الإبطين. لم تكن عملية الفحص متعبة، لكنها مذلّة، حالة من الإذلال مغلفة بهالة عظيمة من القلق...

خرجتُ من غرفة الفحص بعد أن ارتديتُ ملابسي وسرّحتُ شعري ورتبت أنوثتي على عجل. كان عليّ الانتظار حتى ينادوني ثانية. كانت هناك مصطبة خشبية أنيقة تتسع لثلاثة أشخاص، أو أربعة إنْ قبلوا الجلوس بحميمية. على طرفها يجلس رجل وقور تنتمي ملابسه إلى اللون البني ولكن بدرجات مختلفة. اتجهتُ نحو المصطبة، فابتسم الرجل لي، قابلتهُ بابتسامة واتخذتُ الطرف الآخر من المصطبة مجلساً لي. صرتُ أختلس النظر إليه، فوجدته مثيراً، شخصية مثيرة بالفعل. شكله الاسكندنافي الأصيل، واضح جداً، أعجبني شكله وهدوءه وصفاء عينيه، ولحيته الحمراء التي تتماهى مع لون بشرته، وجهه بملامحه الهادئة، مليء بالقوة الداخلية، يداه وساعداه متماسكتان بأصابع وعضلات مشدودة رغم سنه الذي تجاوز الستين منذ بضع سنوات.

حين انتبه الرجل لنظراتي، ابتسم وبادر بحديث مباشر منحني الفرصة للتبحر بسماء عينيه الصافيتين. أخبرني بأنه ينتظر زوجته حتى تخرج من غرفة الفحص. "صوته خمرة حلوة". قلتُ لنفسي سراً، ثم سألته عن عمله طمعاً لسماع صوته أكثر، فقال:

"كنتُ رجل دين لسنواتٍ طوال، لكني، بعد دراسة وبحث وتفكير أخذ مني نصف عمري تقريباً، قررتُ ترك الدين وتحولتُ إلى "فكرة..."

"فكرة؟؟" سألته مقاطعة كلامه بدهشة وابتسامة تبدو بلهاء، فقال:

"نعم فكرة، فكرة استعادة طاقة الحب التي سلبها رجال الدين والسياسة من أرواح البشر ليزرعوا البغضاء والتكاره بديلاً لها...". صمتَ لثوان ثم سألني مستدركاً وكأنه اكتشف شيئاً مذهلاً: "هل أصولكِ يونانية أم تركية؟". تحيّرتُ فلم أجبه، لكنني سألته بغية الهروب من الإجابة، عن سبب تحديده هذين البلدين المتجاورين، فقال مبتسماً وكأنه على يقين من صواب ما يفكر فيه: "وجهكِ بملامحه المعبرة، يذكرني بالقديسة "مارينا أو ماريغريت" هناك إيقونة، كثيراً ما شاهدتها في دير مهم شمال ألمانيا للقديسة، تشبهكِ كثيراً، والصورة نفسها التي لا أعرف من قام بتنفيذها أو رسمها، موجودة في بضعة كتب محدودة الانتشار، الحقيقة ما أن وقعَ نظري على وجهكِ، استحضرت ذاكرتي تلك الملامح لتلك القديسة التي غلبت الشيطان...". كنتُ أصغي له وعيناي مبتسمتان له، ودون إرادة مني صار رأسي يتحرك باتجاهه، حتى شممتُ رائحة عتيقة محببة، وجدتها قريبة من رائحة الكتب أو الأثاث الخشبية المتينة، وصرتُ أحدث نفسي وأنا أصغي لكلماته الساحرات: "ليس غريباً أن يكون الرجل متحدثًا من طرازٍ خاص لا تنقصه المتعة والسحر الذي يدعوك إلى الانجذاب إليه... إنه رجل دين حقيقي، والكلام مهنته ومتاعه وبضاعته الوحيدة...". ثم شعرتُ بهالة من السكينة والاطمئنان حين وضع كفه على كفي اليمنى، صحيح أنها كانت بوزن ريشة، لكن شحنتها تستطيع إنارة أضواء نفوس البشر المنطفئة. أخبرته برغبتي في سماع قصة القديسة "مارينا" ولكن في وقتٍ آخر. رغم رغبتي العظيمة في الالتصاق به عسى أن يمنحني شيئاً من دفء والدي الذي أفتقده منذ وقت طويل...

"يمكننا التحدث أكثر إن رغبتِ في زيارتنا، فأنا أدعوكِ إلى فنجان قهوة في بيتنا المتواضع...". قال ذلك وهو يدس أصابعه في جيب سترته العلوي ويخرج بطاقة صغيرة مطبوع عليها اسمه ورقم هاتفه، نظرتُ في البطاقة وقرأت الاسم وقلتُ له شاكرة: "شكراً لكَ سيد فريدريك... سأزوركم قريباً بكل تأكيد...". ابتسم الرجل، وربّتَ على كفي، وحاول أن يقول شيئاً، إلا أن صوت الممرضة المنادي باسمي، أنهى المشهد الساحر.

قابلتني الطبيبة مرة أخرى، وبعد أن جلستُ على الكرسي المقابل كما طلبتْ مني، أخبرتني بصوتٍ هادئ وكلمات واضحة، بأن هناك ضرورة لتحويلي إلى المستشفى العام، بغرض أخذ خزعة أو عينة كما قالت، من المنطقة المحصورة بين إبطي وثديي الأيسرين. ارتعدَ جسدي، وبابتسامة متشنجة سألتها إن كنتُ مصابة بمرض خبيث، فضحكت وأوضحت بأنه إجراء بغرض التأكد من سلامتي وليس من مرضي... أخذتُ ورقة التحويل، وخرجتُ ذاهلة...

قررتُ العودة مشياً، وفعلت...

لا أعرف أي الطرق سلكت. ولا أتذكر ماذا قابلني في الطريق أو أي شيء رأيت، كنتُ أردّد كلمات تفضي إلى معنى واحد مرعب: "رمز أنوثتي، قد يصبح قاتلي... سرُّ متعتي، صار قبضة شيطانية تروم إزهاق روحي...".

حين دخلتُ شقتي، وجدتها نظيفة زكية الرائحة. يبدو أن كريم قد مارسَ هواية التنظيف بإخلاص... أطلقتُ الموسيقى، وخلعتُ ملابسي وأبقيت على "اللباس الداخلي" فقط، فالدورة الشهرية يمكن أن تحل ضيفة مقيتة في أي لحظة، لذا ما زلتُ محتفظة بـ "الحفاضة" النسائية التي

وضعتها منذ الصباح قبل خروجي من البيت، والتي تفحصتها أكثر من مرة خلال ساعات اليوم...

سحبتُ الطاولة الصغيرة لتكون قريبة من المرآة، وأحضرتُ الأطباق الصغيرة. زيتون، جبن أبيض، قطع خيار، أوراق نعناع شهية الرائحة، وثلاث قطع من الخبز المحمص... وقنينة نبيذ وكأس. سحبتُ الكرسي إلى الطاولة وجلستُ أمام المرآة...

حادثتُ المستقبل، ورجوته ألاّ يكون معتماً، ثم بدأتُ أداعب ثديي الأيسر بأطراف أصابعي، حاولتُ الوصول إلى الكُرة أو الغدة كما أسمتها الطبيبة، أو مكان الألم فلم أجد لها أثراً، حتى الألم غاب وكأنه يلاعبني لعبة القلق... حركة أصابعي أثارت داخلي رغبة قديمة، فتماديت، حتى وصلتُ سرَّ متعتي، فانتشيت...

تمدّدتُ على السجادة الصغيرة بعد أن سحبتُ الوسادة التي كانت تحتي حيث الكرسي، وضعتها تحت رأسي لأنتقل بعد ثوانٍ إلى عالم الأحلام...

رأيتُ امرأة بدينة بشعة بشعر أجعد منكوش، نصف عارية، بثديين عظيمين، حجماً وبشاعة. كانت تضحك بهستيريا وتهزّ ثدييها ناظرةً إليَّ وكأنها تتعمد إغاظتي. حاولتُ الهرب فوجدتها أمامي أيضاً، وحين رجعتُ إلى الوراء التصق ظهري بشيء دافئ، وحين التفتُ إلى الوراء شاهدتُ كريم بملابس طبيب، يحمل بيده مشرطاً طبياً عظيماً صار يهدد به المرأة البشعة، فاختفت... ظلت ذراع كريم تطوق صدري وهو يتلو في أذني كلمات ساحرات لم أعِ لها معنى... استيقظتُ بكل هدوء فاتحة جفنيّ، فرأيتُ وجه كريم المبتسم، بعينيه الساحرتين. احتضنته فصار جسده ملاصقاً بحميميته... لم يقبلني، بل استنشق رقبتي كما في كل مرة، ثم نظرَ إليَّ وطلبَ مني دخول الحمام... إشارة طالما أثارت دهشتي.

"كريم" الرجل الوحيد الذي تنبّهَ إلى رائحتي الأنثوية، كان يتحسس رغبتي حالما أقتربُ منه، يأخذني بحضنه ويداعب شعري، ثم يطبع قبلة على شفتي، أذوب على إثرها فيحملني إلى السرير، وهو ينشد سمفونية الحب...

قال لي مرة بعد كأس نبيذ احتسيناه رشفات متعاقبة بين قبلة وأخرى: "لستِ بحاجة إلى الإفصاح عن رغبتكِ، اقترابك مني وأنتِ محملة بالرغبة، كفيل بوصول رائحتك الأنثوية المُسكرة إلى روحي، لأعرف أين تكمن أسرار الحب.

بعد ممارسة حبٍ هادئة، كنتُ فيها أنظر إلى صورة أمي ضاحكة... جلسنا ملتصقين حيث الأريكة، والنبيذ "التشيلي" يرقص داخل كأسينا. أخبرتُ كريم برغبتي في طباعة رواية "جنّات" على حسابي الخاص: "أشعر أن ثمة مسؤولية تقع على عاتقي اتجاه تلك الفتاة التي صرتُ أفتخر بمعرفتها...". أثنى كريم على الفكرة، أبدى استعداده في المساعدة، كونه على قناعة بأهمية الرواية خصوصاً وأنها التجربة الأولى لفتاة متقدة الذكاء والنباهة، فرشح دار نشر مقرها العاصمة، تربطه وصاحبها علاقة وطيدة. دونتُ اسم الدار، وعنوان "جنّات" ورقم هاتفها، على أمل الاتصال غداً بأخي ليث كي أطلبَ منه القيام بالمهمة...

***

فتحتُ عينيّ، فاكتشفتُ أنّ الصباح قد حلَّ منذ ثلاث ساعات وأن الطيور قد كفّت عن غنائها وذهبت باحثة عن رزقها بين الحدائق والحقول... سحبتُ جسدي لأقف بحركة تقترب من حركات راقصة الباليه، ليس جذلاً بل كسلاً ووهنًا...

لم أجد كريم إلى جانبي، ولم يكن داخل الصالة، فتأكدتُ من مغادرته باكراً... دخلتُ الحمام بعد أن أعدتُ الحياة إلى الهاتف والفاكس، وبعد أن ألقيتُ التحية الصباحية على شجرة الجوز من الشرفة... جلستُ أغني حنيني تحت قرص الحمام الرشاش، وتفحصتُ مكان قلقي وهلعي بدقة متناهية ووقت طويل. لم أشعر بأي ألم. "غريب أمر هذا الثدي المشاكس.". قلتُ لنفسي...

خرجتُ من الحمام متمسكة بقرار وُلِدَ تحت شلال الماء الغزير الذي كان ينقر رأسي بحميمية: "لن أذهب اليوم إلى المستشفى، ربما غداً أفضل...".

هاتفتُ ليث، وأمليتُ عليه كل البيانات المطلوبة الخاصة برواية "ماء العشق الساخن". كان فرحاً جداً، وحين سألته للمرة الثانية عن سبب فرحه، قال بأنه يعيش حالة حب لأول مرة، ثم أضاف:

"الحب صورة مفرحة لا ينقصها الجمال، لكن، عالمنا يفتقر إلى جدارٍ نظيف، جدير باحتضانها...".

هممتُ بارتداء ملابسي، بعد أن أنهيت مكالمتي مع "ليث"، فالبيت بحاجة إلى مشتريات... وحين شرعتُ بتسريح شعري، وتفكيري منشغل بتصوري فرحة "جنّات" حين يصلها قراري، رنَّ الهاتف رنّة واحدة تلاها أنين الفاكس. أخرجني الصوت من حلاوة المشهد ليدخلني قلق الكلمات المطبوعة تواً... التقطتُ ورقة الفاكس ووضعتها على الطاولة أمامي وصرتُ أقرأ سريعاً... لم أفهم جيداً، توقفتُ عن تسريح شعري ليستقر رأسي وأركّز نظري، فقرأتُ فقرة كارثية تأمرني باصطحاب كريم ميرزا إلى بيت "وسام الشيخ" بحجة دعوة على العشاء بغرض التعارف، ثم تركه هناك تحت أي ذريعة، ومغادرة شقة "وسام" ليكونا وحدهما... الأمر

واضح، لقد قرروا اغتيال كريم بطريقة لا أعرفها... صرختُ دون دراية مني: "يا إلهي، لماذا؟؟...

جلستُ على الأرض دون إرادة مني، وصارَ نفسي سريعاً، وشعرتُ بضيق وصعوبة في استنشاق الهواء...

يبدو أنني دخلتُ نوبة إغماءة، لم أستطع تحديد زمنها، ربما ثوان، أو دقائق. فتحتُ عيني لأشاهد كريم ماثلاً أمامي حيث السقف الذي تحول إلى شاشة سينمائية، كان يضحك مقهقهاً هازئاً بشيء ما، حتى دمعت عيناه... فجأة تحولت دموعه إلى عصافير صفراء صغيرة تقترب بشكلها من "الكناري" لكنها أصغر بكثير... "يبدو أنني ما زلتُ في دوامة الإغماءة"... قلتُ لنفسي، ثم صرختُ بكل قوتي: "لن أقدّم لكم الرجل الوحيد الذي أحببت، ما دمت على قيد الحياة... اقتلوني أولاً...".

وقفتُ خائرة القوى بعد أن فقتُ تماماً، فوجدتُ بقعة دم تحتي، كأن طيراً قد نُحرَ منذ ثوانٍ... لقد شارفت المقيتة، ولكن بعنف هذه المرّة...

أشعرُ أن ثقباً بحجم الهاوية يتوسط لحظتي، يُشعرني بأنني دون غطاء، وأنَّ شيئاً عظيماً على وشك السقوط ليهرسني وينثرني لأشلاء...

"زمني مثقوبٌ وأنا دون رداء...".

***

"لن أقدّمَ حبيبي قرباناً لخلاصي، أُفضلُ الموتَ كي يبقى حياً مزهواً بحياته وشبابه وثقافته..." صرتُ أردد عبارتي تلك وأنا أدور في فضاء شقتي باحثة عن المعنى والملاذ في آن واحد، لم أكن أعرف ما الذي أبحث عنه، كنتُ أريد أن تغادرني الفكرة الغادرة بأسرع وقت...

في لحظة، سكنتْ فيها روحي وحركتي، حوَّلتني إلى تمثال وسط المسافة بين باب الصالة وباب الحمام. تجمّدَ كل شيء فيَّ، كأن ملاك السماء هبط على

روحي ليهديني فكرة مرّة، لكنها تبدو الحل الوحيد والمنطقي... "لم يعد كريم يُحبني، صار يكرهني، لأنني خنتهُ...".

إذاً:

"الخيانة هي الخلاص".

(22)

اختمرت الفكرة، واقتنعتُ بها. اتصلتُ بـ "فراس" طالبة منه زيارتي بأسرع وقت. لبى طلبي عند السادسة مساءً. حدثته بجدية واضحة وأنا أرجوه مساعدتي في التخلص من "كريم" كوني مصابة بسرطان الثدي، وأنني سأموت قريباً، ولا أريده أن يعرف بذلك، لذا يجب أن أكون أنا المذنبة، كي يكرهني ويبتعد عني محبةً به وليس كرهاً. لم يقتنع الشاب بالفكرة وسألني عدة أسئلة أتعبتني، وحين تلمّس حيرتي وضجري، وافق شريطة عدم المساس بكرامته، في حالة تعرضه للعنف أو الإهانة، فوافقتُ... حددتُ معه موعداً عند بوابة البناية الساعة الخامسة من مساء الغد، ثم ضربتُ موعداً مع كريم في الوقت نفسه...

عند الخامسة مساءً من اليوم التالي كنتُ وفراس نقف متلاصقين عند باب البناية نقبّل بعضنا، أحتضنه وصرتُ أداعب كتفيه بكفيّن حانيتين. كنتُ مستمتعة رغم الألم الذي يعتصرني، أقبّل رقبته جهة اليمين مرة، والشمال مرة أخرى، وعيناي تتلصص صوب الطريق لأشاهد "كريم" وصدمته حين يُفاجأ بالمشهد. الملعون فراس كان يقبلني بنهم العاشق المتيم رغم أني لم أشم أي رائحة ذكورية تتبخر من جسده أو عقله... قبّلنا بعضنا كثيراً ولم يحضر كريم. هل تأخرَ على غير عادته؟

لأول مرة أشعر بسخافة التقبيل، حين يفقد معناه الروحي... صرتُ أتألم من شفتيّ اللتين تصلبتا نتيجة تقبيل فراس المتوحش وكأنه يعاقبني وينذرني بعدم تكرار التجربة. طلبتُ منه الدخول إلى الشقة، ففعل ضاحكاً واصطحبني إلى هناك دون أن تفارقه ضحكاته...".

"هل تشتهيني إلى هذه الدرجة يا مجنون" سألته فقال دون التخلي عن ضحكاته:

"لا... بل أمنيتي ورغبتي في التمثيل، منحتني الفرصة لأكون بارعاً...".

كنتُ أنظرُ صوبه مبتسمة. كنتُ أتفحصه. بنيته الجسدية وطوله وخفته، تمنح أي فتاة تلك الرغبة الساحرة التي يصعب الإفلات من براثنها... حين انتبه إلى نظراتي التي لم يصعب على شاب نبه مثله تفسيرها، حاول هارباً، فتح موضوع حولَ الناس التي تعاني الحصار والفاقة وصعوبة العيش داخل بلدنا، لكنني باغته بسرعة وقلت له بحزم وكأنني أصدر قراراً غير قابل للتردد:

"لنكمل اتفاقنا، فاللعبة لم تنتهِ بعد، أعتقد أن كريم سيأتي في أي لحظة، فلم أعتد منه تأخره عن موعد...". نظرتُ إلى عمق عينيه مبتسمة، وبعد ثواني صمْت، أضفت:

"عليكَ خلع ملابسكَ كلها، باستثناء السروال الداخلي، وحين يُضرب جرس الباب، عليك فتحه..." قلتُ ذلك دون انتظار ردّ منه، وشرعتُ على الفور بخلع ملابسي، مبقية على اللباس والسوتيان فقط...

كان جسد فراس شهياً... لكنه غارقٌ بالضحك... لم يكن فراس عديم الرائحة، لكنه لم يكن راغباً فيَّ، وكنتُ في ما مضى، كلما حاولتُ إثارته – نزولاً تحت ضغط غروري واختبار إن كنتُ مشتهاة –واستخدام أساليب وحركات الغواية معه، كان يدخل في نوبة ضحك عارمة، تشعرني بأنني أصبحتُ قطعة خردة صدئة...

ما أن فردتُ جسدي على الأريكة، حتى رنَّ جرس الباب. أشرتُ لفراس، فتوجه صوب الباب وفتحه لأسمع صوت كريم:

"ما الذي يحدث؟" قال متسائلاً وهو يدخل الصالة ليجدني غافية، أنعمُ بنوم عميق. ذلك ما أوحيته له.

استدار وخرج من الشقة صافقاً الباب وراءَه.

صفقة الباب تلك، وذلك الصوت الذي رجَّ أركان روحي قبل جدران بيتي، كان بداية الانهيار، بداية صرختي النادبة حبيباً لم يدخل روحي وكياني غيره.

ما أن خرج فراس من الشقة، بعد أن قبّلته شاكرةً له صبره الذي امتد بضع ساعات في تهدئتي ومؤاساتي، حتى دخلتْ روحي نوبة نحيب صامت، لم أعرف لها نهاية... لقد غفوت أو أغمى عليَّ، لا أدري...

***

لا أعرفُ كم من الوقت استمرَّ نومي. نهضتُ وثقل الأرض يحتل رأسي. لم يكن في ذهني حينها، إلاّ ذلك القرص الرشاش وماؤه البارد، ليدخلني صدمة الارتعاش الصباحي، علّها تنتشلني من كآبة ضمير مارس دوراً قذراً بحق ملاك... خرجتُ عارية تماماً، بعد أن نشّفتُ جسدي، كانت فكرة حاسمة قد سيطرت على تفكيري، فلم أعر أي شيء آخر اهتمامي... توجهتُ إلى طاولة الكتابة، وكتبتُ رسالة إلى "المديرية الرابعة" ذكرتُ خوفي من مرضي المحتمل، وبعض المعلومات المهمة التي سبق وأن كُلّفتُ بها، ثم ختمتها بما يخص حبيبي: "لم يعد "كريم ميرزا" صديقاً، فقد تخاصمنا منذ أسبوع تقريباً، اختفى ولم أعد قادرة على العثور عليه... لا يرد على مكالماتي، وشقته مقفلة... سمعتُ من أحد أعضاء "البيت الثقافي" أنّه سافر إلى كوبنهاغن حيث تقيم أخته التوأم مع زوجها المقعد وأطفالها الأربعة.

بعثتُ الرسالة عبر جهاز الفاكس، ثم انتبهتُ إلى عُريي...

***

في كل مرة أنظر فيها إلى ورقة التحويل الطبية، لأخذ عينة من صدري، أقرر الذهاب في اليوم التالي، وبعد مضيّ عشرة أيام، حملتُ جسدي المنهك الثمل صباح يوم غائم، وتوجهتُ صوب المستشفى...

أخذ العينة لم يكن سهلاً، ولم يكن دون ألم، لكنني حين خرجتُ، تذكرتُ القس السويدي الذي تحوَّلَ إلى "فكرة"، وقررتُ الاتصال به بغرض زيارته.

ما أن رنَّ هاتفه وألقيتُ عليه التحية، حتى جاء صوته متلهفاً: "انتظرتكِ طويلاً أيتها القديسة "مارينا" هل قررتِ الزيارة؟" سألني فزادت رغبتي إلى اللقاء. أخبرته بأنني أهاتفه من تلفون الشارع، وأنني في طريقي إليه. ضحكَ وأشار إلى أن القهوة ما تزال ساخنة.

لم أكن بحاجة إلى الضغط على زر الجرس، فقد فُتح الباب بمجرد أن اقتربتُ منه، ليشرق وجه الرجل "الفكرة" أمامي مبتسماً.

دخلتُ الصالة لأشاهد متحفاً لصور عائلية وأخرى شخصية تتوزع على الجدران. "الخشب سيد المكان" قلتُ لنفسي، بعد أن رأيت أن كل قطع الأثاث، كانت خشبية، حتى إطارات الصور المعلّقة بترتيب هندسي مملّ. رائحة المكان خشبية مختلطة برائحة القهوة، حينها عرفتُ سرّ رائحة الرجل التي شممتها باسترخاء تام عندما التقيته أول مرة. لفتني أنين مفاجئ جاء من الخلف حيث الشباك، وما أن استدرتُ لأتبين المصدر، حتى شاهدتُ بقايا امرأة ممدَّدة على سرير خشبي، تلتحف شرشفاً صوفياً ناصع البياض. ألقيتُ عليها التحية، فأجابتني بأنين مسموع بوضوح. قال الرجل "الفكرة" بأنها زوجته ثم أضاف: "إنها متعبة كما تلاحظين، فقد أخذت العلاج الكيميائي صباحاً...". ارتعش بدني، وشعرتُ بدوار، سارعتُ بالجلوس على إثره... "هل أصل إلى هذه المرحلة قريباً؟...

مستحيل، الموت أهون..."، قلتها لنفسي، وأنا أتسلّم فنجان القهوة من يدٍ مرتعشة.

كانت القهوة طازجة ساخنة بالفعل، كأنه أعدّها تواً.

سحبَ كرسياً، ووضعه قبالتي ثم جلس. نظر إليَّ مبتسماً، ثم حرّكَ الكرسي إلى الأمام قليلاً ليقترب مني أكثر. قاسَ المسافة التي بيننا، فانحنى بجذعه نحوي ليقترب بوجهه مني وابتسامته ترفض الإفلات من بين شفتيه وعينيه. قال هامساً: "هناك ثلاث غرف نوم في هذا البيت المتواضع، لكنها -أشار برأسه صوب زوجته متهالكة الروح -تخشى الظلمة، فلم تختر غير هذا المكان قرب الشباك لتنعم بالنور رغم رمادية السماء...".

"لها كل الحق... الظلمة تسجن الروح وتؤذيها..." قلتُ له وأنا أنظر إلى قرارة روحه الهادئة، مستمتعة برائحة القهوة والخشب العتيق، ثم استدركتُ بصوت أعلى: "ألم تعدني بسرد قصة القديسة "مارينا" التي غلبت الشيطان؟" أطلق الرجل ضحكة مختنقة الصوت وعاد بظهره إلى الكرسي، وقال: "في زمن الحاكم الظالم الشرس الذي اضطهد وأعدم العديد من المسيحيين "دقلديانوس"، ولدت "مارينا" في أنطاكيا. وهذا سبب سؤالي لكِ إن كنتِ من أصول تركية أو يونانية... والدها " داسيوس" كان رئيس الكهنة في أنطاكيا وكان وثنياً على مذهب سيده "دقلديانوس" وقد ساهم في بطش واضطهاد المسيحيين... حين توفيت والدتها كانت "مارينا" في الخامسة من عمرها، حين ذاك أسند والدها تربية ابنته إلى سيدة فاضلة في مدينة تبعد قليلا عن أنطاكيا..." كنتُ أستمع إليه مأخوذة بتعابير وجهه وصفاء عينيه، حتى إني رغبتُ في شم رائحة التبغ من أنفاسه، علّني أصل إلى رائحة جدي وصوته الجميل وهو يهدهدني لأنام.

كان صوت الرجل "خمرة حلوة" كادت تسكرني لولا أنين المرأة التي كلما سمعتُها تلمستُ ثديي، وشعرتُ بوخزة إثر الخزعة التي أُخذت منه. عرفتُ من الرجل "الفكرة" أن "مارينا قد نشأت بعيدة عن أوثان أبيها الذي مات وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وتربت على التعاليم المسيحية وأصبحت مؤمنة بها، وحين كبرت صارت فتاة بارعة الجمال، وقد أعجب بها والي أنطاكيا الجديد "الوفارنوس"... تململ الرجل "الفكرة" ونظر إلى كوبه، ثم رفع نظره إليَّ وسألني إن كنت راغبة بالمزيد من القهوة، فوافقتُ شاكرة... توجه السيد "فريدريك" بطوله الفارع صوب ماكينة القهوة، وما أن عاد حاملاً الكوبين، وقبل أن يسلّمني الكوب، رنَّ جرس الهاتف، فوضع الكوبين على الطاولة الصغيرة وهرع صوب الهاتف، وهو يتمتم لاعناً ذلك الصوت الذي لا بدّ وأن يزعج زوجته العليلة...

نسى الرجل "الفكرة" قصة القديسة "مارينا" التي غلبت الشيطان، ولم أعرف كيف غلبت الشيطان، فقد أخذت الكلمات التي تعبأت بأذنه عبر الهاتف كل تفكيره، وبان كأنه دخل حالة ذهول...

حين خرجتُ من بيت القس السابق، السيد "فريدريك" أو الرجل "الفكرة"، كانت بحوزتي صورة صغيرة على شكل كارت، صورة لامرأة تحيط برأسها هالة ذهبية إشارة إلى قُدسيتها، ترتدي جلباباً أبيض وفوقه إزارًا قرمزيًّا مطرّز الحواشي، وتحمل الصليب بيدها اليمنى، بينما كفها اليسرى تمسك قرن الشيطان الذي بان قزماً أمام قامتها، تمعّنتُ في وجهها، ووجدتها تشبهني قليلاً، لكن المهم أنني تلمستُ اهتمام الرجل الذي قدّم لي الصورة هدية متواضعة كما قال... طبعتُ قبلة على وجنته اليسرى، ثم همستُ في أذنه: "إذا شعرتَ بالوحدة يوماً ما، فابحث عني... ربما أتزوجك...". ارتبكَ الرجل ونظرَ إليَّ مستفهماً دون أن ينبس بكلمة، ثم أطلق ضحكة مسموعة استمرت لثوان معدودات، صارت عيناه خلالها

تنظر إلى السماء بدموعها... مسحَ فمه وعينيه بمنديل، ثم مال برأسه نحوي، وهمس في أذني:

"أنتِ الشيطان، أعرف هذا... لكنني لستُ "مارينا"...".

***

حين كنتُ أدون يومياتي في دفتري الصديق، فكّرتُ أن أقدمه لحبيبي، حتى يطّلع عليه. ربما تخرج من بين صفحاته رواية صغيرة... لكنني تراجعت عن الفكرة، بل خفتُ جداً، كون...

"قدسية حياة المرأة... تكمن بسريتها.".

***

عدتُ إلى شقتي بتفكير منشغل بصورة زوجة السيد "فريدريك" وأنينها المدمّر الموجع. تصورتُ جسدي وقد صار شبيهاً بجسدها. ارتعبتُ، وشعرتُ بمرارة في حلقي... هرعتُ إلى جهاز التسجيل ووضعتُ شريط موسيقى دون الانتباه إلى عنوانه، ثم تناولتُ قنينة نبيذ، فتحتها وجلستُ أمام المرآة خائفة...

حاولتُ إزالة لصقة الضماد عن جانب ثديي الأيسر لكن الألم منعني. غطيتها بكفي اليمنى وأبقيتها مانحة المكان دفء حميميتها.

كتبتُ رسالة إلى "المديرية الرابعة" وأرسلتها بالفاكس. ذكرتُ فيها ملابسات وضعي الصحي السيئ، وطلبتُ منهم إجازة حتى أستلم نتيجة الفحص، التي ستظهر خلال أسبوعين... حين أنهيت إرسال الرسالة سألتُ: "هل بقي من العمر أسبوعان فقط؟...". فكرتُ بالإجابة ووجدتُ أن الأسبوعين مجرد وهم، فأنا أعيش قلقًا أنهى حياتي بالفعل، فقد انتهى الأمل والفرح والاندفاع إلى حياة بمستقبل مفرح...

عند الانتهاء من الكأس الثالثة، رجعتُ إلى دفاتري، والصور الملصقة على صفحاته، أبي الحبيب، وأمي، وليث ونايات التي وصلتني صورة حديثة لها، ثم عمتي "غنوة" ووحيدها ظافر، الأمنية التي امتزجت بالتراب، وأغلب من مروا بحياتي وتركوا أثراً... دخلتُ موجة بكاء، ثم سرعان ما رفضتُ ضعفي وتعاستي. دخلتُ الحمام وغسلت وجهي، ثم عدتُ إلى دفاتري وقد قررتُ زيارة الأصدقاء على صفحات الدفاتر الخمسة، صورة سهيل ضاحكاً وأخرى دون ابتسامة بل متجهماً، وماجد وهو يحاول أن يقف على أطرافه ليزداد طولاً، وذكرى وبشير والعم موسى والأستاذ الروائي، ورياض الجميل الذي عشتُ معه أسعد اللحظات التي لا تنقصها الدهشة، صرتُ أقلّب الأوراق وأتذكر... وفي لحظة حميمة باسمة، منحتني إياها صورتي وأنا جالسة بحِجر أبي في حديقة دارنا، شعرتُ أن شيئاً ينقصني. دخلتْ روحي دوامة الغربة وتيهها، لكنني حين أطلتُ النظر إلى صورة "أميري" الكلب، وهو يقف إلى جانبي ويطوق كتفيَّ بذراعه، لمتُ نفسي كثيراً لأنني لم أفكر في الانتقام منه، حاولتُ تمزيق صورته، لكنني تمهلت. تفحصتُ ملامحه جيداً، ثم أطلقتُ ضحكة بصوت مسموع... "يا إلهي، إنها فكرة رائعة...". قلتُ صارخة بعد أن لمعت في رأسي فكرة الوليمة...

***

أخذتُ الدفاتر الخمسة إلى استوديو التصوير الذي عملَ لي صورة أمي المعلقة أمامي الآن حيث الجدار، وبعد أكثر من ساعة، خرجتُ وفي حوزتي سبع صور كبيرة مستنسخة بالأبيض والأسود. صور شخصية لأشخاص تركوا أثرهم ندوباً في روحي. سهيل، رياض، بشير، أميري، دكتور ماجد، زينل، الدكتور هُمام... احتضنتُ دفاتري والصور المستنسخة، وسرتُ على مهل وسط الطريق الفرعي المحتفل بالأشجار على ضفتيه، وكأنني أحتضن كنز لوعتي وخلاصي في آن.

***

ثلاثة أيام وأنا منشغلة في تحضير أمسية الوليمة. وليمة حياتي السابقة، أو مصارحة الروح التي باتت تقلقني أكثر من قلقي بما ستفصح عنه نتيجة فحص العينة المأخوذة من ثديي الأيسر... سرّ أنوثتي...

"سرّ أنوثتي، يخبئ بين طياته، وحشاً شرساً بخبثه"...

لم أشتغل كثيراً، كان انشغالي ذهنياً، كنتُ أفكر بالطريقة التي أجمع فيها ضيوفي، أحادثهم، أحتفي بمن يستحق، وأهين من يستحق... أعرف المشروب المفضّل لكل واحد منهم، لكنني في النهاية قررت الاعتماد على نوع واحد، ويسكي "تشيفاز" فاشتريت ثلاث قناني، علّها تكفي...

اتصلتُ بنادية وطلبتُ منها طبخة تعدّها في بيتها، شارحةً لها السبب وراء طلبي... نادية التي لا تعرف ما ينتظرني بعد أقل من أسبوع، سألتني بدافع فضولها المزمن عن ضيوفي، أرادت معرفتهم ومعرفة التفاصيل، لكنني لم أجب، واعدةً إياها بأنني سأخبرها بكل التفاصيل حين أزورها في بيتها بغية استلام قدر "الدولمة".

في شقتي أربعة كراسي فقط، وهذا لا يكفي فعددنا ثمانية، لذا هاتفتُ "فراس" وطلبتُ منه حاجتي من الكراسي، فلبى طلبي دون أن يتخلى عن ابتسامته، وضحكاته المستفزة أحياناً...

قررتُ أن يكون موعد الوليمة قبل يومين من موعد استلام نتيجة الفحص، مساء بعد الغد، السبت، حيث يمكنني رفع صوت الموسيقى قليلاً، وحيث "نصف الصخب" مسموح به...

(23)

كنتُ منشغلة في كتابة صفحة اليوميات، حين اعترتني الرغبة في مهاتفة كريم، لا لشيء، ولكن لسماع صوته فقط، فكرتُ أن أهاتفه من تلفون الشارع لكنني تراجعتُ عند اللحظة الأخيرة، وحين عدتُ إلى شقتي قررتُ كتابة ذلك الشعور، والأهم كتابة ما أردتُ قوله له لأفرغ تلك الشحنة التي إن بقيت في صدري، خنقتني... أثناء تلك اللحظات رنَّ جرس باب الشقة. نهضتُ بتثاقل لا أعرف سبباً له، وحين وصلتُ الباب ومسكتُ الأكرة، ترددتُ وفكرتُ بعدم الاستجابة وفتح الباب، لكن رائحة محببة تخيلتها وقد وصلت إلى مسامات روحي... فتحتُ الباب بتخوف، فوجدتهُ واقفاً على مبعدة غير متوقعة...

وقفَ أمامي بوجهٍ شاحبٍ، أفزعني...

وقفَ محدقاً بي مُسبلاً ذراعيه دون حركة، حتى الحدقتان كانتا جامدتين، وكأنه جثة معدة للدفن بوضع الوقوف.

تمسكتُ بدرفة الباب خشيةَ السقوط، بعد أن فتحته بفرح، وابتسامتي ترتسم على وجهي مبتهجةً بعودته، كما كنتُ أظن. لكن، ما أن وقع نظري عليه حتى غاب فرحي مهزوماً أمام فزعي، ارتعد جسدي وتلبستني حيرة وذهول، وحين طال انتظار التحديق، تحركت شفتاي طالبةً منه الدخول.

ظلَّ على وقفتهِ ساهماً، محدقاً دون أن يتحرك به شيء. وحين كررتُ عليه دعوتي بالدخول، أنشد بصوتٍ مكسورٍ لا تنقصه ارتعاشة البطل المهزوم:

"ما أنتِ إلا مَوقد سرعان ما تخمد ناره في البرد

أنتِ باب لا ينفع في صدِّ ريح عاصفة
أنتِ قصرٌ يتحطم في داخله الأبطال
أنتِ بئر تبتلع غطاءها
أنت حفنةُ قيرٍ تلوِّث حاملَها
أنت قربةُ ماء تبلِّل صاحبها...
أنت حذاء تقرص قدم منتعلها...

فأيّ من عشّاقك أحببتِ إلى الأبد؟
وأي من رعاتك مَن طاب لك على الدوام؟
تعالي أُسمِّ لكِ عشّاقك..."[2]

"هل تريدين حقاً أن أُسمي لكِ عشّاقكِ؟
هل تريدين حقاً أن أُسمي لكِ ضحاياكِ؟
أنظري إليَّ... أنا كلّهم...
كلُّ جراحاتهم... دموعهم
أنا ... أنّاتهم..."

2ملحمة گلگامش، وقصص أخرى عن گلگامش والطوفان – طه باقر – دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد – الطبعة الرابعة، 1980، ص112–113 .

"وداعاً"...

ثم استدار وغادر. كنتُ أحسبه يمزح، كنتُ أحسبه سيعود ضاحكاً بعد بضع خطوات، لكنه غاب، وبقيتُ ألوك ذهولي بابتسامة رطبة تذوقتْ ملح مطرها الدامع.

كاد نحيبي يخنقني، توقفتُ عن التنفّس لثوانٍ، وهممت باللحاق به، أن أصرخ طالبةً منه العودة، لأحتضنه، أشم رائحته على الأقل... لكنني تراجعتُ مرغمة تحت طائل الأمر الواقع...

"ابتعاده، وغيابه، بل كرهه لي... أهون بكثير، من أن أكون السبب في موته...".

(24)

في مساء اليوم التالي، وقبل حلول موعد الوليمة بساعة تقريباً، لبستُ أجمل وأحب فستان عندي، كان قد أهداني إياه، الشخص الوحيد الذي أحببت، أو الذي عرفتُ الحب لأول مرة معه، والذي كسرتُ قلبه وخلخلتُ كيانه بدافع الحب أيضاً. فستان أصفر اللون "ليموني" دون كمين، بياقة مرتفعة تمنح الشعور بالزهو، ضيّق الصدر، عريض أسفله، يحفّ أعلى الركبتين ببضعة سنتيمترات... ثم أعددتُ الطاولة بأفضل ما عندي من خبرة...

لصقتُ الضيوف، كلٌّ على كرسيه، ووضعتُ أمام كل واحد منهم طبقًا وشوكة وسكينًا ومنديلاً ورقيًّا كبيرًا وكأسًا للويسكي وأخرى للماء..

شويتُ سمكة "لاكس" سلمون نرويجي كاملة، طلبتُ من بائع السمك أن يشطرها لي طويلاً، فقسمها إلى نصفين... ظهرت شهية جداً، ثم قلبتُ قدر "الدولمة" على صينية بلاستيكية كبيرة أعارتني إياها "نادية" التي لم أخبرها بطبيعة الضيوف. تملصتُ من الإجابة بطريقة فنية لا ينقصها الكذب...

وقفتُ أمام صورة أمي، وأخبرتها ضاحكة، بأن كل الأشخاص الذين تراهم الآن، هم ذكوري وسرّ متعتي، ثم قلتُ لها: "إن شعرتِ بالغضب، فاخرجي وجالسينا كي تتعرفي عليهم...". ابتعدتُ عنها بضحكة صاخبة بهدف إغاظتها.

أدرتُ أسطوانة السمفونية الثانية "القيامة" لغوستاف ماهلر، التي أعشق، ورفعتُ الصوت قليلاً ناظرةً صوب رياض علّني أرى ابتسامته المحببة...

سكبت الشراب في كؤوس الضيوف. سكبتُ ربع الكأس تقريباً أو أقل بقليل... "أميري" الوحيد الذي طلب المزيد، نظرتُ إليه باحتقار وأخبرته بأنه سيحظى بكل المتبقي من الشراب في نهاية الحفل، فابتسم موافقاً... رفعتُ كأسي مبتسمة وقلتُ وأنا في وضع الوقوف:

"أحتفل اليوم بصحبة أصدقائي، أصدقاء الذكريات والحياة الضبابية غير الواضحة، أصدقاء لم يجدوا فيَّ إلاّ فاكهة شهية يجب قطفها والتلذذ بطعمها، منكم من تلذذ بخياله، ومنكم من ذاق حلاوة "قشرة" فاكهتي، ومنكم من ذاقها كما يجب وغاص داخلها متلذذاً برحيقها... أعترفُ أنني كنتُ أتلذذ أكثر منكم... كنت الأكثر سعادة، كوني من يمتلك كنز الفاكهة التي سعيتم إليها بإخلاص..." ثم انتبهتُ إلى نفسي وخفتُ من الإسهاب فقد صارت عيونهم تقدح شهوة... عينا "أميري" صارت تخيفني، فذهبتُ صوبه ووقفتُ خلف كرسيه، وبعد أن تأكدتُ من لصقه على الكرسي جيداً، رفعتُ كأسه وقلتُ: "بصحة الزوج عديم الرائحة والكرامة". وشربته دفعة واحدة. ثم حملته والكرسي واتجهتُ به صوب الحمام، وضعته تحت القرص الرشاش، وفتحتُ الماء البارد بكل قوته... خرجتُ من الحمام صافقة درفة بابه بقوة... حين صرتُ إلى طرف الطاولة، اعتذرت من بقية الضيوف وأخبرتهم بأنني شعرتُ بخطأي، فلم يكن من اللياقة أن أدعو شخصًا مثل "أميري" ليكون بينهم، فهو يتمتع بمنزلة أدنى بكثير من منزلة البشر...

صرتُ أقف خلف كل كرسي، وأداعب الطرف العلوي من الشخص الملصق عليه، وأقدمه بكلمات تعريفية مقتضبة إلى بقية الضيوف، ثم أشربُ كأسه... "سهيل" كان الوحيد الذي لم ينظر إليَّ، ربما لم يعجبه فستاني، أو كان منشغلاً بالتفكير في فتاة أخرى كي يغريها لتنتسب إلى مديريته "الرابعة"...

حين وقفتُ خلف كرسي "ماجد" أو الدكتور ماجد، شعرتُ بارتعاشة صورته، وظننتُ أنها رديئة اللصق، لكنني غادرته بعد أن شربتُ كأسه بعد أن نعتّهُ بما يستحق، دون التأكد من لصقه...

أطال بشير النظر إلى سهيل... لم ينظر إلى غيره من الضيوف، ربما، ذلك ما يقف وراء حيرة نظرات سهيل... رفعتُ كأس بشير، وشربته بصمت ثم قبّلته بعينين دامعتين... عند رياض، شممتُ رائحة "الحطب اليابس" قبلته معلنة عن نزاهة رجل أغرتني ثقته وأمانته، ثم شربتُ كأسه بمتعة خاصة، وابتعدتُ معلنةً: "حان وقت الطعام... تفضلوا..." سكبت الدورة الثانية في كؤوس الويسكي، واتجهتُ صوب...".

"سأترك الكتابة الآن، فلم تبقَ أوراق فارغة في هذا الدفتر، غداً سأكتب كل ما سيدور في الأمسية، بدفترٍ جديد."

***

"من بين أحلامي كلّها، كان الحلم المعتم عن الحب، أصدقها"

(25)
كريم ميرزا

لم أعتد النهوض مبكراً، لكن إلحاح الهاتف بصوته المزعج أيقظني عند الثامنة وعشر دقائق صباحاً...

منذ فترة ليست بالقصيرة، قياساً بثقلها ومرارتها، وليس بأيامها، والنوم خصمي العنيد الذي بات نائياً، رافضاً الاقتراب رغم توسلاتي به، فيحنُّ عليَّ ببطء مؤلم حتى يلامسني عند بزوغ الفجر غالباً، فيدخل جسدي ويستكين مؤجلاً صراعاته إلى الليلة المقبلة...

في الأيام الأربعة الماضية، أصبحت حالتي أشدّ بؤساً، وصار النوم يزورني دقائق معدودات ثم يهرب هازئاً بي... يتركني مشوشاً، مرهقاً، عديم التركيز، مشلول التفكير...

حالتي المزرية هذه بدأت، بعد ليلة استثنائية الحزن، لم يغمض جفني خلالها رغم كؤوس النبيذ التي احتسيتها ولم أحصها. عند الصباح، توجهتُ دون إرادة مني أو تفكير مسبق، إلى شقة "حياة". كان المفتاح بجيب بنطالي، وكنتُ أتحسسه بأصابعي، إلاّ أنني لم أفكر باستخدامه، فضغطتُ على زر الجرس. تحركت درفة الباب وظهرت "حياة"... تكوين ضبابي لم أتبين ملامحه جيداً، لكنَّ صوتها بموسيقاه التي أدمنتها، كان يردد كلمات أغنية عتيقة تحكي شوق حقولٍ لنهر، قد حرّك داخلي رغبة الصمت...

ما أن انقطعت الأغنية، حتى هذى ذهني بعض كلمات لم أفكرْ بها... وفي لحظة مؤلمة بصمتها، أثناء ذلك اللقاء الحلم، سيطرت عليَّ روح غريبة بعنادها وقسوتها، فأبعدتني عن باب شقتها وأخرجتني من البناية حيث العتمة... لا أعرف أو أتذكر شيئاً بعد ذلك، لكن الشيء الذي أتذكره أن بعض الأشخاص رافقوني إلى شقتي وانصرفوا، تاركين سلطان الهذيان يعبث بي لساعات طوال.

منذ ذلك المساء، وثمة شيء يعبث بتفكيري ويشلّ حركتي ويسلبني طاقتي...

نهضتُ متثاقل الخطوات والجسد، لأجيب على الهاتف. كنتُ أريد الإجابة رغبةً في إسكات الهاتف بسرعة، لأعود إلى نومي... ما أن رفعتُ سماعة الهاتف، حتى سمعت تنهيدة نسائية كأنها تنفث ألم الصبر من صدرها...

"ألو... هل المتكلم، السيد كريم؟".

"نعم، أنا كريم، تفضلوا...".

"شكراً لكَ، أكلمك من قسم فحص الأورام في مستشفى ستوكهولم العام... الأمر يتعلق بالسيدة "حياة الشهاوي"... استمرت المرأة تتحدث، بينما فكرتُ بإغلاق الخط حالما سمعت اسم "حياة"... تلك الحبيبة التي خانت حبها مع صبي مراهق يصغرها كثيراً...

عرفتُ من المرأة على الطرف الآخر من الهاتف، أنها حاولت الاتصال بحياة على هاتف بيتها ليومين متتالين لكنها لم تفلح... وأن حياة كانت قد تركت رقم هاتفي كهاتف بديل، لذا فهي تتصل بي... تعهدتُ لها بمحاولة الاتصال شخصياً بحياة، ثم أردُ لها خبر عثوري عليها من عدمه... أثناء حديثي مع المرأة تذكرت أن "وسام الشيخ" يبحث عن "حياة" أيضاً...

سألتُ المرأة على الطرف الآخر، إن كان هناك أمر مهم يمكنني إخبار "حياة" به، فقالت إنَّ نتيجة فحص الثدي، قد ظهرت سلبية، خالية من أي مرض خبيث أو خطر، وما عليها إلّا أن تتصل شخصياً بالقسم حتى تأخذ موعداً مع الطبيبة المختصة...

أغلقتُ الهاتف وصورة "وسام الشيخ" الذي أعرفهُ جيداً ولم ألتقِ به شخصياً من قبل، تدور في ذهني ممزوجة بكلماته التي وصلتني عبر الهاتف مساء أمس وهو يسأل عن "حياة":

"تحياتي صديقي العزيز" قالها وأثار تعجبي، فلستُ صديقه، ومن الصعب جداً أن أكون عزيزاً... ثم أضاف وهو يحاول إضفاء الحميمية على كلماته: "أعرفُ أنكَ على علاقة حميمية مع السيدة "حياة"، وهي تحترمكَ وتقدركَ عالياً، لذا أخبرتها حين التقيتها مصادفةً منذ بضعة أيام، بأن لدي رغبة في دعوتها وإياك على عشاء تعارف في بيتي المتواضع، لكن، للأسف، تلفونها لا يستجيب، يبدو أنها مسافرة أو أي...". قاطعته، لأخبره بأنني لم أرَ حياة أو ألتقِ بها منذ فترة ليست بالقصيرة، ولا أعرف عنها شيئاً... اعتذر بأدب، وقبل أن يغلق الهاتف عرض عليَّ لقاء تعارف، "فربما نصبح أصدقاء" على حدّ قوله...

صار القلق يساورني، وصارت روحي تتوزع بين نسيان الموضوع والاحتفاظ بألمي وجرحي الغائر الذي سببته لي خيانتها، وبين بقايا حبّ ما زال راسخاً في قرارة الروح...

تأكدتُ من وجود مفتاح شقتها في حقيبتي، ثم ارتديت ملابسي وخرجتُ متوجهاً صوب بيتها... تردّدتُ أكثر من مرة وأنا في طريقي إليها، جلستُ على مصطبة الحديقة القريبة من البناية التي تضم شقتها، أفكر بأفضل السُبل للوصول إلى حقيقة وضعها... عمدتُ على تذكّر كلمات موظفة المستشفى، فرنّت في صندوق رأسي فكرة، يعود سبب

انبثاقها، إلى اتصال الموظفة بـ "حياة" ليومين متتاليين، هذا يعني أن "حياة" مختفية لأكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة...

توجهتُ إلى مركز الشرطة الخاص بمنطقة السكن، وأبلغتُ عن اختفاء السيدة "حياة" شارحاً للشرطي الجالس وراءَ مكتبه كلّ الأمر، ولم أوفّر أمر "وسام الشيخ" الذي حاول الاتصال بها منذ أكثر من أربعٍ وعشرين ساعة... حكَّ الشرطي فروة رأسه وسألني إن كنتُ قد حاولتُ طرق بابها والتأكد من وجودها، فأجبته بالنفي، وأخبرته بأنني أمتلك مفتاح شقتها، لكنني أخشى حدوث أي أمر طارئ، لذا طلبتُ منه فتح شقتها بحضوره شخصياً...

طلبَ مني الجلوس ريثما يجري اتصالاً هاتفياً، وبعد بضع دقائق، وقفَ واعتمر قبعته، مصرّحاً بجهوزيته لزيارة شقة السيدة المختفية. جلستُ إلى جانبه داخل سيارة الشرطة وأنطلق صوب العنوان...

حين وقفنا أمام باب الشقة، سلّمتهُ المفتاح، وبعد أن رنَّ الجرس ثلاث مرات بين الرنّة والأخرى قرابة الدقيقة، توجهَ إلى الباب المقابل، وضغط على زر الجرس، وما هي إلاّ لحظات حتى فُتح الباب ليظهر رجل بدين قصير القامة يقترب عمره من السبعين عاماً... ألقى الشرطي عليه التحية، وسأله عن آخر مرّة شاهدَ فيها جارته السيدة "حياة" فقال أنه لا يتذكر بالضبط: "ربما شهر، أو أقل قليلاً". قال الجملة ثم صمتَ ونظراته تفيض بسؤال ملح: "ما الذي حدث؟...". سأله الشرطي إن كانت لديه الرغبة في مرافقتنا لفتح باب الشقة ويكون شاهداً، فوافق... تركَ باب شقته موارباً ووقف خلفي حين همّ الشرطي بفتح الباب مستخدماً المفتاح الذي كان بحوزتي... دخلَ الشرطي أولاً وهو ينادي على "السيدة حياة"...

"يا إلهي!... ما هذه الرائحة الخانقة؟...".

فوضى لم أعتدها في شقة "حياة"، رائحة طعام فاسد خانقة، وبعض ملابس وأحذية منتشرة على أرضية الصالة... صورة والدة حياة مهشمة في زاوية الصالة القصية... "ولكن أين حياة؟". صحتُ بصوتٍ عالٍ دون إرادة مني...

"يبدو أن السيدة قد غادرت شقتها منذ ثلاثة أو أربعة أيام كما يبدو". قال الشرطي ذلك، ثم أشار إلى أن القيء المتيبس على الكرسي داخل الحمام، قد يكون السبب في ذهابها إلى المستشفى: "ربما تكون هناك!". قال الشرطي مبتسماً...

بينما كان الشرطي يتفحص الشقة، وبجسدٍ مرتجفٍ، وقفتُ ماسحاً زوايا الصالة بنظري، متفحصاً كل شيء أعرفه جيداً، فما من شيء قابع تحت سقف الصالة إلاّ وكانت لأصابعي حصة فيه، أنا من شاركَ في ترتيب كل ما تحتويه شقة "حياة".

ما أن وقع نظري على دفتر مذكراتها، حتى اتجهتُ نحوه، كان يرقد على أربعة دفاتر أخرى... كنتُ أعرف أنها تكتب مذكراتها بشكل يومي تقريباً، وأحياناً كانت تكتب بحضوري، وهي تخبرني في كل مرة أن الدفتر الذي تدون عليه يومياتها هو "الدفتر الصديق" الذي يحتوي أسرارها وأفكارها وصور أغلب من مروا بحياتها... كان الدفتر مفتوحاً على صفحته الأخيرة، وعلى الصفحة تلك، كانت ورقة صغيرة لا تنتمي إليه دوّن عليها بقلم رصاص بعض أسطر... أغلقتُ الدفتر وصارت الورقة داخله، نظرتُ باحثاً عن السيد الشرطي فلم أجده، ربما كان يتفحص الغرفة... دسستُ الدفاتر في حقيبتي ووقفتُ منتظراً...

أخبرني الشرطي ونحن نخرج من الشقة، بأنه سيحتفظ بمفتاح الشقة، ثم أضاف قائلاً: "سأعود إلى مكتبي كي أحرر بلاغاً باختفاء السيدة منذ ثلاثة أيام على أقل تقدير، وهذا يعني أن لجنة "تحقيق" ستزور الشقة

لتتفحصها، وقد يستدعي ذلك تواجدكَ أثناء زيارة اللجنة..."'. ثم طلبَ رقم هاتفي، وحين أمليته عليه، قام بتدوينه على ورقة من دفتر صغير...

(26)

عام ونصف مضى على اختفاء "حينانا" وما من إشارة تنير الطريق إليها، عام ونصف، وأنا أقرأ مذكراتها علّني أجد ما يفسر لي سرّ اختفائها... وفي كلّ مرة أكون أمام الصفحة الأخيرة من دفترها الخامس، أتذكر تفاصيل ذلك اليوم الذي هزَّ كياني وأدخلني دوامة التيه وفقدان بوصلة العقل... كان يوماً قاسياً بتلك الرائحة القاسية... أتذكر جيداً:

كان كل شيء في الصالة، يشير إلى وليمة قد تمت بحضور العديد من الأشخاص الوهميين، وكانت "حياة" الشخص "الحقيقي" الوحيد بينهم... الطاولة عامرة بالطعام الذي لم يذقهُ أحد. أما الشراب، فقد كان الماء، وثلاث قناني من الويسكي "تشيفاز ريكال"، وقد نفدَ منه قرابة القنينة والنصف، وكانت بعض الكؤوس تحتوي على القليل منه... الصحون أمام الكراسي حيث الطاولة، تحتوي على الطعام، لكنّ الشَوْكات والسكاكين نظيفة جداً ولم تمسس الطعام... المدعوون إلى الوليمة كانوا سبعة رجال... صور مكبّرة بالأبيض والأسود تم لصقها على الكراسي، ومثلها، كرسيٌ آخر كان قابعاً تحت قرص الحمام الرشاش المغلق، تظهر على قاعدته آثار قيء متيبس...

للوهلة الأولى، حين تفحصتُ آثار الوليمة جيدًا، ظننتُ أن "حياة"، وبعد أن هجرتُها غاضباً منكسراً، قد أولمت لمن عشقها، حتى تختار مع من تعيش ذكرياتها على طريقة المرأة في "بلاد الغال" فترة الحكم الروماني، لكن ظني تبدد حين لم أجد صورتي أو صورة "فراس" بين صور المدعوين الملصقة على الكراسي...

أتصور أنَّ "حياة" قد حاكمت أهم من مرَّ بحياتها من الرجال وتركَ أثره البالغ جرحاً عميقاً، في تلك الأمسية، حاكمت صورهم مستحضرة أرواحهم، وقد رفعت وشربت نخب كلّ منهم أمام الآخرين لتقول له كلمتها المؤثرة... أعتقد أنها كانت تستعيد حياتها بمحاكمة عادلة، فشربت نخبهم كلهم دون أن تنتبه إلى نخبها الخاص... وذلك ما أكده لي "الدفتر الصديق" الخامس، حيث صفحاته الأخيرة...

فبعد أن وصلتُ شقتي، حزيناً خائفاً، تسيطر على ذهني العديد من الأفكار المرعبة التي قد يكون أحدها السبب وراء اختفاء "حياة"، جلستُ حيث الأريكة وأخرجتُ الدفتر الخامس، لكن غايتي كانت الورقة الصغيرة المنفردة التي لاحظتها على الصفحة الأخيرة... فتحت الدفتر على صفحته الأخيرة وأخذت الورقة الصغيرة، وما أن قرأتُ كلماتها المخطوطة بقلم رصاص، حتى أصبت بالذهول... صورة مرعبة ربما مأخوذة من كابوس أو حلم مزعج، ثم أبيات شعرية مأخوذة من أسطورة عشتار وهي تنزل حيث العالم السفلي:

"طيور ضخمة مذبوحة متدلية الرؤوس، تطير فوق رأسي دون دماء..."

من "الأعلى العظيم" تاقت إلى الأسفل العظيم

من الأعلى العظيم تاقت الربة إلى الأسفل العظيم

من الأعلى العظيم تاقت "إنانا" إلى الأسفل العظيم

هجرت سيدتي السماء، وتركت الأرض

"إنانا" هجرت السماء والأرض

إلى العالم الأسفل قد هبطت"[3]

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــ

***

3مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة – سوريا وبلاد الرافدين - فراس السواح – دار الكلمة، بيروت 1988، ص316، (عن كتاب – الميثولوجيا السومرية – ن.س. كريمر 1961 (Sumerien Mythology. Harper and Row،N.S. Kramer

حياة.. حينانا

"حياة.. حينانا" تجربة سردية متقنة البناء والفكرة، تجربة تعتمد الدراسة التحليلية المعمّقة لتركيبة الشخصية الأنثوية. دراسة سيسيولوجية وسايكولوجية عن تركيبة الشخصية الأنثوية التي عاشت صراعات بلد الحروب والكوارث، تحت خيمة قانون التقاليد والأعراف الاجتماعية، الواقفة حتماً بوجه تحرر المرأة، ومحاولتها الانفلات صوب الحرية. فالرواية تشكل دعوة لتحرر المرأة "الفتاة" من قيود كبّلت حريتها طويلاً...

ولعل إشارة الإهداء التي جاءت مفتتحًا للرواية تشير إلى ذلك بوضوح:

" إلى كل مَنْ اكتشفتْ سحر عالمها النديّ، أمام مرآة، وهي تستنشق رائحة الحرب...".

فـ"حياة" بطلة الرواية، هي عشتار بابل، وهي "إنانا" سومر ابنة الرافدين مصدر الخصب والمفعمة بالحب والقوة والتمرد والرغبة الطافحة، هي العاشقة اللعوب التي تمنح جسدها وحبها لكل من يستحق من عشاقها، وهي من تختارهم وفق ما تمليه عليها شهوتها، وهي الإلهة المعبودة والمقدسة، وهي العابرة للرجال برغبتها وليسوا هم من يعبرونها.

"كلما كبرتُ، كانت الحرب تكبر... كلما اكتنز جسدي شباباً وحيوية، كانت الأرض تكتنز شباباً أيضاً، ولكن بصورة جثث اغتيلت أحلامها..."

حسين السكّاف
ناقد وروائي وصحفي

حائز على جائزة كتارا للرواية العربية 2017

له العديد من المقالات النقدية في الصحافة العربية.

صدر له:
* ثلاث روايات.
* مجموعتان قصصيتان.
* مسرحيتان.
* كتابان نقديان في مجال الرواية.

ISBN: 978-9923-36-130-6

dar_fadaat@yahoo.com
@darfadaat

فضاءات للنشر والتوزيع

منشورات أوتار
AWTAR PUBLISHING
awtarpub@gmail.com

9 789923 361306

painting by isabelle malmezat